

نفساير أبي السَّعْوَدِ

أو

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد الهامدى الحنفى

٥٩٨٢ - ٥٩٠٠

تحقيق

عميد الفادر أحمد عطا

تفسير أبي السَّحَوْنِ

أو
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى

٨٩٠٠ - ٨٩٨٢

تحقيق

عبد الفادر أحمد عطا

الجزء الأول

الدراسة العامة مكتبة الأنطون سكندرية
رقم التسجيل
٣٤٩٩٤
رقم التحويل

بطلب من الناشر

مكتبة الرياض الحديثة
والرياضات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمن

مكية ، وآياتها خمس أو ثمان وثمانون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم) بتفخيم الألف وتسكين الميم وقرىء بإمالة الألف وياخراجها بين بين وبفتح الميم لالتقاء الساكنين أو نصبها بإضمار اقرأ ونحوه ومنع الصرف للتعريف والتأنيث أو للتعريف وكونها على زنة قاييل وهاييل وبقية الكلام فيه وفي قوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ كالذي سلف في آلم السجدة وقوله تعالى ﴿ من الله العزيز العليم ﴾ كما في مطلع سورة الزمر في الوجوه كلها ووجه التعرض لنعنى العزة والعلم ما ذكر هناك ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ﴾ إما صفات آخر لتحقيق ما فيها من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصص وأريد بشديد العقاب مشدده أو الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس أو إبدال وجعله وحده بدلاً كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعاين لأن الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها

((لا إله إلا هو)) فيجب الإقبال السكلى على طاعته فى أوامره ونواهيه ((إليه المصير)) فحسب لا إلى غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً فيجازى كلا من المطيع والعاصى ((ما يجادل فى آيات الله)) أى بالطعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لإدخال الحق كقوله تعالى (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) .

((إلا الذين كفروا)) بها وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلاً عن الطعن فيها وأما الجدل فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها السكلية وتوضيح مناهج الحق فى مضائق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطال شبه أهل الزبغ والضلال فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام إن جدالاً فى القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال وإنهاء فى قوله تعالى ((فلا يغركم تقلبهم فى البلاد)) لترتيب النهى أو وجوب الانتهاء على ما قبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لا شىء أهدى منه عند الله تعالى ولا أجلب لحسran الدنيا والآخرة فإن من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فإنهم مأخوذون عما قليل أخذ من قبلهم من الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى ((كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم)) أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود وأضرابهم ((وهمت كل أمة)) من تلك الأمم الغاتية ((برسولهم)) وقرىء برسولها ((لياخذوه)) ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب أو قتل من الأخذ بمعنى الأسر ((وجادلوا بالباطل)) الذى لا أصل ولا حقيقة له أصلاً ((ليدحضوا به الحق)) الذى لا يحيد عنه كما فعل هؤلاء [المذكورون] (١) ((فأخذتهم)) بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر ((فكيف كان عقاب)) الذى عاقبتهم به فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين ولأخذن هؤلاء أيضاً لإتجادهم فى الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما يلى عنه قوله تعالى :

﴿ وكذلك حقّت كلمة ربك ﴾ أى كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسولهم المجادلة بالباطل لإدحاض الحق به وجب أيضاً ﴿ على الذين كفروا ﴾ أى كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينهى عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام فإن ذلك للإشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من أحكام تربيته التي من جملتها نصرته عليه الصلاة والسلام وتعذيب أعدائه وذلك إنما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الأمم المهلكة وقوله تعالى ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ فى حيز النصب بحذف لام التعليل أى لأنهم مستحقوا أشد العقوبات وأظلمها التي هي عذاب النار وملازموها أبداً لكونهم كفاراً معاندين متحزبين على الرسول عليه الصلاة والسلام كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة فهم لسائر فتنون العقوبات أشد استحقاقاً وأحق استجابة وقيل هو فى محل الرفع على أنه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار أى كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل السكاف على التقديرين النصب على أنه نعت لمصدر محذوف ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام وأولهم وجوداً وحماساً وإياه وحفيظهم حوله مجاز عن حفظهم وتديبرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل جلاله ^(١) ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره . .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ والجملة استئناف مسوق لتسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن أشرف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين أى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى ﴿ ويؤمنون به ﴾ إيماناً حقيقاً بحالهم والتصریح به مع الغنى عن ذكره رأساً

لإظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله والإشعار بعلّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأنمها وأدعى الدواعي إلى النصيح والشفقة وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم بإيدان بكال اعتنائهم به وإشعار بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول . روى أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماء في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضع ، وفي الحديث : إن الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائرهم ، وقيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيانهم على الشمايل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ﴿ربنا﴾ على إرادة القول أي يقولون ربنا على أنه إما بيان لاستغفارهم أو حال .

﴿وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك فأزِيل عن أصله للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومهما وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا والفاء في قوله تعالى ﴿فاغفر للذين تابوا واتبوا سبيلك﴾ أي للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد ﴿ربنا وأدخلهم﴾ عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجوار ﴿جنات عدن التي وعدتهم﴾ أي وعدتهم بإياها وقريه

جنة عدن ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى صلاحاً مصححاً لدخول الجنة فى الجملة وإن كان دون صلاح أصولهم وهو عطف على الضمير الأول أى وأدخلها معهم هؤلاء ليتيم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم أو على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل لاذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى (ألحقنا بهم ذريتهم) بأن يكونوا أعلى درجة من ذريتهم قال سعيد بن جبیر يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبى أين ولدى أين زوجى فيقال إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول إني كنت أعمل لى ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وسبق الوعد بالإدخال والإحساك لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار زيادة السكرامة والثواب والأول هو الأولى لأن الدعاء بالإدخال فيه صريح وفى الثانى ضمنى وقرئ صلح بالضم وذريتهم بالافراد ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أى الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور ﴿ الحكيم ﴾ أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التى من جملتها إنجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها .

﴿ وقهم السيئات ﴾ أى العقوبات لأن جزاء السيئة سيئة مثلها أو جزاء السيئات على حذف المضاف وهو تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالاتباع أو المعاصى فى الدنيا فعنى قوله تعالى ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما سألوا المسبب ﴿ وذلك ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته أو إليها وإلى الوقاية وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشعار ببعد درجة المنيار إليه ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذى لا مطمع وراءه لطامع ﴿ إن الذين كفروا ﴾ شروع فى بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار بعد ما بين فيما سبق أنهم أصحاب النار ﴿ ينادون ﴾ أى من مكان بعيد وهم فى النار وقد مقتوا أنفسهم الأماراة بالسوء التى وقعوا فيها وقعوا باتباع هواها أو مقت بعضهم بعضا من الأحباب كقوله تعالى (يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا) أى أبغضوها أشد البغض وأنكروها أبلغ الإنكار وأظهروا ذلك على رؤس الأشهاد فيقال لهم عند

ذلك ﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أى لمقت الله أنفسكم الأماره بالسوء أو مقته إياكم فى الذنبا ﴿إذ تدعون﴾ من جهة الأنبياء ﴿إلى الإيمان﴾ فتأبون قبوله ﴿فتبكمفرون﴾ إبتاعا لأنفسكم الأماره ومسارعة إلى هواها أو اقتداء بإخلائكم المضلين واستحبابا لإرائهم أكبر من مقتكم أنفسكم الأماره بالسوء أو ممن مقت بعضكم بعضا اليوم فإذا ظرف للمقت الأول وإن توسط بينهما الخبر لما فى الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر أى مقته إياكم إذ تدعون وقيل بمفعول لاذكروا والأول هو الوجه وقيل كلا المقتين فى الآخرة وإذ تدعون تعليل لما بين الظرف والسبب من علاقة الزوم والمعنى لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقتكم أنفسكم لما كنتم تدعون إلى الإيمان فتبكمفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم أضراهم بما لا داعى إليه .

﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ صفتان لمصدرى الفعلين المذكورين أى إمامتين وإحياءتين أو موتتين وحياتين على أنهما مصدران لهما أيضا بجذف الإوائد أو لفعلين يدل عليهما المذكوران فإن الإمامة والإحياء ينبئان عن الموت والحياة حتما كما أنه قيل أمتنا فتنا موتين اثنتين وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال :

وعصه دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف .
أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ قيل أرادوا بالإمامة الأولى خلقهم أمواتا وبالثانية إمامتهم عند انقضاء آجالهم على أن الإمامة جعل الشيء عادى الحياة أعم من أن يكون بإنشائه كذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أو مجلفهم كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياء الأول وإحياء البعث وقيل أرادوا بالإمامة الأولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالإحياءين ما فى القبر وما عند البعث وهو الأنسب بحالهم وأما حديث لزوم الزيادة على النقص ضرورة تحقيق حياة الدنيا فدفع لسنن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزومها وانقضائها وانقطاع آثارها وأحكامها بل بأن مقصودهم لإحداث الاعتراف بها كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطبق به قولهم :

﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ والالتزام بالعمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك إلى ما علقوا به إظهارهم الفارغة من الرجوع إلى الدنيا كما قد صرحوا به حيث قالوا (فارجعنا لعمل صالحا إما موقنون) وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿فل إلى خروج من سبيل﴾ مع نوع استبعاد له واستشعار يأس منه لا أنهم قالوه بطريق القنوط البهت كما قيل ولا ريب في أن الذي كان ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصي ليس إلا الإحياء بعد الموت وأما الإحياء الأول فلم يكونوا ينكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أن الاعتراف يهديهم نفعا وإنما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقف حياة القبر عليها وكذا حال الموتة في القبر فإن مقصدهم الأصلي هو الاعتراف بالإحياءين وإنما ذكروا الإيمانتين لترتيبهما عليهما ذكرًا حسب ترتيبهما عليهما وجودا وتنكير سبيل للإيهام أي من سبيل ما كيفها كان وقوله تعالى :

﴿ ذاكم ﴾ الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من أعمالهم السيئة أي ذاكم الذي أنتم فيه من العذاب مطلقا لا مقيدا بالخلود كما قيل ﴿بأنه﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿إذا دعى الله﴾ في الدنيا أي عبد ﴿وحده﴾ أي منفردا ﴿كفرتم﴾ أي بتوحيده ﴿ولأن شركك به تؤمنوا﴾ أي بالإشراك به وتسارعوا فيه وفي إيراد إذا وصيغة الماضي في الشرطية الأولى وأن وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك ﴿فالحكم لله﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة ﴿الغلي الكبير﴾ الذي ليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لحكم إلى الخروج أبدا ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالالوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا به وجهين فتوجدوه تعالى وتخصوه بالعبادة ﴿وينزل﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿لكم من السماء رزقا﴾ أي سبب رزق وهو المطر والفرادة بالثاكير مع كونه من جملة الآيات الدالة

على كمال قدرته تعالى لتفرد به نوان كونه من آثار رحمته وجلال نعمته الموجبة
للشكر وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الإراة والتنزيل واستمرارهما
وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة ﴿ وما يتذكر ﴾ بتلك
الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها ﴿ إلا من ينيب ﴾ إلى الله تعالى ويتفكر
فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة
الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر
والاعتاظ ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى إذا كان الأمر كما ذكر من
اختصاص التذكر بمن ينيب فأعبدوه أيها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب
إنابتهم إليه تعالى وإيمانكم به ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك وعاظهم لإخلاصكم
﴿ رفيع الدرجات ﴾ نحو بديع السموات على أنه صفة مشبهة أضيفت
إلى فاعلها بعد النقل إلى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون
من إضافته اسم الفاعل إلى المفعول بعيد في الاستعمال أى رفيع درجات ملائكته
أى معارجهم ومصاعدهم إلى العرش ﴿ ذو العرش ﴾ أى مالكه وهما خبران
آخران لقوله تعالى هو أخبر عنه بهما لإيداعنا بعلو شأنه تعالى وعظم سلطانه
الموجبين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له إما بطريق الاستشهاد بهما
عليهما فإن ارتفاع معارج ملائكته إلى العرش وكون العرش العظيم المحيط
بأكفاف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو
شأنه وعظم سلطانه فى غاية لا غاية وزامها وإما بجمع لهما عبارة عنهما بطريق
الجماع المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيداً لما يعقبهما من قوله
تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره ﴾ فإنه خبر آخر لما ذكر منبىء عن إنزال
الروح الروحاني الذى هو الوحي بعد بيان إنزال الرزق الجسماني الذى هو المطر
أى ينزل الوحي الجارى من القلوب منزلة الروح من الأجساد وقوله تعالى
من أمره بيان للروح الذى أريد به الوحي فإنه أمر بالخير أو جال منه أى خلق
كونه ناشئاً ومبجى من أمره أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول
مع بعض صيغته أى الروح السكاين من أمره أو متعلق يلقى ومن السببية كالباء

مثل ما في قوله تعالى بما خطيئاتهم أى يلقى الوحى بسبب أمره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم ﴿ لينذر ﴾ أى الله تعالى أو الملقى عليه أو الروح وقرىء لينذر على أن الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام أو الروح لأنها قد تؤنث ﴿ يوم التلاق ﴾ إما ظرف للمفعول الثانى أى لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يتلاق فيه الأرواح والأجسام وأهل السموات والأرض أو هو المفعول الثانى انشاعا أو أصالة فإنه من شدة هول وفظاعته حقيق بالإندار أصالة وقرىء لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم ﴿ يوم هم بارزون ﴾ بدل من يوم التلاق أى خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ليكون الأرض يومئذ قاعا صافصفا ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث : يحشرون عراة حفاة غرلا ، وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشى الأبدان أو أعمالهم وسرائرهم ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وإزاحة لما كان يتوهمه المتوهمون فى الدنيا من الاستتار توهمها باطلا أو خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون أى لا يخفى عليه تعالى شيء ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة .

﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنفة يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ أى ينادى مناد لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد فى أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يصب الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادى مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع أسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الأفاعيل بقبضة القدرة الإلهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) إلخ إما من تمامة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التى هى الحكم سوى والقضاء الحق أو حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب أى تجزى كل نفس من

النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير أو شر ((لا ظلم اليوم)) بتقص ثواب أو زيادة عذاب ((إن الله سريع الحساب)) أى سريع حسابه تماما إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن فيحاسب الخلائق قاطبة فى أقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى إذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى إلخ فإن كون ذلك اليوم بغيته يوم التلاقى ويوم البروز بما يوم استبعاد وقوع الكل فيه أو سريع مجيئا^(١) فيكون تعليلا للإنذار .

((وأنذرهم يوم الآزفة)) أى القيامة سميت بها لأزوفها وهو القرب غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت وقبل الخطاة الآزفة وهى مشاركة أهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما فى قوله تعالى (قلولا إذا بلغت الحلقوم) وقوله (كلا إذا بلغت التراقي) . وقوله تعالى ((إذ القلوب لدى الحناجر)) بدل من يوم الآزفة فإنها ترتفع من أما كنها فتلتصق بمحلوهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت ((كاظمين)) على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى إذ الأصل قلوبهم أو من ضميرها فى الظرف وجمع السلامة باعتبار أن الكظم من أحوال العقلاء كقوله تعالى (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أو من مفعول أنذرهم على أنها حال مقدرة أى أنذرهم مقديرا كظمهم أو مشارفين الكظم .

((ما للظالمين من حميم)) أى قريب مشفق ((ولا شفيع يطاع)) أى لا شفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله : على لاجب لا يهتدي بمنارهم . والضمائر إن عادت إلى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتيسير عليهم بالظلم وتعليل الحكيم به ((يعلم خائنة الأعين)) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه أو خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية ((وما تخفى الصدور)) من الضمائر والأسرار والجملة خبر

آخر مثل يلقي الروح للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجواهر
 ﴿والله يقضى بالحق﴾ لأنه المالك الحاكم على الإحلاق فلا يقضى بشيء إلا وهو
 حق وعدل ﴿والذين يدعون﴾ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿لا يقضون بشيء﴾
 يحكم بهم لأن الجاد لا يقال في حقه يقضى أو لا يقضى. وقرئ تدعون على
 الخطاب التفاتاً أو على الضمير قل ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لعلبه تعالى
 بخاتمة الآيتين وقضائه بالحق ووعد لهم علي ما يقولون ويفعلون وتمريضهم بما
 ما يدعون من دونه.

﴿أولم يسيرا في الأرض فيظفروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾
 أي ما ل حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم كعاد وثمود وأضرابهم
 ﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ قدرة وتمسكنا من التصرفات وإنما جرى بضمير
 الفصل مع أن حقه للتوسط بين معرفتين لمضاهاة فعل من المعرفة في امتناع
 دخول اللام عليه وقرئ أشد منكم بالسكاف ﴿وأنارا في الأرض﴾ مثل القلاع
 الحصينة والمدائن المنيعة وقيل للمعنى وأكثر أنارا كقوله متقلداً سيفاً ورجلاً
 ﴿فأخذهم الله بنوبهم﴾ أخذوا وببلا ﴿وبما كان لهم من الله من واق﴾ أي من
 واق يقسم عذاب الله ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من الأخذ ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم
 ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي المعجزات أو بالأحكام الظاهرة
 ﴿فكفروا فلأخذهم الله إنه قوي﴾ متمكن بما يريد غاية التمكين ﴿شديد العقاب﴾
 لا يوقه عند عقابه يعقابا ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهي معجواته
 ﴿وسلطان مبين﴾ أي وحجة قاهرة وهي إمام عين الآيات والعظيم المتغلب
 الغوليين وإمام بعض مفاهيرها كالمصا أفرقت بالذكر مع اندراجها تحت
 الآيات لا لاعتدائها أفراد حين بل لومحال به مع دخولها في الملائكة عليهم السلام
 ﴿إلى فزعون لهايمان يوقارون﴾ فقالوا ساجد كذاب ﴿أي﴾ فيما أغلوه بين
 المعجزات وفيما لدولة من رسالة رب العالمين ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾
 وهو بما ظهر على عيانتهم المعجزات القاهرة ﴿قلوا أقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾
 واتبعوا أنسابهم ﴿كما قال فرعون من قبل أن يقتل﴾ أبناءهم واتبعوا نسبه من أجدادهم

عليهم ما كنتم تفعلونه أولا وكان فرعون قد كلف عن قتل الولدان فلما بعث عليه الصلاة والسلام وأحس بأنه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظا وحنقا وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرتهم فلما منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أى فى ضياع وبطلان لا يغنى عنهم شيئا وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام إما للعهد والإظهار فى موقع الإضرار لذمهم بالكفر والإشعار بعلّة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض جيء به فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهموه من الإبراق والإرعاد واضمحلاله بالمرّة.

﴿وقال فرعون ذرونى أقتل موسى﴾ كان ملؤه إذا هم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فإنه أمل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة وقولهم إذا قتلته أدخلت على الناس شبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت إلى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارتة أنه كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يماجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وإيهاما أنهم هم الكافون له عن قتله ولولا هم لقتله وما كان الذى يكفه إلا ما فى نفسه من الفزع الهائل وقوله ﴿وليدع ربه﴾ تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه أخوف ما يخافه ﴿لأنى أخاف﴾ إن لم أقتله ﴿أن يبدل دينكم﴾ أن يغير ما أتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن عبادته وعبادة الأصنام لتقريبهم إليه ﴿أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾ ما يفسد دنياكم من التخابر والتهاج إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرىء بالواو الجماعة وقرىء بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرىء يظهر بتشديد الظاء والهاء من يظهر بمعنى يظهر أى تتابع وتعاون ﴿وقال موسى﴾ أى لقومه حين سمع بما تقولون اللعين من حديث قتله عليه الصلاة والسلام ﴿لأنى عدت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ صدر عليه الصلاة والسلام بكلامه بأن:

تأكيده وإظهار المزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية لأنهما الذي يستدعيه وأضافه إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته في العياد به تعالى والتوكل عليه فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعانة والإشعار بعلّة القساوة والجرأة على الله تعالى وقرئ: عدت بالإدغام.

مؤمن آل فرعون

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون) قيل كان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان إسرائيلياً أو غريباً موحداً (يكنم إيمانه) أى من فرعون وملئه (أتقتلون رجلاً) أتقتصدون قتله .

(أن يقول) لأن يقول أو كراهة أن يقول (ربى الله) أى وحده من غير روية وتأمل في أمره (وقد جاءكم بالبينات) والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها (من ربكم) أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجاً عليهم واستنزاهاً لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال (فإن يك كاذباً فعليه كذبه) لا يتخطاه وبالم كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله (وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) أى إن لم يصبكم كله فلا أقل من إصابة بعضه لا سيما إن تمرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شق التردد كونه كاذباً أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كانه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم وتفسير البعض بالكل مستقلاً بقول لبيد :

تراك أميكة إذا لم أر ضيها (أو يرتبط بعض النفوس حكامها

مردود لما أن مراده بالبعض نفسه) (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه

الله تعالى إلى البينات ولما أبدى بتلك المعجزات وثباتهما إن كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ولعله أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعق الأول لتلين شكيمةهم وقد عرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة ﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين﴾ غالبين عابدين على بني إسرائيل ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فمن نصرنا من بأس الله﴾ من أخذه وعذابه ﴿إن جاءنا﴾ أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لباس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد وإنما نسب ما يسرم من الملك والظهور في الأرض اليهم خاصة ونظم نفسه في سلكهم فيما يسرون من محبة بأس الله تعالى تطمينا لقلوبهم وإيذا فاء بأنه أصبح لهم سماع في تحصيل ما يجدونهم ودفع ما يريدونهم سعيه في حق نفسه ليتأثروا بنصحه ﴿قال فرعون﴾ بعد ما سمع نصحه ﴿ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إلا ما أرى﴾ وأبصروه من قتله ﴿وما أهدى لكم﴾ بهذا الرأي ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ أي الصواب أولا أعلمكم إلا بما أعلم ولا أمرتكم خلاف ما أظفروا ولقد كذب حيث كان مستشعرا بالخوف الشديد والكثرة كان يتجدد ولولاه لما استشار أحدا أبدا وقرئ بتشديد الشين للبالغة من رشد كعلام أو من رشد كعباد لأن أرشد كجار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو للتسبة إلى الرشاد كواجبات غير منظور فيه إلى فعل ﴿وقال الذي آمن﴾ مخاطبا لقومه ﴿يا قوم إنى أخاف عليكم﴾ في تكذيبه والتعرض له بالبدعة ﴿مثل يوم الأحزاب﴾ مثل أيام الأمم الماضية يعني وقائعهم وجمع الأحزاب منع التفتير أعني عن جميع اليوم ﴿مثل ذابت قوم نوح وعاد وثمود﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿والذين من بعدهم﴾ كقوم لوط ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يحل الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى ﴿وما من لك بظلام للبيد﴾ لأن الحق فيه إرادة ظلم ما فينتفى

﴿الذين آمن﴾ إلى الأحزاب قومه.

الظلم بطريق الأولوية ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ خوفهم بالعذاب الآخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى ويوم التناد يوم القيامة لأنه ينادى فيه بعضهم للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثبور أو ينادى أصحاب الجنة وأصحاب النار حسبما حكى في سورة الأعراف وقرئ بتشديد الدال وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) وعن الضحاك إذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا فينادونهم موج بعضهم في بعض إذ سمعوا مناديا أقبلوا إلى الحساب ﴿يوم تولون مدبرين﴾ بدل من يوم التناد أى منصرفين عن الموقف إلى النار أو فارين منها حسبما نقل أنفا ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ يعصمكم من عذابه والجملة حال أخرى من ضمير تولون ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يهديه إلى طريق النجاة .

﴿ولقد جاءكم يوسف﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أن فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصديق ﴿من قبل﴾ من قبل موسى ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾ من الدين ﴿حتى إذا هلك﴾ بالموت ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ ضمنا إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسول مع الشك في رسالته وقرئ أن يبعث الله على أن بعضهم يقرر بعضا بنفى البعث ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يضل الله من هو مسرف﴾ في عصيانه ﴿مرتاب﴾ في دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ بدل من الموصول الأول أو بيان له أو صفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين ﴿بغير سلطان﴾ متعلق بجادلون أى بغير حجة صالحة للتمسك بها في الجملة ﴿أثام﴾ صفة سلطان ﴿كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا﴾ فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفى كبر ضمير يعود إلى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل إلى الجدل المستفاد من يجادلون ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾

فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياح والمجادلة بالمبطل وقرىء بتكوين قلب ووصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعضهما (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا) أى بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) أى الطرق (أسباب السموات) بيان لها وفى إيهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها .

(فأطلع إلى إله موسى) بالنصب على جواب الترجى وقرىء بالرفع عطفاً على أبلغ ولعله أراد أن يبنى له رسداً فى موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه أو أن يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن إخباره من إله السماء يتوقف على إخلائه عليه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان وما ذاك إلا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنباطه .

(ولأنى لأظنه كاذبا) فيما يدعيه من الرسالة (وكذلك) أى ومثل ذلك الذين البليغ المفرط (زين لفرعون سوء عمله) فأنهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال (وصد عن السبيل) أى الرشاد والفاعل فى الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرىء وصد على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التوجيهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى خسار وهلاك أو على أنه من صد حدوداً أى أعرض وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليه وقرىء وصد على أنه عطف على سوء عمله وقرىء وصدوا أى هو وقومه (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام (يا قوم اتبعونى) فيما دلتكم عليه (أهدكم سبيل الرشاد) أى سبيلا يصل سالكه إلى المقصود (إنما يؤفوه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع (أى تمتع يسير لسرعة زوالها أجل لهم أولاً ثم فسر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاق إليها رأس كل شر ومنه تشعب

﴿ لا جرم ﴾ لا رد لما دعوه إليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى ﴿ أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ أى حق ووجب عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أى كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما أن بدا من لا بد فعل من التبديد أى التفريق والمعنى لا قطع لبطلان ألوهية الأصنام أى لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقاً

ويؤيده قولهم لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل أخوان
 كرشد ورشد ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أى بالموت عطف على أن ما تدعوننى
 داخل فى حكمه وكذا قوله تعالى ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى فى الضلال والطغيان
 كالإشراك وسفك الدماء ﴿ هم أصحاب النار ﴾ أى ملازموها ﴿ فستذكرون ﴾
 وقرئ فستذكرون أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاناة العذاب ﴿ ما أقول
 لكم ﴾ من النصائح ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ قاله لما أنهم كانوا توعدوه
 ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ فيجرس من يلوذ به من المكاره ﴿ فوқаه الله سيئات
 ما مكروا ﴾ شدائد مكرم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم
 قيل نجما مع موسى عليه السلام ﴿ وحق بأل فرعون ﴾ أى بفرعون وقومه
 وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك
 وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما أنه فر إلى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه
 يهلى والوحش صفوف حوله فرجموا رعبا فقتلهم ﴿ سوء العذاب ﴾ الفرق
 والقتل والنار .

﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية
 سوء العذاب أو النار خبر مبتدأ محذوف كأن قائلًا قال ما سوء العذاب فقيل
 هو النار ويعرضون استئناف للبيان أو بدل من سوء العذاب ويعرضون حال
 منها أو من الآل ولا يشترط فى الحقيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى
 يرد أن آل فرعون لم يهوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلائهم بها من قبيل رجوع
 ما هموا به عليهم بل يكفى فى ذلك أن يكون عما يطلق عليه اسم السوء وقرئت
 منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون فإن
 عرضهم على النار بإحراقهم بها من قولهم عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا
 به وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أن أرواحهم فى أجواف
 طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا إلى يوم القيامة وذكر الوقتين إما
 للتخصيص وإما فيما بينهما فالله تعالى أعلم بحالهم وإما للتأييد هذا ما دامت الدنيا
 ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال للبلائكة ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾

أى عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وقرئ ادخلوا من الدخول أى يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب (وإذ يتحاجون فى النار) أى واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء) منهم (للذين استكبروا) وهم رؤساؤهم (إنا كنا لكم تبعاً) أتباعاً كخدم فى جمع خادم أو ذوى تبع أى أتباع على إضمار المضاف أو تبعاً على الوصف بالمصدر مبالغة (فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار) بالدفع أو بالحمل ونصيباً منصوب بمضمر يدل عليه مغنون أى دافعون عنا نصيباً الخ أو بمغنون على تضمينه معنى الحمل أى مغنون عنا حاملين نصيباً الخ أو نصب على المصدرية كشيئاً فى قوله تعالى (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) فإنه فى موقع غناء فكذلك نصيباً (قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى نحن وأنتم فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا لأغنيانا عن أنفسنا وقرئ كلا على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف إليه ولا مساغ لجملة حالا من المستكن فى الظرف فإنه لا يعمل فى الحال المتقدمة كما يعمل فى الظرف المتقدم فإنه يقول كل يوم لك ثوب ولا تقول جديداً لك ثوب (إن الله قد حكم بين العباد) وقضى قضاء متقنا لا مرد له ولا معقب لحكمه .

(وقال الذين فى النار) من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ضاقت حيلهم وعبت بهم عليهم (لحزنة جهنم) أى للقوام بتعذيب أهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتحويل والتفطيع أو لبيان محلهم فيها بأن تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً) أى مقدار يوم أو فى يوم ما من الأيام على أنه ظرف لا معيار شيئاً (من العذاب) واقصرارهم فى الاستدعاء على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأساً أو تخفيف قدر كثير منه فى زمان مديد لأن ذلك عندهم مما ليس فى حيز الإمكان ولا يكاد يدخل تحت

أما نهم ﴿ قالوا ﴾ أى الحزنة ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أى ألم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله تعالى ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة ﴿ قالوا بلى ﴾ أى أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى ﴿ بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ والفاء فى قوله تعالى ﴿ قالوا فادعوا ﴾ فصيحة كما فى قول من قال * فقد جئنا خراسانا * أى إذا كان الأمر كذلك فادعوا أتم فإن الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه مع عرائه^(١) عن بيان أن سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء ربما يؤم أن الإذن فى حيز الإمكان وأنهم لو أذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء لإطاعتهم فى الإجابة بل إقناطهم منها وإظهار خيبتهم حسبما صرحوا به فى قولهم ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى ضياع وبطلان وقوله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ كلام مستأنف مسوق من جهة تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر أنا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا إذا هبرة إنما هى بالعواقب وغالب الأمر ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى يوم القيامة عبر عنه بذلك للإشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جميع الأولين والآخرين بشهادة الأشهاد للرسول بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة وقرىء لا تنفع بالتاء ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أى

البعد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أى جهنم ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ﴿ وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ﴾ وتركنا عليهم من بعده التوراة ﴿ هدى وذكرى ﴾ هداية وتذكرة أو هاديا ومذكرا ﴿ لأولى الأبواب ﴾ لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه ﴿ فاصبر ﴾ على ما نالك من أذية المشركين .

﴿ إن وعد الله ﴾ أى وعده الذى ينطق به قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) أو وعده الخاص بك أو جميع مواعيده التى من جملتها ذلك ﴿ حق ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلا واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ تداركا لما فرط منك من ترك الأولى فى بعض الأحيان فإنه تعالى كافيك فى نصرة دينك وإظهاره على الدين كله ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ أى ودم على التسبيح ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهُذين الوقتين إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشى والإبكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله ﴾ ويجحدون بها ﴿ بغير سلطان أتاهم ﴾ فى ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إثباته للإيدان بأن التسكلم فى أمر الدين لا بد من استناده إلى سلطان مبين البتة وهذا عام لكل مجادل مبطل وإن نزل فى مشركى مكة وقوله تعالى ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ﴾ خبر لأن أى ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكير والتعلم أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق أو إلا إرادة أن تكون النبوة لهم دونك حسداً وبغيا حسبما قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقالوا (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ولذلك يجادلون فيها لا أن فيها موقع جدال ما أو أن لهم شيئا يتوهم أن يصلح مدارا لمجادلتهم فى الجملة وقوله تعالى : ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ صفة لكبر قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة أو النبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور فى التوراة بل هو

المسيح بن داود يريدون الدجال يخرج في آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله تعالى فيرجع إلينا الملك فسمى الله تعالى تمنيمهم ذلك كبرا ونفى أن يبلغوا متمناهم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أى فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ لأقوالكم وأفمالكم وقوله تعالى:

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث على منهاج قوله تعالى ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ لقصورهم فى النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴾ وما يستوى الأعمى والبصير ﴿ أى الغافل والمستبصر ﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ﴿ أى والمحسن والمسىء فلا بد أن تكون لهم حال أخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهى فيما بعد البعث وزيادة لا فى المسىء لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة ولأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين فى المقصود أو الدلالة بالصراحة والتفصيل .

﴿ قليلا ما تتذكرون ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات أى تذكرا قليلا تتذكرون وقرئ على الغيبة والضمير للناس أو الكفار ﴿ لأن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أى فى مجيئها لوضوح شواهدا وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ لا يصدقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسون به ﴿ وقال ربكم ادعوني ﴾ أى اعبدوني ﴿ أستجب لكم ﴾ أى أثبكم لقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أى صاغرين أذلاء وإن فسر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارف عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه من أفضل أبوابها وقرئ سيدخلون على صيغة المبني للمفعول من الإدخال

﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى إلى ضعف المحركات وهذه الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قد مر سره مرارا ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى مبصرا فيه أو به ﴿ إن الله لذو فضل ﴾ عظيم لا يوازيه ولا يدانيه فضل ﴿ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم .

﴿ ذلكم ﴾ المتفرد بالأفعال المقنضية للألوهية والربوبية ﴿ الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة وتقررهما وقرىء خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا إله إلا هو استثناء بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته خاصة إلى عبادة غيره ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يحدون ﴾ أى مثل ذلك الإفك العجيب الذى لا وجه له ولا مصحح أصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أى آية كانت لا إفكا آخر له وجه ومصحح فى الجملة ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ﴾ بيان لفضله تعالى المتعلق بالمسكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية فإن الإحسان عين التصوير أى صوركم أحسن تصوير حيث خلقكم منتصبى القامة بآدى البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيئا لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى اللذائذ ﴿ ذلكم ﴾ الذى نعت بما ذكر من السموات الجليلة ﴿ الله ربكم ﴾ خبران لذلك ﴿ فتبارك الله ﴾ أى تعالى بذاته ﴿ رب العالمين ﴾ أى مالكم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر إليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية ﴿ هو الحى ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ فادعوه ﴾ فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجه به تعالى ﴿ مخلصين

له الدين ﴿ أى الطاعة من الشرك الجلى والخفى ﴾ الحمد لله رب العالمين ﴿ أى قائلين ذلك ، عن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين .

من دلائل التوحيد

﴿ قل لى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء فى البينات من ربه ﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فإن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أى بأن أنقاد له وأخلص له دينى ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ أى فى ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة أى منى ﴿ ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ﴾ أى أطفالا والإفراد لإرادة الجنس أو لإرادة كل واحد من أفراده ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ علة ليخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كإثباته قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كالكلمة فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ ثم لتكونوا شيوخا ﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرئ شيخا كقوله تعالى طفلا ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضا ﴿ ولتبلغوا ﴾ متعلق بفعل مقدر بعده أى ولتبلغوا ﴿ أجلا مسمى ﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ ولكى تعقلوا ما فى ذلك من فنون الحكم والعبر ﴿ هو الذى يحيى ﴾ الأموات ﴿ ويميت ﴾ الأحياء أو الذى يفعل الإحياء والإماتة ﴿ فإذا قضى أمرا ﴾ أى أراد أمرا من الأمور ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق إرادته بها وتصوير لسرعة ترتب المسكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك أمر ومأمور والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الإحياء والإماتة

به سبحانه ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ما سبق من قوله تعالى (إن الذين يجادلون في آيات الله) الخ بيان لا بثناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة فلا تكرير فيه أى انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجهة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالسكينة وقوله تعالى ﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ أى بكل القرآن أو بحسب الكتب السماوية فإن تكذيبه تكذيب لها فى محل الجر على أنه بدل من الموصول الأول أو فى حيز النصب أو الرفع على الذم وإنما وصل الموصول الثانى بالتكذيب دون المجادلة لأن المعتاد وقوع المجادلة فى بعض المواد لا فى الكل وصيغة الماضى للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها ﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب أو مطلق الوحي والشرائع .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ كنهه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم ﴾ ظرف ليعلمون إذ المعنى على الاستقبال ولفظ الماضى لتيقنه ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على الأغلال والجار فى نية التأخير وقيل مبتدأ حذف خبره للدلالة خبر الأول عليه وقيل قوله تعالى ﴿ يسحبون ﴾ بحذف العائد أى يسحبون بها وهو على الأولين حال من المستكن فى الظرف وفيل استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل فاذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون ﴿ فى الحميم ﴾ وقرئ والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية والسلاسل بالجر حملا على المعنى لأن قوله تعالى (الأغلال فى أعناقهم) فى معنى أعناقهم فى الأغلال أو إضممارا للباه ويدل عليه القراءة به ﴿ ثم فى النار يسجرون ﴾ أى يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أى ملئ

والمراد بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب إلى باب ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾ أى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ومعنى ضلوا عنا غابوا عنا وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم ﴿بل لم نسكن ندعو من قبل شيئا﴾ أى بل تبين لنا أننا لم نسكن نعبد شيئا بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيئا يعتمد به كقولك حسبته شيئا فلم يكن:

﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يضل الله الكافرين﴾ حيث لا يمتدون إلى شيء ينفعهم فى الآخرة أو كما ضل عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو طالبوا^(١) لم يتصادفوا ﴿ذلك﴾ الإضلال ﴿بما كنتم تفرحون فى الأرض﴾ أى تبطرون وتتكبرون ﴿بغير الحق﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وبما كنتم تفرحون﴾ تتوسعون فى البطر والأشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ .

﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ أى أبوابها السبعة المقسومة لكم ﴿خالدين فيها﴾ مقدرًا خلودكم فيها ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أى عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم بالمتوى ليكون دخولهم بطريق الخلود ﴿فاصبر﴾ الى أن يلاقوا ما أعد لهم من العذاب ﴿إن وعد الله﴾ بتعذيبهم ﴿حق﴾ كائن لا محالة ﴿فإما نرينك﴾ أى فإن نرك وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع إن وحدها ﴿بعض الذى نعدهم﴾ وهو القتل والأسر ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإلينا يرجعون﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز أن يكون جوابا لهما بمعنى إن نعذبهم فى حياتك أو لم نعذبهم فإننا نعذبهم فى الآخرة أشد العذاب وأفظعه كما ينبى عنه الاختصار على ذكر الرجوع فى هذا المعرض ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ إذ قيل عدد الأنبياء عليهم

(١) فى ١١ : لو طالبوا.

السلام مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمذكور قصصهم أفراد معدودة وقيل أربعة آلاف من بنى إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس ﴿وما كان لرسول﴾ أى وما صح وما استقام لرسول منهم ﴿أن يأتى بآية إلا بإذن الله﴾ فإن المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار فى إثارة بعضها والاستعداد بإتيان المقترح منها ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بالعذاب فى الدنيا والآخرة ﴿قضى بالحق﴾ بإنجاء الحق وإثابته وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿وخسر هنالك﴾ أى وقت يحىء أمر الله اسم مكان استعير للزمان ﴿المبطلون﴾ أى المتمسكون بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا أوليا .

﴿الله الذى جعل لكم الأنعام﴾ قيل هى الإبل خاصة أى خلقها لأجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ تفصيل لما دل عليه اللام إجمالا ومن لا ابتداء الغاية ومعناها ابتداء اركوب والأكل منها أى تعلقهما بها وقيل للتبعض أى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها لا على أن كلا من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم فى الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب ﴿ولكم فيها منافع﴾ آخر غير الركوب والأكل كالبانها وأوبارها وجلودها ﴿ولتبغوا عليها حاجة فى صدوركم﴾ بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر فى فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هى الأزواج الثمانية فعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضهما يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر والمنافع نعم الكل وبلوغ الحاجة عليها نعم البقر ﴿ويرىكم آياته﴾ دلالة الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته ﴿فأى آيات الله﴾ أى فأى آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تذكرون﴾ فإن كلامها من الظهور بحيث

لا يكاد يجترئ على إنكارها من له عقل في الجملة وهو فاصب لآي الآيات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها وتذكيراتها (١) الشائع المستفيض والتأنيث قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الصفات نحو حمار وحمار غريب وهي في أى غرب لإيهامه .

(أفلم يسيروا) أى أقعدوا فلم يسيروا (في الأرض فينظروا) عاقبة الذين من قبلهم (من الأمم المهلكة وقوله تعالى (كانوا أكثر منه قوة) الخ استئناف مسوق لبيان مبادئ أحوالهم وعواقبها (وأ الأرض) باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمصانع وقيل هي آثار في الأرض لعظم أجرامهم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ما الأول أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية أى لم يغن عنهم أى شئ أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم (فلما جاءتهم بالبينات) بالمعجزات أو بالآيات الواضحة (فرحوا بما عندهم من أى أظهروا الفرح بذلك وهو ما لهم من العقائد الزائغة والشبه الـ وتسميتها علما للتحكم بهم أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك أو الأنبياء الذى أظهره رسلهم على أن معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهزؤ ويؤيده قوله تعالى (وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقيل الفرح للرسول فإنهم لما شاهدوا تمادى جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا العلم المؤدى إلى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحق بالكافرين جزاء واستهزأهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا ومنه قوله تعالى (بعذاب فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أى عند رؤية عذابنا لامتناء حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الأولى بيان كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم أن ذلك يغنى :

يترتب عليه إلا عدم الإغناء بهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وإن كان عكس الغرض ونقيض المطلوب كما في قولك وعظته فلم يتعظ. والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم وأجل من عدم الإغناء وقد كثر في الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على أن التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها وأما عقيبه لأن مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو أنهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لأن النافع هو الإيمان الاختياري ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ أي سن الله تعالى ذلك سنة ماضية في العباد وهو من المصادر المؤكدة ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ أي وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفاً . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح في ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له .

* * *

سورة السجدة ﴿٣٦﴾

مكية ، وآياتها ثلاث أو أربع وخمسون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حَم﴾ إن جعل اسماً للسورة فهو إما خبر لمبتدأ محذوف وهو الأظهر لما مر [من] ^(١) سره مراراً أو مبتدأ خبره ﴿تنزيل﴾ وهو على الأول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف إن جعل مسروداً على نمط التهديد وقوله تعالى ﴿من الرحمن الرحيم﴾ متعلق به مؤكداً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ لتخصيصه بالصفة خبره ﴿كتاب﴾ وهو على

(١) سقطت من ط .

الوجه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيدان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبى عنه قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿ فصلت آياته ﴾ ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل في أساليب مختلفة ومعان متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ. وأمثال ووعد ووعيد وقرى ﴿ فصلت أى فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الأساليب والمعاني من قولك فصل من البلد فصولاً ﴾ ﴿ قرأنا عريياً ﴾ نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آية ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لأهل العلم والنظر لأنهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو صفة أخرى لقرآنا أى كائننا لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ صفتان أخريان لقرآنا أى بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية أو حالان من كتاب أو من آياته وقرئنا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به ﴿ وقالوا ﴾ أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته لإياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن ﴿ قلوبنا فى أكنة ﴾ أى أغطية متكاثفة ﴿ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ﴾ أى صمم وأصله النقل وقرىء بالكسر وقرىء بفتح القاف ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلاً وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له كأن بها صمماً وامتناع مواصلتهم وموافقهم للرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ فاعمل ﴾ أى على دينك وقيل فى إبطال أمرنا ﴿ إننا عاملون ﴾ أى على ديننا وقيل فى إبطال أمرك والأول هو الأظهر فإن قوله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد ﴾ تلقين للجواب عنه أى لست من

من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبىء عنه قولكم فاعمل لنا عاملون بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فإن الخطاب فى إلهكم محكى منتظم للكل لأنّه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم إلى ما تقبوا عنه العقول والأسماع وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى لنى لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلى دونكم فصحت بالوحي إلى وأنا بشر نبوتى وإذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فأنامل والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إيجاب الوحدةانية فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص فى الأعمال ﴿ واستغفروه ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى ﴿ وويل للمشركين ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك لإثر ترغيبهم فى التوحيد ووصفهم بقوله تعالى ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وهو عطف على لا يؤتون داخل فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والإسمية لما أن عدم إيمانها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى (ونفس وما سواها) وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعات ولا يتصدفون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أى لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل أو لا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى وأهزمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كما صح ما كانوا يعملونه ﴿ قل أنتم لتكفرون ﴾ لأنكار وتشنيع لكفرهم وإن واللام لما لتأكيد الإنكار

وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل ﴿بالذي خلق الأرض في يومين﴾ لتقخير شأنه تعالى واستعظام كفرهم به أى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها أى حكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين أو فى نوبتين على أن ما يوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلا فالיום الحقيقى إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وإبداع نيرانها وترتيب حركاتها ﴿وتجعلون له أندادا﴾ عطف على تكفرون داخل فى حكم الإنكار والتوبيخ وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أى وتجعلون له أنداد والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اقصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى العظمة وإفراد السكاف لمسا مرارا من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن الذى فعل ما ذكر ﴿رب العالمين﴾ أى خالق جميع الموجودات ومربها دون الأرض خاصة فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته ندأ له وقوله تعالى ﴿وجعل فيها رواسى﴾ عطف على خلق داخل فى حكم الصلة والجعل لإبداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بأن الأولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الإعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف عليه كاف فى تحقق ربوبيته للعالمين واستعالة أن يجعل له ند فكيف إذا انضم إليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر أى خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأيا ما كان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى ﴿من فوقها﴾ متعلق بجعل أو بمضمرة هو صفة لرواسى أى كائنة من فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعا معرضة لأهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراد الاعتبار ومطارح الأفكار ﴿وبارك فيها﴾ أى قدر أن يكشف خيرها بأن يخلق أنواع الحيوانات التى من جملة الإنسان وأصناف النبات

التي منها معاشهم ﴿ وقد ر فيها أقواتها ﴾ أى حكم بالفعل بأن يوجد فيما سياتى لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة وقرىء وقسم فيها أقواتها ﴿ فى أربعة أيام ﴾ متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها أى قدر حصولها فى يومين وإنما قيل فى أربعة أيام أى تنمة أربعة تصريحاً بالفضل لك ﴿ سواء ﴾ مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أى استوت سواء أى استواء كما ينبىء عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير فى أقواتها أوفى فيها وقرىء بالرفع أى هى سواء ﴿ للسائلين ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا المحسر للسائلين عن مدة خلق الأيضى وما فيها أو بقدر أى قدر فيها أقواتها لأجل السائلين أى الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وقوله تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ شروع فى بيان كيفية التكوين لإثر كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتناؤه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادئ معاشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أى ثم قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوى على غيره ﴿ وهى دخان ﴾ أى أمر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التى ركبت هى منها أو دخان مرتفع من الماء كما سياتى وإنما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ فقال لها وللأرض ﴾ اكتفاءً بذكر تقدير ما فيها كأنه قيل فقال لها وللأرض التى قدر وجود ما فيها ﴿ اتنيا ﴾ أى كونا واحداً على وجه معين وفى وقت مقدر لىكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك أمر ومأمور كما فى قوله تعالى كن وقوله تعالى ﴿ طوعاً أو كرها ﴾ تمثيل لتحتّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لإثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقع موقع الحال أى طائعتين أو كارهتين وقوله تعالى ﴿ قالتا أتينا طائعتين ﴾ أى منقادين تمثيل لىكال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به وتصوير السكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع

منبه عن ذلك والسكره موهم لخلافه وإنما قيل طائعين باعتبار كونهما في معرض الخطأ والجواب كقوله تعالى (ساجدين) وقوله تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لأنه فعل مترتب على تكوينها أى خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير إما للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سموات حال على الأول تمييز على الثانى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق السكك فى ستة أيام حسبما نص عليه فى مواقع من التنزيل .

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ عطف على قضاهاً أى خلق فى كل منها ما فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك بما لا يعلمه إلا الله تعالى كما قاله قتادة والسدى فالوحي عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وأياً ما كان فعلى ما قرر من التفصيل لا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد وإما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه لإطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطراباً فأزبد فأرتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليوسفة فجعله أرضاً واحدة ثم فلقها فجعلها أرضين وأما الدخان فأرتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة وقيل إن خلق جرم

الأرض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) ولما روى عن الحسن رحمه الله من أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) الآية وليس المراد بنظمها مع السماء في مسلك الأمر بالإتيان لإنشاءها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يلبق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل أتينا على ما ينبغي أن تأتيا عليه اتى يا أرض مدحوة قرارا ومهادا لأهلك واتي يا سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الإتيان الحصول على ذلك الوجه كما تنبى عنه قراءة آتيا وآتينا من الموافقة وهى الموافقة وأنت خير بأن المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرد خلق جرم الأرض حتى يتأتى ما ذكر بل خلق ما فيها أيضا من الأمور المتأخرة عن دحوها قطعاً فالأظهر أن يسلك مسلك الأولين ويحمل الأمر بالإتيان على تكوينهما متوافقين على الوجه المذكور وليس من ضرورته أن يكون دحوها مترتباً على ذلك التكوين وإنما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب في أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف في حصوله ولا يقدح في ذلك تكوين الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يجعل الأرض في قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) منصوباً بمضمر قد حذف على شرطية التفسير ويجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها وتحمل البعديّة إما على أنه قاصر عن الأول في الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل وإما على أنه أدخل في الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وأحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ما روى عن الحسن رضى الله عنه نصاً في تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعاً وقد نقل الإمام الواحدى عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها فلا بد من حمل الأمر بإتيانها حينئذ أيضاً على

ما ذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح في ذلك تقدم خلق السماء على خلق الأرض كما لم تقدح فيه تقدم خلق الأرض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخي الزماني وأما على تقدير كونها للتراخي الربوبي كما جنح إليه الأكثرون فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأول وعلى ذلك بنى الكلام في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) الآية وإنما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتتان حقه ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ من السكواكب فإنها كلها ترى متلاثلة عليها كأنها فيها والالتفات إلى نون العظيمة لإبراز مزيد العناية بالآمر وقوله تعالى ﴿ وحفظا ﴾ مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظا ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر بتفاصيله ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ المبالغ في القدرة والعلم .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ متصل بقوله تعالى (قل أنذركم) الخ أي فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظام الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ أنذرتكم ﴾ أي أنذركم وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقق المنذر به ﴿ صاعقة ﴾ أي عذابا هائلا شديدا الوقع كأنه صاعقة ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهي المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا وهو من باب فعلته ففعل ﴿ إذ جاءتهم الرسل ﴾ حال من صاعقة عاد ولاسداد لجعله ظرفا لأنذرتكم أو صفة لصاعقة لفساد المعنى وأما جعله صفة لصاعقة عاد أي السكائنة إذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ متعلق بجاءتهم أي من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحقق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم

إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم فإن هودا وصالحا كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما
وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أي من قبلهم ومن يجيء من خلفهم أي
من بعدهم فكان الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى ﴿ أن لا تعبدوا
إلا الله ﴾ أي بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية أو أي لا تعبدوا على أنها
مفسرة ﴿ قالوا لو شاء ربنا ﴾ أي لإرسال الرسل لا أنزال الملائكة كما قيل فإنه
عار عن إفادة ما أرادوه من نفي رسالة البشر وقد مر فيما سلف ﴿ لأنزل
ملائكة ﴾ أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل لأنزل
﴿ فإننا بما أرسلتم به ﴾ أي على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كافرين ﴾
لما أنكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال في ملا من
قريش قد التبس علينا أمر محمد فلو التستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة
والسحر فكلّمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت
الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فاتاه فقال أنت
يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فيم أشتم
أهلنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسا وإن تك
بك البائة زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات قريش شئت وإن كان بك
المال جمعنا لك ما تستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ
عتبة قال عليه الصلاة والسلام (بسم الله الرحمن الرحيم حم) إلى قوله تعالى (مثل
صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام وناشده بالرحم
ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد
صبا فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبات فغضب ثم
قال والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ
صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمت أن محمدا
إذا قال شيئا لم يكذب خفت أن ينزل بكم العذاب .

﴿ فاما عاد فاستكبروا في الأرض ﴾ شروع في حكاية ما ينخص بكل
واحدة من الطائفتين من الجنابة والعذاب إثر حكاية ما يعم الكل من الكفر

المطلق أى فتعظّموا فيها على أهلها أو استعملوا فيها واستولوا على أهلها ﴿ بغير الحق ﴾ أى بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿ وقالوا ﴾ مدّلين بشدّتهم وقوتهم ﴿ من أشدّ منا قوة ﴾ حيث كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده ﴿ أولم يروا ﴾ أى أغفلوا أو ألم ينظروا ولم يعلموا علما جليا شبيها بالمشاهدة والبيان .

﴿ أن الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوة ﴾ أى قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوى على ما لا يقدر عليه غير مفيض للقوى والقدر على كل قوى وقادر وإنما أورد فى حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة فى القوة وفيه ضرب من التهكم بهم ﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ المنزلة على الرسل ﴿ يجهلون ﴾ أى ينكرونها وهم يعرفون حقيقتها وهو عطف على فاستكبروا كقوله تعالى وقالوا وما بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا ﴾ أى باردة تهلك وتحرق بشدة بردها من الصر وهو البرد الذى يصرأى يجمع ويقبض أو عاصفة تصوت فى هبوبها من الصرير ﴿ فى أيام نحسات ﴾ جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سغدا وقرىء بالسكون على التخفيف أو على أنه نعت على فعل أو وصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر شوال من الأربعا إلى الأربعا وما عذب قوم إلا فى يوم الأربعاء ﴿ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ﴾ وقرىء لنذيقهم على إسناد الإذاقة إلى الرجح أو إلى الأيام وأضيف العذاب إلى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على أنه وصف له كما يعرب عنه قوله سبحانه ﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ وهو فى الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به العذاب للمبالغة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه .

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية وإرسال الرسل وإنزال الآيات التشريعية وأزحنا عنهم بالسكينة وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى (هدى للمتقين) وقرىء ثمود بالنصب بفعل يفسره

ما بعده ومنونا في الحالين وبضم الثاء ﴿ فاستجبوا لعمى على الهدى ﴾ أى اختاروا الضلالة على الهداية ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الطون ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب والطن الطون وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من اختيار الضلالة ﴿ ونجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ من تلك الصاعقة ﴿ ويوم يحشر أعداء الله ﴾ شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة لإثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحق بهم من ألوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين ويرده ما سيأتى من قوله تعالى ﴿ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ وقرئ يحشر على بناء الفاعل ونصب أعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى موقف الحساب إذ هناك تتمحق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها وإما لأن حسابهم يكون على شفورها ويوم إمامنصوب باذكر أو ظرف لمضممر مؤخر قد حذف إماما لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون إلى النار وقوله تعالى ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ أى جميعا غاية ليحشر أو ليوزعون أى حتى إذا حضروها وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا من فنون الكفر والمعاصى بأن ينطقها الله تعالى أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جنائية وقبحا وأجلب للخزى والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنائيات المكتسبة بتوسطها وقيل المراد بالجلود الجوارح أى سألوها سؤال توبيخ لما روى أنهم قالوا لها فممكن كذا نناضل وفى رواية بهذا لكن وسحقا عنك كنت أجادل وصيغة جمع

العقلاء في خطاب الجلود وفي قوله تعالى ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ لوقوعها في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء أى أنطقنا الله الذي أنطق كل ناطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما علمتم بواسطتنا من القبائح ما كتمناها وقيل ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وليس بذلك لما فيه من إيهام الاضطرار في الإخبار وقيل سألوها سؤالاً يجب فالعقل حينئذ ليس نطقنا بعبء من قدرة الله الذي أنطق كل حي ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ فإن من قدر على خلقكم وإنشاءكم أولاً وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانياً لا يتعجب من إنطاقة الجوارحكم وأهل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على أن فيه مراعاة الفواصل وقوله تعالى:

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود أى ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ من القبائح المخفية فلا يظهرها في الآخرة ولذلك اجترأتم على ما فعلتم وفيه إيذان بأن شهادة الجوارح بإعلامه تعالى حينئذ لا بأنها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم . عن ابن مسعود رضى الله عنه كنت مستراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر أرقبيان وقرشى ، أو قرشيان وثقي فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع أن أخفينا فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ وما كنتم تستترون ﴾ الآية فالحكم المحكى حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما

يجرى مجراه من الأعمال المنبهة عنه كما في قوله تعالى (يحسب أن ماله أخلده) اجمع ما حكى من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر ﴿ وذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ظنهم وما فيه من معنى البعد للإيدان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿ ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ خبران له ويجوز أن يكون ظنكم بدلا وأرداكم خبرا ﴿ فأصبحتم ﴾ بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿ من الخاسرين ﴾ إذ صار ما منحوا لنيل سعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أى محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لا يبرح لهم منها والالتفات إلى الغيبة للإيدان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكي سوء حالهم لغيرهم أو للشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غاية دركات النار ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أى يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبونه جزعا عما هم فيه ﴿ فإهم من المعتبين ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وقرئ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أى إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المسكنة .

﴿ وقضينا لهم ﴾ أى قدرنا وقرنا للكفرة في الدنيا ﴿ قرتاء ﴾ جمع قرين أى أخذانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القبض على البيض وهو القشر وقيل أصل القبض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم ﴾ من أمور الدنيا واتباع الشهوات ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمور الآخرة حيث أروهم أن لا بعث ولا حساب ولا مكروه قط ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها وصدقها وهو قوله تعالى لا إبليس (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (لن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) كما مر مرارا ﴿ في أمم ﴾ حال من الضمير المجرور أى كائنين في جملة أمم وقيل في بمعنى مع وهذا كما ترى صريح في أن المراد بأعداء الله تعالى فيما سبق المهودون من عاد وثمود لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل ﴿ قد خلت ﴾ صفة لأمم أى مضت

﴿من قيلهم من الجن والإنس﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء ﴿لأنهم كانوا خاسرين﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للأولين والآخرين ﴿وقال الذين كفروا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أى لا تنصتوا له ﴿والغوا فيه﴾ وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصديّة والمكاء أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء وقرىء بعضهم الغنى والمعنى واحد يقال لغى يلقى كلقى يلقى ولغا يلفو إذا هذى ﴿لعلمكم تغلبون﴾ أى تغلبونه على قراءته ﴿فلندين الذين كفروا﴾ أى فوالله لندين هؤلاء القائلين واللاعين أو جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿عذابا شديدا﴾ لا يقادر قدره ﴿ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون﴾ أى جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ وقيل إنه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقرى الاضياف لأنها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذابا شديدا يوم بدر وأسوأ الذى كانوا يعملون فى الآخرة ﴿ذلك﴾ مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاء أعداء الله﴾ خبره أى ما ذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى وقوله تعالى ﴿النار﴾ عطف ببيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك على أنه عبارة عن مضمون الجملة لاعتناء الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ جملة مستقلة مقررة لما قبلها أو النار مبتدأ هى خبره أى هى بهيئها دار إقامتهم على أن فى التجريد وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله مبالغة لسكّاله فيها كما يقال فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد أن لهم فى النار المشتعلة على الدركات دارا مخصوصة هم فيها خالدون ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يجهّدون﴾ منصوب بفعل مقدر أى يجوزون جزاء أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾ والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجهدون قدمت عليه مراعاة الفواصل أى بسبب ما كانوا يجهّدون بآياتنا الحقّة أو يلغون فيها وذكر الجحود لسكوته سببا للغو .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ ربنا أرنا
 للذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ يعنون فريق شياطين النوعين المقيضين لهم
 الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين وقيل هما إبليس وقايل
 فإنهما سنا الكفر والقتل بغير الحق وقرىء أرنا تخفيفاً كفتحذ في نخذ وقيل
 معناه أعطناهما وقرىء باختلاس كسرة الراء ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أى
 ندوسهما ^(١) انتقاماً منهما وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل ﴿ ليكونا من
 الأسفلين ﴾ أى ذلاً ومهانة أو مكاناً ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ شروع في بيان
 حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أى
 قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدايته ﴿ ثم استقاموا ﴾ أى ثبتوا على
 الإقرار ومقتضياته على أن ثم للتراخي في الزمان أو في الرتبة فإن الاستقامة لها
 الشأن كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم في معناها من
 الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض بيان لجزيئاتها ﴿ تنزل عليهم
 الملائكة ﴾ من جهته تعالى يمدونهم فيما يعين لهم من الأمور الدينية والدنيوية
 بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة
 يغوبهم ما قبض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تنزل عند الموت
 بالبشرى وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى في مواطن ثلاثة عند الموت
 وفي القبر وعند البعث والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه ﴿ أن لا تخافوا ﴾
 ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على
 ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضرر وقيل المراد
 نهيهم عن الغموم على الإطلاق والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم
 فلن تذوقوه أبداً وأن إما مفسرة أو مخففة من الثقلة والأصل بأنه لا تخافوا
 وأطباء ضمير الشأن وقرىء لا تخافوا أى يقولون لا تخافوا على أنه حال من
 الملائكة أو استئناف ﴿ وأبشروا ﴾ أى سروراً ﴿ بالجنة التي كنتم توعدون ﴾

(١) في الأصل : ندسهما .

في الدنيا على ألسنة الرسل هذا من إشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة وقوله تعالى ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا ﴾ الخ من إشاراتهم في الدنيا أى أعوانكم في أموركم فلهكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام ﴿ وفي الآخرة ﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادى والخصام ﴿ ولستم فيها ﴾ أى في الآخرة ﴿ ما تشتهى أنفسكم ﴾ من فنون الطيبات ﴿ ولستم فيها ما تدعون ﴾ ما تتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أى تدعون لأنفسكم وهو أعم من الأول ولستم في الموضعين خبر ومامتداً وفيها حال من ضميره في الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ما تدعون على ما تشتهى للاشباع في البشارة والإيذان باستقلال كل منهما ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ حال مما تدعون مفيدة لكون ما تتمنونه بالنسبة إلى ما يعطون من عظام الآجور كالنزل للضيف .

﴿ ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله ﴾ أى إلى توحيده تعالى وطاعته . عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام وعنه أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت في المؤذنين والحق أن حكمها عام لسكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة وإن نزلت فيمن ذكر ﴿ وعمل صالحاً ﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿ وقال إننى من المسلمين ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلة من قوهم هذا قول فلان أى مذهبه لا أنه تكلم بذلك وقرئ لى بنون واحدة .

العلاقات الاجتماعية

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ جملة مستأنفة سبقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد لإثريان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان أى لا تستوى الخصلة الحسنة والسيئة في الآثار والأحكام

ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي وقوله تعالى ﴿إدفع بالتي هي أحسن﴾ الخ استئناف
مبين لحسن عاقبة الحسنة أى لدفع السيئة حيث اعترضتكم من بعض أعاديتكم
بالتى هي أحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالأحسان إلى من أساء فإنه أحسن
من العفو وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف أصنع المبالغة
ولذلك وضع أحسن موضع الحسنة وقوله تعالى ﴿فإذا الذى بينك وبينه عداوة
كأنه ولى حميم﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أى فإذا فعلت ذلك صار عدوك
المشاق مثل الولى الشفيق ﴿وما يلقاها﴾ أى ما يلقى هذه الحصلة والسجية التى
هى مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إلا الذين صبروا﴾ أى شأنهم الصبر ﴿وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم﴾ من الخير وكال النفس وقيل الخط العظيم الجنة وقيل هو
الثواب قيل نزلت فى أبى سفيان بن حرب وكان مؤذيا لرسول الله صلى الله
عليه وسلم فصار وليا مصافيا ﴿ولما يئزغنك من الشيطان نزغ﴾ النزغ والنسغ
بمعنى وهو شبه الفخس شبه به وسوسة الشيطان لأنها بهت على الشر وجعل نازعا
على طريقه جد جده أو أريد ولما يئزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر أى
وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هي أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾
من شره ولا تطعه ﴿إنه هو السميع﴾ باستعاذتك ﴿العليم﴾ بنيتك أو بصلاحك
وفى جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه
﴿ومن آياته﴾ الدالة على شئونه العظيمة ﴿الليل والنهار والشمس والقمر﴾
كل منها مخلوق من مخلوقاته مسخر لأمره ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾
لأنهما من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره مثلكم ﴿واسجدوا لله الذى خلقهن﴾
الضمير للأربعة لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأتئ أو الإناث أو لأنها عبارة
عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفايه بيان مخلوقية الشمس والقمر للايدان
بكمال سقوطهما عن رتبة المسجوديه بنظمهما فى المخلوقيه فى سلك الأعراض
التي لا قيام لها بذاتها وهو السر فى نظم الكل فى سلك آياته تعالى ﴿إن كنتم
إياه تعبدون﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به سبحانه
وهو موضع السجود عند الشافعى رحمه الله وعندنا آخر الآية الأخرى لأنه

تمام المعنى ﴿فإن استكبروا﴾ عن الامتثال ﴿فالذين عند ربك﴾ من الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾ أى دائماً ﴿وهم لا يسأمون﴾ لا يفترون ولا يملون وقرىء لا يسأمون بكسر الياء .

من آيات الله

﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أى المطر ﴿اهتزت وربت﴾ أى تحركت بالنبات وانتفخت لأن الثبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرىء ربأت أى ارتفعت ﴿إن الذى أحياها﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لحيى الموتى﴾ بالبعث ﴿لأنه على كل شيء﴾ من الأشياء التى من جملتها الإحياء ﴿قدير﴾ مبالغ فى القدرة ﴿إن الذين يلحدون﴾ يميلون عن الاستقامة وقرىء يلحدون ﴿فى آياتنا﴾ بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة ﴿لا يخفون علينا﴾ فنجازيهم بالحدادهم وقوله تعالى :

﴿أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة﴾ تنبيه على كيفية الجزاء ﴿اعملوا ما شئتم﴾ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإلقاء فى النار والإتيان آمناً وفيه تهديد شديد ﴿لأنه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم وقوله تعالى :

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ بدل من قوله تعالى إن الذين يلحدون الخ وخبر إن هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى ﴿ولأنه لكتاب عزيز﴾ أى كثير المنافع عديم النظير أو منيع لا تتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به وقوله تعالى ﴿لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أى لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات صفة أخرى لكتاب وقوله تعالى ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ خبر لمبتدأ محذوف أو صفة أخرى

لكتاب مفيدة لفخامته الاضافية كما أن الصفحتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لنا كيد بطلان الكفر بالقرآن وقوله تعالى ﴿ ما يقال لك ﴾ الخ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أى ما يقال فى شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن من جهة كفار قومك ﴿ إلا ما قد قيل للرسول من قبلك ﴾ أى إلا ما قد قيل فى حقهم بما لاخير فيه ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ لإنيائته ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ لأعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك أيضاً ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجمياً ﴾ جواب أقولهم هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أى بينت بلسان نطقه وقوله تعالى ﴿ الأعجمى وعربى ﴾ إنكار مقرر للنحضيض والأعجمى يقال لكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للبالغة فى الوصف كآخرى والمعنى أكلام أعجمى ورسول أو مرسل إليه عربى على أن الأفراد مع كون المرسل إليهم أمة جهة لما أن المراد بيان التنافى والتناظر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو جمعا وقرئ أعجمى أى أكلام منسوب إلى أمة العجم وقرئ أعجمى على الأخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى ويجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب وأياما كان المقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعلمون به ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى ﴾ يهديهم إلى الحق ﴿ وشفاء ﴾ لما فى الصدور من شك وشبهة ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ مبتدأ خبره ﴿ فى آذانهم ﴾ وقرئ على أن التقدير هو أى القرآن فى آذانهم وقرئ على أن وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو أوفق لقوله تعالى ﴿ وهو عليهم عسى ﴾ وقيل خبر الموصول فى آذانهم وقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لا يؤمنون فى آذانهم منه وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول

الاول اى هو للاولين هدى وشفاء والآخرين وقر فى آذانهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلاته وملاحظة ما أثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالشار إلىه للإيدان ببعد منزلته فى الشرع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد أى أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعون والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على مناج قوله تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ فى حق أمك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى (بل الساعة موعدهم) وقوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) ﴿لغضى بينهم﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة ﴿وأنهم﴾ أى كفار قومك ﴿لنى شك منه مريب﴾ أى من القرآن وجعل الضمير الأول لليهود والثانى للتوراة عما لا وجه له ﴿من عمل صالحا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فلنفسه﴾ أى فلنفسه بعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره لا على غيره ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبله مبنى على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره مثلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر ما فى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الأنفال .

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أى إذا سئل عنها يقال الله يعلم أو لا يعملها إلا الله تعالى ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أى من أوعيتها جمع كم بالسكسر وهو

وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرىء من ثمرة على إرادة الجفس والجمع لاختلاف الأنواع وقد قرىء بجمع الضمير أيضا وما نافية ومن الأولى مزيدة للاستغراق واحتمال أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد ﴿وماتحمل من أنثى ولا تضع﴾ أى حملها وقوله تعالى ﴿إلا بعلمه﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما يحدث شئ من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً بشئ من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط ﴿ويوم يناديهم أين شركائى﴾ أى بزعمكم كما نص عليه فى قوله تعالى (نادوا شركائى الذين زعمتم) وفيه تهكم بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك لإيذانا بقصور البيان عنه كما مر فى قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) ﴿قالوا أذنالك﴾ أى أخبرناك ﴿ما منا من شهيد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال وما منا أحد إلا وهو موحّدك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ وقيل هو قول الشركاء أى ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين وقولهم أذنالك إما لأن هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب عنه^(١) بهذا الجواب أو لأن معناه أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه أو لأن معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك ﴿وضل عنهم ما كانوا يَدْعُونَ﴾ أى يعبدون ﴿من قبل﴾ أى غابوا عنهم أو ظهر عدم نفهم فكان حضورهم كغيبتهم ﴿وظنوا﴾ أى أيقنوا ﴿ما لهم من محيص﴾ مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي ﴿لايسام الإنسان﴾ أى لا يمل ولا يفتر ﴿من دعاء الخير﴾ من طلب السعة فى النعمة وأسباب المعيشة وقرىء من دعاء بالخير .

﴿ولأن مسه الشر﴾ أى العسر والضيقة ﴿فيؤوس قنوط﴾ فيه مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة أن القنوط عبارة عن يأس مفرط يظهر أثره فى الشخص فيتضاءل وينكسر أى مبالغ فى قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفرادهم لما أن اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى إلا من الكافر وسيهرح به ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد

ضراء مسته) بتفريجه عنه (ليقولان هذا لى) أى حق أستحقه لمالى من الفضل والعمل أولى لا لغيرى فلا يزول عنى أبداً (وما أظن الساعة قائمة) أى تقوم فيما سيأتى (ولئن رجعت إلى ربي) على تقدير قيامها (إن لى عنده للحسنى) أى للحالة الحسنى من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وأن نعم الآخرة كذلك (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أى لنمليهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورة الحقيقة وقد مرت حقيقة فى الأعراف عند قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) وفى قوله تعالى (إنما بغيبكم على أنفسكم) من سورة يونس (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) أى عن الشكر (ونأى بجانه) أى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبرا وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى (فى جنب الله) ويجوز أن يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركننه (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى كثير مستعار بماله عرض متسع للإشعار بكثرته واستمراره وهو أبلغ من الطويل إذ الطويل أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكمال فى بعض الأوقات .

(قل أرأيتم) أى أخبرونى (إن كان) أى القرآن (من عند الله ثم كفرتم به) مع تعاضد موجبات الإيمان به (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم (سنريهم آياتنا) الدالة على حقيقته وكونه من عند الله (فى الآفاق) هو أما خبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة (وفى أنفسهم) هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآفاق أى منازل الأمم الخالية وآثارهم وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد

والحسن والسدى فى الآفاق ما يفتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام
والمسلمين وفى أنفسهم فتح مكة وقيل فى الآفاق أى فى أقطار السموات والأرض
من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال
والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع
الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام وحدث الأعضاء العجيبة
والتركيبات الغريبة كقوله تعالى (وفى أنفسهم أفلا تبصرون) واعتذر بأن معنى
السين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك أنه تعالى سيطلمهم على
تلك الآيات زماناً فزماناً ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً (حتى يتبين
لهم) بذلك (أنه الحق) أى القرآن أو الإسلام والتوحيد .

(أولم يكف بربك) استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن
وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار
والواو للعطف على مقدار يقتضيه المقام أى ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة
للتأكيد ولا تسكاد تزداد إلا مع كنى وقوله تعالى (أنه على كل شهيد) بدل منه
أى ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك
أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده وقيل معناه أن هذا
الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون
عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد أى مطلع
يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده
ولولم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصر فتأمل
وأما ما قيل من أن المعنى أولم يكفك أنه تعالى على كل شىء شهيد محقق له فيحقق
أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة فمع إشعاره
بما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود
يرده قوله تعالى (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى فى شك عظيم من
ذلك بالبعث والجوار فإنه صريح فى أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم وقرىء
مرية بالضم وهو لغة فيها (ألا إنه بكل شىء محيط) عالم بجميع الأشياء

جلها ونفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لا محالة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله أعلم .

﴿سورة حم عسق وتسمى الشورى﴾

مكية ، وهى ثلاث وخمسون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حم عسق﴾ اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرئ حم سق فعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ وعسق خبره وعلى الثانى السكّل خبر واحد وقوله تعالى ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق أو أن إيجاهها مثل إيجاهها بعد تنويعها بذكر اسمها والتنبية على نفامة شأنها والكاف فى حيز النصب على أنه مفعول ليوحى على الأول وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الأول إشارة إلى ما فيها وعلى الثانى إلى إيجاهها وما فيه من معنى البعد للإيدان بطلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل أى مثل ما فى هذه السورة من المعانى أوحى إليك فى سائر السور وإلى من قبلك من الرسل فى كتبهم على أن مناط المائلة ما أشير إليه من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد أو مثل إيجاهها أوحى إليك عند إيجاه سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيجاه كتبهم إليهم لا إيجاه مغاير له كما فى قوله تعالى ﴿لما أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾ الآية على أن مدار

المثلية كونه بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحي وأن إيجاء مثله عادته وفي جعل مضمون السورة أو إيجائها مشبها به من تفخيمها مالا يخفى وكذا في وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه من التشويق وقرىء يوحى على البناء للمفعول على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند إلى ضميره أو مصدر ويوحى مسند إلى إليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزیز الحكيم صفتان له أو مبتدأ كما في قراءة نوحى والعزیز وما بعده خبران له أو العزیز الحكيم صفتان له وقوله تعالى ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم﴾ خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرر لعزته وحكمته .

﴿ تكاد السموات ﴾ وقرىء بالياء ﴿ يتفطرن ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما في سورة مريم وقرىء ينفطرن والاول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر وقرىء تنفطرن بالتاء لتأكيد التأنيت وهو نادر ﴿ من فوقن ﴾ أى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الاول لما أن أعظم الآيات وأدناها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الاولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض حيث أثرت فى جهة الفوق فلان تؤثر فى جهة التحت أولى وقيل الضمير الأرض فإنها فى معنى الأرضين ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده ﴿ ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة واستدعاء تأخير العقوبة طمعا فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الجلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله تعالى ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ فالمراد به الشفاعة ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الاول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال

تقدسه عما نسب إليه وأن ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز إلى أنه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحة ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ شركاء وأندادا ﴿الله حفيظ عليهم﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ بموكل بهم أو بموكل إليه أمرهم وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ومحل الكاف النصب على المصدرية وقرآنا عربيا مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا لا لبس فيه عليك ولا على قومك وقيل إشارة إلى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وإنما أنت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآنا عربيا حال من المفعول به أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين ﴿تنذر أم القرى﴾ أى أهلها وهى مكة ﴿ومن حولها﴾ من العرب ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الأرواح والأشباح وقيل الأعمال والأهوال والإنذار يتعدى إلى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثاني مفعولى الأول وأول مفعولى الثانى للتحويل وإيهام التعميم وقرىء لينذر بالياء على أن فاعله ضمير القرآن ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض مقرر لما قبله ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾ أى بعد جمعهم فى الموقف فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للجموعين للدلالة الجمع عليه وقرىءنا منصوبين على الحالية منهم أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين أى مشارفين للتفرق أو متفرقين فى دارى الثواب والعقاب ﴿ولو شاء الله لجمعهم﴾ أى فى الدنيا ﴿أمة واحدة﴾ قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله على دين واحد فعنى قوله تعالى ﴿ولكن يدخل من يشاء فى رحمته﴾ أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى أن مشيئته تعالى لكل

من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وإنما قيل .

(والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير) للإيدان بأن الادخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهة تعالى كما فى الادخال فى الرحمة لا لما قيل من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ما قاله مقاتل على دين الإسلام كما فى قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقصرهم على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمه وكلفهم وبني أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنون فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى (يدخل من يشاء) وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وأنت خير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم فى رحمته إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم فى عذابه فالذى يقضيه سياق النظم الكريم وسباقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين) الآية على أحد الوجهين بأن يراد بهم الذين فى فترة لإدريس أو فى فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة منفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا لينذرهم ما ذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الأهوال فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته أى شأنه ذلك فيرسل إلى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالإذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله للإيمان والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب (أم اتخذوا من دونه أولياء) جملة مستأنفة مقربة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير وأم منقطعة وما فيها من بل للاتغال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها والهمزة لإنكار الوقوع ونفيه

على أبلغ وجه وآ كده لا لإنكار الواقع واستقبحه كما قيل إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء في شيء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء وهو أظهر الممنوعات أى بل اتخذوا متجاوزين الله أولياء من الأصنام وغيرها هيئات وقوله تعالى ﴿فأنته هو الولي﴾ جواب شرط محذوف كأنه قيل بعد إبطال ولاية ما اتخذوه أولياء إن أرادوا وليا في الحقيقة فأنته هو الولي لا ولي سواه ﴿وهو يحيى الموتى﴾ أى ومن شأنه ذلك ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شيء

﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أى وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم ﴿لحكمهم﴾ راجع ﴿إلى الله﴾ وهو إثابة المحققين وعقاب المبطلين ﴿ذلكم﴾ الحاكم العظيم الشأن ﴿الله ربى﴾ مالكى ﴿عليه توكلت﴾ فى مجامع أمورى خاصة لا على غيره ﴿وإليه أنيب﴾ أرجع فى كل ما يعنى لى من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه وحيث كان الزوكل أمرا واحدا مستمرا والإثابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم فى شيء من الخصومات فتعاضدوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثر على حكومته حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله أعلم كعرفة الروح ولا مضاغ لحل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بمحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فاطر السموات والأرض﴾ خبر آخر لذكركم أو خبر لمبتدأ محذوف أو مبدأ خبره ﴿جعل لكم﴾ وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى إلى الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ﴿أزواجا﴾ نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره غير مرة ﴿ومن الأنعام﴾

أى وجعل للانعام من جنسها ﴿أزواجا﴾ أو خلق لكم من الأنعام أصنافا أو ذكورا وإناثا ﴿يذروكم﴾ يكثركم من الذرة وهو البث وفى معناه الذرو والذر ﴿فيه﴾ أى فيما ذكر من التدبير فإن جعل الناس والأنعام أزواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير ﴿لبس كمثل شئ﴾ أى ليس مثله شئ فى شأن من الشؤون التى من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كفى قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة فى نفيه عنه فإنه إذا نفى عن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثل له وقيل مثله صفته أى ليس كصفته صفة ﴿وهو السميع البصير﴾ المبالغ فى العلم بكل ما يسمع ويبصر.

وحدة الإسلام

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أى خزانتهما ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة ﴿لأنه بكل شئ عليم﴾ مبالغ فى الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ وإيدان بأن ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة أن يبان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديننا قديما أجمع عليه الرسل والخطاب لأتمته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزائم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا على أن تخصيهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستماله قلوب الكفرة إليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود فى شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى فى حق عيسى عليه السلام وإلا فها من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبى عنه التوسية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمورية والمراد

بإيمانه إليه عليه الصلاة والسلام إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى (وكذلك أوحينا) الآية أو ما يعمهما وغيرهما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) وقوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد) وغير ذلك والتجسير عن ذلك عند نسبتبه إليه عليه الصلاة والسلام بالذی لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحثية وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة والإلتهفات إلى 'نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيمانه وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبية على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام ﴿ أن أقيموا الدين ﴾ أى دين الإسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه وبرسله ويوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له وبحال أن أقيموا إما النصب على أنه يدل من مفعول شزع والمعطوفين عليه أو الرفع على أنه جواب عن سؤال نشأ من إلهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو إقامة الدين وقيل بدل من ضمير به وليس بذلك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام مستلزم لكون الخطاب في قوله تعالى ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وتوجيه النهى إلى أهمهم تمحل ظاهر نصح أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم المتفرقون كما يستحيط به خبراً أى تتفرقوا في الدين الذى هو عبارة عما ذكر من الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى (لعل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقوله تعالى ﴿ كبر على المشركين ﴾ شروع لهم ما شرع في بيان أحول بعض من شرع من الدين القويم أى عظم وشق عليهم

﴿ ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعده حيث قالوا
 (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) وقوله تعالى ﴿الله يجتبي إليه من
 من يشاء﴾ استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة
 أى الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتبيه إليه وهو من صرف
 اختياره إلى ما دعى إليه كما بذى عنه قوله تعالى ﴿ويهدى إليه من ينيب﴾
 أى يقبل إليه حيث يمه بالتوفيق والالطاف وقوله تعالى ﴿وما تفرقوا﴾
 شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل
 الشرك قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى (وما
 تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما هم البيّنة) أى وما تفرقوا في الدين
 الذى دعوا إليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم ﴿إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾
 بحقيقته بما شاهدوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقيقة
 حسبا وجدوه في كتابهم أو العلم بمبعثه عليه الصلاة والسلام وهو استثناء مفرغ
 من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات أى وما تفرقوا في حال من الأحوال
 أو في وقت من الأوقات إلا حال مجيء العلم ﴿بغيا بينهم﴾ وحمة وطلبا للرياسة
 لا لأن لهم في ذلك شبهة ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهى العدة بتأخير
 العقوبة ﴿إلى أجل مسمى﴾ هو يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ لأوقع القضاء
 بينهم باستئصالهم لاستيجاب جنائياتهم لذلك قطعاً وقوله تعالى ﴿وإن الذين
 أوتوا الكتاب من بعدهم﴾ الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن إثر بيان
 كيفية كفر أهل الكتاب وقرىء ورثوا وورثوا أى وإن المشركين الذين
 أوتوا القرآن من بعد ما أوتى أهل الكتاب كتابهم ﴿إنفى شك منه﴾ من
 القرآن ﴿مرتب﴾ موقع في القلق أو في الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لخص
 البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقيقته كدأب أهل الكتابين هذا وأما ما قيل من
 أن ضمير تفرقوا لأمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن المراد تفرق كل أمة
 بعد نبيها مع علمهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء
 عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل

مسمى لقضى بينهم وكذا ما قيل من أن الناس كانوا أمة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى الأرض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وإنما اختلفوا للبغي بينهم فإن مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً لجوب إقامته وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الإخلال بذلك المرام .

(فلذلك) أى فلاجل ما ذكر من التفرق والشك المريب أو فلاجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون (فادع) أى الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه فإن كلا من تفرقهم وكونهم فى شك مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة إليه والأمر بها وليس المشار إليه ما ذكر من التوصية والأمر بالإقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار إليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى إلى كما فى قوله تعالى (بأن ربك أوحى لها) أى فإلى ذلك الدين فادع (واستقم) عليه وعلى الدعوة إليه (كما أمرت) وأوحى إليك (ولا تتبع أهواءهم) الباطلة (وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب) أى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم وقد مر بيان كيفية الإيمان بها فى خاتمة سورة البقرة (وأمرت لأعدل بينكم) فى تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لا سوى بيني وبينكم ولا آمركم بما لا أعلمه ولا أعالفكم إلى ما أنهاكم عنه ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم واللام إما على حقيقتها والمأمور به محذوف أى أمرت بذلك لا عدل أو زائدة أى أمرت أن

أعدل والباء محذوفة ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أى خالقنا جميعا ومتولى أمورنا ﴿ لنا أعمالنا ﴾ لا يتخطأنا جزاؤها ثوابا كان أو عقابا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ لا تتجاوزكم آثارها للاستفيد بحسناتكم وتنضرر بسيئاتكم ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أى لا حاجة ولا خصومة لأن الحق قد ظهر ولم يبق للحاجة حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ يوم القيامة ﴿ وإليه المصير ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا كما ترى محاجة فى مواقف المجاورة لا متاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال ﴿ والذين يحاجون فى الله ﴾ أى فى دينه ﴿ من بعد ما استجيب له ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه أو من بعد ما استجاب الله لرسوله عليه الصلاة والسلام وأيده بنصره أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته عليه الصلاة والسلام واستفتحوا به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للذين كتبنا قبل كتابكم ونبيننا قبل نبينا ونحن خير منكم وأولى بالحق ﴿ حججهم داحضة عند ربهم ﴾ زالة زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلا وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجارة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وعليهم غضب ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ لا يقادر قدره ﴿ الله الذى أنزل الكتاب ﴾ أى جنس الكتاب ﴿ بالحق ﴾ ملتبسا به فى أحكامه وأخباره أو بما يحق لإزاله من العقائد والأحكام ﴿ والميزان ﴾ والشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو نفس العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن ﴿ وما يدريك ﴾ أى أى شئ يجعلك عالما ﴿ لعل الساعة ﴾ التى يخبر بجميعها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قريب ﴾ أى شئ قريب أو قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب أو الساعة بمعنى البعث والمعنى أنها على جناح الإيمان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى يوزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها .

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ استعجال إنكار واستهزاء كانوا

يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذى نحن عليه أم الذى عليه محمد وأصحابه ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ خائفون منها مع اعتناء بها لتوقع الثواب ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ أى السكائن لا محالة ﴿ألا إن الذين يمارون فى الساعة﴾ يجادلون فيها من المارية أو من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لفى ضلال بعيد﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراه أبعد وأبعد ﴿الله لطيف بعباده﴾ أى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون الطافة ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يرزق من يشاء﴾ أن يرزقه كيفما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته المبغية على الحكم البالغة ﴿وهو القوى﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شىء ﴿العزى﴾ المنيع الذى لا يغلب ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ الحرث فى الأصل إلقاء البذر فى الأرض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبغية على تشبيهها بالغلل الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿زدله فى حرثه﴾ نضاعفك له ثوابه بالواحد عشرة إلى سبعمائة فما فوقها ﴿ومن كان يريد﴾ بأعماله ﴿حرث الدنيا﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿نوته منها﴾ أى شيا منها حسبما قسمنا له لا ما يريد ويبتغيه ﴿وما له فى الآخرة من نصيب﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة الإسراء .

﴿أم لهم شركاء﴾ أى بل لهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتفريع ﴿شرعوا لهم﴾ بالتسويل ﴿من الدين ما لم يأذن به الله﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى واستناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى (إنهم أضلن كثيرا) أو تماثيل من سن الضلالة لهم ﴿ولو لا كلمة الفصل﴾ أى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو العدة بأن الفصل يكون يوم

القيامة ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ وقرئ بالفتح عطفًا على كلمة الفصل أى ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فإن العذاب الأليم غالب فى عذاب الآخرة ﴿ترى الظالمين﴾ يوم القيامة والخطاب لكل أحد من يصلح له للقصد إلى أن سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء ﴿مشفقين﴾ خائفين ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات ﴿وهو واقع بهم﴾ أى ووباله لاحق بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين أو اعتراض ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات﴾ مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ أى ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاءون ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للإيدان بيمد منزلة المشار إليه ﴿هو الفضل الكبير﴾ الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ﴿ذلك﴾ الفضل الكبير هو ﴿الذى يبشر الله عباده﴾ أى يبشرهم به لحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما فى قوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولاً) أو ذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقرئ يبشر من أبشر .

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون أن محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت أى لا اطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ والبشارة ﴿أجراً﴾ نفعا ﴿إلا المودة فى القربى﴾ أى إلا أن تودوني لقربايتى منكم أو تودوا أهل قرابتي وقبل الاستثناء منقطع والمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكن أسألكم المودة وفى القربى حال منها أى إلا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى أهلها أو فى حق القرابة والقربى مصدر كالزنى بمعنى القرابة روى أنها لما نزلت قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبي صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم أهل (هـ - أبو السعود - خافين)

يبتى وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعه إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة وقيل القربى التقرب إلى الله أى إلا أن تودوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح وقرىء إلا مودة في القربى ﴿ ومن يقترب حسنة ﴾ أى يكتسب أى حسنة كانت فتناول مودة ذى القربى تناولا أوليا وعن السدى أنها المرادة وقيل نزلات في الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم ﴿ نزل له فيها ﴾ أى في الحسنه ﴿ حسنا ﴾ بمضاعفة الثواب وقرىء يزد أى يزد الله وقرىء حسنى ﴿ إن الله غفور ﴾ لمن أذنب ﴿ شكور ﴾ لمن أطاع بتوفيقه الثواب والتفضل عليه بالزيادة .

﴿ أم يقولون ﴾ بل أيقولون ﴿ افترى ﴾ محمد ﴿ على الله كذبا ﴾ بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على أن الهمزة للإنكار التوبيخى كأنه قيل آيتنا لكون أن ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو إلى الافتراء لا سيما الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأخفشها وقوله تعالى ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لا يشاء صدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضروره تمنعه عنه قطعا فسكأنه قيل لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حينما فحينا تبين أنه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى إن يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فإنه لا يجترىء على الافتراء عليه تعالى إلا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعنى لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ما قيل لو كذب على الله لانساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم ﴿ ويمحو الله الباطل ويحقق الحق بكلماته ﴾ استئناف مقرر لنفى الافتراء غير

معطوف على يختم كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لا تباع اللفظ كما فى قوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر) أى ومن عادته أنه تعالى يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ودمغه أو عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه تعالى يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والشكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مرد له بنصرتهم عليهم (لأنه عليم بذات الصدور) فيجرى عليها أحكامها اللاتقة بها من المحو والإثبات (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) التوبة هى الرجوع عن المعاصى بالندم عليها والعزم على أن لا يعاودها أبداً وروى جابر رضى الله عنه أن أعرابياً دخل مسجد رسول صلى الله عليه وسلم وقال اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء (ويعلم ما يفعلون) كأننا ما كان من خير وشر فيجازى ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرىء ما تفعلون بالناء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى يستجيب الله لهم لحذف اللام كما فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى كالوا لهم والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله عليه السلام أفضل الدعاء الحمد لله أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها وعن إبراهيم بن آدم أنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب قال لأنه دعاءكم ولم تجيبوه ثم قرأ (واقه يدعو إلى دار السلام) (ويزيدهم من فضله) على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد (والكافرون لهم عذاب شديد) بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد.

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطرا
أو لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلية البشرية وأصل
البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى من حيث الكمية أو الكيفية ﴿ولكن
ينزل بقدر﴾ أى بتقدير ﴿ما يشاء﴾ أن ينزله بما تقتضيه مشيئته ﴿لأنه بعباده
خبير بصير﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاليها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت
من أوقاتهم ما يليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما
تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وروى أن
أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى العرب كانوا إذا أخصوا تحاربوا
وإذا أجدبوا اتجمعوا ﴿وهو الذى ينزل الغيث﴾ أى المطر الذى يغيثهم من
الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرئ ينزل من الإنزال ﴿من بعد ما قنطوا﴾
يئسوا منه وتقيد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكر كمال النعمة وقرئ
بكسر النون ﴿وينشر رحمته﴾ أى بركات الغيث ومنافعه فى كل شيء من السهل
والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما أوليا
﴿وهو الولي﴾ الذى يتولى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿الحمد﴾ المسنق
للحمد على ذلك لا غيره ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض﴾ على ما هما
عليه من تعاجيب الصنائع فإنها بذاتها وصفاتها تدل على شئونه العظيمة ﴿وما بث
فيهما﴾ عطف على السموات أو الخلق ﴿من دابة﴾ من حى على إطلاق اسم المسبب
على السبب أو بما يدب على الأرض فإن ما يختص بأحد الشيتين المتجاورين يصح
نسبته إليهما كما فى قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من
الملح وقد جوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران فيوصفوا
بالديب وأن يخلق الله فى السماء حيوانا يمشون فيها مشى الأناسى على الأرض
كما ينهى عنه قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وقد روى أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال فوق السماء السابعة بحر من أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم
فوق ذلك ثمانية أوحال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق
ذلك العرش العظيم .

﴿وهو على جميعهم﴾ أى حشرهم بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى ﴿إذا شاء﴾ متعلق بما قبله لا بقوله تعالى ﴿قدير﴾ فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته وإذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضى تدخل المضارع ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ أى مصيبة كانت ﴿فما كسبت أيديكم﴾ أى ففى بسبب معاصيكم التى اكتسبتموها والفاء لأن ما شرطية أو متضمنة لمعنى الشرط وقرىء بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية ﴿ويعفو عن كثير﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخرى منها تعريضه للثواب بالهبر عليه ﴿وما أتم بمعجزين فى الأرض﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وما لكم من دون الله من ولى﴾ يحميكم منها ﴿ولا نصير﴾ يدفعها عنكم .

﴿ومن آياته الجوار﴾ السفن الجارية ﴿فى البحر﴾ وقرىء الجوارى ﴿كالأعلام﴾ أى كالجبال على الإطلاق لا التى عليها النور للاهتداء خاصة ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التى تجريها وقرىء الريح ﴿فيظللن رواكد على ظهره﴾ فيبقيان ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلاً ﴿لأن فى ذلك﴾ الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركبن أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿آيات﴾ عظيمة فى أنفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شؤنه تعالى ﴿لكل صبار شكور﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه إلى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل مؤمن كامل فإن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ﴿أو يوقن بما كسبوا﴾ عطف على يسكن والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيفرقن بعصفها وإيقاع الإيقاع عليهن مع أنه حال أهلن للبالغة والتحويل وإجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى ﴿ويعف عن كثير﴾ لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرىء ويعفو على الاستئناف ﴿ويدعم الذين يجادلون فى آياتنا﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى ﴿ولنجعله آية للناس﴾ وقوله ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ ونظائرهما وقرىء

بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفاً على يعف فيكون المعنى وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أى من مهرب من العذاب والجملة معاق عنها الفعل ﴿ فما أوتيتهم من شيء ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فتاع الحياة الدنيا ﴾ أى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خير ﴾ ذاتا للخلوص نفعه ﴿ وأبقى ﴾ زمانا حيث لا يزول ولا يفنى ﴿ للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لا على غيره أصلاً والموصول الأول لما كان متضمناً لمعنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها فى الحياة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثانى وعن على رضى الله عنه أنه تصدق أبو بكر رضى الله عنه بماله كله فلامه جمع من المسلمين فزات وقوله تعالى :

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ أى الكبائر من هذا الجنس ﴿ والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ مع ما بعده عطف على الذين آمنوا أو مدح بالنصب أو الرفع وبناء يغفرون على الضمير خبراً له للدلالة على أنهم الأخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرئ كبير الإثم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كبير الإثم الشرك ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة ﴾ نزل فى الانصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى ذو شورى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويحتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعداً إذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى فى سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ أى ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لا يتنافى وصفهم بالفقران فإن كلا منهما فضيلة محودة فى موقع نفسه ورذيلة مذمومة فى موقع صاحبه فإن الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللثام مذموم فإنه إغراء على البغي وعليه قول من قال :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلل مضر كوضع السيف في موضع الندى
وقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ بيان لوجه كون الانتصار من
الخصال الحميدة مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير بالإشارة إلى أن البادىء هو
الذى فعله لنفسه فإن الأفعال مستتبعة لأجزئتها حتما إن خيرا فخير وإن شرا
فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدى وإطلاق السيئة على الثانية لأنها تسوء من نزلت
به ﴿ فمن عفا ﴾ عن المسمى إليه ﴿ وأصلح ﴾ بينه وبين من يعاديه بالعفو
والإغضاء كما في قوله تعالى ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾
﴿ فأجره على الله ﴾ عدة مبهمة منبهة عن عظم شأن الموعد وخروجه عن
الحد المعهود ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ البادئين بالسيئة والمتعدين فى الانتقام .
﴿ ولئن انتصر بعد ظلمه ﴾ أى بعد ما ظلم وقد قرئ به ﴿ فأولئك ﴾
إشارة إلى من باعتبار المعنى كما أن الضميرين لها باعتبار اللفظ ﴿ ما عليهم من
سبيل ﴾ بالمعاقبة أو المعاقبة ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ يبتدئونهم
بالإضرار أو يعتدون فى الانتقام ﴿ ويغفون فى الأرض بغير الحق ﴾ أى
يتكبرون فيها تجبرا وفسادا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم والجنى
بغير الحق ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ بسبب ظلمهم وبغيتهم ﴿ ولئن صبر ﴾ على الأذى
﴿ وغفر ﴾ لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله تعالى ﴿ إن ذلك ﴾ الذى
ذكر من الصبر والمغفرة ﴿ لمن عزم الأمور ﴾ أى إن ذلك منه لحذف ثقة
بغاية ظهوره كما فى قولهم السمن منان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو
إلى الشر كما أشير إليه ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده ﴾ من ناصر
يتولاه من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾ أى حين
يروونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقيق ﴿ يقولون هل إلى مرد ﴾ أى إلى رجعة
إلى الدنيا ﴿ من سبيل ﴾ حتى تؤمن ونعمل صالحا ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾
أى على النار المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لئلا من يتأتى منه
الرؤية ﴿ خاشعين من الذل ﴾ متذللين متضائلين عما دهاهم ﴿ ينظرون من

طرف خفى) أى يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور
 ينظر إلى السيف (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين) أى المتصفين بحقيقة
 الخسران (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بالتعريض للعذاب الخالد (يوم
 القيامة) إما ظرف لخسروا فالقول فى الدنيا أو لقال فالقول يوم القيامة أى
 يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقوله
 تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) إما من تمام كلامهم أو تصديق من
 الله تعالى لهم .

(وما كان لهم من أولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله)
 حسبا كانوا يرجون ذلك فى الدنيا (ومن يضل الله فما له من سبيل) يؤدى
 سلوكه إلى النجاة .

(استجيبوا لربكم) إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه (من قبل أن
 يأتى يوم لا مرد له من الله) أى لا يرده الله بعد ما حكم به على أن من صلة
 مرد أو من قبل أن يأتى من الله يوم لا يمكن رده (ما لكم من ملجأ يومئذ)
 أى مفر تلتجئون إليه (وما لكم من نكير) أى إنكار لما اقترفتموه لأنه
 مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليكم جوارحكم (فإن أعرضوا فما أرسلناك
 عليهم حفيظا) تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة
 وتوجيه له إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أى فإن لم يستجيبوا وأعرضوا
 عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسبا عليهم (إن عليك إلا البلاغ)
 وقد فعلت (ولما إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) أى نعمة من الصحة والغنى
 والأمن (فرح بها) أريد بالإنسان الجنس لقوله تعالى (وإن تصبهم سيئة)
 أى بلاء من مرض وفقر وخوف (بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور)
 بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل
 يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها وإسناد هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها
 من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد وتصدير الشرطية الأولى بإذا مع
 إسناد الإذالة إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير

الوقوع وأنه ممتنع الذات كما أن تصدير الثانية بإن وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليها بأعمالهم للإيدان بندرة وقوعها وأنها بمنزل عن الانتظام في سلك الإرادة بالذات ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وفي كل ما فيهما كيفما يشاء ومن جلته أن يقسم النعمة والبلية حسبما يريد ﴿يخلق ما يشاء﴾ مما تملوه ومما لا تعلمه ﴿يب لم يشاء وإنانا﴾ من الأولاد ﴿وي لم يشاء الذكور﴾ منهم من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد ﴿أو زوجهم﴾ أى يقرن بين الصنفين فيهما جميعا ﴿ذكرانا وإنانا﴾ قالوا معنى زوجهم أن تلد غلاما ثم جارية أو جارية ثم غلاما أو تلد ذكرا وأنثى توأمين ﴿ويجعل من يشاء عقيبا﴾ والمعنى يجعل أحوال العباد في حق الأولاد مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فمن فيهم لبعض إما صنف واحد من ذكر أو أنثى وإما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما تتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق به مشيئة الإنسان والإناث كذلك أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدن أعظم البلايا أو لتطبيب قلوب آبائهن أو للحفاظ على الفواصل ولذلك عرف الذكور أو لجبر التأخير وتغيير العاطف في الثالث لأنه قسم المشترك بين القسمين ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأن قسم المشترك بين الأقسام المتقدمة وقيل المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط وإنانا وإبراهيم ذكورا وللنبي صلى الله عليه وسلم ذكورا وإنانا وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿لأنه عليم قدير﴾ مبالغ في العلم والقدرة فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة .

﴿وما كان لبشر﴾ أى وما صح لفرد من أفراد البشر ﴿أن يكلمه الله﴾ بوجه من الوجوه ﴿إلا وحيا﴾ أى إلا بأن يوحى إليه ويلهمه ويقذف في قلبه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليهما السلام في ذبح ولده وقد روى عن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره أو بأن يسمعه

كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه وهو
المراد بقوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ﴾ فإنه تمثيل له بحال الملك المحتجب
الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه
وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام أو بأن يكلمه بواسطة
الملك وذلك قوله تعالى ﴿أَوْ يَرْسِلْ رَسُولًا﴾ أى ملكا ﴿فِي وَحْيٍ﴾ ذلك
الرسول إلى المرسل إليه الذى هو الرسول البشرى ﴿يُؤْذِنُهُ﴾ أى بأمره تعالى
وتيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحى إليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الأوقات من الكلام وقيل قوله تعالى
وحيا وقوله تعالى أَوْ يَرْسِلْ مَصْدَرَانِ واقعان موقع الحال وقوله تعالى أَوْ مِنْ وَّرَاءِ
حِجَابٍ ظرف واقع موقعها والتقدير وما صح أن يكلم إلا موحيا أو مسمعا من
وراء حجاب أو مرسلا وقرىء أَوْ يَرْسِلْ بِالرَّفْعِ عَلَى إِضْمَارٍ مُبْتَدَأٍ وَرَوَى أَنَّ
الْيَهُودَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَلَا تَكَلِّمُ اللَّهَ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا
كَما كَلَّمَهُ مُوسَى وَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَفْعَلَ ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَامُ لَمْ
يَنْظُرْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَامُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْزَلَتْ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ زَعَمَ
أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَّةَ ثُمَّ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا
رَبِّكُمْ يَقُولُ فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَئِنْ عَلَى﴾ مُتَعَالٍ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَتَأَنَّى
جَرِيَانِ الْمَفَاوِضَةِ بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَهُمْ إِلَّا بِأَحَدِ الْوُجُوهِ الْمَذْكُورَةِ ﴿حَكِيمٍ﴾
يَجْرَى أَعْمَالُهُ عَلَى سَنَنِ الْحِكْمَةِ فَيَكَلِّمُ تَارَةً بِوَاسِطَةِ وَآخَرَةً بِدُونِهَا إِمَّا إلهَامًا وَإِمَّا
خَطَابًا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَى وَمِثْلَ ذَلِكَ الْإِيحَاءُ الْبَدِيعِ ﴿أَوْ حِينَئِذٍ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ
أَمْرِنَا﴾ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِى هُوَ لِلْقُلُوبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لِلْأَبْدَانِ حَيْثُ يَحْيِيهَا حَيَاةً
أَبَدِيَّةً وَقِيلَ هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَامُ وَمَعْنَى إِيْحَانِهِ إِلَيْهِ عَلَيْهِمَا الصَّلَامُ لِإِسَالِهِ
إِلَيْهِ بِالْوَحْيِ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ قَبْلَ الْوَحْيِ ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ أَى أَى شَيْءٍ
هُوَ ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أَى الْإِيمَانُ بِتَفَاصِيلِ مَا فِي تَضَاعِيفِ الْكِتَابِ مِنَ الْأُمُورِ
الَّتِى لَا تَهْتَدِ إِلَيْهَا الْعُقُولُ لَا الْإِيمَانُ يَمَّا يَسْتَقِلُّ بِهِ الْعَقْلُ وَالنَّظَرُ فَإِنْ دَرَيْتَهُ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ قَطْعًا ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَى الرُّوحَ الَّذِى
أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿مَنْ عِبَادِنَا﴾ وَهُوَ الَّذِى

يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى ﴿ وإنا أنزلناه قرآنًا عربيًا ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيةها ومفعول لتهدى محذوف ثقة بغاية الظهور أى وإنا أنزلناه قرآنًا عربيًا بذلك النور من نشاء هدايته ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام وقرىء لتهدى أى ليهديك الله وقرىء لتدعو ﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول وإضافته إلى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى ﴿ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ لتفخيم شأنه وتقدير استقامته وتأكيده وجوب سلوكه فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم لإيجاب ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أى أمور ما فيهما قاطبة لا إلى غيره ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى . عن رسول الله صل الله عليه وسلم من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له .

* * *

سورة الزخرف

مكية ، وقيل لإلا قوله (وإنا أنزلناه قرآنًا عربيًا) وآياتها تسع وثمانون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ حم ﴾ الكلام فيه كالذى مر في فاتحة سورة يس خلا أن الظاهر على تقدير إسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فإن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم ﴿ والكتاب ﴾ بالجر على أنه مقسم به إما ابتداء أو عطفًا على حم على تقدير كونه مجرورًا بإضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة في العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية ﴿ المبين ﴾ أى البين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح السبل ما يحتاج إليه فى أبواب الديانة ﴿ إنا جعلناه قرآنًا عربيًا ﴾

جواب للقسم لكن لا على أن مرجع التأكيد جعله كذلك كما قيل بل ما هو غايته التي يعرب عنها قوله تعالى ﴿لعلكم تعقلون﴾ فإنها المحتاجة الى التحقيق والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم وإتمام النعمة عليهم وإزاحة أعذارهم أى جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية ﴿ولانه في أم الكتاب﴾ أى في اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية وقرىء أم الكتاب بالكسر ﴿لدينا﴾ أى عندنا ﴿لعل﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم وهما خبران لأن وما بينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا في أم الكتاب ولدينا والجملة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة في حكمها ففي الإقسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وإيدان بأنه من علو الشأن بحيث لا يحتاج في بيانه إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره بل هو بذاته كاف في الشهادة على ذلك من حيث الإقسام به كما أنه كاف فيها من حيث إعجازه ورمز إلى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به وإما مستأنفة مقررة لعلو شأنه الذي أنبأ عنه الإقسام به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى ﴿ولانه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وبعدما بين علو شأن القرآن العظيم وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل ﴿أفمنضرب عنكم الذكر﴾ أى ننحيه ونبعدد عنكم مجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الخوض وفيه إشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهاوت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أى أنهم لم يمتنعوا من الذكر عنكم ﴿صفحا﴾ أى إعراضا عنكم على أنه مفعول له للذكر أو مصدر مؤكد لمادل هو عليه فإن التنحية منبئة عن الصفح والإعراض قطعاً كأنه قيل أفمنصفح عنكم صفحا أو بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى أفنتحى عنكم جانبا ﴿إن كنتم قوما مسرفين﴾ أى لأن كنتم منهمكين في الإسراف

مصرين عليه على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهدىكم إلى الحق بإرسال الرسول الأمين وإزالة الكتاب المبين وقرىء بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للحق مخرج المشكوك لاستجهاطهم والجزاء محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
 تقرير لما قبله ببيان أن إصراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه به وقوله تعالى ﴿فَاهْلِكُنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه الصلاة والسلام ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين ووصفهم بأشدية البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها أن تسير مسير المثل ﴿وإِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي ليسندن خلقها إلى من هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الأمر لأنهم يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأن اتصافه تعالى بما سرد من جلال الصفات والأفعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء أمر بين لا ريب فيه وأن الحججة قائمة عليهم شأوا أو أبوا وقد جوز أن يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ استئناف من جهة تعالى أي بسطها لكم تستقرون فيها ﴿وجعل لكم فيها سبيلًا﴾ تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي ﴿والَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿بَلَدًا مَيِّتًا﴾ خاليا عن النبات والنبات بالكلية وقرىء ميता بالتشديد وتذكيره لأن البلدة في معنى البلد والمكان والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بـ **يعظم**

خطرهم (كذلك) أى مثل ذلك الإحياء الذى هو فى الحقيقة لإخراج النبات من الأرض (تخرجون) أى تبعثون من قبوركم أحياء وفى التعبير عن إخراج النبات بالإشارة الذى هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس .

(والذى خلق الأزواج كلها) أى أصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضى الله عنهما الأزواج الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى وقيل كل ما سوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار الى غير ذلك (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) أى ما تركبونه تغليباً للأنعام على الفلك فإن الركوب متعدد بنفسه واستعماله فى الفلك ونحوها بكلمة فى للرمز إلى مكانيتها وكون حركتها غير إرادية كما مر فى سورة هود عند قوله تعالى وقال (اركبوا فيها) (لتستروا على ظهوره) أى لتستعملوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والأنعام والجمع باعتبار المعنى (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بالسنةكم (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك كما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فإذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا إلى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثاً وهمل ثلاثاً (وما كنا له مقرنين) أى مطبقين من أقرن الشيء إذا أطاقه وأصله وجده قرينته لأن الصعب لا يكون قرينته للضعيف وقرىء بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى إذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حق المنعم بها (ولنا إلى ربنا لمنقلبون) أى راجعون وفيه إيدان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلبسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى التى هى الانقلاب إلى الله تعالى فيبني أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يخطر بباله فى شيء مما يأتى ويذر أمراً ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لأمر مشروع .

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم . الخ أى وقد جعلوا له سبحانه بالسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدا وإنما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرئ جزؤا بضمهين ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون ما يقولون سبحانه الله عما يصفون ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من بيان بطلان جعلهم له تعالى ولدا على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفيه والهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى ﴿ وأصفاكم بالبنين ﴾ إما عطف على اتخذ داخل في حكم الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ أى بل اتخذ من خلقه أحسن الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أنكم اجترأتم على إضافة اتخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه أما كان لكم شيء من العقل ونذ من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين وأعلاما وتركه شرهما وأدناهما وتنكير بنات وتعريف البنين لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة .

من دلائل الكفر

﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ﴾ الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال على معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم والالتفات للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيبا منها أى إذا أخبر أحدهم بولادة ما جعله مثلا له سبحانه إذ الولد لا بد أن يجانس الوالد ويمثله ﴿ ظل وجهه مسودا ﴾ أى صار أسود في الغاية من سوء ما بشر به ﴿ وهو كظيم ﴾ مملوء من الكرب والكتابة والجملة حال وقرئ مسود ومسودا على أن في ظل ضمير الم بشر ووجهه مسود جملة وقعت خبرا له ،

﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ تكرر للإنكار وتنشئة للتوبيخ ومن منصوبة بمضمر معطوف على جعلوا أى أو جعلوا من شأنه أن يربى في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لأمره بنفسه فاهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فاهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده وإقحامها بين المعطوفين لتذكير ما في أم المنقطة من الإنكار وتأكيده والعطف للتغاير العنواى أى أو اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته ﴿ وهو ﴾ مع ما ذكر من القصور ﴿ في الخصام ﴾ أى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غير مبين ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه وإضافة غير لا تمنع عمل ما بعده في الجار المتقدم لأنه بمعنى النفي وقرىء ينشأ وينشأ من الإفعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه وأغلاه وغلاه ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأيا وأخسهم صنفا وقرىء عبيد الرحمن وقرىء عبد الرحمن على تمثيل زلفهم وقرىء أنا وهو جمع الجمع ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أى أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم وقرىء أشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآشهدوا بألف بينهما ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة وقرىء سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرىء شهادتهم وهى قولهم إن لله جزءا وإن له بنات وأنها الملائكة وقرىء يسألون من المسألة للبالغة ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ بيان لفن آخر من كفرهم أى لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ما عبدناهم أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه حق مرضى عنده تعالى وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى إياه منهم مع اعترافهم بقبحه حتى ينتهز ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين إحداهما أن عبادتهم لهم بمشيئته تعالى والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد أخطأوا في الثانية حيث جعلوا

أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كأننا ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط في شيء من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى ﴿ ما لهم بذلك ﴾ أى بما أرادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فإن ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة ﴿ من علم ﴾ يستند إلى سند ما ﴿ إن هم إلا يخوضون ﴾ يتمحلون تمحلا باطلا وقد جوز أن يشار بذلك إلى أصل الدعوى كأنه لما أظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل ثم أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سد من جهة النقل فقيل :

﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله ﴾ من قبل القرآن أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ﴿ فهم به ﴾ بذلك الكتاب ﴿ مستمسكون ﴾ وعليه معولون ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أى لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آباءهم الجبهة مثلهم والأمة الدين والطريقة التى تأم أى تقصد كالرحلة لما يرحل إليه وقرىء أمة بالكسر وهى الحالة التى يكون عليها الأم أى القاصد وقوله تعالى على آثارهم مهتدون خبر إن والظرف صلة لمهتدون ﴿ وكذلك ﴾ أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبيهم بذيل التقليد وقوله تعالى ﴿ ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضا سند غيره وتخصيص المترفين بتلك المقالة للإيدان بأن التعمم وحب البطالة هو الذى صرفهم عن النظر إلى التقليد ﴿ قال ﴾ حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أمهم عند تعللهم بتقليد آباءهم أى قال كل نذير من أولئك المنذرين لأمهم ﴿ أولو جئتمكم ﴾ أى أتقتدون بآباءكم ولو جئتمكم ﴿ بأهدى ﴾ بدين أهدى ﴿ بما وجدتم عليه آباءكم ﴾ من الضلالة التى ليست من الهداية فى شيء وإنما عبر عنها بذلك مجازاة معهم على مسلك الإنصاف وقرىء على أنه حكاية أمر ماض أوحى حينئذ إلى كل نذير لا على أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم كما قيل لقوله تعالى :

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ فإنه حكاية عن الأمم قطعاً أى قالت كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلت به الخ وقد أجل عند الحكاية للإيجاز كما مر فى قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليب على سائر المنذرين عليهم السلام وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لإجماعهم عليه كما فى نظائر قوله تعالى (كذب عاد المرسلين) تحمل بعيد يردده بالسكية قوله تعالى ﴿فانتقمنا منهم﴾ أى بالاستئصال .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من الأمم المذكورين فلا تكثر بتكذيب قومك ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ أى واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لأبيه وقومه﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله ﴿إني براء مما تعبدون﴾ وتمسك بالبرهان ليسلكوا مستلكه فى الاستدلال أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آباءهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وقرئ بربى وبراء بضم الباء ككريم وكرام وما إمام مصدرية أو موصولة حذف عاندها أى إني بربى من عبادتكم أو معبودكم .

﴿ إلا الذى فطرني ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن ما تعم أولى العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام أو صفة على أن ما موصوفة أى إني براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرني ﴿ فإنه سيهدين ﴾ أى سيثبتنى على الهداية أو سيهدين إلى ما وراء الذى هداني إليه إلى الآن والأوجه أن السين للنا كيد دون التسوييف وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ وجعلها ﴾ أى جعل إبراهيم كلمة التوحيد التى ماتكلم به عبارة عنها ﴿ كلمة باقية فى عقبه ﴾ أى فى ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيدده وقرئ كلمة وفى عقبه على التخفيف ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ علة للجعل أى جعلها باقية فى عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحده ﴿ بل تمتعت هؤلاء ﴾

إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية في عقبه بأن وصى بها بنييه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل ما رجاء بل تمتعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم من أهل مكة (وآباءهم) بالمد في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم) أى هؤلاء (الحق) أى القرآن (ورسول) أى رسول (مبين) ظاهر الرسالة واضحا بالمعجزات الباهرة أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرىء متعنا وامتعت بالخطاب على أنه تعالى اعترض به على ذاته في قوله تعالى (وجعلها كلمة باقية) الخ مبالغة في تعبيرهم فإن التمتع بزيادة النعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان فجعله سببا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال .

(ولما جاءهم الحق) لينبهم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفرا وعتوا وضموا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به حيث (قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) فسموا القرآن سحرا وكفروا به واستحققوا الرسول صلى الله عليه وسلم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) أى من إحدى القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) (عظيم) أى بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة المخزومي وعروة بن مسعود الثقفي وقيل حبيب بن عمر بن عمير الثقفي وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا على نزوله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى أنه لو كان قرآنا لنزل إلى أحد هؤلاء بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى إليها إلا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الأنسية وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية الممتنعون بالحفظ فهم من استحقاق

تلك الرتبة بألف منزل وقوله تعالى ﴿أَمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه
تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾
أى أقتاب معيشتهم ﴿فى الحياة الدنيا﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبدئية على الحكم
والمصالح ولم نفوض أمرها إليهم علما منا بهجزهم عن تدبيرها بالكلية ﴿ورفعنا
بعضهم فوق بعض﴾ فى الرزق وسائر مبادئ المعاش ﴿درجات﴾ متفاوتة بحسب
القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى وفقير وغنى وخادم ومخدوم
وحاكم ومحكوم ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ ليصرف بعضهم بعضا فى مصالحهم
ويستخدموهم فى مهمتهم ويتسخروهم فى أشغالهم حتى يتعاشوا ويتراقدوا
ويصلوا إلى مرافقهم لا لسكال فى الموسع ولا لنقص فى المقتر ولو فوضنا ذلك
إلى تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو فى طرف
التمام على هذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط
العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم
بأمرها ﴿ورحمة ربك﴾ أى النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خير مما
يجمعون﴾ من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى ﴿ولولا أن يكون الناس
أمة واحدة﴾ استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل
والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر
إذا رأوا أهلها فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لأعطيناهم بها ذافيره من هو شر
الخلائق وأدناهم منزلة وذلك قوله تعالى ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم
سقفا من فضة﴾ أى متخذة منها ولبيوتهم بدل احتمال من لمن وجمع الضمير
باعتبار معنى من كما أن أفراد المستكن فى يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع
سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن وسقيفة وقوى
سقفا بسكون القاف تخفيفا وسقفا اكتفاء بجمع البيوت وسقفا كإله لغة فى سقف
وسقوفا ﴿ومعارج﴾ أى جعلنا لهم معارج من فضة أى معاهد جمع معرج وقوى
معارج جمع معراج ﴿عليها يظهرون﴾ أى يعلون السطوح والعلالي ﴿ولبيوتهم﴾ أى
وجعلنا لبيوتهم ﴿أبوابا وسرا﴾ من فضة ﴿عليها﴾ أى على السرر ﴿يتكثون﴾

ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير (وزخرفاً) أى زينة عطف على سقفا أو ذهباً عطف على محل من فضة .

((وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا)) أى وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إلا شيء يتمتع به فى الحياة الدنيا وفى معناه ما قرىء وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا وقرىء بتخفيف ما على أن أن هى المخففة واللام هى الفارقة وقرىء بكسر اللام على أنها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها أى للذى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى (تماماً على الذى أحسن) ((والآخرة)) بما فيها من فنون النعم التى يقصر عنها البيان ((عند ربك للمتقين)) أى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين أن العظيم هو العظيم فى الآخرة لا فى الدنيا ((ومن يعيش)) أى يتعام ((عن ذكر الرحمن)) وهو القرآن وإضافته إلى اسم الرحمن للإيدان بزوله رحمة للعالمين وقرىء يعيش بالفتح أى يعم يقال عشى يعيش إذا كان فى بصره آفة وعشا يعيش إذا تعشى بلا آفة كخرج وخرج وقرىء يعيش على أن من موصولة غير مضممة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهما كه فى حظوظها الفانية والشهوات ((نقيض له شيطانا فهو له قرين)) لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرىء يقيض بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمن ومن رفع يعيش فحقه أن يرفع يقيض ((وإنهم)) أى الشياطين الذين يقيض كل واحد منهم لكل واحد من يعيش ((ليصدونهم)) أى قرناءهم فدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما أن مدار لإفراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها ((عن السبيل)) المستبين الذى يدعو إليه القرآن ((ويحسبون)) أى العاشون ((أنهم)) أى الشياطين ((مهتدون)) أى إلى السبيل المستقيم وإلا لما اتبهوهم أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ أو من فاعله أو منهما لاشتغالها على ضميريهما أى وأنهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون

إليه وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى :

((حتى إذا جاءنا)) فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلية على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتما أن تكون غاية لأمر ممتد كما مر مرارا وإفراد الضمير في جاء وما بعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد واحد من العاشقين لقريئة لتحويل الأمر وتفضييع الحال والمعنى يستمر العاشقون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد ، الحسبان الباطل حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قريته يوم القيامة .

((قال)) مخاطباً له ((يا ليت بيني وبينك)) في الدنيا ((بعد المشرقين)) أى بعد المشرق والمغرب أى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما ((فبئس القرين)) أى أنت وقوله تعالى ((ولن ينفعكم)) الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريفاً أى لن ينفعكم ((اليوم)) أى يوم القيامة تمنىكم لمباعدتهم ((إذ ظلمتم)) أى لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي وقيل إذ ظلمتم بدل من اليوم أى إذ تبين عندكم وعند الناس جميعاً أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا وعليه قول من قال * إذا ما انتسبنا لم تلدنى لثيمة * أى تبين أنى لم تلدنى لثيمة بل كرمته وقوله تعالى ((أنكم في العذاب مشتركون)) تعليل لنفى النفع أى لأن حقكم أن تشاركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ويجوز أن يسند الفعل إليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمل أعبائها وتقسيمهم لعنائها لأن لكل منهم ما لا تبلغه طاقته كما قيل لأن الاتفاغ بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه بل بمعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرناكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) وقولكم (فآتهم عذاباً ضعفاً من النار) ونظائرهما لتشفوا بذلك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ في المجاهدة في دهاء

قومه وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصامما عما يسمعون من بينات القرآن فنزل .

﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ﴾ وهو إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا فى الضلال بحيث صار ما بهم من العشى عمى مقرونا بالصمم ﴿ ومن كان فى ضلال مبين ﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لا ارعوا له منه لا توهم القصور من قبل الهادى فقيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والإلجاء ﴿ وإمانذهبن بك ﴾ أى فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفي بذلك صدرك وصدور المؤمنين ﴿ فإننا منهم منتقمون ﴾ لا محالة فى الدنيا والآخرة فما مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم فى أنها لا تفارق النون المؤكدة ﴿ أو نريك الذى وعدناهم ﴾ أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم ﴿ فإننا عليهم مقتدرون ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا ولقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر ﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك ﴾ من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعد أو أخرناه إلى يوم الآخرة وقرىء أوحى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ تعليل للاستمسك أو للأمر به ﴿ وإنه لذكر ﴾ لشرف عظيم ﴿ لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ أى واسأل أمهم وعلماء دينهم كقوله تعالى ﴿ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ وفائدة هذا الحجاز التنبيه على أن المسؤول عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل لا ما يقوله أمهم وعلمائهم من تلقاء أنفسهم قال الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أجمعنا من دون الرحمن آتاه يعبدون ﴾ أى هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل جاءت فى ملة من ملهم والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والتنبيه على أنه ليس بيدع ابتدعه حتى يكذب ويمادى .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ ملتبساً بها ﴿ إلى فرعون وملائكته فقال لاني رسول رب العالمين ﴾ أريد باقتصاصه تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد إثر ما أشير إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أى فاجؤا وقت ضحكهم منها أى استزؤاها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها ﴿ وما نريهم من آية ﴾ من الآيات ﴿ إلا هي أكبر من أختها ﴾ إلا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسب كل من ينظر إليها أنها أكبر من كل ما يقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور في شيء منها أو لا ولا هي مختصة بضرب من الإعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ كالسنين والطوفان والجراد وغيرها ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ لكن يرجعوا عما هم عليه من الكفر ﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لا استعظامهم علم السحر وقرىء آيه الساحر بضم الهاء ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بما عهد عندك ﴾ بعهدك من النبوة أو استجابة دعوتك أو من كشف العذاب عن اهتدى أو بما عهد عندك فوفيت به من الإيمان والطاعة ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ بدعوتهم ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله فى الأعراف ﴿ ونادى فرعون ﴾ بنفسه أو بمخاديه ﴿ فى قومه ﴾ فى جمعهم وفيما بينهم بعد أن كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا ﴿ قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهار الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر نيس ﴿ تجري من تحتي ﴾ أى من تحت قصرى أو أمرى وقيل من تحت سرى لارتفاعه وقيل بين يدي فى جنائى وبساتينى والواو إما عاطفة لهذه الأنهار على ملك مصر فتجرى حال منها أو للحال فهذه مبتدأ والأنهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك يريد به استعظام ملكه .

﴿ أم أنا خير ﴾ مع هذه المملسكة والبسطة ﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾
 ضعيف حقير من المهانة وهي القلة ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ أى الكلام قاله افتراء
 عليه عليه السلام وتنقيصا له عايه السلام فى أعين الناس باعتبار ما كان فى لسانه
 عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى (قد أوتيت سؤللك)
 وأم إما منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال إثر ما عدد أسباب فضله ومبادئ
 خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير وهذه حالى من هذا الخ وإما
 متصلة فالمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون خلا أنه وضع قوله أنا خير موضع
 تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فهم عنده بهراء وهذا من باب تنزيل
 السبب منزلة المسبب ويجوز أن يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فإن
 إبهارهم لما ذكر من أسباب فضله سبب على زعمه لحكمهم بخيريته ﴿ فلو لا
 ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ أى فهلا ألقى إليه مقاليد الملك إن كان صادقا لما
 أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع
 سوار وقرىء أساور جمع أسورة وقرىء أسورة جمع أسوار بمعنى السوار على
 تعويض التاء من ياء أساور وقد قرىء كذلك وقرىء ألقى عليه أسورة وأساور
 على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ مقرونين
 يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن
 ﴿ فاستخف قومه ﴾ فاستنزم وطلب منهم الخفة فى مطاوعته أو فاستخف
 أحلامهم ﴿ فأطاعوه ﴾ فيما أمرهم به ﴿ لأنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فلذلك
 سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أى أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد
 غضبه ﴿ انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ فى اليم ﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ قدوة لمن بعدهم
 من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ما حل بهم من العذاب وهو
 إما مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم جمع خادم وقرىء بهضم السين واللام
 على أنه جمع سليف أى فريق قد سلف كرغف أو سالف كصبر أو سلف كإسد
 وقرىء سلفا بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أى ثلة قد سلفت

(ومثلا للآخرين) أى عظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون .

أمثلة ضربها الكفار

(ولما ضرب ابن مريم مثلاً) أى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (لأنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) حيث قال أهذا لنا ولاهتتنا أو لجميع الأمم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولاهتكم وجميع الأمم فقال اللعين خصمته رب الكعبة أليس النصرارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى (إذا قومك منه) أى من ذلك المثل (يصدون) أى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجدلا وقرىء يصدون أى من أجل ذلك المثل يعرضون عن الحق أى يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض أو يزدادون فيه وقيل هو أيضا من الصديد وهما لغتان فيه نحو يكف ويكف وهو الأنسب بمعنى المفاجأة (وقالوا آلهتنا خير أم هو) حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيدا لما بنو عليه من الباطل المموء بما يغتر به السفهاء أى ظاهر أن عيسى خير من آلهتنا حيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم أن ما نقل عنهم من الفرح ورفع الأصوات لم يكن لما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام سكنت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى) الآية فإن ذلك مع إيهامه لما يجب تنزيهه عليه الصلاة والسلام عنه من شائبة الإلحاف من أول الأمر خلاف الواقع كيف لا وقد روى أن قول ابن الزبعرى خصمته رب الكعبة صدر عنه من أول الأمر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله عليه الصلاة والسلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل وإنما لم يخص عليه السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة ما بغير

العقلاء لأن إخراج بعض المعبودين عنه عند الحاجة موهم للرخصة في عبادته في الجملة فعممه عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبودية من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك إن الملائكة والمسيح بمحزل من أن يكونوا معبودهم كما نطق به قوله تعالى (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) الآية وقد مر تحقيق المقام عند قوله تعالى (إن الذين سبق لهم منا الحسن) الآية بل إنما كان ما ظهره من الأحوال المنكرة لمحض وقاحتهم ونها السكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى :

((ما ضربوه لك إلا جدلا)) أى ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدل والخصام لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك ((بل هم قوم خصمون)) أى لدشداد الخصومة مجبولون على المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم (أألهتنا خير أم هو) حيثئذ تفضيل لألهتهم على عيسى عليه السلام لأن المراد بهم الملائكة ومعنى ما ضربوه الخ ما قالوا هذا القول إلا للجدل وقيل لما نزلت (إن مثل عيسى) الآية قالوا ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير في أم هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فإن النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه فنحن أشف منهم قولا وفعلنا حيث نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى فقولته تعالى ((إن هو إلا عبد أقمنا عليه)) أى بالنبوة ((وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل)) أى أمرا عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالمثال السائرة على الوجه الأول استئناف مسوق لتزييه عليه السلام عن أن ينسب إليه ما ينسب

إلى الأصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحا قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا
الحسن) الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض
بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان أنه
قياس باطل بباطل أو بأبطل على زعمهم وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد قصارى
أمره أنه ممن أنعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن
خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبعد منه فأين هو من رتبة الربوبية
ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدي
منهم أو يعتذروا بأن حالهم أشرف أو أخف من حالهم وأما على الوجه الثالث
فهو لردهم وتكذيبهم فى افتراءهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن
عيسى فى الحقيقة وفيما أوحى الى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أنه
عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى عليه السلام بمعبوديته أو كيف يتوهم
الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى ﴿ولو نشاء﴾ الخ لتحقيق أن مثل عيسى عليه
السلام ليس يبدع من قدرة الله وأنه تعالى قادر على أبداع من ذلك وأبرع
مع التلبية على سقوط الملائكة أيضا من درجة المعبودية أى قدرتنا بحيث لو نشاء
﴿جعلنا﴾ أى خلقنا بطريق التوالد ﴿منكم﴾ وأنتم رجال ليس من شأنكم
الولادة ﴿ملائكة﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فى الأرض﴾ مستقرين
فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء ﴿يخلفون﴾ أى يخلفونكم مثل أولادكم فيما
تأتون وما تذرون ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم مع أن شأنهم التسبيح
والتقديس فى السماء فن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة الى القدرة الربانية كيف يتوهم
استحقاقهم للمعبودية أو انتسابهم اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ولم يزل﴾ وإن عيسى ﴿لعمل للساعة﴾ أى إنه بنزوله شرط من أشرطها
وتسميته علما لحصوله به أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموقى دليل على صحة
البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة وقرىء
لعمل أى علامة وقرىء للعمل وقرىء لذكر على تسمية ما يذكر به ذكرا كتسمية
ما يعلم به علما وفى الحديث إن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالارض المقدسة

يقال لها أفيق وعليه مصرتان ويده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويغرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة ﴿ فلا تمترن بها ﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿ وانبعون ﴾ أى واتبعوا هداى أو شرعى أو رسول وقيل هو قول الرسول مأموراً من جهته تعالى ﴿ هذا ﴾ أى الذى أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير فى أنه له ﴿ صراط مستقيم ﴾ موصل إلى الحق ﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ عن اتباعى ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ أى بالمعجزات أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات ﴿ قال ﴾ لبنى اسرائيل ﴿ قد جئتكم بالحكمة ﴾ لأعلمكم إياها ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴿ وهو ما يتعلق بأمور الدين وأما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام أنتم أعلم بأمور دنياكم .

﴿ فاتقوا الله ﴾ فى مخالفتى ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ﴿ إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ هذا ﴾ أى التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿ صراط مستقيم ﴾ لا يضل سالكه وهو إما من تممه كلامه عليه السلام أو استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ الفرق المتحيزة ﴿ من بينهم ﴾ أى من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ من المختلفين ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ هو يوم القيامة ﴿ هل ينظرون ﴾ أى ما ينتظر الناس ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم ﴾ أى إلا إتيان الساعة ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة لكن لا عند كونهم مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها وذلك قوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون الأخلاء ﴾ المتحابون فى الدنيا على الإطلاق أو فى الأمور الدنيوية ﴿ يومئذ ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿ بعضهم

لبعض عدو) لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور كونها أسبابا للعذاب (إلا المتقين) فإن خلعتهم في الدنيا لما كانت في الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلعتهم من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الأول منصل وعلى الثاني منقطع (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ تشريفا لهم وتطييبا لقلوبهم (الذين آمنوا بآياتنا) صفة للمنادى أو نصب على المدح (وكانوا مسلمين) أي مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن مقاتل إذا بعث الله الناس فرع كل أحد فينادى مناد يا عبادي فرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يقبها الذين آمنوا الآية فينكسر أهل الأديان الباطلة رؤسهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم) نساؤكم المؤمنات (تجبرون) تسرون سرورا يظهر حباري أي أثره على وجوهكم أو تزينون من الخبرة وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراما بليغا والخبرة المبالغة فيها وصف بحميل (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به (بصحاف من ذهب وأكواب) كذلك والصحاف جمع صحيفة قيل هي كالقصة وقيل أعظم القصص الجفنة ثم القصعة ثم الصحيفة ثم المسكيلة والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له (وفيها) أي في الجنة (ما تشتهي الأنفس) من فنون الملاذ وقرىء ما تشتهي (وتلذ الأعين) أي تستلذه وتقر بمشاهدته وقرىء وتلذه (وأنتم فيها خالدون) إتمام للنعمة وإكمال للسرور فإن كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لا محالة والالتفات للتشريف .

(وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (التي أورثتموها) وفرى ورثتموها (بما كنتم تعملون) في الدنيا من الأعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الأول والخبر بما كنتم تعملون فتتعلق الباء بمحذوف لا بأورثتموها كما في الأولين (لكم فيها فاكهة كثيرة) بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط (منها تأكلون) أي بعضها

تأكلون فى كل نوبة وأما الباقى فعلى الأشجار على الدوام لا ترى فيها شجرة
خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار أبدا موقرة بها وعن النبى صلى الله عليه
وسلم لا ينزع رجل من الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها (إن المجرمين)
أى الراسخين فى الإجرام وهم الكفار حسبما ينبى عنه إيرادهم فى مقابلة
المؤمنين بالآيات (فى عذاب جهنم خالدون) خبر إن أو خالدون هو الخبر
وفى متعلقة به (لا يفتر عنهم) أى لا يخفف العذاب عنهم من قوهم ففترت عنه
الحى إذا سكنت قليلا والتركيب للضعف (وهم فيه) أى فى العذاب وقرىء
فيها أى فى النار (مبلسون) آيسون من النجاة (وما ظلمناهم) بذلك (ولكن
كانوا هم الظالمين) لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد (ونادوا) خازن النار
(يا مالك) وقرىء يا مال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز إلى ضعفهم
وعجزهم عن تأدية^(١) اللفظ بتأمله (ليقضى علينا ربك) أى ليمتنا حق فستريح
من قضى عليه إذا أماته والمعنى سل ربك أن يقضى علينا وهذا لا ينافى ما ذكر
من إبلاسهم لأنه جوار وتمن للوت لفرط الشدة (قال إنكم ما تكون) أى فى
العذاب أبدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما
أنه لا يجيبهم إلا بعد ألف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد أربعين سنة .

(لقد جئناكم بالحق) فى الدنيا بإرسال الرسل وإزالة الكتب وهو خطاب
توبيخ وتقرع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم وقيل
فى قال ضمير الله تعالى (ولكن أكثرهم للحق) أى حق كان (كارهون)
لا يقبلونه وينفرون عنه وأما الحق الممهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلمهم
كارهون له مشتمزون منه (أم أبرموا أمرا) كلام مبتدأ ناع على المشركين
ما فعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وأم منقطعة وما فيها من معنى
بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للإنكار
فإن أريد بالإبرام الإحكام حقيقة فهى لإنكار الوقوع واستبعاده وإن أريد

الإحكام صورة فهي لإنكار الواقع واستقبحه أى أأبرم مشركوا مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فإنا مبرمون﴾ كيدنا حقيقة لأنهم أو إنا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أأبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) وكانوا يتناجون في أنديتهم ويتشاورون في أموره عليه الصلاة والسلام ﴿أم يحسبون﴾ أى بل يحسبون ﴿أنا لا نسمع سرهم﴾ وهو ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خال ﴿ونجواهم﴾ أى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى ﴿بلى﴾ نحن نسمعهم ونطلع عليهم ﴿ورسلنا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلزمونهم أينما كانوا ﴿لديهم﴾ عندهم ﴿يكتبون﴾ أى يكتبونهما أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم والحلة إما عطف على ما يترجم عنه بلى أو حال أى نسمعهم والحال أن رسلنا يكتبون ﴿قل﴾ أى للكفرة تحقيرا للحق وتنبيها لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا لإيهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أى له وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشئونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز وأولاهم بمراعاة حقوقه ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم في باب التوحيد ما لا يخفى مع ما فيه من استئزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه إيراد أن مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم الشرطية وقيل إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فأنا أول الآتقين أى المستمكفين منه أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه وقيل إن نافية أى ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وقرئ . ولد .

﴿سبعان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ أى يصفونه

به من أن يكون له ولد وفي إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيهه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه وفي تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش ﴿ فذرهم ﴾ حيث لم يدعوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يخوضوا ﴾ في أباطيلهم ﴿ ويلمعوا ﴾ في دنياهم فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال ليست إلا من باب الجهل واللعب والجزم في الفعل لجواب الأمر ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ من يوم القيامة فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي ينسب عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق كما مر في تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذي مستحق لأن يعبد فهما وقد مر تحقيقه في سورة الأنعام وقرئ وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله والراجع إلى الموصول مبتدأ قد حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبراً مقدماً وإله مبتدأ مؤخرًا للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز أن يكون صلة للموصول وإله خبراً للمبتدأ محذوف على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه في السماء على سبيل الإلهية لا على سبيل الاستنقرار وفيه نفى الآلهة السماوية والأرضية وتخصيص لاستحقاق الإلهية به تعالى وقوله تعالى ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ كالدليل على ما قبله ﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ إما على الدوام كالهواء أو في بعض الأوقات كالطير ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي العلم بالساعة التي فيها تقوم القيامة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ للجزاء والالتفات للتهديد وقرئ على الغيبة وقرئ تحشرون .

﴿ ولا يملك الذين يدعون ﴾ أي يدعوهم وقرئ بالتاء مخففاً ومشدداً ﴿ من دونه الشفاعة ﴾ كما يزعمون ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ الذي هو التوحيد ﴿ وهم يعلمون ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة ولما يقان وإخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الإفراد أو لا باعتبار لفظها والاستثناء إما متصل

والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله أو منفصل على أنه خاص بالأصنام
 ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ﴾ أى سألت العابدين والمعبودين ﴿ ليقولن الله ﴾
 لتعذر الإنكار لغاية بطلانه ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته
 إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى ﴿ وقيله ﴾ بالجر إما
 على أنه عطف على الساعة أى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام
 ﴿ يارب ﴾ الخ فإن القول والقيـل والقال كلها مصادر أو على أن الواو للقسم
 وقوله تعالى ﴿ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ جوابه وفى الإقسام به من رفع
 شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه إليه تعالى مالا يخفى وقرئ
 بالنصب بالعطف على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله أو يتقدير فعل
 القسم وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده وقد جوز عطفه على علم الساعة
 ﴿ فاصفح عنهم ﴾ فأعرض عن دعوتهم واقنط عن إيمانهم ﴿ وقل سلام ﴾ أى
 أمرى تسلم منكم ومتاركة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ حالهم البتة وإن تأخر ذلك
 وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ
 تعلمون على أنه داخل فى حيز قل . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
 الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم
 تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب .

سورة الدخان

مكية ، لإا قوله (إنا كاشفو العذاب) الآية
وهى سبع أو تسع وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين) الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة
(إنا أنزلناه) أى الكتاب المبين الذى هو القرآن (فى ليلة مباركة) هى
ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدئ فيها إنزاله أو أنزل فيها جملة إلى السماء الدنيا
من اللوح وأملأه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي صلى الله
عليه وسلم نحو ما فى ثلاث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها
بالبركة لما أن نزل القرآن مستتبع للنافع الدينية والدنيوية^(١) بأجمعها أو لما
فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأفضية
وفضيلة العبادة وإعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد
فى هذه الليلة ماء زمزم زيادة ظاهرة (إنا كنا منذرين) استئناف مبين لما
يقتضى الإنزال كأنه قيل إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من
العقاب وقيل جواب للقسام وقوله تعالى إنا أنزلناه الخ اعتراض وقيل جواب
ثان بغير عاطف (فيها يفرق كل أمر حكيم) استئناف كما قبله فإن كونها
مفرق الأمور المحسكة أو الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعى أن ينزل فيها
القرآن الذى هو من عظامها وقيل صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض وهذا
يدل على أنها ليلة القدر ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق
العباد وأجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة وقيل

يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت عليهم السلام وقرىء يفرق بالتشديد وقرىء يفرق على البناء للفاعل أى يفرق الله تعالى كل أمر حكيم وقرىء يفرق بنون العظمة .

(أمرنا من عندنا) نصب على الاختصاص أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلنا من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه حالا من كل أمر لتخصسه بالوصف أو من ضميره في حكيم وقد جوز أن يراد به مقابل النهى ويجعل مصدرا مؤكدا ليفرق لاتحاد الأمر والفرقان في المعنى أو لفعله المضمرا لما أن الفرق به أو حالا من أحد ضميرى أنزلناه أى أمرين أو مأمورا به (إنا كنا مرسلين) بدل من إنا كنا منذرين وقيل جواب ثالث وقيل مستأنف ، وقوله تعالى (رحمة من ربك) غاية للإرسال متأخرة عنه على أن المراد بها الرحمة الواصلة إلى العباد وباعت متقدم عليه على أن المراد مبدؤها أى إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالسكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم أو لاقضاء رحمتنا السابقة لإرسالهم ووضع الرب موضع الضمير للإيذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها وإضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه أو تعليل ليفرق أو لقوله تعالى أمرا على أن قوله تعالى رحمة مفعول للإرسال كما في قوله تعالى (وما يمسك فلا مرسل له) أى يفرق فيها كل أمر أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا إرسال رحمتنا ولا ريب في أن كلامنا قسمة الأرزاق وغيرها والأوامر الصادرة منه تعالى من باب الرحمة فإن الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع وقرىء رحمة بالرفع أى تلك رحمة وقوله تعالى : (إنه هو السميع العليم) تحقيق لربوبيته تعالى وأنها لا تحق إلا لمن هذه نعمته .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ بدل من ربك أو يان أو نعمت
 وقرىء بالرفع على أنه خبر آخر أو استئناف على إضمار مبتدأ ﴿ إن كنتم
 موقنين ﴾ أى إن كنتم من أهل الإيقان فى العلوم أو إن كنتم موقنين فى
 إقراركم بأنه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما إذا سئلتهم من خلقها
 فقالتهم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلوا ذلك
 ﴿ لا إله إلا هو ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب
 السموات الخ وما بينهما اعتراض ﴿ يحيى ويميت ﴾ مستأنفة كما قبلها وكذا
 قوله تعالى ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بإضمار مبتدأ أو بدل من رب
 السموات على قراءة الرفع أو يان أو نعمت له وقيل فاعل لميمت وفى يحيى
 ضمير راجع إلى رب السموات وقرىء بالجر بدلا من رب السموات على
 قراءة الجر ﴿ بل هم فى شك ﴾ بما ذكر من شئونه تعالى غير موقنين فى إقرارهم
 ﴿ يلعبون ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان بل مخلوطا بهزؤ ولعب
 والفاء فى قوله تعالى ﴿ فارتقب ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ما قبلها
 فإن كونهم فى شك مما يوجب ذلك حتما أى فانتظر لهم ﴿ يوم تأتى السماء
 بدخان مبين ﴾ أى يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة
 الدخان إما لضعف بصره أو لأن فى عام القحط يظلم الهواء لقلّة الأمطار
 وكثرة الغبار أو لأن العرب تسمى الشر الغالب دخانا وذلك أن قريشا لما
 استمعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اشد دوطأناك
 على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الجيف
 والعظام والعلمن وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث
 الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى :

﴿ يغشى الناس ﴾ أى يحيط بهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى قاتلين ذلك
 فمشى إليه عليه الصلاة والسلام أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله تعالى
 والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا وذلك قوله تعالى
 ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ وهذا قول ابن عباس وابن مسعود

رضى الله عنهم وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج وقيل هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة فيدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كييت أوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكاة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره والأول هو الذي يستدعيه مساق الأنظم الكريم قطعاً فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكري﴾ إلخ رد لكلامهم واستدعائهم الكشف وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان المنبئ عن التذكر والانعاط بما اعتراهم من العاهية أى كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ أى والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الانعاط ما هو أعظم منه في إيجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشأن وبين لهم مباح الحق باظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها صم الجبال ﴿ثم تولوا عنه﴾ عن ذلك الرسول وهو هورثما شاهدوا منه ما شاهدوه من العظام الموجبة للإقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولى ﴿وقالوا﴾ فى حقه ﴿معلم مجنون﴾ أى قالوا تارة يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير وما مثلهم إلا كمثل السكب إذا جاع ضغاً وإذا شبع طفى وقوله تعالى ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد وما بينهما اعتراض أى إنا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والإصرار على الكفر وتفسون هذه الحالة وصيغة الفاعل فى الفعلين للدلالة

على تحقيقهما لاحالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والعناد ومن فسر الدخان بما هو من الأشرار قال إذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يوما وريثا يكشفه عنهم يرتدون ولا يتملون .

(يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه قوله تعالى (إنا منتقمون) لا المنتقمون لأن إن مانعة من ذلك أى يومئذ ننتقم إنا منتقمون وقيل هو بدل من بدل من يوم تأتى الخ وقرىء نبطش أى نجعل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو تناول بعنف وصوله أو نحمل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرىء نبطش بضم الطاء وهى لغة (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) أى امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام أو أوقعناهم فى الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم وقرىء بالتشديد للبالغة أو لكثرة القوم (وجاءهم رسول كريم) على الله تعالى أو على المؤمنين أو فى نفسه لأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم (أن أدوا إلى عباد الله) أى بأن أدوا إلى بنى إسرائيل وأرسلهم معى أو بأن أدوا إلى يا عباد الله حقه من الإيمان وقبول الدعوة وقبل أن مفسرة لأن مجيء الرسول لا يكون إلا برسالة ودعوة وقيل مخففة من الثقلة أى جاءهم بأن الشأن أدوا إلى الخ وقوله تعالى (إنى لكم رسول أمين) تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى رسول غير ظنين قد اتتمنى الله تعالى على وحيه وصدقنى بالمعجزات القاهرة (وأن لا تعالوا على الله) أى لا تكبروا عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله وأن كاتى سلفت وقوله تعالى (إنى آتيتكم) أى من جهته تعالى (بسلطان مبين) تعليل للنهى أى آتيتكم بحجة واضحة لاسبيل الى إنكارها وآتيتكم على صيغة الفاعل أو المضارع وفى إيراد الأداء مع الأمين والسلطان مع العلاء من الجزالة ما لا يخفى .

﴿ وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى التجأت اليه وتوكلت عليه ﴿ أَن تَرْجُونِ ﴾ من أن ترجوني أى تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني قيل لما قال وأن لا تعملوا على الله توعده بالقتل وقرىء بإدغام الذال فى التاء ﴿ وَإِن لَّمْ تَؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزَلُونِ ﴾ أى وإن كابرتم مقتضى العقل ولم تؤمنوا لى غفلوني كفاً لا على ولا لى ولا تعرضوا لى بشر ولا أذى فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا أسباب الوصلة عنى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن بأباه المقام ﴿ فذعاربه ﴾ بعد ما تموا على تكذيبه عليه السلام ﴿ أَن هَؤُلَاءِ ﴾ أى بأن هؤلاء ﴿ قَوْمٌ مَّجْرُمُونَ ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمي دعاء وقرىء بالسكسر على إضمار القول قيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم وقيل هو قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ بإضمار القول إما بعد الفاء أى فقال ربه أسر بعبادى وإما قبلها كأنه قيل قال إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادى أى بنى إسرائيل فقد دبر الله تعالى أن تتقدموا وقرىء بوصل الهمزة من سرى ﴿ إِن كُمْ مَتَّبِعُونَ ﴾ أى يتبعكم فرعون وجنوده بعد ما علموا بخروجكم ﴿ وَاتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك لينطابق ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط ﴿ لَأَنَّهُمْ جُنُودٌ مَّغْرُقُونَ ﴾ وقرىء أنهم بالفتح أى لأنهم ﴿ كَمْ تَرَكُوا ﴾ أى كثيراً تركوا بمصر ﴿ مِنْ جُنَاتٍ وَعَيْونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافل مزية ومنازل محسنة ﴿ وَنِعْمَةٍ ﴾ أى تنعم ﴿ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ ﴾ متنعمين وقرىء فكهين ﴿ كَذَلِكَ ﴾ السكاف فى حيز النصب وذلك إشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا أى مثل ذلك السلب سلبناهم لإياها ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وقيل فى حيز الرفع على الخبرية أى الأمر كذلك فينبئ يكون أورثناها معطوفاً على تركوا وعلى الأولين على الفعل المقدر ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم فيه تهكم بهم وبمحالهم المنافية لحال من يعظم فقدته فيقال له بككت عليه السماء

والأرض ومنه ما روى أن المؤمن ليبكى عليه مصلاه وحل عبادته ومساعد عمله ومهابط رزقه وآثاره في الأرض وقيل تقديره أهل السماء والأرض ﴿وما كانوا﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿منظرين﴾ مهلين إلى وقت آخر أو إلى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا .

﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل﴾ بأن فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿من العذاب الممين﴾ من استعباد فرعون لإياهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم على الخسف والضميم ﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب إما على جعله نفس العذاب لإفراطه فيه وإما على حذف المضاف أى عذاب فرعون أو حال من الممين أى كائنا من فرعون وقرىء من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعته وفى إبهام أمره أولا وتبينه بقوله تعالى ﴿لأنه كان عاليا من المسرفين﴾ ثانيا من الإفصاح عن كنهه أمره فى الشر والفساد مالا يزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين إما خبر ثان لكان أى كان متكبيرا مسرفا أو حال من الضمير فى عاليا أى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فاتقا لهم بليغا فى الإسراف ﴿ونقد اخترناهم﴾ أى بنى إسرائيل ﴿على علم﴾ أى عالين بأنهم أحقوا بالاختيار أو عالين بأنهم يزيغون فى بعض الأوقات ويكثر منهم الفراطات ﴿على العالمين﴾ جميعا لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمى زمانهم ﴿وآتيناهم من الآيات﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإزالة المن والسلوى وغيرها من عظام الآيات التى لم يعمد مثلها فى غيرهم ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ نعمة جليلة أو اختبار ظاهر للنظر كيف يعملون .

﴿إن هؤلاء﴾ يعنى كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم فى الإصرار على الضلالة والتحذير عن حلول مثل ما حل بهم ﴿ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى﴾ أى ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموت الأولى المزية للحياة الدنيوية ولا قصد فيه إلى إثبات موة أخرى كما فى قولك حج زيد الحجة الأولى ومات وقيل لما قيل لهم إنكم تموتون موة تعقبها حياة كما تقدمتكم موة كذلك قالوا ما هى إلا موتتنا الأولى

أى ما الموتة التى تعقبها حياة إلا الموتة الأولى وقيل المعنى ليست الموتة إلا هذه الموتة دون الموتة التى تعقب حياة القبر كما تزعمون ﴿ وما نحن بمُنشِرِينَ ﴾ بمبعوثين ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر أنه حق وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى فينشر لهم قصى بن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات والملمات .

﴿ أم خير ﴾ رد لقولهم وتهديد لهم أى أم خير فى القوة والمنعة اللتين يتوقع بهما أسباب الهلاك ﴿ أم قوم تبع ﴾ هو تبع الحميرى الذى سار بالجيش وحير الحيرة وبني سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين ولذلك ذمهم الله تعالى دونه وكان يكتب فى عنوان كتابه بسم الله الذى ملك بحرا وبحرا أى بحارا كثيرة وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان نبيا وقيل للملك النين التابعة لأنهم يتبعون كما يقال لهم الأقبال لأنهم يتقيلون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد أولى بأس شديد والاستفهام لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء وقوله تعالى ﴿ أهلكناهم ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا فى غاية القوة والشدة فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاء لهم فى الإجرام أضعف منهم فى الشدة والقوة أولى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى ما بين الجنسين وقرىء وما بينهما ﴿ لا عين ﴾ لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة ﴿ ما خلقناهما ﴾ وما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأسباب أى ما خلقناهما ملتبسا بشيء من الأشياء إلا ملتبسا بالحق أو ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ أن الأمر كذلك فيسكرون البعث والجزاء ﴾ إن يوم

(الفصل) أى فصل الحق عن الباطل وتمييز الحق من المبطل أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبابه (مقاتهم) وقت موعدم (أجمعين) وقرىء ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ويوم الفصل خبرها أى أن ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل (يوم لا يغنى) بدل من يوم الفصل أو صفة لميقاتهم أو ظرف لما دل عليه الفصل لا لنفسه (مولى) من قرابة أو غيرها (عن مولى) أى مولى كان (شيئاً) أى شيئاً من الإغناء (ولا هم ينصرون) الضمير للمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام .

(إلا من رحم الله) بالعفو عنه وقبول الشفاعة فى حقه وعمله الرقع على البديل من الواو أو النصب على الاستثناء (إنه هو العزيز) الذى لا ينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرحمه (إن شجرة الزقوم) وقرىء بكسر الشين وقد مر معنى الزقوم فى سورة الصافات (طعام الأثيم) أى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه (كالمهل) وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب وقيل هو دردى الزيت (يغل فى البطون) وقرىء بالتاء على إسناد الفعل إلى الشجرة (كغلى الحميم) غليانا كغليه (خذه) على إرادة القول والخطاب للزبانية (فأعتلوه) أى جروه والعتل الأخذ بمجامع الشيء وجره بقره وعنف وقرىء بهضم التاء وهى لغة فيه (إلى سواء الحميم) أى وسطه (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) كان الأصل يصب من فوق رؤسهم الحميم فقيل يصب من فوق رؤسهم عذاب هو الحميم للمبالغة ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا له على ما كان يزعمه ، روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين جليلها أعز ولا أكرم منى فوائقه ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلنا بى شيئاً وقرىء بالفتح أى لأنك أو عذاب أنك (إن هذا) أى العذاب (ما كنتم به تمترون) تشككون وتمارون فيه والجمع باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم .

(إن المتقين) أى عن الكفر والمعاصى (فى مقام) فى موضع قياس

والمراد المكان على الإحلاق فإنه من الخاص الذى شاع استعماله فى معنى العموم وقرئ بضم الميم وهو موضع إقامة ﴿أمين﴾ يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه وهو من الأمن الذى هو ضد الخيانة وصف به المكان بطريق الاستعارة كأن المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره ﴿فى جنات وعيون﴾ بدل من مقام جىء به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات الماء كل والمشارب ﴿يلبسون من سندس واستبرق﴾ إما خبر ثان أو حال من الضمير فى الجار أو استئناف والسندس ما رقيق من الحرير والاستبرق ما غلظ منه معرب ﴿متقابلين﴾ فى المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كذلك﴾ أى الأمر كذلك أو كذلك أثنيهم ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ على الوصف وقرئ بالإضافة أى قرناهم بهن والهور جمع الحوراء وهى البيضاء والعين جمع العيناء وهى العظيمة العينين واختلف فى أنهن نساء الدنيا أو غيرها ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾ أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿آمنين﴾ من كل ما يسوؤهم ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ بل يستمرون على الحياة أبدا والاستثناء منقطع أو متصل على أن المراد يسان استحالة ذوق الموت فيها على الإطلاق كأنه قيل لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى حيثئذ ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ وقرئ مشددا للمبالغة فى الوقاية ﴿فضلا من ربك﴾ أى أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرئ بالرفع أى ذلك فضل ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونيل لكل المطالب وقوله تعالى ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فذلكم ﴿فذلكم﴾ للسورة السكرية أى إنما أنزلنا الكتاب المبين بلغتك كي يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه وإذ لم يفعلوا ذلك ﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿لأنهم مرتقبون﴾ ما يحل بك • روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا له .

﴿سورة الجاثية﴾

مكية ، وهي سبع أو ست وثلاثون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حم﴾ الكلام فيه كما مر في فاتحة سورة المؤمن فإن جعل اسما للسورة فمحلله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم والإشارة إلى السورة قبل جريان ذكرها قد وقفت على سره مرارا وإن جعل سرودا على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب وقوله تعالى ﴿تنزيل الكتاب﴾ على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ مضمّر يلوح به ما قبله أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم أى المسمى به تنزيل الخ وقد مر مرارا أن الذى يجعل عنوانا للوضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالتسمية بعد فتحها الإخبار بها وأما جعله خبرا له بتقدير المضاف وإبقاء التنزيل على أصله أى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن إفادة فائدة يعتد بها تحمل على تحمل وقوله تعالى ﴿من الله العزيز الحكيم﴾ كما مر في صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب صفته وجواب القسم قوله تعالى ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ وهو على الوجوه المتقدمة كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية الآفاقية والآنفسية ومحل الآيات إما نفس السموات والأرض فإنهما منطويتان من فنون الآيات على ما يقصر عنه البيان وإما خلقهما كما في قوله تعالى ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ وهو الأوفق بقوله تعالى ﴿وفى خلقكم﴾ أى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ﴿وما يبد من دابة﴾ عطف على المضاف دون المضاف إليه أى وفيما يفسره ويفرقه من دابة .

﴿آيات﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على

ما قبلها من الجملة المصدرة بأن وقيل آيات عطف على ما قبلها من آيات باعتبار
 المحل عند من يحوزه وقرئ آية بالتوحيد وقرئ آيات بالنصب عطفاً على
 ما قبلها من اسم إن والخبر هو الخبر كإنه قيل وإن في خلقكم وما يدك من
 دابة آيات ﴿لقوم يوقنون﴾ أى من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي
 عليه ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ بالجر على إضمار الجار المذكور في الآيتين
 قبله وقد قرئ بذكره والمراد باختلافهما إما تماقهما أو تفاوتهما طولاً وقصرًا
 ﴿وما أنزل الله من السماء﴾ عطف على اختلاف ﴿من رزق﴾ أى من مطر
 وهو سبب الرزق عبر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة
 ﴿فأحيى به الأرض﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع والثمار والنبات
 ﴿بعد موتها﴾ وعرائثها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها
 عن الثمار ﴿وتصرف الرياح﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال
 وقرئ بتوحيد الريح وتأخيرها عن إنزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود
 إما للإيدان بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن
 مجموع تصرف الرياح وإنزال المطر آية واحدة وإما لأن كون التصريف آية
 ليس بمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق
 السفن في البحار ﴿آيات لقوم يعقلون﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم
 من الجار والمجرور والجملة معطوفة على ما قبلها وقرئ بالنصب على الاختصاص
 وقيل على أنها اسم أن والمجرور المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولي
 عاملين مختلفين هما أن وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف
 والنصب في آيات وتنكير آيات في المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفاً واختلاف
 الفواصل لاختلاف مراتب الآيات في الدقة والجلال .

﴿تلك آيات الله﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿نتلوها عليك﴾ حال عاملها
 معنى الإشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل أو عطف بيان ﴿بالحق﴾ حال
 من فاعل نتلو ومن مفعوله أى نتلوها محققين أو ملتبسة بالحق ﴿فبأى حديث﴾
 من الأحاديث ﴿بعد الله وآياته﴾ أى بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل

لتمظيمها كما في قولهم أعجبنى زيد وكرمه أو بعد حديث الله الذي هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وهو المراد بآياته أيضا ومناطق العطف التغاير العنوانى (يؤمنون) بصيغة الغيبة وقرىء بالتاء (ويل لكل أفاك) كذاب (أنيم) كثير الآثام (يسمع آيات الله) صفة أخرى لأفاك وقيل حال من الضمير في أنيم (تتلى عليه) حال من آيات الله ولا مساغ لجملة منفعولا ثانيا ليسمع لأن شرطه أن يكون ما بعده مما لا يسمع كقولك سمعت زيدا يقرأ (ثم يصر) أى يقيم على كفره وأصله من إصرار الحمار على العانة (مستكبرا) عن الإيمان بما سمعه من آيات الله تعالى والإذعان لما تنطق به من الحق مزدريا لها معجبا بما عنده من الأباطيل وقيل نزلت في النضر بن الحرث وكان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لسكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ما هم فيه من الشر والفساد وكلية ثم لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقها أن تدعن لها القلوب وتضع لها الرقاب كما في قول من قال :

ه يرى غمرات الموت ثم يزورها ه

(كان لم يسمعها) أى كأنه لم يسمعها تخفف وحذف ضمير الشأن والجملة حال من يصر أى يصر شيها بغير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره واستكباره .

(وإذا علم من آياتنا شيئا) أى إذا بلغه من آياتنا شيء وعلم أنه من آياتنا لا أنه علمه كما هو عليه فإنه بمقول عن ذلك العلم وقيل إذا علم منها شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويحمله محملا فاسدا يتوصل به إلى الطعن والتميزة (اتخذها) أى الآيات كلها (هزوا) أى مهزوا بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير للشيء والتأنيث لأنه في معنى الآية (أولئك) إشارة إلى كل أفاك من حيث الانصاف بما ذكر من القبايح والجمع باعتبار الشمول للكل كما في قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) كما أن الأفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد (لهم) بسبب جنائياتهم المذكورة (عذاب مهين) وصف العذاب بالإهانة

توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى ﴿من ورائهم جهنم﴾
 أى من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أعد لهم أو من خلفهم لأنهم معرضون
 عن ذلك مقبلون على الدنيا فإن الراء اسم للجهة التى يوارىها الشخص من خلف
 وقدام ﴿ولا يغنى عنهم﴾ ولا يدفع ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال والأولاد
 ﴿شيئاً﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئاً من الإغناء ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله
 أولياء﴾ أى الأصنام وتوسيط حرف النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء
 الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً مبنى على زعمهم
 القاعد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تمك ﴿ولهم﴾ فيما وراءهم من
 جهنم ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره ﴿هذا﴾ أى القرآن ﴿هدى﴾ فى غاية
 السكال من الهداية كأنه نفسها ﴿والذين كفروا﴾ أى بالقرآن وإنما وضع
 موضع ضميره قوله تعالى ﴿بآيات ربهم﴾ لزيادة تشنيع كفرهم به وتفضيع
 حالهم ﴿لهم عذاب من رجز﴾ أى من أشد العذاب ﴿أليم﴾ بالرفع صفة عذاب
 وقرئ بالجر على أنه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم
 ورفعها إما على الابتداء وإما على الفاعلية .

﴿الله الذى سخر لكم البحر﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلل
 كالأخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعاته ﴿لتجرى الفلك فيه بأمره﴾ وأنتم
 راكبوها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿ولعلمكم
 تشكرون﴾ ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك ﴿وسخر لكم ما فى السموات
 وما فى الأرض﴾ من الموجودات بأن جعلها مدار لمنافعكم ﴿جميعاً﴾ إما حال
 من ما فى السموات والأرض أو توكيد له ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف هو صفة
 لجميعاً أو حال من ما أى جميعاً كأننا منه تعالى أو سخر لكم هذه الأشياء كأننا
 منه مخلوقة له تعالى أو خبر لمحذوف أى هى جميعاً منه تعالى وقرئ منه على
 المفعول له ومنه على أنه فاعل سخر على الاسناد المجازى أو خبر مبتدأ محذوف
 لى ذلك منه ﴿لأن فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من الأمور العظام ﴿آيات﴾ عظيمة

الشأن كثيرة العدد ﴿لقوم يتفكرون﴾ في بدائع صنع الله تعالى فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها .

﴿قل للذين آمنوا﴾ حذف المقول لدلالة ﴿يغفروا﴾ عليه فإنه جواب للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا ﴿للذين لا يرجون أيام الله﴾ أى يغفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائمه تعالى بأعدائه من قو لهم أيام العرب لوقائمه وقيل لا يأملون الأوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت في عمر رضى الله عنه حين شتمه غفارى فهم أن يطش به وقيل حين قال ابن أبى ما قال وذلك أنهم نزلوا في غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه يستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر فقال ابن أبى ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل سمع كلبك يا كلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتعل سيفه يريد التوجه إليه فأنزلها الله تعالى .

﴿ليجزى قوما بما كانوا يكسبون﴾ تعليل للأمر بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتشكير لمدهم والثناء عليهم أى أمروا بذلك ليجزى يوم القيامة قوما أيما قوم قوما مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا وقد جوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيئاتهم التي من جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة والتشكير للتحقير وفيه أن مطلق الجزء لا يصلح تعليلًا للأمر بالمغفرة لتحقيقه على تقديرى المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بأن لا يتحقق بعض منه في الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات وفي ذلك من التكلف ما لا يخفى وأن يراد كلا الفريقين وهو أكثر تكلفًا وأشدّ تمحلاً وقرىء ليجزى قومًا وليمجزى قوماً أى ليجزى الجزء قوماً وقرىء لنجزى بنون العظيمة ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء﴾ (٨ - أبو السعود - خامس)

فعلينا) لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله (ثم إلى ربكم) مالك أموركم (ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم خيرا كان أو شرا (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) أي التوراة (والحكم) أي الحكمة النظرية والعملية والفقه في الدين أو فصل الخصومات بين الناس إذ كان الملك فيهم (والنبوة) حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثّر في غيرهم (ورزقناهم من الطيبات) بما أحل الله تعالى من اللذات الذكائنة والسلاوى (وفضّلناهم على العالمين) حيث آتيناهم ما لم تؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمي زمانهم (وآتيناهم بينات من الأمر) دلائل ظاهرة في أمر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من أمره وأمره يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب (فما اختلفوا) في ذلك الأمر (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقته وحقيقته فجمعوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه (بغيا بينهم) أي عداوة وحسدا لا شكافيه (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة) بالمؤاخاة والجزاء (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين .

(ثم جعلناك على شريعة) أي سنة وطريقة عظيمة الشأن (من الأمر) أي أمر الدين (فاتبعها) بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك من غير إخلال بشيء منها (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أي آراء الجاهلة واعتقاداتهم الزائفة التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع إلى دين آبائك (لأنهم لن يغفوا عنك من الله شيئا) بما أراد بك أن اتبعهم (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) لا يواليههم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم (واقه ولي المتقين) الذين أنت قدوتهم قدم على ما أنت عليه من تواليه خاصة والإعراض عما سواه بالكيفية (هذا) أي القرآن أو اتباع الشريعة (بصائر للناس) فإن ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب (وهدي) من ورطة الضلالة (ورحمة) عظيمة (يقوم يوقنون) من شأنهم الإيقان بالأمور (أم حسب الذين اجترأوا

السيفيات ﴿ استئناف مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين إثر تباين حالى الظالمين والمتقين وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى والهمزة لإنكار الحساب لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) بل بطريق إنكار الواقع واستبقاؤه والتوبيخ عليه والاجترار الاكتساب (أن نجعلهم) أى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مساوى الأحوال .

﴿ كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ونعامتهم معاملة لهم فى البركة ورفع الدرجة وقوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) أى محيا الفريقين جميعا ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معا لاشتراكه على ضميريهما على أن السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى لم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الشكل مستويا محياهم ومماتهم كلا لا يستوون فى شيء منهما فإن هؤلاء فى عز الإيمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى الممات وأولئك فى ظل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة لأن المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وإنما يفرقون فى الممات وقرئ محياهم ومماتهم بالنصب على أنهما ظرفان كقدم الحاج وسواء حال على حاله أى حال كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه أخر من الأعراب والذى يليق بحزالة التنزيل هو الأول فتدبر وقرئ سواء بالرفع على أنه خبر ومحياهم مبتدأ ف قيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال وأيا ما كان ف نسبة حسبين التساوى إليهم فى ضمن الإنكار التوبيخى مع أنهم يعززل منه جانحون بفضلهم على المؤمنين للبالغ فى الإنكار والتشديد فى التوبيخ فإن إنكار حسبين التساوى والتوبيخ عليه إنكار لحسبان الجزم بالمفضل وتوبيخ عليه على أبلغ وجه وآية كده (سواء ما يحكمون) أى بناء حكمهم هذا أو عيبي

شيئا حكموا به ذلك ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ استئناف مقرر لما سبق من الحكم فإن خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لا محالة تفضيل المحسن على المسيء في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم وإذا لم يطرد ذلك في المحيا فهو بعد الممات حتما ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ عطف على بالحق لأن فيه معنى التعليل إذ معناه خلقها مقرونة بالحكمة والصواب دون العيب والباطل فخالصه خلقها لأجل ذلك ولتجزى الخ أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى ﴿ وهم ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب وتسمية ذلك ظلما مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزهه ساحة لطفه تعالى عما ذكر تنزيهه منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده أى أنظرت فرأيت أنه فإن ذلك مما يقضى منه العجب وقرئ آله هواه لأن أحدهم كان يستحسن حجرا فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه فكأنه اتخذ آله شقى ﴿ وأضلله الله ﴾ وخذله ﴿ على علم ﴾ أى عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ﴿ وختم على سمعه وقلبه ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرئ بفتح الغين وضمها وقرئ غشوة ﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أى من بعد إضلاله تعالى إياه بموجبه تعاميه عن الهدى وتماديهِ فى الغي ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون وقرئ تذكرون على الأصل .

﴿ وقالوا ﴾ بيان لأحكام ضلالهم المحكى أى قالوا من غاية غيهم وضلالهم ﴿ ما هى ﴾ أى ما الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ التى نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ أى يضيئنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفة وما قبلها وموتنا ونحيا بعد ذلك أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بظننا ونحيا ببعثنا وقد جوز أن يزيدوا به الناسخ فإنه عقيدة أكثر للجنة.

الأوثان وقرى، نحيا) وما يهلكنا إلا الدهر) إلا مرور الزمان وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره أى غلبه وقرى، إلا دهر يمر وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله تعالى ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر) (وما لهم بذلك) أى بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا واستناد الحياة والموت إلى الدهر) (من علم) ما مستند إلى عقل أو نقل) (إن هم إلا يظنون) ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم) (وإذا تتلى عليهم آياتنا) الناطقة بالحق الذى من جملته البعث) (بينات) واضحات الدلالة على ما نطقته به أو مبيحات له) (ما كان حجتهم) بالنصب على أنه خبر كان أى ما كان متمسكا لهم شيء من الأشياء) (إلا أن قالوا انتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) فى أنا نبعث بعد الموت أى إلا هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحجة وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو لأنه من قبيل :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

وفرى برفع حجتهم على أنها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم شيئا من الأشياء إلا هذا القول الباطل .

(قل الله يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم لا كما يزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر) (ثم يجمعكم) بعد الموت) (إلى يوم القيامة) للجزاء (لا ريب فيه) أى فى جمعكم فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعه حتما والإتيان بآياتهم حيث كان مزاحما للحكمة التشريعية امتنع إبقاعه) (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) استدراك من قوله تعالى لا ريب فيه وهو إما من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق.

وتنبيهها على أن ترتيبهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكير لا لأن فيه شائبة ريب ما ﴿وقه ملك السموات والأرض﴾ بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلي فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل لإثبات تصرفه تعالى في الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون﴾ العامل في يوم يخسر ويومئذ بدل منه .

﴿وترى كل أمة﴾ من الأمم المجموعة ﴿جاثية﴾ باركة على الركب مستوفزة وقرىء جاذبة أى جالسة على أطراف الأصابع والجذو أشد استيفازة من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثوة وحى الجماعة ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ إلى صحيفة أعمالها وقرىء كل بالذهب على أنه بدل من الأول وتدعى صفة أو حال أو مفعول ثان ﴿اليوم يحجزون ما كنتم تعملون﴾ أى يقال لهم ذلك وقوله تعالى :

﴿هذا كتابنا﴾ الخ من تمام ما يقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوبا بأمر الله تعالى أضيف إلى نون العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى ﴿ينطق عليكم﴾ أى يشهد عليكم ﴿بالحق﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال وبالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ الخ تعليل انطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها أى إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿ما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة وقوله تعالى ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقد جلدناهم﴾ أى في جنته تفصيل لما يفعل بالآمم بعد بيان ما شرطوا به من التكلام المنظور على الوعد والوعيد ﴿ذلك﴾ أى الذى ذكره من الإدخال في رحمته تعالى ﴿هو الفوز المبين﴾ الظاهر كونه فوزا لا فوز وراءه ﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ أى فيقال لهم بطريق التوبيخ والتفريع ألم يكن يأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المتعارف عليه بدلالة القرينة عليه ﴿فألم تكفروا﴾ عن الإيمان بها ﴿وكنتم قوماً مجرمين﴾ أى قوماً عادتهم الإجرام ﴿وإذا قيل إن وعد الله﴾ أى ما وعد

من الأمور الآتية أو وعده بذلك ﴿حق﴾ أى واقع لا محالة أو مطابق للواقع ﴿والساعة﴾ التى هى أشهر ما وعده ﴿لا ريب فيها﴾ أى فى وقوعها وقرىء والساعة بالانصب عطفًا على اسم إن وقراءة الرفع للعطف على محل إن واسمها ﴿قلتم﴾ لغاية عتوكم ﴿ما ندرى ما الساعة﴾ أى أى شئ هى استغرابا لها ﴿إن نظن إلا ظننا﴾ أى ما نفعل إلا ظننا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾ وقيل ما نعتقد إلا ظننا أى لاعلمنا وقيل ما نحن إلا نظن ظننا وقيل ما نظن إلا ظننا ضعيفا ويرده قوله تعالى ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أى لإمكانه فإن مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ما هى إلا حياتنا الدنيا ﴿وبدا لهم﴾ أى ظهر لهم حينئذ ﴿سينات ما عملوا﴾ على ما هى عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعانوا وخامة عاقبتها أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من الجزاء والعقاب .

﴿وقيل اليوم نفسا كم﴾ ترككم فى العذاب ترك النفسى ﴿كما نسيتم﴾ فى الدنيا ﴿لقاء يومكم هذا﴾ أى كما تركتم عدته ولم تبالوا به وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه ﴿وماؤا كم النار وما لكم من ناصرين﴾ أى ما لأحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها ﴿ذلكم﴾ العذاب ﴿بأسكم﴾ بسبب أنكم ﴿اتخذتم آيات الله هزوا﴾ مهزوا بها ولم ترفعوا لها رأسا ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أى من النار وقرىء يخرجون من الخروج والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة أو بنقلهم من مقام الخطاب إلى غيبة النار ﴿ولا هم يستعجبون﴾ أى يطلب منهم أن يعتبوا بهم أى يرضوه لفوات أوانه ﴿فلله الحمد﴾ خاصة ﴿رب السموات والأرض ورب العالمين﴾ فلا يستحق الحمد أحد سواه وتكبر الرب للنأكد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الأصاله وقرىء برفع الثلاثة على المدح بإضمار هو ﴿ولله الكبرياء فى السموات والأرض﴾ لظهور آثارها وأحكامها فى ما وازظهارها فى موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ﴿وهو﴾

العزیز) الذی لا یغلب (الحکیم) فی کل ما قضی وقدر فاحدوه وکبروه وأطیعوه . عن النبی علیه الصلاة والسلام من قرأ حم الجاثیة ستر الله تعالى عورته وسکن روعته یوم الحساب .

سورة الأحقاف

مکیة ، وآیها أربع أو خمس وثلاثون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم نزل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذي مر في مطلع السورة السابقة (ما خلقنا السموات والأرض) بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما (وما بينهما) من المخلوقات (إلا بالحق) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي إلا خلقا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية أو من أعم الأحوال من فاعل خلقنا أو من مفعوله أي ما خلقناها في حال من الأحوال ملابستنا بالحق أو حال ملابستها به وفيه من الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفات كماله وابتداء أفعاله على حكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى (وأجل مسمى) عطف على الحق بتقدير مضاف أي وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه أمر الكل وهو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وقيل هو آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) فإن ما أنذروه يوم القيامة وما فيه من الطامة العامة والأحوال العامة لا آخر أعماهم وقد جوز كون ما مصدرية والجملة حالية أي ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذي يجازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه وعن الاستعداد له (قل) توبيخا لهم وتبسكيتا

﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني وقرئ أَرَأَيْتُمْ ﴿ ما تدعون ﴾ ما تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ من الأصنام ﴿ أروني ﴾ تأكيد لأَرَأَيْتُمْ ﴿ ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بيان للإيهام في ماذا .

﴿ أم لهم شرك ﴾ أى شركة مع الله تعالى ﴿ فى السموات ﴾ أى فى خلقها أو ملكها وتدبيرها حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق للعبودية فإن ما لا مدخل له فى وجود شيء من الأشياء بوجه من الوجوه فهو بمنزل من ذلك الاستحقاق بالمرّة وإن كان من الأحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد وقرئ له تعالى ﴿ انتوني بكتاب ﴾ الخ تسكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقل بعد تسكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلى أى انتوني بكتاب لى كائن ﴿ من قبل هذا ﴾ الكتاب أى القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم فإنها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلى أو سلطان نقلى وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها وقرئ لإثارة بكسر الهمزة أى مناظرة فإنها تثير المعانى وأثرة أى شيء أوثرتم به وخصصتم من علم مطوى من غيركم وأثرة بالحركات الثلاث مع سكون الراء أما المكسورة فبمعنى الإثرة وأما المفتوحة فهى المرة من أثر الحديث أى رواه وأما المضمومة فاسم ما يؤثر كالخطبة التى هى اسم ما يخطب به .

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ﴾ إنكار ونفى لأن يكون أحد يساوى المشركين فى الضلال وإن كان سبب التركيب لنفى الأضل منهم من غير تعرض لنفى المساوى كما مر غير مرة أى هم أضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المحيى الخبير إلى عبادة مصنوعهم العارى عن السمع والقدرة والاستجابة ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ غاية لنفى الاستجابة ﴿ وهم عن دعائهم ﴾ الضمير الأول للمفعول يدعو والثانى لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ غافلون ﴾ لا يكونون

جمادات وضائر العقلاء لإجرائهم إياها بحرى العقلاء ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتحكم بها وبعيدتها كقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) الآية ((وإذا حشر الناس)) عند قيام القيامة ((كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)) أى مكذبين بلسان الحال أو المقال على ما يروى أنه تعالى يحى الأصنام فتتبرأ عن عبادتهم وقد جوز أن يراد بهم كل من عبد من دونه الله من الملائكة والجن والإنس وغيرهم وينبى إرجاع الضائر إلى عباد العداوة والكفر لإيهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين).

(وَإِذْ تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَنظُرُونَ) وَأَضْحَاجَاتٍ أَوْ مَبِينَاتٍ (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ) أى لآجله وفى شأنه وهو عبارة عن الآيات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصا على حقيقتها ووجوب الإيمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلوة عليهم تسجيلا عليهم بكمال التكفر والضلالة (لَمَّا جَاءَهُمْ) أى فى أو ما جاءهم من غير تدبر وتأمل (هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى ظاهر كونه سحرا (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منها وما فى أم من الهمزة للإنكار التوبيخى المتضمن للتعجب أى بل أقولون افترى القرآن (قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ) على الفرض (فَلَا تَمْسُكُونِ لِي مِنْ لَحْمٍ شَيْئًا) إذ لا ريب فى أنه تعالى يعاجلنى حيثئذ بالعقوبة فكيف أجتريه على أن أفترى عليه تعالى كذبا فأعرض نفسى للعقوبة التى لا مناص عنها (هُوَ أَكْبَرُ بِمَا تُفَضُّونَ فِيهِ) أى تندفعون فيه من القدح فى وحي الله والطعن فى آياته وتصديقه سحرا تلوثة ونفرية أخرى (كَفَىٰ بِهِ شَرِيحًا يَبِينُ وَيُنْشِكُمْ) حيث يشهد بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد مجزأ إفاضةهم قوله تعالى (وهو الغفور الرحيم) وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن

اسم (يؤيد) يؤيد من الرسل) البدع بمعنى البديع كالحل بمعنى الخليل
ومن فلاش من المؤيد في بفتح الدال على أنه صفة كقيم وزيم أو جمع مقدر

بمضاف أى ذا بدع وقد جوز ذلك فى القراءة الأولى أيضاً على أنه مصدر كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات عنادا ومكابرة فأمر عليه السلام بأن يقول لهم ما كنت بديعا من الرسل قادرا على ما لم يقدروا عليه حتى آتيتكم بكل ما يقترحونه وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب فإن من قبل من الرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم الله تعالى من الآيات ولا يخبرونهم إلا بما أوحى إليهم ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى أى شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى وماذا يقدر لنا من قضاياه وعن الحسن رضى الله عنه ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما يفعل بى ولا بكم فى الآخرة وقال هى منسوخة بقوله تعالى (ليفقر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وقيل يجوز أن يكون المنهى هى الدراية المفصلة والأظهر الأوفق لما ذكر من سبب النزول أن ما عبارة عما ليس عليه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية دون ما سيقع فى الآخرة فإن العلم بذلك من وظائف النبوة وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانين هذا وقد روى عن السكلى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له عليه السلام وقد ضجروا من أذية المشركين حتى متى نكفون على هذا فقال ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم أترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر قد رفعت لى ورأيته يعنى فى منامه وجوز أن تكون ماموصولة والاستفهامية أقضى لحق مقام التبرؤ عن الدراية وتكرير لا لتذكير النفسى المسحوب إليه وتأكيده وقرئ ما يفعل على إسناد الفعل على ضميره تعالى ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ أى ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى على معنى قصر أفعاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي لا قصر اتباعه على الوحي كما هو المتسارع إلى الأفهام وقد مر تحقيقه فى سورة الأنعام وقرئ يوحى على البناء للفاعل وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجاب المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والأول هو الأوفق لقوله تعالى ﴿ وبعثه

أفأ لا نذير ﴿ أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى إلى ﴾ مبين ﴿ بين الإنذار بالمعجزات الباهرة .

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ أى ما يوحى إلى من القرآن ﴿ من عند الله ﴾ لا سحرا ولا مفترى كما تزعمون وقوله تعالى ﴿ وكفرتم به ﴾ حال بإضمار قد من الضمير في الخبر وسطت بين أجزاء الشرط مسارعة إلى التسجيل عليهم بالكفر أو عطف على كان كما في قوله تعالى ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ لكن لا على أن نظمه في سلك الشرط المترددين بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار حاله في نفسه بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فإن كفرهم به أمر محقق عندهم أيضاً وإنما ترددهم في أن ذلك كفر بما من عند الله تعالى أم لا وكذا الحال في قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من بنى إسرائيل ﴾ وما بعده من الفعلين فإن السكل أمور محققة عندهم وإنما ترددهم في أنها شهادة وإيمان بما من عند الله تعالى واستكبار عنه أولاً والمعنى أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا من التوراة ﴿ على مثله ﴾ أى مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فإنها عين ما فيه في الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ ولما نرى زبر الأولين ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن هذا لى الصحف الأولى ﴾ والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات آخر أو على مثل ما ذكر من دونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء في قوله تعالى :

﴿ فآمن ﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر فقال له إني سأئك عن ثلاث لا يعلمن إلا نبي ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه فقال عليه الصلاة والسلام أما أول أشرط الساعة فنام

تحشرهم من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت
وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد أنك
رسول الله حقا فقام ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت فإن علموا ياسلامى
قبل أن تسألهم عنى بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي عليه السلام أى رجل
عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال
أرايتم إن أسلم عبد الله قالوا أعاذة الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد
أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقالوا شربنا وابن شربنا وانتقصوه
قال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر قال سعد بن أبى وقاص رضى الله
عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض إنه
من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل (وشهد شاهد) الآية وقيل الشاهد
موسى عليه السلام وشهادته بما فى التوراة من بركة النى عليهما الصلاة والسلام
وبه الشعبي وقال مسروق والله ما نزلت فى عبد الله بن سلام فإن آل حم نزلت
بمكة وإنما أسلم عبد الله بالمدينة وأجاب السكبي بأن الآية مدنية وإن كانت السورة
مكية ((واستكبرتم)) عطف على شهد شاهد وجواب الشرط محذوف والمعنى
أخبروني إن كان من عند الله تعالى وشهد على ذلك أعلم بنى إسرائيل فآمن به
من غير تلغيم واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة من أضل منكم بقرينة
قوله تعالى (قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق
بعيد) وقوله تعالى (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فإن عدم الهداية بما ينبيء
عن الضلال قطعاً ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم فإن تركه تعالى لهدايتهم
لظلمهم ((وقال الذين كفروا)) حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة فى حق
القرآن العظيم والمؤمنين به أى قال كفار مكة ((للذين آمنوا)) أى لأجلهم
((لو كان)) أى ما جاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن واللعين ((خيراً
ما سبقونا إليه)) فإن معالى الأمور لا يناها أيدي الأراذل وهم سقاط عامتهم
فقراء ومووال ورعاة قالوه زعماءهم أن الرياسة الدينية بما ينال باستجاب النبوية كما
قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فزل عنهم القوام

بكالات نفسانية وملسكات روحانية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة بالكلية وأن من فاز بها فقد حازها بجذافيرها ومن حرّمها فاله منها من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهنّة ومزيّة وأسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه ويأباه أن السورة مكية ولا بدّ حيثئذ من الالتجاء إلى ادعاء أن الآية نزلت بالمدينة .

﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ ظرف المحذوف يدل عليه ما قبله ويترتب عليه ما بعده أى وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿ فسيقولون ﴾ غير مكتفين بنفى خيريته ﴿ هذا إفك قديم ﴾ كما قالوا أساطير الأولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذلك ﴿ ومن قبله ﴾ أى من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى ﴿ كتاب موسى ﴾ قيل والجملة حالية أو مستأنفة وأيا ما كان فهو لرد قولهم هذا إفك قديم وإبطاله فإن كونه مصدقا لكتاب موسى مقرر لحقيقته قطعا ﴿ إماما ورحة ﴾ حالان من كتاب موسى أى إما يقتدى به فى دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام ورحة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿ وهذا ﴾ الذى يقولون فى حقه ما يقولون ﴿ كتاب ﴾ عظيم الشأن ﴿ مصدق ﴾ أى لكتاب موسى الذى هو إمام ورحة أو لما من بين يديه من جميع الكتب الإلهية وقد قرئ كذلك ﴿ لسانا عربيا ﴾ حال من ضمير الكتاب فى مصدق أو من نفسه لتخصّصه بالصفة وعاملها معنى الإشارة وعلى الأول مصدق وقيل مفعول لمصدق أى يصدق ذا لسان عربى ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب أو الله تعالى أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيد الأخير القراءة ببناء الخطاب ﴿ وبشرى للمحسنين ﴾ فى حيز النصب عطفا على محل لينذر وقيل فى محل الرفع على أنه خير مبتدأ مضمّر أى وهو بشرى وقيل على أنه عطف على مصدق .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى أمور الدين التى هى همتى العمل ونم للدلالة على

تراخى رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد (فلا خوف عليهم) من غلوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان دولم نفي الحزن لا بيان نفي دولم الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعاً وقد مر بيانه مراراً (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين (أصحاب الجنة خالدين فيها) حال من المستكن في أصحاب وقوله تعالى (جزاء) منصوب إما بعامل مقدر أى يحجز جزاء أو بمعنى ما تقدم فإن قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة في معنى (١) جازيناهم (بما كانوا يعملون) من الحسنات العلمية والعملية (ووصينا الإنسان) بأن يحسن (بوالديه إحساناً) وقرئ حسناً أى بأن يفعل بهما حسناً أى فعلاً ذا حسن أو كأنه فى ذاته نفس الحسن لقرط. حسنه وقرئ بضم السين أيضاً وبفتحهما أى بأن يفعل بهما فعلاً حسناً أو وصيناه إيصاء حسناً (حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة وقرئ بالفتح وهما لغتان كالفتح وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر (وحمله وفصاله) أى مدة حملة وفصاله وهو الفطام وقرئ وفصله والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى والمراد به الرضاع التام المنتهى به كما أراد بالأمد المدة من قال :

كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمده

(ثلاثون شهراً) تمضى بغيرها بمعاينة المشاق ومقاساة الشدائد لأجله وهذا دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه إذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) يوقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقيق ارتباط النسب والرضاع بهما (حتى إذا بلغ أشده) أى اكتمل واستجكم قوته وعقله (وبلغ أربعين سنة) قيل لم يبعث نبي قبيل أربعين وقرئ حتى إذا استوى وبلغ أشده

(قال رب أوزعني) أى ألهمني وأصله أولعني من أوزعته بكذا (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) أى نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها (وأن أعمل صالحا ترضاه) التنكير للتفخيم والتكثير (وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى راسخا فيهم كما فى قوله * يجرح فى عراقيها نصلى * قال ابن عباس أجاب الله تعالى دعاء أبى بكر رضى الله عنهم فأعتق تسعة من المؤمنين منهم عامر بن فهيرة ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه ودعا أيضا فقال وأصلح لى فى ذريتى فأجابه الله عز وجل فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا فاجتمع له لإسلام أبويه وأولاده جميعا فأدرك أبوه أبو حنيفة رسول الله صلى عليه وسلم وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي عليه الصلاة والسلام ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (إنى تبت إليك) عما لا ترضاه أو عما يشغلنى عن ذكرك (وإنى من المسلمين) الذين أخلصوا لك أنفسهم .

(أولئك) إشارة إلى الإنسان والجمع لأن المراد به الجنس المنصف بالوصف المحكى عنه وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته أى أولئك المنعوتون بما ذكر من الثنوت الجليلة (الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه (وتتجاوز عن سيئاتهم) وقرىء الفعلان بالياء على إسنادهما إلى الله تعالى وعلى بناءهما للمفعول ورفع أحسن على أنه قائم مقام الفاعل وكذا الجار والمجرور (فى أصحاب الجنة) أى كائنين فى عدادهم منتظمين فى سلكهم (وعد الصدق) مصدر مؤكد لما أن قوله تعالى نتقبل وتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز (الذى كانوا يوعدون) على ألسنة الرسل .

(والذى قال نوالديه) عند دعوتهما له إلى الإيمان (أف لى) هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان الموقف له كما فى هيت لك وقرىء أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحرركات الثلاث مع التنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك أخبر عنه بالجموع كما سبق قيل هو فى

الكاfer العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه
فاجر لربه وما روى من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما
قبل إسلامه يردده ما سياتى من قوله تعالى (أولئك الذين حق عليهم القول) الآية
فإنه كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من
قال ذلك (أتعدانى أن أخرج) أبعث من القبر بعد الموت وقرئ أخرج
من الخروج (وقد خلت القرون من قبلى) ولم يبعث منهم أحد (وهما
يستغيثان الله) يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان (وبلك) أى قائلين له وبلك
وهو فى الأصل دعاء عليه بالثبور أريد به الحث والتحريض على الإيمان
لا حقيقة الهلاك (آمن إن وعد الله حق) أى البعث أضافاه إليه تعالى تحقيقاً
للحق وتبليها على خطئه فى إسناد الوعد إليهما وقرئ أن وعد الله أى آمن بأن
وعد الله حق (فيقول) مكذباً لهما (ما هذا) الذى تسميانه وعد الله
(إلا أساطير الأولين) أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون
لها حقيقة (أولئك) القائلون هذه المقالات الباطلة (الذين حق عليهم
القول) وهو قوله تعالى لإبليس (لأملاَن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين)
كما ينبى عنه قوله تعالى (فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) وقد
مر تفسيره فى سورة الم السجدة (لأنهم) جميعاً (كانوا خامسين) قد ضيعوا
فطرتهم الأصلية الجارية مجرى رؤس أموالهم باتباعهم الشيطان والجملة تعليل
للحكم بطريق الاستئناف التحقيقى (ولكل) من الفريقين المذكورين
(درجات مما عملوا) مراتب من أجزية ما عملوا من الخير والشر والدرجات
غالبه فى مراتب المثوبة وإيرادها ههنا بطريق التغليب (وليوفيهم أعمالهم)
أى أجزية أعمالهم وقرئ بنون العظمة (وهم لا يظلمون) بنقص ثواب
الأولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة إما حال مؤكدة للتوفية أو استئناف
مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم
حقوقهم فعل ما فعل من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات
(٩ - أبو السمود - خامس)

والعقاب دركات ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أى يعذبون بها من قوطهم عرض الأسارى على السيف أى قتلوا وقيل يعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة ﴿ أذهبتم طياتكم ﴾ أى يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرئ أذهبتم بهمز تين وبالف بينهما على الاستفهام ^(١) التوينى أى أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذا نذرها ﴿ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شئ منها ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى الهوان وقد قرئ كذلك ﴿ بما كنتم ﴾ فى الدنيا ﴿ تستكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ بغير استحقاق لذلك ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أى تخرجون عن طاعة الله عز وجل أى بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين وقرئ تفسقون بكسر السين :

﴿ واذكر ﴾ أى لكفار مكة ﴿ أخا عاد ﴾ أى هودا عليه السلام ، ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ بدل اشتغال منه أى وقت إنذاره لإياهم ﴿ بالأحقاف ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشئ إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة ﴿ وقد خلت النذر ﴾ أى الرسل جمع نذير بمعنى المنذر ﴿ من بين يديه ﴾ أى من قبله ﴿ ومن خلفه ﴾ أى من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذاناً باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكروهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا

قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الإعلام لا بد في نسبة الحلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتي منزلة الحالى ﴿ قالوا أجبنا لنأفكنا ﴾ أى تصرفنا ﴿ عن آلهتنا ﴾ عن عبادتها ﴿ فأتينا بما تعدنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنتم من الصادقين ﴾ فى وعدك بنزوله بنا .

﴿ قال إنما العلم ﴾ أى بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ عند الله ﴾ وحده لا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى إتيانه وحلوله وإنما عليه عند الله تعالى فىأتىكم به فى وقته المقدر له ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ من مواجب الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تتهبوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرىء أبلغكم من الإبلاغ ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء فى قوله تعالى ﴿ فلما رأوه ﴾ فصيحة بالضمير أما مبهم يوضحه قوله تعالى ﴿ عارضنا ﴾ إما تميزا أو حالا أو راجع إلى ما استعجلوه بقولهم فأتينا بما تعدنا أى فأتاهم فلما رأوه سحابا يعرض فى أفق السماء ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أى متوجه أوديتهم والإضافة فيه لفظية كما فى قوله تعالى ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ ولذلك وقما وصفين للسكره ﴿ بل هو ﴾ أى قال هو دود وقد قرىء كذلك وقرىء قل وهو رد عليهم أى ليس الأمر كذلك بل هو ﴿ ما استعجلتم به ﴾ من العذاب ﴿ ريب ﴾ بدل من ما أو خبر لمبتدأ محذوف ﴿ فيها عذاب أليم ﴾ صفة لريح وكذا قوله تعالى ﴿ تدمر ﴾ أى تهلك ﴿ كل شيء ﴾ من نفوسهم وأموالهم ﴿ بأمر ربها ﴾ وقرىء يدمر كل شيء من دمر دمارا إذا هلك فالعائد إلى الموصوف محذوف أو هو الهاء فى ربها ويجوز أن يكون استئنافا واردا لبيان أن لكل ممكن فناء بمقتضى منوطا بأمر بارئه وتكون الهاء لكل شيء لكونه بمعنى الأشياء وفى ذكر الأمر والرب والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمت شأنه عز وجل ما لا يخفى والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾

فصيحة أى بجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم وقرى
 ترى بالناء ونصب مساكنهم خطابا لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن
 حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم ﴿ كذلك ﴾
 أى مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ وقد مر تفصيل القصة
 في سورة الأعراف وقد روى أن الريح كانت تحمل القساطر والظعينة فترفعها
 في الجو حتى ترى كأنها جرادة قيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت
 رأيت ريحا فيها كسب النار وروى أن أول ما عرفوا به أنه عذاب ما رأوا
 ما كان في الصحراء من رحا لهم ومواسيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض
 فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم فأمال الله تعالى
 الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم
 فاحتملتهم فطرحتهم في البحر وروى أن هودا عليه السلام لما أحس بالريح
 خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تتبع وعن ابن عباس رضى
 الله عنهما اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين على
 الجلود وتلذه الأنفوس وإنما تفر من عاد بالظمن بين السماء والأرض وتدمغهم
 بالحجارة .

﴿ ولقد مكناهم ﴾ أى قررنا عادا أو أقدرناهم وما في قوله تعالى ﴿ فيما
 إن مكناكم فيه ﴾ موصولة أو موصوفة وإن نافية أى فى الذى أو فى شيء
 ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادئ الانصرفت كما فى
 قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمسك
 بسكم) وما يحسن موقع إن هنا التفهيم عن تكرار لفظة ما وهو الداعى إلى قلب
 ألفها جاء فى مهنا وجعلها شرطية أو زائدة مما لا يليق بالمقام ﴿ وجعلنا لهم
 سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت
 بوجوههم من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤن منعها عز وجل ويدأموها على
 شكرها ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ﴾ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ
 الرسل ﴿ ولا أبصارهم ﴾ حيث لم يحتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة فى

صحائف العالم ﴿ ولا أقدمهم ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ﴿ من شيء ﴾ أى شيئاً من الإغناء ومن مزينة للتأكيد وقوله تعالى ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ متعلق بما أغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيف إليه فإن قولك أكرمه إذ أكرمني في قوة قولك أكرمه لإكرامه لأنك إذا أكرمته وقت إكرامه فإنما أكرمته فيه لوجود إكرامه فيه وكذا الحال في حيث ﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزون ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعملونه بطريق الاستهزاء ويقولون فأتقنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم ﴾ يا أهل مكة ﴿ من القرى ﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ كرناها لهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ لى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى ﴿ فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ﴾ القربان ما يتقرب به إلى الله تعالى وأحد مفعولى اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثانى آلهة وقربانا حال والتقدير فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقربا بها إلى الله تعالى حيث كانوا يقولون ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه تهكم بهم ولا مساغ لجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى فإن البديل وإن كان هو المقصود لكنه لا بد فى غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب فى أن قولنا اتخذوهم من دون الله قربانا أى متقربا به مما لا صحة له قطعاً لأنه تعالى متقرب إليه لا متقرب به فلا يصح أنهم اتخذوهم قربانا منجاوزين الله فى ذلك وقرى قربانا بضم الراء ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم نصرهم لغيرتهم أو ضاعوا عنهم أى ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم امتناع نصر الغائب عن المنصور ﴿ وذلك ﴾ أى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم ﴿ لإفكهم ﴾ أى أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ونتيجة شركهم وقرى إفكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرى أفكهم على صيغة الماضى فذلك إشارة حينئذ إلى الاتخاذ أى وذلك الاتخاذ الذى هذه ثمرة وعاقبته صرفهم عن الحق وقرى

أفكمهم بالتشديد للبالغة وأفكمهم من الأفعال أى جعلهم أفكين وقرىء
أفكمهم على صيغة اسم الفاعل مضافا إلى ضميرهم أى قولهم الإفك أى ذو الإفك
كما يقال قول كاذب ((وما كانوا يفترون)) عطف على إفكمهم أى وأثر افتراءهم
على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرىء وذلك إفك مما كانوا
يفترون أى بعض ما كانوا يفترون من الإفك .

((وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن)) أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك وقرىء
صرفنا بالتشديد للتكثير لأنهم جماعة وهو السر في جمع الضمير في قوله تعالى
((يستمعون القرآن)) وما بعده وهو حال مقدرة من نفر لتمييزه بالصفة
أو صفة أخرى له أى واذكر لقومك وقت صرفنا إليك نفراً كأننا من الجن
مقدرا استماعهم القرآن ((فلما حضروه)) أى القرآن عند تلاوته أو الرسول
عند تلاوته له على الالتفات والاول هو الأظهر ((قالوا)) أى قال بعضهم
لبعض ((أنصتوا)) أى اسكتوا لسمعه ((فلما قضى)) أتم وفرغ عن تلاوته
وقرىء على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا يؤيد
عود ضمير حضروه إليه عليه الصلاة والسلام ((ولوا إلى قومهم منذرين))
مقشرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم . روى أن الجن كانت تسترق السمع
فلما حرسوا السماء ورجعوا بالشهب قالوا ما هذا إلا لنبا حدث فنهض سبعة نفر
أو ستة نفر من أشرف جن نصيبين أو فينوى منهم زبعة فضربوا حتى بلغوا
تهامة ثم اندفعوا إلى وادى نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم
في جوف الليل يصلي أو في صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه
من الطائف وعن سعيد بن جبير ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن
ولا رأيهم وإنما كان يتلو في صلاته فقرأ به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم
فأنبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل أمره الله تعالى أن ينذر الجن ويقرأ عليهم
فنهضت إليه نفراً منهم جمعهم له فقال عليه الصلاة والسلام إنى أمرت أن أقرأ
على الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثا فأهراقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله
عنه قال فأتلفنا حتى إذا تكفأ بأعلى مكة في شعب الحجون نخط لي خطا فقال

لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن وسمعت لفظاً شديداً حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته عليه الصلاة والسلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت شيئاً قلت نعم رجالاً سوداً مستشعرى ثياب بيض فقال أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك .

((قالوا)) أى عند رجوعهم إلى قومهم ((يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى)) قيل قالوه لأنهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ((مصداقاً لما بين يديه)) أرادوا به التوراة ((يهدى إلى الحق)) من العقائد الصحيحة ((وإلى طريق مستقيم)) موصل إليه وهو الشرائع والأعمال الصالحة ((يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به)) أرادوا به ما سمعوه من الكتاب وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما دعوههم إلى ذلك بعد بيان حقيقته واستقامته ترغيباً لهم فى الإجابة ثم أكدوه بقولهم ((يغفر لكم من ذنوبكم)) أى بعض ذنوبكم وهو ما كان فى خالص حق الله تعالى فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ((ويحرمكم من عذاب أليم)) معد للكفرة واختلف فى أن لهم أجراً غير هذا أو لا والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً وقوله تعالى ((ومن لا يحب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض)) إيجاب للإجابة بطريق التهيب لإثر إيجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين وإظهار داعى الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين للبالغة فى الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة أى فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها وقوله تعالى ((وليس له من دونه أولياء)) بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير لإثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الأولياء باعتبار معنى من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لا تقسام الاحاد إلى الاحاد كما أن الجمع

في قوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ بذلك الاعتبار أى أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿ في ضلال مبين ﴾ أى ظاهر كونه ضلالا بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه .

﴿ أولم يروا ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخما للمشاهدة والعيان والعيان أن الله ﴿ الذى خلق السموات والأرض ﴾ ابتداء من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتجيه ﴿ ولم يعى بخلقهن ﴾ أى لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا أولم يعجز عنه يقال عجزت بالأمر إذا لم يعرف وجهه وقوله تعالى ﴿ بقادر ﴾ في حين الرفع لأنه خبر أن كما ينبىء عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها في القراءة الأولى اشتغال النفي الوارد في صدر الآية على أن وما في حينها كأنه قيل أوليس الله بقادر ﴿ على أن يحيى الموتى ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ تقريراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ ظرف عامله قول مضمّر مقوله ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ على أن الإشارة إلى ما يشاهدونه حيثئذ من حيث هو من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تكبره وتأنيته إذ هو اللائق بتبويله وتفخيمه وقد مر في سورة الأحزاب وقيل هى إلى العذاب وفيه تمكيم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعده الله ووعيدة وقولهم وما نحن بمعذبين ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطعمون في الخلاص بالاعتراف بحقيقتها كما في الدنيا وأنى لهم ذلك ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ بما في الدنيا ومعنى الأمر الإهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء في قوله تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ جواب شرط محذوف أى إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم كما صبر أولو الثبات والحزم^(١) من الرسل فإنك من جملة من بل من عليتهم ومن للتبيين وقيل

للتبميز والمراد بأولى العزم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها
وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح
وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقيل هم الصابرون على بلاء
الله كنوح صبر على أذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وإبراهيم صبر
على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر
ويوسف على الحب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه (إنا لمدركون
قال كلا إن معي ربي سيهدين) وداود بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى لم
يضع لبنة على لبنة صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

(ولا تستعجل لهم) أى لكفار مكة بالعذاب فإنه على شرف النزول
بهم (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) من العذاب (لم يلبثوا) فى الدنيا
(إلا ساعة) يسيرة (من نهار) لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته
وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدأ محذوف أى هذا الذى وعظمت به كفاية
فى الموعظة أو تبليغ من الرسول ويؤيده أنه قرىء بلغ وقرىء بلاغا أى بلغوا
بلاغا (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى الخارجون عن الاتعاظ أو عن
الطاعة وقرىء بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة
من الإهلاك ونصب القوم ووصفه . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ
سورة الاحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا .

﴿سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمى سورة القتال﴾

وهي مدنية ، وقيل : مكية ، وآياتها تسع أو ثمان وثلاثون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أى أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه من صد صدودا أو منعوا الناس عن ذلك من صد صدأ كالمطعمين يوم بدر وقيل هم اثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام وقيل هو عام في كل من كفر وصد ﴿أضل أعمالهم﴾ أى أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا أثر لها أصلا لكن لا بمعنى أنه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنه حكم ببطلانها وضاعتها فإن ما كانوا يعملون من أعمال البر كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأسارى وغيرها من المكارم ليس لها أثر من أصلها لعدم مقارنتها للإيمان أو أبطل ما عملوا من السكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيله بشعر رسوله وإظهار دينه على الدين كله وهو الأوفق لما سيأتى من قوله تعالى ﴿فتمسوا لهم وأضل أعمالهم﴾ وقوله تعالى ﴿فإذا لقيتم﴾ الخ . ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قيل هم ناس من قريش وقيل من الأنصار وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل عام لكل ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ خص بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به وأنه الأصل في الكل ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿وهو الحق من ربهم﴾ بطريق حصر الحقيقة فيه وقيل حقيقته بكونه ناسخا غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل وأيا ما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرىء نزل على البناء للفاعل وأنزل على البناءين ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ أى سترها

بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وأصلح باهم ﴾ أى حالهم فى الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من إضلال الأعمال وتكفير السيئات وإصلاح الباطل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ أى ذلك كائن بسبب أن الأولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد فيان سببية اتباعه للإضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعا لهما قطعا وبسبب أن الآخرين اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائننا من ربهم ففعلوا ما فعلوا من الإيمان به وبكتابه ومن الأعمال الصالحة فيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببية الإيمان والعمل الصالح له متضمن لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومثما لهما حتما فلا تدافع بين الإشعار والتصريح فى شئ من الموضعين ويجوز أن يحمل الباطل على ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لا أصل له أصلا فالصريح بسببية اتباعه لإضلال أعمالهم وإبطالها لبيان أن إبطالها لبطلان مبناها وزواله وأما حمله على ما لا ينفع به فليس كما ينبغى لما أن الكفر والصد أفحش منه فلا وجه للتصريح بسببيته لما ذكر من إضلال أعمالهم بطريق القصر بعد الإشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الإيمان والأعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الإضلال ومن التكفير والإصلاح تصريحاً بالسببية المشعر بها فى الموقعين ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يضرب الله ﴾ أى يبين ﴿ للناس أمثالهم ﴾ أى أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال وهى اتباع الأولين الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا ﴾ لترتيب ما فى حيزها من الأمر على ما قبلها فإن إضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام

أى فإذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتموه في المحاربة ﴿ فاضرب الرقاب ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا إلى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه ﴿ حتى إذا أنقذتموه ﴾ أى أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين وهو الغليظ أو أنقذتموه بالقتل والجراح حتى أذهبتهم النهوض ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرئ بذلك ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ أى فإما تمنون منا بعد ذلك أو تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمان والفداء وهذا ثابت عند الشافعى رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم إما القتل أو الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق وقرئ فدا كدها .

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسنادا مجازيا وحتى غاية عند الشافعى لأحد الأمور الأربعة أو للمجموع والمعنى أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام . وأما عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فإن حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وإن حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى أنهم يقتلون ويأسرون حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكة وقيل أوزارها آثامها أى حتى يترك المشركون شرهم ومصاصيهم بأن أسلموا ﴿ ذلك ﴾ أى الأمر ذلك أو افعلوا ذلك ﴿ ولو شاء الله لا تتصر منهم ﴾ لا انتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿ ولكن ﴾ لم يبق ذلك ﴿ ليلو بعضكم ببعض ﴾ فأمركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فقتلتموهم جبال الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم .

ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر ﴿والذين قتلوا فى سبيل الله﴾
 أى استشهدوا وقرىء قاتلوا أى جاهدوا وقتلوا وقتلوا ﴿فلن يضل أعمالهم﴾
 أى فلان يضيئها وقرىء يضل أعمالهم على البناء للفعل ويضل أعمالهم من ضل
 وعن قتادة أنها نزلت فى يوم أحد ﴿سيهديهم﴾ فى الدنيا إلى أرشد الأمور
 وفى الآخرة إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم ﴿ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة
 عرفها لهم﴾ فى الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها أو بينها لهم بحيث
 يعلم كل أحد منزله ويهتدى إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل أن
 الملك الموكل بعمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شىء أعطاه الله تعالى
 أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة أو حدها لهم وأفرزها من عرف
 الدار الجنة كل منهم محددة مفرزة والجملة إما مستأنفة أو حال بإضمار قد أو بدونه.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله﴾ أى دينه ورسوله ﴿ينصركم﴾
 على أعدائكم ويفتح لكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ فى مواطن الحرب ومواقفها أو
 على محجة الإسلام ﴿والذين كفروا فتعسأ لهم﴾ التعس الهلاك والعثار
 والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل ناعس وتعس وانتصابه بفعله
 الواجب حذفه سماعا أى فقال تعسأ لهم أوفقضى تعسأ لهم وقوله تعالى ﴿وأضل
 أعمالهم﴾ عطف عليه داخل معه فى حيز الخبرية للوصول .

﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من التعس وإضلال الأعمال ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم
 ﴿كروهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة
 لما ألفوه واشتهت أنفوسهم الأماراة بالسوء ﴿فأحبط﴾ لأجل ذلك ﴿أعمالهم﴾
 التى لو كانوا عملوها مع الإيمان لآثبوا عليها ﴿أفلم يسيروا فى الأرض﴾
 أى أقعدوا فى أما كنهم فلم يسيروا فيها ﴿فيظفروا كيف كان عاقبة الذين من
 قبلهم﴾ من الأمم المكذبة فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم وقوله تعالى
 ﴿در الله عليهم﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل كيف
 كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهلهم
 وأموالهم يقال دمره أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به ﴿والكافرين﴾

أى وهؤلاء الكافرين الساترين بسيرتهم ﴿ أمثالها ﴾ أمثال عواقبهم أو عقوباتهم لكن لا على أن هؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة وقيل يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل أشد المأسا من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السالفة هؤلاء ﴿ بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ أى ناصرهم على أعدائهم وقرىء ولى الذين ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الآخروية ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ أى ينتفعون في الدنيا بمتاعها ﴿ ويا كلون كما تأكل الأنعام ﴾ غافلين عن عواقبهم ﴿ والناز مثوى لهم ﴾ أى منزل ثواء وإقامة والجملة إما حال مقدرة من واو ياكلون أو استئناف ﴿ وكأى ﴾ كلبة مبركة من الكاف وأى بمعنى كم الخبرية ومحملها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿ من قرية ﴾ تمييز لها وقوله تعالى ﴿ هى أشد قوة من قريتك ﴾ صفة لقريه كما أن قوله تعالى ﴿ التى أخرجتك ﴾ صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف وأجرى أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذى هو قوله تعالى ﴿ أهلكتناهم ﴾ أى وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك الذين كانوا سببا لخروجك من بينهم ووصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك^(١) لضعف قوتها كما أن وصف الثانية بإخراجها عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنائتها وعلى طريقته قول النابغة

(١) فى ٦٩ : بالهلاك .

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم
وقوله تعالى ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة
الأعوان والآنصار لإثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم والفناء لترتيب ذكر
ها بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية ﴿ أفن كان على بينة من
ربه ﴾ تقرير لتباين حالى فريق المؤمنين والكافرين وكون الأولين فى أعلى
عليين والآخرين فى أسفل سافلين وبيان لعل ما لكل منهما من الحال والهمزة
للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرئ بدونها ومن عبارة
عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين وجعلها عبارة عن النبي عليه الصلاة والسلام
أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على أن الموازنة بينه عليه الصلاة
والسلام وبينهم بما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الأمر كما ذكر فن كان
مستقرا على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك أمره ومريه وهو القرآن الكريم
وسائر المعجزات والحجج العقلية ﴿ كن زين له سوء عمله ﴾ من الشرك وسائر
المعاصى مع كونه فى نفسه أقبح القبائح ﴿ واتبعوا ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿ أهواءهم ﴾
الرائفة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم
عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الآخرين باعتبار معنى من
كما أن أفراد الأولين باعتبار لفظها .

عجائب الجنة

﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة
الموعودة آنفا للمؤمنين وبيان كيفية أنهارها التى أشير إلى جريانها من تحتها
وعبر عنهم بالمتقين لإيداعاً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو
عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها ومثلها وصفها
العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة
ما تسمعون وقوله تعالى ﴿ فيها أنهار ﴾ إلخ مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم
مثل الجنة والأول هو الأنسب لصدر النظم الكريم وقيل المثل زائدة كزيادة
الاسم فى قول من قال :

ه إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ه

والجنة مبتدأ خبره فيها أنهار إلخ (من ماء غير آسن) أى غير متغير الطعم والرائحة وقرىء غير آسن (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) بأن صار قارصا ولا خازرا كألبان الدنيا (وأنهار من خمر لذة للشاربين) لذينة ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وإنما هى تليذ محض ولذة إمانا نيت لذ بمعنى لذينة أو مصدر نعت به مبالغة وقرىء لذة بالرفع على أنها صفة أنهار وبالنصب على العلة أى لأجل لذة الشاربين (وأنهار من عسل مصفى) لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفى هذا تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع ما يستطاب منها ويستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينقصها والتخلية بما يوجب غزارتها ودوامها (ولهم فيها) مع ما ذكر من فنون الأنهار (من كل الثمرات) أى صنف من كل الثمرات (ومغفرة) أى ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائنة من ربهم وقوله تعالى (كن هو خالد فى النار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبا جرى به الوعد كن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مشوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن فى الكلام حذف تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار فعمرى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف تصوير المكابرة من يسوى بين المتمسك بالبيئة وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار (وسقوا ماء حميا) مكان تلك الأشربة (فقطع أمعاءهم) من فرط الحرارة قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم وانمات فروة رؤوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم .

من أخلاق المنافقين

(ومنهم من يستمع إليك) هم المنافقون وإفراد الضمير باعتبار لفظ من

كما أن جمعه فيما سيأتى باختيار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضى الله عنهم ﴿ماذا قال آتفا﴾ أى ما الذى قال الساعة على طريقة الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام وآتفا من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشيء واثتف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتفا أو حال من الضمير فى قال وقرىء آتفا ﴿أو لثك﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الذين طبع الله على قلوبهم﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلا ﴿وابتبعوا أهواءهم﴾ الباطلة فذلك فعلوا ما فعلوا بما لا خير فيه ﴿والذين اهتدوا﴾ إلى طريق الحق ﴿زادهم﴾ أى الله تعالى ﴿هدى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم على تقواهم أو أعطاهم جزاءها أو بين لهم ما يتقون .

﴿فهل ينظرون إلا الساعة﴾ أى القيامة وقوله تعالى ﴿أن تأتيتهم بغتة﴾ أى تباغتتهم بغتة وهى المفاجأة بدل اشتغال من الساعة والمعنى أنهم لا يتذكرون بذكر أهوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظامم الأهوال وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان نفس الساعة بغتة وقرىء بغتة بفتح الغين وقوله تعالى ﴿فقد جاء أشراطها﴾ تعليل لمفاجأتها لا لإتيانها مطلقا على معنى أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكر أمر متقرب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة إذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يدروها من مبادئ إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والأشراط جمع شرط بالتحريك وهى العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى ﴿فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله تعالى ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ أى وكيف لهم ذكرهم إذا جاءتهم على أن أتى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ وإذا جاءتهم اعتراض وسط بينهما رمز إلى غاية سرعة

مجيتها وإطلاق المجيء عن قيد البغته لما أن مدار استعالة نفع التذكر كونه عند مجيئه مطلقا لا مقيدا بقيد البغته وقرىء أن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه فأنى لهم إلخ والمعنى أن تأتهم الساعة بغته لأنه قد ظهر أماراتها فكيف لهم تذكركم واتعاضهم إذا جاءتهم .

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ أى إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الإشرار والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى عبر عنه بالذنب نظرا إلى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الأبرار سيئات المقربين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أى لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم وفى إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلقيه جنسا وفى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه إشعار بعراقتهم فى الذنب وفرط افتقارهم إلى الاستغفار ﴿ والله يعلم متقلبكم ﴾ فى الدنيا فإنما من أجل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ ومثواكم ﴾ فى العقبي فإنها موطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فإنه المهم لكم فى المقامين وقيل يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شئ منها .

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ حرصا منهم على الجهاد ﴿ لولا نزلت سورة ﴾ أى هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد ﴿ فإنها أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ﴾ بطريق الأمر به أى سورة مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال . عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لم تنسخ وقرىء فإذا نزلت سورة وقرىء وذكر على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصب القتال ﴿ رأيت للذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الأظهر الإلوفى لسياق النظم الكريم ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى تشخص أبصارهم جبيناً وعلماً كذاب من أصابته غشية الموت ﴿ فأولئك لهم ﴾ أى فويل لهم وهو أففل من الولي وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم

بأن يلهم المسكروه أو يؤول إليه أمرهم وقيل هو مشتق من الويل وأصله أويل .
 نقلت العين الى ما بعد اللام فوزنه أفلع ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام
 مستأنف أى أمرهم طاعة الخ أو طاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية لقولهم
 ويؤيده قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف أى أمرنا ذلك ﴿ فإذا عزم
 الأمر ﴾ أسند العزم وهو الجلد إلى الأمر وهو لأصحابه مجازا كما فى قوله تعالى
 (إن ذلك من عزم الأمور) وعامل الظرف محذوف أى خالفوا وتحلفوا وقيل
 ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى :

﴿ فلو صدقوا الله ﴾ على طريقة قولك إذا حضرنى طعام فلو جئتنى
 لأطعمتك أى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من السلام المنبى . عن الحرص على
 الجهاد بالجرى على موجب ﴿ لكان ﴾ أى الصدق ﴿ خيرا لهم ﴾ وفيه دلالة على
 اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى (لولا نزات) سورة وقيل فلو صدقوه
 فى الإيمان ووأطأت قلوبهم فى ذلك أنسنتهم وأيا ما كان فالمراد بهم الذين فى
 قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى ﴿ فهل عسيتم ﴾ الخ بطريق الالتفات
 لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أى هل يتوقع منكم ﴿ إن توليتم ﴾ أمور الناس
 وتأمرت عليهم ﴿ أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ تناحرا على
 الملك ونهالكا على الدنيا فإن من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف فى الدين
 والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذى هو عبارة عن إحراز كل خير
 وصلاح ودفع كل شر وفساد وأنتم مأمورون بأحكام الطاعة والقول المعروف
 يتوقع منكم إذا أطلقت أعنتكم وصرتهم أمرين ماذكر من الإفساد وقطع الأرحام
 وقيل إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا لى ما كنتم عليه فى الجاهلية من
 الإفساد فى الأرض بالتغاوير والنناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب
 بعضا . وأد البنات وفيه أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لا بد أن
 تكون محذورية باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب فى أن
 الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ
 لا وسيلة للتوبيخ بها دونه من المفاسد وقوى وليتم على البناء للمفهوم أى جعلتم

ولادة وقرىء توليتهم أى تولاكم ولادة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الإفساد وقطيعة الرحم وقرىء وتقطعوا من التقطع بحذف إحدى التاءين. فانصب أرحامكم حيثئذ على نزع الجار أى فى أرحامكم وقرىء وتقطعوا من القطع وإلحاق الضمير بعسى لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل وعسى أن تفعلوا (أولئك) إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ليدان أن ذكر هوانهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ خبره (الذين لعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته (فأصمهم) عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم (وأعمى أبصارهم) لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنهوبة فى الأنفس والآفاق.

(أفلا يتدبرون القرآن) أى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات (أم على قلوب أقفالها) فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلا وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة للتقرير وتنكير القلوب إما لتحويل حالها وتفضيع شأنها بإيهام أمرها فى المساواة والجهالة كأنه قيل على قلوب منكرا لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى المساواة وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون وإضافة الأفعال إليها للدلالة على أنها أفعال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لساير الأفعال المعهودة وقرىء أقفالها وإقفالها على المصدر.

(إن الذين ارتدوا على أدبارهم) أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة وقيل هم اليهود وقيل أهل الكتابين جميعا كفروا به عليه الصلاة والسلام بعدما وجدوا نفعه فى كتابهم وعرفوا أنه المبعوث بذلك وقوله تعالى (الشیطان سول لهم) جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لأن أى سهل لهم ركوب العظائم من السؤل وهو الاسترخاء

وقيل من السؤل المخفف من السؤل لاستمرار القلب فعنى سؤل له أمرا حينئذ أوقعه في أمنيته فإن السؤل الأمنية وقرىء سؤل مبنيا للمفعول على حذف المضاف أن كيد الشيطان ﴿ وأملى لهم ﴾ ومد لهم في الأمانى والآمال وقيل أمهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرىء وأملى لهم على صيغة المتكلم فالعنى أى الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم فالواو للحال أو للاستئناف وقرىء أملى لهم على البناء للمفعول أى أمهلوا ومد في عمرهم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم لا إلى الإيماء كما نقل عن الواحدى ولا إلى التسويل كما قيل لأن شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قالوا ﴾ يعنى المنافقين المذكورين لا اليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نفعه في النوراة كما قيل فإن كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان المقول لهم المنافقين أو المشركين على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿ للذين كرهوا ما أنزل الله ﴾ أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بأنه من عند الله تعالى حسدا وطمعا في نزوله عليهم لا للمشركين كما قيل فإن قوله تعالى ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ عبارة قطعاً عما حكى عنهم بقوله تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب إن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذى أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه إظهار كفرهم وإعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارهم فإنهم كانوا يابون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية إليه لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ والله يعلم أسرارهم ﴾ أى إخفاءهم لما يقولونه لليهود وقرىء أسرارهم أى جميع أسرارهم التى من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للإششاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة والفاء في قوله

تعالى ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف كأنه قيل يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الخيل فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فكيف حالهم أو حياتهم إذا توفتهم الخ وقرئ توفاهم على أنه إما ماض أو مضارع قد حذف لإحدى تأديه ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ حال من فاعل توفتهم أو من مفعوله وهو تصوير لتوفهم على أهول الوجوه وأظلمها وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب الملائكة وجهه ودبره ﴿ ذلك ﴾ التوفى الهائل ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ اتبعوا ما أسخط الله ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ أى ما يرضاه من الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود ﴿ فأحبط ﴾ لأجل ذلك ﴿ أعمالهم ﴾ التى عملوها حال لإيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التى لو عملوها حال الإيمان لا تنفعوا بها ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ﴾ هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدارا لما نعى عليهم يقوله تعالى ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فأم منقطعة وأن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والأضغان جمع ضغن وهو الحقد أى بل أحسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة والمعنى أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

﴿ ولو نشاء ﴾ إرادتهم ﴿ لأريناكم ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والاتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإرادة ﴿ فلعرفتهم بسيماهم ﴾ بعلامتهم التى نسميهم بها وعن أنس رضى الله عنه ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ولقد كننا فى بعض النزوات وفيها تسعة من المنافقين يشبهونكم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق ولللام لام

الجواب كررت في المعطوف للتأكيـد والفاء لترتيب المعرفة على الإرادة وأما ما في قوله تعالى ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ فلجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه أو إيمانه إلى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطيء لحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وإيدان^(١) بأن حالهم بخلاف حالهم بخلاف حاله المنافقين ﴿ ولنبلو نكم ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حقى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ على مشاق الجهاد علما فعليا يتعلق به الجزاء ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها وقرىء ويبلو بالياء وقرىء يبلو يسكون الواو على ونحن نبلوا ﴿ إن الذين كفروا وصدوا ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله وشاقوا الرسول ﴾ وعادوه ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ بما شاهدوا نعمته عليه الصلاة والسلام في التوراة بما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر ﴿ لن يضروا الله ﴾ بكفرهم وصدهم ﴿ شيئا ﴾ من الأشياء أو شيئا من الضرر أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئا وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفضييع مشاقته ﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ أى مكايدهم التى نصبوها فى إبطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه الصلاة والسلام فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبخون من الغوائل ولا تنمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ حكم يعم كل من مات على الكفر وإن صح نزوله فى أصحاب القليب .

﴿ فلا تنهوا ﴾ أى لا تضعفوا ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى ولا تدعوا الكفار

إلى الصلح خورا فإن ذلك إعطاء الدنية ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن على جواب النهى وقرئ ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه تراءوا الهلال فإن صيغة التفاعل قد براد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله تعالى (عم يتساءلون) على أحد الوجهين والفاء لترتيب النهى على ما سبق من الأمر بالطاعة وقوله تعالى (وأنتم الأعلون) جملة حالية مقررة لمعنى النهى مؤكدة لوجوب الانتهاء وكذا قوله تعالى (والله معكم) فإن كونهم الأعلين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوم الذل والضراعة وكذا توفيقه تعالى لأجور الأعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولن يتركم أعمالكم) أى ولن يضيعها من ورتت الرجل إذا قتل له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم فأفردته عنه من الوتر الذى هو الفرد وعبر عن ترك الإثابة فى مقابلة الأعمال بالوتر الذى هو إضاعة شئ معتد به من الأنفس والأموال مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة لإبراز غاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها وقد مر فى قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم) (لأنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لا ثبات لها ولا اعتداد بها (وإن قومنوا وتقوا يؤتمكم أجوركم) أى ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون (ولا يسألكم أموالكم) بحيث يخل أداؤها بمعاشكم وإنما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع العشر تؤدونها إلى فقرائكم (إن يسألكموها) أى أموالكم (فيحفسكم) أى يجهدكم بطلب الكل فإن الإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال أحفى شاربه إذا استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا (ويخرج أضغانكم) أى أحقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة أو للبخل لأنه سبب الأضغان وقرئ يخرج من الخروج بالياء والتاء مسندا إلى الأضغان .

(ها أنتم هؤلاء) أى أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى

((تدعون لتنفقوا في سبيل الله)) استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء على أنه بمعنى الذين أى ها أتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والإنفاق في سبيل الله يعنى نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ((فمنكم من يبخل)) أى ناس يبخلون وهو في حيز الدليل على الشرطية السابقة ((ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه)) فإن كلا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه والبخل يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدي .

((والله الغنى)) دون من عداه ((وأتم الفقراء)) فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه من المنافع فإن امتثلتم فلکم وإن توليتم فعليكم وقوله تعالى ((وإن تتولوا)) عطف على أن تؤمنوا أى وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ((يستبدل قوما غيركم)) يخلف مكانكم قوما آخرين ((ثم لا يكونوا أمثالكم)) في التولي عن الإيمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما قيل هم الأنصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلبان إلى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كئدة والنخع وقيل المعجم وقيل الروم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله عز وجل أن يسقيه من أنهار الجنة .

سورة الفتح

مدينة ، نزلت في مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية
وآيها تسع وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إنا فتحنا لك) فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحا بحراب
أو بدونه فإنه ما لم يظفر به متعلق مأخوذ من فتح باب الدار وإسناده إلى نون
المظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقا وإيجادا والمراد به فتح مكة شرفها
الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم
عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الأخبار
الربانية للإيدان بتحقيقه لا محالة تأكيداً للنشير كما أن تصدير الكلام بحرف
التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعن
سلطانه ما لا يخفى وقيل هو ما أتبع له عليه الصلاة والسلام في تلك السنة من
فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فإنه وإن لم يكن فيه
حرب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين
حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحا بلا ريب وروى عن ابن عباس رضى
الله عنهما رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وعن الكلبي ظهروا عليهم
حتى سألوا الصلح وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين بلغه أن رجلا قال
ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو أعظم الفتوح وقد
رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان
وقد رأوا منكم ما يكرهون وعن الشعبي نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة حيث أصاب أن يبيع
بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبلغ الهدى محله وأطعموا
نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان فى فتح الحديبية

آية عظيمة هي أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل يجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع ما فتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو ما فتح الله له عليه الصلاة والسلام من الإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كافة إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو شعبة وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتحاة للحكومة والمعنى قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه وأياً ما كان فخذف المفعول للمقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح ﴿فتحنا مينا﴾ بينا ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقاً بين الحق والباطل وقوله تعالى :

﴿ ليغفر لك الله ﴾ غاية للفتح من حيث إنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الجروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ أى جميع ما فرط منك من ترك الأولى وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة وغيرهما مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من انضاح سبل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصل قبل ﴿ وينصرك الله ﴾ إظهار الاسم الجليل لسكونه خاتمة الغايات وإظهار كمال العينية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيداً بقوله تعالى ﴿ نصرأ عزيزاً ﴾ أى نصرأ فيه عزة ومنعة أو قوياً مبنياً على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازاً للمبالغة أو عزيزاً صاحبه ﴿ هو الذى أنزل السكينة ﴾ بيان علو أفاضه عليه

من مبادئ الفتح من الثبات والطمأنينة أى أنزلها ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ بسبب الصلح والأمن لإظهار آلفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أى يقينا منضمّا إلى يقينهم أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا إيماناً بها مقروناً مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيماناً مع إيمانهم أو أنزل فيها الوفاق والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيماناً إلى إيمانهم ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ يدبر أمرها كيفما يريد يسلط بعضها على بعض تارة ويوقع بينهما السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وكان الله عليماً ﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿ حكيماً ﴾ في تقديره وتديره وقوله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ متعلق بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرف والتدبير أى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأعلى ﴿ وكان ذلك ﴾ أى ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿ عند الله فوزاً عظيماً ﴾ لا يقادر قدره لأنه منتهى ما يمتد إليه اعتناق الهمم من جلب نفع ودفع ضرر وعند الله حال من فوزاً لأنه صفته في الأصل فلما قدم عليه صابراً حالاً أى كائناً عند الله أى في علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله.

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ عطف على يدخل وفى تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب ﴿ الظاتين بالله ظن السوء ﴾ أي ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر وسنوله والمؤمنين ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أى ما يظنونونه ويترصونه بالمؤمنين فهو لحاق بهم ودار عليهم وقهرى دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء

كالسكره والسكره خلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء وأما المضموم بخار (١) مجرى الشر (و غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم) عطف على ما استحقوه في الآخرة على ما استوجبه في الدنيا والواو في الأخيرين مع أن حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد وأصلته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض (وساءت مصيرا) أي جهنم (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) إعادة لما سبق قالوا فأنذتها التنبيه على أن الله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وأن المراد ههنا (٢) جنود العذاب كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة (إنا أرسلناك شاهدا) أي على أمتك لقوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيدا) (ومبشرا) على الطاعة (ونذيرا) على المعصية .

(لتؤمنوا بالله ورسوله) الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأئمة (وتعزروه) وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أو تصلوا له من السبحة (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وقرئ الأفعال الأربعة بالياء التحتانية وقرئ وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاي المكسورة وقرئ بفتح التاء وضم الزاي وكسرها وتعزروه براءين وتوقروه من أوقره بمعنى وقره .

(إن الذين يبايعونك) أي على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى (إنما يبايعون الله) خبر أن يعنى أن مبايعتك هي مبايعة الله عز وجل لأن المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) حال أو استئناف مؤكدا له على طريقة التخيل والمعنى أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقرئ إنما يبايعون الله أي لأجله ولوجه (فمن نكث فإنما ينكث

(١) في ١١ : فهو جار .

(٢) في ١١ : هنا .

على نفسه) أى من نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثته على نفسه وقرىء بكسر الكاف (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) بضم الهاء فإنه أبقي بعد حذف الواو توسلاً بذلك إلى تفخيم لام الجلالة وقرىء بكسر ها أى ومن وفى بعهده (فسؤتيه أجراً عظيماً) هو الجنة وقرىء بما عاهد وقرىء فسؤتيه بنون العظمة (سيقول لك المخلفون من الأعراب) هم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنصر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم عليه الصلاة والسلام وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد الحرب وتناقلوا عن الخروج وقالوا نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام بأنهم سيعتلون ويقولون (شغلنا أموالنا وأهلونا) ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرىء شغلنا بالتشديد للتكثير (فاستغفر لنا) الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن اضطرار (يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم) بدل من سيقول أو استثناف لتكذيبهم فى الاعتذار والاستغفار .

(قل) ردأ لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم (فمن يملك لكم من الله شيئاً) أى فمن يقدر لأجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شيء من النفع (إن أراد بكم ضراً) أى ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما وتدفع الضرر عنهما وقرىء ضراً بالضم (أو أراد بكم نفعاً) أى ومن يقدر على شيء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم فأى حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب ظاهر مقالهم الكاذبة وتعميم الضرر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والفضيمة يرده قوله تعالى (بل كان الله ياتممون خيراً) فإنه إضراب عما قالوا ويبان لكذبه بعد بيان فساده على

تقدير صدقه أى ليس الأمر كما تقولون بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملون من الأعمال التى من جملتها تخلفكم وما هو من مبادئه وقوله تعالى ﴿ بل ظننتم ﴾ الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما فيه من الإيهام أى بل ظننتم ﴿ أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرّة نظريتهم لأن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلأجل ذلك تخلفتم لما ذكرتم من المآذير الباطلة والأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كآرضات على تقدير تاه التأنيت وأما الأهالى فاسم جمع كالليالى وقرىء إلى أهلهم .

﴿ وزين ذلك فى قلوبكم ﴾ وقبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مباليين بهم وقرىء زين على البناء الفاعل بإسناده إلى الله سبحانه أو إلى الشيطان ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ المراد به إما الظن الأول والتسكير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال ﴿ وكنتم قوما بورا ﴾ أى هالسين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على أنه جمع بأثر كعائد وعوذ أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونيانكم لا خير فيكم وقيل البور من بار كاطللك من هالت بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أى ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين ﴿ فانا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ أى لهم وإنما وضع موضع الضمير الكافرون لإيداننا بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره وتذكير سعيراً للتحويل أو لأنها نار مخصوصة ﴿ والله ملك السموات والأرض ﴾ وما فيهما يتصرف فى الكل كيف يشاء ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه من غير دخل لأحد فى شيء منهما وجوداً وعدماً وفيه جسم لأطاعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ مبالغاً فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء إلا لمن تقتضى الحكمة

مغفرته من يؤمن به وبرسوله وأما من عداه من الكافرين فهم بمنزل من ذلك قطعاً ﴿سيقول المخلفون﴾ أى المذكورون وقوله تعالى ﴿إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها﴾ ظرف لما قبله لا شرط لما بعده أى سيقولون عند انطلافتكم إلى معانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إياها وخصمكم بها عوضاً مما فأنكم من غنائم مكة ﴿ذرونا تتبعكم﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ بأن يشاركوا فى الغنائم التى خصها بأهل الحديبية فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم حسبما أمره الله عز وجل وقرىء كلم الله وهو جمع كلمة وأياما كان فالمراد ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى (لن تخرجوا معي أبداً) فإن ذلك فى غزوة تبوك.

﴿قل﴾ إقناط لهم ﴿لن تتبعونا﴾ أى لا تتبعونا فإنه نفي فى معنى النهى للبالغة ﴿كذلك قال الله من قبل﴾ أى عند الانصراف من الحديبية ﴿فسيقولون﴾ للثومنين عند سماع هذا النهى ﴿بل تحسدوننا﴾ أى ليس ذلك النهى حكم الله بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم وقرىء تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى ﴿بل كانوا لا يفقهون﴾ أى لا يفهمون ﴿إلا قليلاً﴾ إلا فهما قليلاً وهو فطنتهم لأمر الدنيا رد لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين ﴿قل للمخلفين من الأعراب﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمهم ﴿ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلة الكذاب أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المشركون لقوله تعالى ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أبداً أو الإسلام لا غير كما يفصح عنه قراءة أو يسلموا وأما من عداهم فينتهى قتالهم بالجزية كما ينتهى بالإسلام وفيه دليل على إمامة أبى بكر رضى الله عنه إذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم متيقف وهو ابن فإن ذلك كان فى عهد النبوة فيخصر دوام

نفى الاتباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى
يسلمون ينتقدون فإن الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية ﴿ فإن
تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ﴾ هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة
﴿ وأن تتولوا ﴾ عن الدعوة ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ في الحديدية ﴿ يعذبكم
عذابا أليما ﴾ لتضاعف جرمكم .

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾
أى فى النخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة فإن التكليف يدور على
الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم
وتوسيع لدائرة الرخصة ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما ذكر من الأوامر
والنواهي ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء يدخله بنون
العظمة ﴿ ومن يتول ﴾ أى عن الطاعة ﴿ يعذبه ﴾ وقرىء بالنون ﴿ عذابا
أليما ﴾ لا يقادر قدره .

بيعة الشجرة

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ﴾ هم الذين ذكر شأن مبايعتهم وبهذه الآية
سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ منصوب
برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به أو بمحذوف
هو حال من مفعوله روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديدية بمث خراش
ابن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة فهموا به فمعه الأحابيش فرجع فبعث
عنان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت لحرب
ولأنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة فوقوه وقالوا إن شئت أن تطوف
بالبيت فافعل فقال ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه
وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال عليه الصلاة والسلام لا نبرح
حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة وقيل
(١١ - أبو السعود - خامس)

سدرة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروى على الموت دونه وأن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم اليوم خير أهل الأرض وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفاً وأربعمائة وقيل ألفاً وثلاثمائة وقوله تعالى ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ عطف على يبايعوك لما عرفت من أنه بمعنى يبايعوك لا على رضى فإن رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ عطف على رضى أى فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم وقيل بالصلح ﴿ وأنابهم فتحاً قريبا ﴾ هو فتح خيبر غلب انصرافهم من الحديدية كإمر تفصيله وقرىء وآتاهم ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ أى مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم في مقام الامتنان ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ غالباً ﴿ حكيماً ﴾ مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة ﴾ هى ما يفيوه على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿ تأخذونها ﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿ فمجل لكم هذه ﴾ أى غنائم خيبر ﴿ وكف أيدى الناس عنكم ﴾ أى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد وخطفان حيث جاءوا لنصرتهم فخذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أمانة يعرفون بها صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في وعده لإيائهم عند رجوعه من الحديدية ما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أى ولتكون آية لهم فعل مافعل من التمجيل والكف أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين أى فمجل لكم هذه أو كف أيدى الناس لتغتنموها ولتكون الخ فالواو على الأول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة ﴿ ويهديكم ﴾ بتلك الآية ﴿ صراطاً مستقيماً ﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه في كل ما تأتون وما تزدون ﴿ وأخرى ﴾ عطف على هذه أى فمجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ وهى مغانم هوازن في غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل

ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى ﴿قد أحاط الله بها﴾ صفة أخرى لأخرى مفيدة لسهولة تأنيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم أى قد قدر الله عليها واستولى وأظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل إن أخرى منصوب بمضمر يفسره قد أحاط الله بها أى وقضى الله أخرى ولا ريب في أن الإخبار بقضاء الله إياها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى (وعدمكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة في بيان تعجبها ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ لأن قدرته تعالى ذاتية لا تختص بشيء دون شيء .

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ أى أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خبير ﴿لولوا الأدبار﴾ منهزمين ﴿ثم لا يجردون وليا﴾ يحرسهم ﴿ولا نصيرا﴾ ينصرونهم ﴿سنة الله التى قد خلقت من قبل﴾ أى سن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ أى تغييرا ﴿وهو الذى كف أيديهم﴾ أى أيدى كفار مكة ﴿عندكم وأيديكم عنهم يبطن مكة﴾ أى فى داخلها ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ وذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لا صلحا ﴿وكان الله بما تعملون﴾ من مقاتلتهم وهزمهم أولا والسيف عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرىء بالياء ﴿بصيرا﴾ فيجازيكم بذلك أو يجازيهم ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى﴾ بالنصب عطا على الضمير المنصوب فى صدوكم وقرىء بالجر عطا على المسجد بحذف المضاف أى ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى .
وقوله تعالى ﴿مكوكفا﴾ حال من الهدى أى محبوسا .

وقوله تعالى ﴿أن يبلغ محله﴾ بدل اشتغال من الهدى أو منصوب بنزع الخافض أى محبوسا من أن يبلغ مكانه الذى يحل فيه فخره وبه استدلل أبو حنيفة رحمه الله تعالى على أن المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم

وروى أن خيامه صلى الله عليه وسلم كانت في الحل ومصلاه في الحرم وهناك
نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها اليهود الذي هو منى.
﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم
لاختلاطهم وهو صفة لرجال ونساء وقوله تعالى ﴿ أن تطؤوهم ﴾ أى توقعوا
بهم وتهلكوهم بدل اشتغالهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم ﴿ فتصيبكم
منهم ﴾ أى من جهنهم ﴿ مرة ﴾ أى مشقة ومكره كوجوب الدية أو الكفارة
بقتلهم والتأسف عليهم وتعبير الكفار وسوء قائلهم والإثم بالتقصير في البحث
عنهم وهى مفعلة من عره إذا عراه ودهاه ما يكرهه ﴿ بغير علم ﴾ متعلق بأن
تطؤوهم أى غير عالين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى
لولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين الكافرين غير عالين بهم فيصيبكم بذلك
مكره لما كف أيديكم عنهم وقوله تعالى ﴿ ليدخل الله في رحمته ﴾ متعلق بما
يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيب لئلا كفها عنهم ليدخل بذلك
الكف المؤدى إلى الفتح بلا محذور فى رحمته الواسعة بقسميها ﴿ من يشاء ﴾
وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الأمن
مستضعفين تحت أيدى الكفرة وأما الرحمة الآخروية فهم وإن كانوا غير
محرومين منها بالمرّة لكنهم كانوا قاصرين فى إقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم
لإقامتها على الوجه الاتم لإدخالهم فى الرحمة الآخروية وقد جوز أن يكون
من يشاء عبارة عن رغب فى الإسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى
﴿ لو تزيلوا ﴾ الخ فإن فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة
بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيل حتما أى لو تفرقوا وتميز بعضهم
من بعض وقرئ لو تزيلوا ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ﴾ بقتل
مقاتلتهم وسبي ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ إذ جعل الذين كفروا ﴾
منصوب باذكر على المفعولية أو بعذبنا على الظرفية وقيل بمضمهر هو أحسن
الله إليكم وأيا ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لئلا يجرى بما فى حيز الصلة
وجعليل الحكم به والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى ﴿ فى قلوبهم الحية ﴾

أى الأنفة والتكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم ﴿حمية الجاهلية﴾ بدل من الحمية أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى :

﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ على الأول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل إلخ وعلى الثالث على المضمهر تفسير له والسكينة الثبات والوقار بروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديدية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ابن الأحنف على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل لثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ما هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا ﴿والزمهم كلمة التقوى﴾ أى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه وإضافتها إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها أو كلمة أهلها ﴿وكانوا أحق بها﴾ متصفين بمزيد استحقاق لها على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا وقيل أحق بها من الكفار ﴿وأهلها﴾ أى المستأهل لها ﴿وكان الله بكل شئ علما﴾ فيعلم حق كل شئ فيسوقه إل مستحقه .

إرهاص بفتح مكة

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا﴾ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل

خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقصر الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أي صدقه صلى الله عليه وسلم في رؤياه كما في قولهم صدقني سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمزلزل فيه أو حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام وقد جوز أن يكون قسما بالحق الذي هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى :

﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ جوابه وهو على الأولين جواب قسم محذوف أي والله لتدخلن إلخ وقوله تعالى ﴿ إن شاء الله ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أو هي حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحابه ﴿ آمنين ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى ﴿ محلقين رؤسكم ومقصرين ﴾ أي محلقا بعضكم ومقصرآ آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة ﴿ لاتخافون ﴾ حال مؤكدة من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أي لاتخافون بعد ذلك ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلي المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أي فلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علما فعليا ﴿ لجله ﴾ من دون ذلك ﴿ أي من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام إلخ ﴾ فتعاقبيا وهو فتح خير والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويق ليستدل به على صدق الرؤيا حسما قال ولتكون آية للمؤمنين وأما جعل ما في قوله تعالى ما لم تعلموا عبارة عن الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام

القابل كما جنح إليه الجمهور فتأباه الفاء فإن عليه تعالى بذلك متقدم على إرادة الرؤيا قطعا .

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى) أى ملتبسا به أو بسببه ولأجله
 (ودين الحق) ودين الإسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس
 الدين بجميع أفرادها التى هى الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقاً من بعض
 الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصار وإظهار بطلان ما كان باطلاً أو بتسليط
 المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون وفيه
 فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح
 لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة
 (وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده كائن لا محالة أو على نبوته عليه
 الصلاة والسلام بإظهار المعجزات (محمد) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى
 (رسول الله) بدل أو بيان أو نعت أى ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين
 الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله خبره والجملة مبنية للمشهود به
 وقوله تعالى (والذين معه) مبتدأ خبره (أشداء على الكفار رحماء بينهم)
 وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم
 الشدة والصلابة ولين وافقهم فى الدين الرحمة والرافة كقوله تعالى (أذلة على
 المؤمنين أعزة على الكافرين) وقرئ أشداء ورحماء بالنصب على المدح أو على
 الحال من المستكن فى معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى (تراهم ركعاً
 سجداً) أى تشاهدكم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات
 وهو على الأول خبر آخر أو استئناف وقوله تعالى (يبتغون فضلاً من الله
 ورضواناً) أى ثواباً ورضاً إما خبر آخر أو حال من ضمير تراهم أو من
 المستتر فى ركعاً سجداً أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على
 الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلاً من الله إلخ
 (سيماهم) أى سمتهم وقرئ سيمياؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها
 لغة ثالثة هى السيماء بالمد وهو مبتدأ خبره (فى وجوههم) أى فى جباههم

وقوله تعالى ﴿من أُر السجود﴾ حال من المستسكن في الجار أى من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مر قوله عليه الصلاة والسلام لا تعلبوا صوركم أى لا تسموها إنما هو فيما إذا اعتمد بجمهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث في جهة السجود الذى لا يسجد إلا خالصا لوجه الله عز وجل وكان الإمام زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذو الثفتات لما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباه ثفتات البعير قال قائلهم :

ديار على والحسين وجعفر وحمة والسجاد ذى الثفتات
وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الأرض
وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من
كثرت ضللاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرىء من آثار السجود ومن لثر
السجود بكسر الهمزة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من نوتهم الجليلة وما فيه
من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان بعلو شأنه وبعد منزلته في
الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿مثلهم﴾ أى وصفهم العجيب الشأن
الجارى في الغرابة مجرى الأمثال وقوله تعالى ﴿في التوراة﴾ حال من مثلهم
والعامل معنى الإشارة وقوله تعالى ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ عطف على مثلهم
الأول كأنه قيل ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته
وزيادة تقريرها وقوله تعالى ﴿كززع أخرج شطاه﴾ الخ تمثيل مستأنف
أى هم كززع أخرج فراخه وقيل هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمه وقيل
خبر لقوله تعالى ومثلهم في الإنجيل على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم
في التوراة وقرىء شطاه بفتححات وقرىء شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة
وشطاه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ما قبلها وشطوه بقلها
واوا ﴿فأزره﴾ فقواه من الموازنة بمعنى المعاونة أو من الإيزار إوهى الإعانة
وقرىء فأزره بالتخفيف وأزره بالتشديد أى شد أزره وقوله تعالى ﴿فاستغلظ﴾

فصار غليظا بعد ما كان دقيقا ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق وقرى، سؤقه بالهمزة .

﴿ يعجب الزراع ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لأصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوما فيوما بحيث أعجب الناس وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم يلبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه أو لما بعده من قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ ومنهم للبيان . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة .

سورة الحجرات

مدنية ، وآياتها عشرة آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تصدير الخطاب بالنداء لتنبية المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالإيمان لتأنيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (لَا تَقْدُمُوا) أى لا تفعلوا التقديم على أن ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور على طريقة قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعل الإعطاء والمنع أو لا تقدموا أمرا من الأمور على أن حذف المفعول للقصد إلى تعميمه والأول أوفى بحق المقام لإفادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهاني وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى التقديم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف إحدى التامين من تقدموا من القدوم وقوله تعالى (بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) مستعار مما بين الجهتين المسامتين ليدى الإنسان تهجيها لما نهوا عنه والمعنى لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكما به وقيل المراد بين يدي رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والإيذان بجلالة محله عن وجل قيل نزل فيما جرى بين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبي صلى الله عليه وسلم فى تأمير الأقرع بن حابس أو القمقاع بن معبد (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى كل ما تأتون وما تزدرون من الأقوال والأفعال التى من جملتها ما نحن فيه (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لأقوالكم (عَلِيمٌ) بأفعالكم فمن حققه أن يتقى ويراقب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) شروع فى

النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي عليه الصلاة والسلام بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل وإعادة النداء مع قرب العهد به للبالغ في الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي لا تبلغوا بأصواتكم وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرئ لا ترفعوا بأصواتكم على أن الباء زائدة ﴿ولا تجهروا له بالقول﴾ إذا كلمتموه ﴿كجهر بعضهم لبعض﴾ أي جهرًا كأننا كالجهر الجاري فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام وتعدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم ببعض لا تقولوا له يا محمد يا أحد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يا رسول الله والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ إما علة للنهي أي لا تجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما في قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) أو للنهي أي لا تجهروا لأجل الحبوط فإن الجهر حيث كان بصدد الأداء إلى الحبوط فكأنه فعل لأجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنًا) وليس المراد بما نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فإن ذلك كفر بل ما يتوهم أن يؤدي إليه عما يجري بينهم في أثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى (كجهر بعضهم لبعض) خلا أن رفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكرا محضًا لم يقيد بشيء ولا ما يقع منهما في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو نحو ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه قر وكان

جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن أنس رضى الله عنه أنه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقد عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنى رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة وأما ما يروى عن الحسن من أنها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام فقد قيل محمله أن نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص ((وأنتم لا تشعرون)) حال من فاعل تحبط. أى والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها وفيه مزيد تحذير بما نهوا عنه وقوله تعالى :

((إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله)) الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أى يخفضونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهى ((أولئك)) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالشار إلىه لما مر مرارا من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره ((الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)) أى جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمخدوف أو للفعل باعتبار الأصل أو ضرب قلوبهم بهضروب المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلاصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه وعن عمر رضى الله عنه أذهب عنها الشهوات ((لهم)) فى الآخرة ((مغفرة)) عظيمة لذنوبهم ((وأجر عظيم)) لا يقادر قدره والجملة إما خبر آخر لأن كالملة المصدرية باسم الإشارة أو استئناف لبيان جزائهم إحمادا لحالهم وتعريضا بسوء حال من ليس مثلهم ((إن الذين ينادونك من وراء الحجرات)) أى من خارجها من خلفها أو قدامها ومن ابتدائية دالة على أن المناذرة نشأت من جهة وراء وأن المناذرى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرئ الحجرات بفتح الجيم وبسكونها

وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بالحائط. ولذلك يقال
 لحظيرة الإبل حجرة وهي فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد
 بها حجرات أمهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة
 فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين
 له عليه الصلاة والسلام فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند
 فعل الأبعاض إلى السكل وقد جوز أن يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التي
 كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت لإجلالها له عليه الصلاة والسلام
 وقيل إن الذي ناداه عيشة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس وفدا على
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة وهو
 راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا وإنما أسند النداء إلى السكل لأنهم رضوا بذلك
 أو أمروا به أو لأنه وجد فيما بينهم ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ إذ لو كان لهم عقل
 لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج
 إليهم﴾ أى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم فإن دأبهم وإن دلت بما
 في حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبت للفرق بين قولك
 بلغنى قيامك وبلغنى أنك قائم وحق تفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيا بخروجه
 عليه الصلاة والسلام فإنها مختصة بما هو غاية للشئ في نفسه ولذلك تقول أكلت
 السمكة حق رأسها ولا تقول حتى نصفها أو ثلثها بخلاف إلی فإنها عامة وفي
 إليهم إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفتحهم بالكلام
 أو يتوجه إليهم ﴿لكن﴾ أى الصبر المذكور ﴿خيرا لهم﴾ من الاستعجال
 لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب
 والاسعاف بالمسؤول إذ روى أنهم وفدوا شافعين في أسارى بنى النضير فأطلق
 النصف وفادى النصف ﴿والله غفور رحيم﴾ بليغ المغفرة والرحمة واسمهما
 فلن يضيق ساحتهم عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا .

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بلبا فتيبنوا﴾ أى فتمرقوا وتفحصوا
 روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة أخا عثمان رضى الله عنه

لأمة مصدقاً إلى بنى المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسب
أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا
الزكاة فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد
فوجدهم منادين بالصلاة متعجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع وفي ترتيب
الأمر بالتبين على فسق المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد
وقرىء فثبتوا أى توقفوا إلى أن يتبين لكم الحال ﴿ أن تصيبوا ﴾ حذار أن
تصيبوا ﴿ قوماً بجهالة ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿ فتصبحوا ﴾ بعد ظهور براءتهم
عما أسند إليهم ﴿ على ما فعلتم ﴾ في حقهم ﴿ نادمين ﴾ مغتمين غما لازماً متمنين
أنه لم يقع فإن تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام .

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أن بما في حيزها ساد مسد مفعولى اعلموا
باعتبار ما بعده من قوله تعالى ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ فإنه حال
من أحد الضميرين في فيكم والمعنى أن فيكم رسول الله كأننا على حالة يجب عليكم
تغييرها أو كائنين على حالة الخ وهى أنكم تريدون أن يتبع عليه الصلاة والسلام
رأيكم في كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهد والهلاك وفيه إيدان
بأن بعضهم زينوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببنى المصطلق تصديقا
لقول الوليد وأنه عليه الصلاة والسلام لم يطع أمرهم وأما صيغة المضارع فقد
قيل إنها للدلالة على أن امتناع عنهم لا امتناع استمرار طاعته عليه الصلاة
والسلام لهم لأن عنهم إنما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعين لهم من الأمور
إذ فيه اختلال أمر الابالة وانقلاب الرئيس مرهوسا لا من إطاعته في بعض
ما يروونه نادرا بل فيها استمالتهم بلا معة وقيل إنها للدلالة على أن امتناع عنهم
لا استمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم في ذلك فإن المضارع المنفى
قد يدل على استمرار النفي بحسب المقام كما في نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون
والتحقيق أن الاستمرار الذى تفيد صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة إلى
ما يتعلق بالفعل من الأمور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار في
نفس الفعل على الإبهام ثم يعتبر تعلق ما يتعلق به بيانا لما فيه الاستمرار .

وأخرى بالنسبة إلى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك إذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به أولاً ثم اعتبر استمراره فيتعين أن يكون ذلك بحسب الزمان فإن أريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجدها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التي يفصح عنه قوله تعالى في كثير من الأمر فالحق هو الأول ضرورة أن مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة في أمر ما من تلك الأمور الكثيرة أصلاً أو بعدم وقوعها في كلها مع وقوعها في بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الأمر في وقت من الأوقات وقع العنت قطعاً وإن أريد به استمرار الطاعة الواقعة في الكل وتجدها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثاني فإن مناط امتناع العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة أنه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزماني لامتناع تلك الطاعة الواقعة في تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة في وقت من الأوقات وقع العنت حتماً واعلم أن الأحق بالاختيار والأولى بالاعتبار هو الوجه الأول لأنه أوفق بالقياس المقتضى لاعتبار الامتناع وإرداء على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للأول على صيغة المضارع المفيدة للثاني على أن اعتبار الاستمرار وإرداء على النفي على خلاف القياس بمعونة المقام إنما يصار إليه إذا تعذر الجريان على موجب القياس أو لم يكن فيه مزيد مزية كما في قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفي الحزن عنهم إذ ليس في استمرار الحزن مزيد فائدة وأما إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدل عنه تمحل لا يخفى وقوله تعالى ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان﴾ الخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبرائتهم عن أوصاف الأولين وإحساساً لأفعالهم أي ولكن الله تعالى جعل الإيمان محبوباً إليكم ﴿وزينه في قلوبكم﴾ حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيت بما يليق به من الأقوال والأفعال ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ ولذلك

اجتنبتم عما يليق بها مما لا خير فيه من آثارها وأحكامها ولما كان في التحبيب والتكريه معنى لإنهاء المحبة والكراهة وإيصالهما إليهم استعمالاً بكلمة إلى وقيل هو استدراك ببيان عذر الأولين كأنه قيل لم يكن ما صدر عنكم في حق بني المصطلق من خلل في عقيدتكم بل من فرط حبكم للإيمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والأول هو الأظهر لقوله تعالى ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي السالكون إلى الطريق السوي الموصل إلى الحق والاتفات إلى الغيبة كاللذني في قوله تعالى (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) .

﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي وإنعاماً لتعليل الحبيب أو كرهه وما بينهم اعتراض وقيل نصيبهما بفعل مضمّر أي جرى ذلك فضلاً وقيل يبتغون فضلاً ﴿والله عليم﴾ مبالغ في العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ أي تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى ﴿فأصلحوا بينهما﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى ﴿فإن بغت﴾ أي تعدت ﴿إحداهما على الأخرى﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء﴾ أي ترجع ﴿إلى أمر الله﴾ إلى حكمه أو إلى ما أمر به ﴿فإن فاءت﴾ إليه وأقلعت عن القتال حذاراً من قتالكم ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿وأفسطوا﴾ أي واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء والآية تزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال وفيها دلالة على أن الباغي لا يخرج بالبغي عن الإيمان وأنه إذا أمسك عن الحرب ترك لأنه فيه إلى أمر الله تعالى وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة .

من أخلاق الإيمان

(إنما المؤمنون أخوة) استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح أى أنهم منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية والفناء فى قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح ووضع المظهر مقام المضمهر مضافا إلى الماء ودين للبياغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتخصيض عليه وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرىء بين إخوانكم وإخوانكم (وانقروا الله) فى كل ما تأتون وما تذكرون من الأمور التى من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح (لعلكم ترحمون) راجين أن ترحموا على تقواكم .

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم) أى منكم (من قوم) آخرين أيضا منكم وقوله تعالى (عسى أن يكونوا خيرا منهم) تعليل للنهى أو لمواجهه أى عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لأنهم القوام على النساء وهو فى الأصل إما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر أو مصدر نعت به فتساج فى الجمع وأما تميمه للفرقيين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فلما للتغليب أو لأنهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع والتكثير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض لما أنها بما يجرى بين بعض وبعض (ولا نساء) أى ولا تسخر نساء من المؤمنات (من نساء) منهن (عسى أن يكن) أى المسخور منهن (خيرا منهن) أى من الساخرات فإن مناط الخيرية فى الفرقيين ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالبا بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب فلا يجترىء أحد على استحقار أحد فلهذا أجمع منه لما ينط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم (١٢ - أبو السعود - خامس)

نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرىء عسوا
 أن يكونوا وعسين أن يكن فعسى حينئذ هي ذات الخبر كما في قوله تعالى (فهل
 عصيتكم) وأما على الأول فهي التي لا خبر لها (ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعيب
 بعضكم بعضا فإن المؤمنين كنفس واحدة أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من
 فعل ما يستحق به اللمز فقد لزم نفسه واللمز الطعن باللسان وقرىء بضم الميم
 (ولا تنازروا بالألقاب) أى ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فإن التنبز
 مختص به عرفا (بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بشئ الذكر المرتفع
 للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتجارهم به فإن الاسم
 ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم والمراد به
 إما تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين خصوصا إذ روى أن الآية نزلت
 في صفية بنت حيي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن النساء يقلن لى
 يا يهودية بنت يهوديين فقال عليه الصلاة والسلام هلا قلت إن أبى هرون وعمى
 موسى وزوجى محمد عليهم السلام أو الدلالة على أن التنازير فسق والجمع بينه وبين
 الإيمان قبيح (ومن لم يلق) عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) بوضع
 العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب .

(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثير من الظن) أى كونوا على جانب
 منه وإيهام الكثير لإيجاب الاحتياط والتأمل في كل ظن ظن حتى يعلم أنه من
 أى قبيل فإن من الظن ما يحجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات
 وحسن الظن بالله تعالى ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنيوات وحيث
 يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن في الأمور المعاشية
 (إن بعض الظن إثم) تعليل للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف
 التحقيق والإثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو
 كأنه يثم الأعمال أى يكسرها (ولا تجسسوا) أى ولا تبحثوا عن عورات
 المسلمين تفعل من التجسس لما فيه من معنى الطلب كما أن التلمس بمعنى التطلب
 لما في التمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى (وأنا لمسنا السماء)

وقرىء بالحاء من الحس الذى هو أثر الجس وغايته ولتقاربهما يقال للمشاعر
 الخواس بالحاء والجيم وفى الحديث لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات
 المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ﴿ولا يتب بعضكم بعضاً﴾
 أى لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم
 عن الغيبة فقال أن تذكر أخاك بما يكره فإن كان فيه فقد اغتبه وإن لم يكن
 فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة لإدام كلاب الناس ﴿أحبب
 أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ تمثيل وتصوير لما يصدر عن الغتاب من
 حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أخش وجه وأشنعه طبعاً
 وعقلاً وشرعاً مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريرى وإسناد الفعل
 إلى أحد لإدنا بأن أحداً من الأحدين لا يفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو فى
 غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان وجعل الماء كالأخ
 للأكل وميتاً وإخراج تماثلها مخرج أمر بين غنى عن الإخبار به وقرىء ميتاً
 بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الأخ والفاء فى قوله تعالى
 ﴿فكرهتموه﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث
 كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه وقرىء كرهتموه أى جبلكم على كراهته
 ﴿واتقوا الله﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما صدر عنكم من قبل .

﴿إن الله تواب رحيم﴾ مبالغ فى قبول التوبة وإفاضة الرحمة حيث يعمل
 التائب كمن لم يذنب ولا يخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وإن
 كثرت ذنوبهم روى أن رجلين من الصحابة رضى الله عنهم بعثا سلمان إلى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى لهما إداماً وكان أسامة على طعامه عليه الصلاة
 والسلام فقال ما عندى شيء فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سليمان إلى بشر
 سميحة لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى
 أرى خضرة اللحم فى أفواهكما فقالا ما تناولنا لحماً فقال عليه الصلاة والسلام
 إنكما قد اغتبتما فنزلت ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ من آدم
 وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالجمل سواء فى ذلك فلا وجه

للتفاخر بالنسب وقد جوز أن يكون تأكيداً للنهي السابق بتقرير الأخوة
 المسانعة من الاغتياب ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ الشعب الجمع العظيم
 المنتسبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمار والعمارة
 تجمع البطون والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل فخرية شعب
 وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل الشعوب
 بطون العجم والقبائل بطون العرب ﴿ لتعارفوا ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً بحسب
 الأنساب فلا يعتزى أحد إلى غير آبائه لا لتفاخروا بالأباء والقبائل وتدعوا
 التفاوت والتفاضل في الأسباب وقرىء لتعارفوا على الأصل ولتعارفوا
 بالإدغام ولتعارفوا ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر
 بالأنساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيق كأنه قيل إن
 الأكرم عنده تعالى هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرىء بأن
 المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم لا تتفاخر بالأنساب فقيل لأن
 أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم فإن مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص
 هو التقوى فمن رام نيل الدرجات الملائكية بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام
 من سره أن يكون أكرم الناس فليتيق الله وقال عليه الصلاة والسلام
 يا أيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله تعالى وفاجر شقي
 هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة
 التقوى ﴿ إن الله عليم ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿ خير ﴾ بواطن أحوالكم .

﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ نزلت في نفر من بنى أسد قدموا المدينة في ستة
 جذب فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك
 بالإنقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون عليه
 عليه الصلاة والسلام ما يفعلوا ﴿ قل ﴾ ردأ لهم ﴿ لم تؤمنوا ﴾ إذ الإيمان هو
 التصديق المقارن للثقة وطمأنينة القلب ولم يحصل لكم ذلك وإلا لما منتقم على
 ما حكيتم كما ينبي عنه آخر السورة ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ فإن الإسلام
 انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وإيثار ما عليه

النظم الكريم على أن يقال لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا أو لم تؤمنوا
ولكن أسلمتم للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان وللتفادي عن إخراج
قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولاً محضاً ﴿ولما يدخل الإيمان
في قلوبكم﴾ حال من ضمير قولوا أى ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطاة
قلوبكم لآسئمتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد
﴿إن تطهروا الله ورسوله﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لا يلتكم من أعمالكم﴾
لا ينقصكم ﴿شيئاً﴾ من أجورها من لا ت يلت لبتاً إذا نقص وقرىء لا يأتكم
من الآلات وهى لغة غطفان أو شيئاً من النقص ﴿إن الله غفور﴾ لما فرط
من المطيعين ﴿رحيم﴾ بالفضل عليهم ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك
مع التهمة وفيه إشارة إلى أن فيهم ما يرجب فى الإيمان عنهم وشم للإشعار بأن
اشتراط عدم الارتباب فى اعتبار الإيمان ليس فى حال إنشائه فقط بل وفيما
يستقبل فى كى فى قوله تعالى ثم استقاموا ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى
سبيل الله﴾ فى طاعته على تكثير فنونها^(١) من العبادات البدنية المحضة والمالية
الهرفة والمشملة عليهما معا كالحج والجهاد ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر
من الأوصاف الجميلة ﴿هم الصادقون﴾ أى الذين صدقوا فى دعوى الإيمان
لاغيرهم روى أنه لما نزلت الآية جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل
لتكذيبهم قوله تعالى ﴿قل أنعلمون الله بدينكم﴾ أى أنخبرونه بذلك
بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم ﴿والله يعلم ما فى السموات
وما فى الأرض﴾ حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم ، وقوله تعالى
﴿والله بكل شىء عليم﴾ تذييل مقرر لما قبله أى مبالغ فى العلم بجميع الأشياء
التي من جعلتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان وفيه مزيد تجميل
وتوبيخ لهم ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ أى يعدون لإسلامهم منه عليك وهى

النعمة التي لا يطلب مولها ثوابا بمن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته وقيل النعمة الثقبيلة من المن ﴿ قل لا تمنوا على إسلامكم ﴾ أي لا تعدوا إسلامكم منة على أو لا تمنوا على بإسلامكم فنصب بنزع الخافض ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء وقرىء إن هداكم وإذ هداكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ادعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أي فله المنة عليكم وفي سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فانهم لما سموا ما صدر عنهم إيمانا ومنوابه فننى كونه إيمانا وسمى إسلاما قيل يمتنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ أي ما غاب فيهما ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ في سركم وعلانيةكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم وقرىء بالياء . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه .

سورة ق

مكية ، وهي خمس وأربعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ق والقرآن المجيد) أى ذى المجد والشرف على سائر الكتب أو لأنه كلام المجيد أو لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذى فصل في مطلع سورة ص وقوله تعالى (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى لأن جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك أو من جلدتهم لإضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف كأنه قيل والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس حسياً ورد في صدر سورة الأعراف كأنه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل جمعوا كلام المنذر والمُنذر به عرضة للتكبر والتعجيب مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول وأقر به إلى التلقى بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ثم أضرب عنه وقيل بل عجبوا أى لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة وقيل هو لإضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ولكن لجهلهم (فقال الكافرون هذا شيء عجيب) تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارناً لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل محل التعجب وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن وإضهارهم أولاً للإشعار بتبعيتهم بما أسند إليهم وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة على أن هذا إشارة إلى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية ووضع المظهر موضع المضمرة^(١) إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم وإما للإيدان

(١) في ١١ : المظهر موضع المضمرة

بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع ما ينتهم
لقدرته تعالى على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع
من الأول وأعرق في كونه كفرا .

(أندامننا وكنا ترابا) تقرير للتعجب وتأكيد للإنكار والعامل في إذا
مضمرة غنى عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه أى أحيان نموت
ونصير ترابا نرجع كما ينطق به التذير والمُنذر به مع كمال التباين بيننا وبين
الحياة حينئذ وقرئ إذا امتنا على لفظ الخبر أو على حذف أداة الإنكار
(ذلك) إشارة إلى محل النزاع (رجع بعيد) أى عن الأوهام أو العادة
أو الإيهام كان وقيل الرجوع بمعنى المرجوع الذى هو الجواب فناسب الظرف
حينئذ ما ينبئ عنه المنذر من البعث (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) رد
لاستبعادهم وإزاحة له فإن من علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص
الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه لإيام
أحياء كما كانوا عن النبي صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب وقيل
ما تنقص الأرض منهم ما يموت فيدفن في الأرض منهم (وعندنا كتاب حفيظ)
حافظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظ من التغير والمراد إما تمثيل عليه تعالى بكليات
الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه تعالى
بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده (بل كذبوا بالحق) لإضراب وانتقال من
بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع وهو تكذيبهم للنمو
الثابتة بالمعجزات الباهرة (لما جاءهم) من غير تأمل وتفكير وقرئ لما جاءهم
بالكسر على أن اللام للتوقيت أى وقت مجيئه لإيام وقيل الحق القرآن أو
الإخبار بالبعث (فهم فى أمر مرج) أى مضطرب لا قرار له من مرج الخاتم
في أصبعه حيث يقولون تارة إنه شاعر وتارة ساحر وأخرى كاهن (ألم
ينظروا) أى أغفلوا أو أعما فلم ينظروا (إلى السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها
كل وقت (كيف بنيناها) أى رفعناها بغير عمد (وزيناها) بما فيها من
السكاك المرتبة على نظام بديع (وما لها من فروج) من فتوق ملاستها

وسلامتها من كل عيب وخلل ولعل تأخير هذا مراعاة الفواصل ﴿والأرض مددناها﴾ أي بسطناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ جبالا نوابت من رسا الشيء إذا ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها يارساء الأرض بها ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج﴾ من كل صنف ﴿بهيج﴾ حسن .

﴿تبصرة وذكرى﴾ علنان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبنا بالفعل الأخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا لكل عيد منيب ﴿أي راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنائعه وقوله تعالى ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا﴾ أي كثير المنافع شروع في بيان كيفية إنبات ما ذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض بقرر لما قبله ومنبه على ما بعده ﴿فأنبتنا به﴾ أي بذلك الماء ﴿جنات﴾ كثيرة أي أشجارا وذوات ثمار ﴿وحب الحصيد﴾ أي حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البر والشعير وأمثالها وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات ﴿والنخل﴾ عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الجنات لبيان فضلها على سائر الأشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿باسقات﴾ أي طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل وقرىء باسقات لأجل القاف ﴿لها طلع نصيد﴾ أي منضود بمضنه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف أو من ضميرها في باسقات على التداخل أو الحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى :

﴿رزقا للعباد﴾ أي ليرزقهم علة لقوله تعالى فأنبتنا وفي تعليقه بذلك بعد تحليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق وقيل رزقا مصدر من معنى أنبتنا لأن الإنبات رزق ﴿وأحيينا به﴾ أي بذلك الماء ﴿بلدة ميتا﴾ أرضا جديدة لا نماء فيها أصلا بأن جعلناها بحيث

ربت وأنبت أنواع النبات والأرهار فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامة وتذكير ميتا لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ﴿ كذلك الخروج ﴾ جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الأحياء وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبها أى مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتي بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتي لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس وقوله تعالى :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ملح استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها وتعذيب منكريها ﴿ وأصحاب الرس ﴾ قيل هم من بعث إليهم شعيب عليه السلام وقيل وقيل كما مر فى سورة الفرقان على التفصيل ﴿ وثمود وعاد وفرعون ﴾ أى هو وقومه ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وإخوان لوط ﴾ قيل كانوا من أصحابه عليه الصلاة والسلام ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ هم من بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وقوم تبع ﴾ سبق شرح حالهم فى سورة الدخان ﴿ كل كذب الرسل ﴾ أى فيما أرسلوا به من الشرائع التى من جملتها البعث الذى أجمعوا عليه قاطبة أى كل قوم من الأقوام المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وأفراد الضمير باعتبار لفظ الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر وأما على تقدير عدمها وهو الأظهر فعلى تكذيب قومه الرسل تكذيبهم بمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث وإلى ذلك كان يدعواهم تبع ﴿ متفق وعيد ﴾ أى فوجب وتخل عليهم وعيدى وهى كلمة العذاب وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم .

﴿ أفعينا بالخلق الأول ﴾ استئناف مقرر لصحة البعث الذى حكيت

أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة والى بالأمر العجز عنه يقال عى بالأمر وعى به إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ينهى عنه العى من القصد والمباشرة كأنه قيل أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة ﴿بل هم فى لبس من خلق جديد﴾ عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شأنه والإشعار بخروجه عن حدود العادات والإيذان بأنه تحقيق بأن يبعث عنه ويهتم بمعرفته .

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أى ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى والضمير لما إن جعلت موصولة والباء كما فى صوت بكذا أو للإنسان إن جعلت مصدرية والباء للتعدية ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ أى أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد هب عن قرب العلم بقرب الذات تجوزا لأنه موجب له وحبل الوريد مثل فى فرط القرب والحبل العرق وإضافته بياينة والوريدان عرقان مكثفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه وقيل سمى وريدا لأن الروح ترده ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ منصوب بما فى أقرب من معنى الفعل والمعنى أنه لطيف يتوصل علمه إلى مالا شئ أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان ما يتلفظ به وفيه إيذان بأنه تعالى غنى عن استحقاقهما لإحاطة علمه بما يخفى عليهما وإنما ذلك لما فى كتبتهما وحفظهما لأعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خيرا من زيادة لطف له فى الكف عن السيئات والرغبة فى الحسنات وعنه عليه الصلاة والسلام إن مقعد ملكيك على ثلثيك ولسانك قلبهما وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعينك لا تستحي من الله ولا منهما وقد جوز أن يكون تلقى الملمكين بيانا للقرب على معنى إنا أقرب إليه مطلقون على أعماله لأن حفظنا

وكتبتنا موكلون به ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد كالجلوس بمعنى المجالس لفظا ومعنى فحذف الأول للدلالة الثانى عليه كما فى قول من قال :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريثا ومن أجل الطوى رمانى
وقيل يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما فى قوله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ما يرمى به من فيه من خير أو شر وقرىء ما يلفظ على البناء للمفعول ﴿ إلا لديه رقيب ﴾ ملك يرقب قوله ويكتبه فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين بعينه وإلا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غنى عن البيان والإفراد مع وقوفهما معاً على ما صدر عنه لما أن كلامهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض إلى صاحبه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ عتيد ﴾ أى معد مهياً لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر ومن لم يتنبه له توهم أن معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم فى الفعل بدلالة النص واختلاف فيما يكتبانه ففعل يكتبان كل شئ حتى أنبئنه فى مرضه وقيل إنما يكتبان ما فيه أجر أو وزر وهو الأظهر كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر .

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ بعد ما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيج ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضى لإيداناً بتحققها وغاية اقترابها وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباه إماما للتعدي كما فى قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذى نطق به كتب الله ورسله أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته وقيل الحق الذى لا بد أن يكون لا محالة من الموت أو الجزاء فإن

الإِنسان خلق له وأما للملابسة كالتي في قوله تعالى (تنبت بالدهن) أى ملتبسة بالحق أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة والغاية الجميلة وقرئ سكرة الحق بالموت والمعنى أنها السكرة التي كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه وقيل الباء بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن الإضافة للتحويل وقرئ سكرات الموت (ذلك) أى الموت (ما كنت منه توحيد) أى تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان فإن النفرة عنه شاملة لكل فرد من أفراد طبعاً (ونفخ في الصور) هى النفخة الثانية (ذلك) أى وقت ذلك النفخ على حذف المضاف (يوم الوعيد) أى يوم لإنجاز الوعيد الواقع في الدنيا أى يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من نفخ فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتحويله ولذلك بدأ ببيان حال الكفرة .

(وجاءت كل نفس) من النفوس البرة والفاجرة (معها سائق وشهيد) وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أى معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها أو ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل السائق كاتب السجلات والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ومحل معها النصب على الحالية من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة كأنه قيل كل النفوس أو الجر على أنه وصف لنفس أو الرفع على أنه وصف لكل وقوله تعالى :

(لقد كنت في غفلة من هذا) محكى بإضمار قول هو إما صفة أخرى لنفس أو حال أخرى منها أو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله . كأنه قيل فإذا يفعل بها ففيل يقال لقد كنت في غفلة لإخ وخطاب الكل بذلك لما أنه ما من أحد إلا وله غفلة ما عن الآخرة^(١) وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت

بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص كما في قول جيلة بن حريث :

يا نفس إنك بالذات مسرور فاذكر فهل ينفعلك اليوم تذكير

(فكشفنا عنك غطاءك) الغطاء الحجاب المغطى لأمر المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والآلف بها وقصر النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للإبصار وقرىء بكسر الكاف في المواضع الثلاثة (وقال قرينه) أي الشيطان المقيض له مشيراً إليه (هذا ما لدى عتيد) أي هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم قد هيأتها لها باغوائى وإضلالى وقيل قال الملك الموكل به مشيراً إلى ما معه من كتاب عمله هذا مكتوب عندي عتيد مهياً للعرض وما إن جعلت موصوفة فعتيد صفتها وإن جعلت موصولة فهي بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف (ألقيا في جهنم كل كفار) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال :

فإن تزجرانى يا ابن عفان أنزجر وإن تدعانى أحمر عرساً بمنعاً

أو على أن الآلف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف ويؤيده أنه قرىء ألقين بالنون الخفيفة (عتيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه منه (معتد) ظالم متخط للحق (مريب) شاك في الله وفي دينه (الذى جعل مع الله لها آخر) مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره (فألقياه في العذاب الشديد) أو بدل من كل كفار وقوله تعالى فألقياه تكرير للتوكيد أو مفعول لمضمّر يفسره فألقياه (قال قرينه) أي الشيطان المقيض له وإنما استؤنف استئناف الجمل الواقعة في حكاية المفاولة لما أنه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى (ربنا ما أطغيته) فإنه منبئ عن سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال هو أطغانى فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة

على أن الجمع بين مفهوميهما في الحصول أعنى مجيء كل نفس مع المالكين وقول
قرينه ﴿ولكن كان﴾ هو بالذات ﴿في ضلال بعيد﴾ من الحق فأعنته عليه
بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر وإلجاء كما في قوله تعالى (وما كان لى عليكم من
سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) :

﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ بما قبله كأنه قيل فإذا قال الله تعالى
ف قيل قال ﴿لا تحتصموا لى﴾ أى فى موقف الحساب والجزاء إذ لا فائدة
فى ذلك ﴿وقد قدمت إلكم بالوعيد﴾ على الطغيان فى دار الكسب فى كتبى وعلى
السنة رسلى فلا تطمعوا فى الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة
والجملة حال فيها تعليل للنهى على معنى لا تحتصموا وقد صح عندكم أنى قدمت
إلكم بالوعيد حيث قلت لإبليس (لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين)
فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت والباء مزيدة
أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم وقد جوز أن يكون قدمت واقعا على قوله تعالى
﴿ما يبدل القول لى﴾ الخ ويكون بالوعيد متعلقا بمحذوف هو حال من
المفعول أو الفاعل أى وقد قدمت إلكم هذا القول ملتبسا بالوعيد مقترنا به
أو قدمته إلكم موعدا لكم به فلا تطمعوا أن أبطل وعيدى والعفو عن بعض
المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص
الوعيد وقوله تعالى ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ وارد لتحقيق الحق على الوجه
الكلى وتبين أن عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى
من غير استحقاق له منهم بل إنما ذلك بما صدر عنهم من الجنائيات الموجبة له
حسبا أشير إليه آنفا أى وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم والتعبير عنه
بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا
عن كونه ظلما مفرطاً لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصوره بصورة ما يستحيل
صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإيراد ما ذكر
من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد
من قولهم فلان ظالم لعنده وظالم للعبيد على أنها مبالغة كما لا كيفاً ﴿يوم نقول

لجنهم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) سؤال وجواب جىء بهما على منهاج التخييل والتحويل لتهويل أمرها والمعنى أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ أو أنها من السمة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ أو أنها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرىء يقول بالياء والمزيد إمامصدر كالمجيد والمجيد أو مفعول كالمبيع ويوم إمامنصوب باذكر أو أنذر أو ظرف لنفخ فيكون ذلك حينئذ إشارة إليه من غير حاجة إلى تقدير مضاف أو لمقدر مؤخر أى يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال (وأزلت الجنة للمتقين) شروع فى بيان حال المؤمنين بعد النفخ ومجيء النفوس إلى موقف الحساب وقد مر سر تقديم بيان حال الكفرة عليه وهو عطف على نفخ أى قربت للمتقين عن الكفر والمماصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم محشورون إليها فائزون بها وقوله تعالى (غير بعيد) تأكيد للإزلاف أى مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها أو حال كونها غير بعيد أى شديداً غير بعيد ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذى يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث أو لتأويل الجنة بالبستان .

(هذا ما توعدون) إشارة إلى الجنة والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنما من أحكام اللفظ العربى كما مر فى قوله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) وقوله تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو إشارة إلى الثواب وقيل إلى مصدر أزلت وقرىء يوعدون والجملة إما اعتراض بين البدل والمبدل منه وإما مقدر بقوله هو حال من المتقين أو من الجنة والعامل أزلت أى مقولا لهم أو مقولا فى حقها هذا ما توعدون (لكل أواب) أى رجاع إلى الله تعالى بدل من المتقين بإعادة الجار (حفيظ) حافظ لتوبته من النقص وقيل هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لأوامر الله تعالى

وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقه ﴿من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ بدل بعد بدل أو بدل من موصوف أو اب ولا يجوز أن يكون في حكمه لأن من لا يوصف به ولا يوصف إلا بالذی أو مبتدأ خبره ﴿ادخلوها﴾ بتأويل يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشى أو مفعوله أو صفة لمصدره أى خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الآعين لا يراه أحد والتعرض لعنوان الرحمانية للإشارة بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته أو بأن عليهم بسعة رحمته تعالى لا يصدم عن خشيته تعالى وأنهم عاملون بموجب قوله تعالى (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم) ووصف القلب بالإناية لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى ﴿بسلام﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها أى ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم أو بسلام من جهة الله تعالى وملائكته ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الزمان الممتد الذى وقع في بعض منه ما ذكر من الأمور ﴿يوم الخلود﴾ إذ لا انتهاء له أبدا .

﴿لهم ما يشاءون﴾ من فنون المطالب كائنا ما كان ﴿فيها﴾ متعلق بيشاءون وقيل بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائد المحذوف من صلته ﴿ولدينا مزيد﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التى لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقيل إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذى قال تعالى ولدينا مزيد ﴿وكم أهلكنا قبلهم﴾ أى قبل قومك ﴿من قرن هم أشد منهم بطشا﴾ أى قوة كعاد وأضرابها ﴿فنبقوا في البلاد﴾ أى خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا في أقطارها أو جالوا في أكناف الأرض كل مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقيب عن الأمر والبحث والطلب والفاء للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب قيل هى عاطفة فى المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنبقوا الخ (١٣ - أبو السعود - خامس)

وقرىء بالتخفيف ﴿هل من محيص﴾ أى هل لهم من مخلص من أمر الله تعالى والجملة إما على إضمار قول هو حال من واو انقبوا أى فنقبوا فى البلاد قائمين هل من محيص أو على إجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القول أو هو كلام مستأنف وارد لنفى أن يكون لهم محيص وقيل ضمير انقبوا لأهل مكة أى ساروا فى مسائرهم وأسفارهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم وبعضه القراءة على صيغة الأمر وقرىء فنقبوا بكسر الفاف من النقب وهو أن يفتقب خف البعير أى أكثروا السير حتى نقتب أقدامهم أو أخفاف إبلهم ﴿إن فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر فى السورة ﴿لذكرى﴾ لتذكروا وعظة ﴿لمن كان له قلب﴾ أى قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور ويتفكر فيها كما ينبغي فإن من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تكبير ﴿أو ألقى السمع﴾ أى إلى ما يتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم فإن من فعله يقف على جليلة الأمر فينزع عما يؤدى إليه من الكفر فكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فإن إلقاء السمع لا يحدى بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى ﴿وهو شهيد﴾ أى حاضر بفضوته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للإيدان بأن من عرى قلبه عنها كمن لا قلب له أصلا .

﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ من أصناف المخلوقات ﴿فى ستة أيام وما مسنا﴾ بذلك مع كونه بما لا يفى به القوى والقدر ﴿من لغوب﴾ من إعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أى ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد فإن من فعل هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه ﴿وسبح بحمد ربك﴾

أى نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الإخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة (ومن الليل فاسبغ به) واسبغ به بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلوات جمع دبر وقرىء بالسكسر من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود وقيل المراد بالتسبيح الصلوات فالمراد بما قبل الطلوع صلاة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر وبما من الليل العشاءان والنهجد وما يصلى بأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات (واستمع) أى لما يوحى إليك من أحوال القيامة وفيه تمويل وتفضيع للمخبر به (يوم ينادى المنادى) أى إسرافيل أو جبريل عليهما السلام فيقول أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة^(١) والشعور المتفرقة^(٢) إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء وقيل من صخرة بيت المقدس وقيل من تحت أقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة ولعل ذلك فى الإعادة مثل كن فى البدء .

(يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادى الخ وهى النفخة الثانية (بالحق) متعلق بالصيحة والعامل فى الظرف ما يدل عليه قوله تعالى (ذلك يوم الخروج) أى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذى هو البعث يخرجون من القبور (إنا نحن نحي ونميت) فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد (ولأينا المصير) للأجزاء فى الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً (يوم تشقق الأرض عنهم) بحذف إحدى التاءين من تشقق وقرىء بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتشقق (سراعاً) مسرعين (ذلك حشر) بعث وجمع وسوق (علينا يسير) أى هين وتقديم الجار والمجرور

لنخصيصة اليسر به تعالى ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ من نفى البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك عما لا خير فيه ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ بمسأط تقسرم على الإيمان أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت مذكر ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة ق هون الله عليه ثارات الموت وسكراته .

سورة الذاريات ﴿٥٠﴾

مكية ، وآيها ستون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والذاريات ذروا ﴾ أى الرياح التى تذرو التراب وغيره وقرىء بإدغام التاء فى الذال ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ أى السحب الحاملة للمطر أو الرياح الحاملة للسحاب وقرىء وقرا على تسمية المحمول بالمصدر ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ أى السفن الجارية فى البحر أو الرياح الجارية فى مهاها أو السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح أو الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسرا صفة لمصدر محذوف أى جريا ذا يسر ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ أى الملائكة التى تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها أو السحب التى يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد جوز أن يراد بالكل الرياح تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فإنها كما تذرو ما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجري فى الجو جريا سهلا وتقسم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار فإن حملت الأمور المقسم بها على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة وإلا ففى لترتيب ما صدر عن الريح من الأفاعيل فإنها تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحبا فتجري به بأسطة له إلى ما أمرت به فتقسم المطر وقوله

تعالى ﴿إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ جواب للقسم وفي تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقيق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة أو مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق المستوى وقال سعيد بن جبير ذات الزينة وقال مجاهد هي المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطرائق والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار أو النجوم فإن لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الموشى وهي إما جمع حبك أو حبيكة كمثل ومثل وطريقة وطرق وقرىء الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك كالجلجل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك كالإبل .

﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ أى متخالف متناقض وهو قولهم في حقه عليه الصلاة والسلام تارة شاعر وأخرى ساحر وأخرى مجنون وفي شأن القرآن الكريم تارة شعر وأخرى سحر وأخرى أساطير وفي هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك من أن قول الكفرة لا يكون مستويا إنما هو متناقض مختلف وقيل النكته في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذلك ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أى يصرف عن القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف إذ لا صرف أفضع منه وأشد وقيل يصرف عنه من صرف في علم الله تعالى وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر إفك من أفك عن ذلك القول وقرىء من أفك أى من أفك الناس وهم قریش حيث كانوا يصدون الناس عن الإيمان ﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى اللعن والخراصون الكذابون المقدرين ما لا صحة له وهم أصحاب القول

المختلف كأنه قبل قتل هؤلاء الخراصون وقرىء قتل الخراصين أى قتل الله
 ﴿الذين هم فى غمرة﴾ من الجهل والضلال ﴿ساهون﴾ غافلون عما أمروا به
 ﴿يسألون أيا ن يوم الدين﴾ أى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق
 الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء وقرىء إيان بكسر الهمزة
 ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ جواب للسؤال أى يقع يوم هم على النار يحرقون
 ويعذبون ويجوز أن يكون يوم خبرا لمبتدأ محذوف أى هو يوم هم الخ والفتح
 لإضافته إلى غير متمكن ويؤيده أنه قرىء بالرفع ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أى مقولا
 لهم هذا القول وقوله تعالى ﴿هذا الذى كنتم به تستعجلون﴾ جملة من مبتدأ
 وخبر داخله تحت القول المضمرة أى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء
 ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذى صفته .

المتقون وجزاؤهم

﴿إن المتقين فى جنات وعيون﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿آحدين
 ما آتاهم ربهم﴾ أى قابلين لما أعطاهم راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حسن
 مرضى يتلقى بحسن القبول ﴿لأنهم كانوا قبل ذلك﴾ فى الدنيا ﴿محسنين﴾
 أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغى فلذلك نالوا ما بالوا من الفوز العظيم
 ومعنى الإحسان بالإجمال ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله
 كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقد فسر بقوله تعالى .

﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾ أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة
 من الليل على أن قليلا ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا على أنه صفة
 للمصدر وما مزيدة فى الوجهين ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة مرتفعة
 بقليل على الفاعلية أى كانوا قليلا من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، وفيه
 مبالغات فى تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت الراحة
 والهجوع الذى هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساع لجعل ما نافية على
 معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا بل يحبونه كله لما أن ما النافية لا يعمل

ما بعدها فيما قبلها ﴿ وبالسحار هم يستغفرون ﴾ أى هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يدأومون على الاستغفار فى السحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطناهم فيه .

﴿ وفى أموالهم حق ﴾ أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على الناس ﴿ للسائل والمحروم ﴾ للمستجدين والمتعطف الذى يحسبه الناس غنياً فيحرم الصدقة ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ أى دلائل واضحة على شئونه تعالى على التفصيل من حيث أنها مدحوة كاللبساط الممدد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتحة وأنها تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبئة قد رتب كلها وذبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلاهم ﴿ وفى أنفسهم ﴾ أى وفى أنفسهم آيات إذ ليس فى العالم شئ إلا وفى الأنفس له نظير يدل دلالة على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة .

﴿ وفى السماء رزقكم ﴾ أى أسباب رزقكم أو تقديره وقيل المراد بالسماء السحب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات ﴿ وما توعدون ﴾ من الثواب لأن الجنة فى السماء السابعة أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل لأنه مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ على أن الضمير لما وأما على الأول فإما له وإما لما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنه مستعار لاسم الإشارة ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أى كما أنه لا شك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لا تشكروا فى حقيقته ونصبه على الحالية من المستمكن فى لحق أو على أنه وصف لمصدر محذوف أى إنه لحق حقاً مثل نطقكم وقيل إنه مبنى

على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت عبارة عن شيء وأن بما في حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع .

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس بما عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحي والضيف في الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثني عشر ملكا وقيل تسعة عشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملاك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفا لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام أو لأنهم كانوا في حسابه كذلك (المكرمين) أي المكرمين عند الله تعالى أو عند إبراهيم حيث خدمهم بنفسه وبزوجته (إذ دخلوا عليه) ظرف للحديث أو لما في الضيف من معنى الفعل أو المكرمين إن فسر بإكرام إبراهيم (فقالوا سلاما) أي نسلم عليك سلاما (قال) أي إبراهيم (سلام) أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام أحسن من تحيتهم وقرنا مرفوعين وقرىء سلم وقرىء منصوبا والمعنى واحد (قوم منكرون) أنكروهم عليه الصلاة والسلام للسلام الذي هو علم للإسلام أو لأنهم ليسوا بمن عهدهم من الناس أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله في نفسه من غير أن يشعرهم بذلك لا أنه خاطبهم به جبرا أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل وإلا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة (فراغ إلى أهله) أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى ويبادر به حذارا من يكفه ويعذره أو يصير منتظرا والفاء في قوله تعالى (فجاء بمجل سمين) فصيحة مفصحة عن مجل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذا بالكمال سرعة المجيء بالطعام في قوله تعالى (فقلنا أضرب بمصاك البحر فانلق) أي فذبح عجلا لحنذه فجاء به (فقربه إليهم) بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد (قال

﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل ﴿فَأَوْحَسْ مِنْهُمْ﴾ أضمر في نفسه ﴿خيفة﴾ لتوهم أنهم جاءوا للشر وقيل وقع في قلبه أنهم ملائكة جاؤا للعذاب ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بمحناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ﴿وبشروه﴾ وفي سورة الصافات وبشرناه أى بواسطتهم ﴿بغلام﴾ هو إسحق عليه السلام ﴿عليه﴾ عنه بلوغه واستوائه ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿في صرة﴾ في صيحة من الصيرير ومحلها النصب على الحالية أو المفعولية إن جعل أقبلت بمعنى أخذت كما يقال أقبل يشتمنى ﴿فصكت وجهها﴾ أى لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمك وقيل ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أى أنا عجوز عاقر فكيف أله .

﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قال ربك﴾ وإنما نحن معبرون بنخبرك به عنه تعالى لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿لأنه هو الحكيم العليم﴾ فيكون قوله حقاً وفعله متقناً لا محالة . روى أن جبريل عليه السلام قال لها انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع إبراهيم عليه السلام أيضاً حسماً شرح في سورة الحجر وإنما لم يذكر ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفي سورة هود ﴿قال﴾ أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا الأمر ﴿فما خطبكم﴾ أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط ﴿لنرسل عليهم﴾ أى بعد ما قبلنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسماً فصل في سائر السور الكريمة ﴿حجارة من طين﴾ أى طين متحجر هو السجيل ﴿مسومة﴾ مرسله من أسمت الماشية أى أرسلتها أو معلية من السومة وهى العلامة وقد مر تفصيله في سورة هود ﴿عند ربك للسرفين﴾ المجاوزين الحد في الفجور وقوله تعالى : ﴿فأخرجنا﴾ الخ حكاية من جهته

تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين ابراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها في مواضع آخر كأنه قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك الخ (من كان فيها) أى فى قرى قوم لوط وإصهارها بغير ذكر لشهرتها (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت) أى غير أهل بيت (من المسلمين) قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر (وتركنا فيها) أى فى القرية (آية) أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب قيل هى تلك الأحجار أو صخر منصود فيها أو ماء منتن (للذين يخافون العذاب الأليم) أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية (وفى موسى) عطف على قوله تعالى وفى الأرض أو على قوله تعالى وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا فى موسى آية كقول من قال * علفتها تبنا وما باردا * (إذ أرسلناه) قيل هو منصوب بآية وقيل بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا وقيل بتركنا (إلى فرعون بسطان مبين) هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة (فتولى بركنه) أى فأعرض عن الإيمان به وازور كقوله تعالى (ونأى بجانبه) وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فإن الركن اسم لما يركن إليه الشئ وقرىء بركنه بضم الكاف (وقال ساحر) أى هو ساحر (أو مجنون) كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه الصلاة والسلام من الخوارق العجيبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره وسعيه أو بغيرهما .

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) وفيه من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قاة فرعون وقومه ما لا يحفى (وهو ملهم) أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والجملة حال من الضمير فى فأخذناه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم أو لأنها لم تتضمن خيرا ما من إنشاء مطر أو القاح شجر وهى الشكباء

أو الدبور أو الجنوب ﴿ ما تذر من شيء أنت عليه ﴾ أى جرت عليه ﴿ إلا جملة ما
 كالريم ﴾ هو كل مارم وبلى ونفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك ﴿ وفى
 ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ وهو قوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام
 قيل قال لهم صالح عليه السلام تصبى وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد حمرة
 واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ﴿ فمتوا عن أمر ربهم ﴾ أى فاستكبروا
 عن الامتثال به ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح
 عليه السلام من اصفرار وجوههم واحمرارها وأسودادها عمدوا إلى قتله
 عليه السلام فنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع
 تحنطوا وتسكنفوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرى الصعقة وهى المرة
 من الصعق ﴿ وهم ينظرون ﴾ إليها ويعاينونها ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾
 كقوله تعالى ﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ بغيرهم كما
 لم يمتنعوا بأنفسهم .

﴿ وقوم نوح ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح فإن ما قبله يدل عليه أو واذا كر
 ويجوز أن يكون معطوفا على محل فى عاد ويؤيده القراءة بالجر وقيل هو
 معطوف على مفعول فأخذناه ﴿ من قبل ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ،
 ﴿ لأنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر
 والمعاصى ﴿ والسماء بينناها بأيد ﴾ أى بقوة ﴿ ولنا الموسعون ﴾ لقادرون
 من الموسع بمعنى الظاقة والموسع القادر على الإنفاق أو الموسعون السماء أو ما بينها
 وبين الأرض أو الرزق ﴿ والأرض فرشناها ﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا
 عليها ﴿ فنعم المساهدون ﴾ أى نحن ﴿ ومن كل شيء ﴾ أى من الأجناس
 ﴿ خلقنا زوجين ﴾ أى نوعين ذكر وأنثى وقبل متقابلين السماء والأرض
 والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك ﴿ لعلكم تذكرون ﴾
 أى فملنا ذلك كله كي تذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق
 للعبادة وأنه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله تعالى : ﴿ ففروا إلى
 الله ﴾ مقدر لقول خو طب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء

إما لترتيب الأمر على ما حكى من إثارة غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها كأنه قيل قل لهم إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شئونه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه وإما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلمكم تذكرون كأنه قيل قل لهم فتذكروا ففروا إلى الله الخ ، وقوله تعالى ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أو لوجوب الامتثال به فإن كونه عليه الصلاة والسلام منذرا منه تعالى موجب عليه عليه الصلاة والسلام أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمثلوا به أي إني لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذرا منه تعالى أو مظهر لما يجب إظهاره من العذاب المنذر به وفي أمره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ نهى موجب للفرار من سبب العقاب بعد الأمر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى ﴿ إني لكم منه ﴾ أي من الجعل المنهى عنه ﴿ نذير مبين ﴾ فإن تعلق كلمة من بالإفذار مع كون صلتها الباء بتضمينته معنى الإفراز يقال فر منه أي هرب وأفره غيره كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقادا أو قولاً إلها آخر وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما قيل بل بالنهي عن سببه وإيجاب الفرار منه .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر مثل ما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحرا أو مجنونا ، وقوله تعالى ﴿ ما أتى الذين من قبلهم ﴾ الخ تفسير له أي ما أتاهم ﴿ من رسول ﴾ من رسل الله ﴿ إلا قالوا ﴾ في حقه ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ ولا سبيل إلى انتصاب الكاف بآتي لامتناع عمل ما بعدما النافية فيما قبلها ﴿ أتواصوا به ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشبعية التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلا عن التفوه بها أي أوصى بهذا القول بعضهم بعضا حتى اتفقوا عليه وقوله تعالى ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾

لمضرب عن كون مدار اتفاقهم على الشر توأصيههم بذلك وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصي وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الحميدة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طلبا عنهم (فتول عنهم) فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإباء (فما أنت بمولوم) على التولي بعدما بذلت المجهود وجاوزت في الإبلاغ كل حد معهود .

((وذكر)) أى افعل التذكير والموعظة ولا تدعها بالمرّة أو فذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الأمر ((فإن الذكري تنفع المؤمنين)) أى الذين قدر الله تعالى إيمانهم أو الذين آمنوا بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في اليقين ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن كون خلقهم مغيا لعبادته تعالى مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والانتعاظ واهل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود ومعنى خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة بما لا نزاع فيه قطعاً كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وإنما الذي لا يلبق بجناحه عز وجل تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل من كل وجه وأما بمعنى نهاية كإلية يفضى إليها فعل الفاعل الحق فغير منفي من أفعاله تعالى بل كلها جارية على ذلك المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكنى في تحقق معنى التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام وأما إرادة الفاعل لها فلبست من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الإرادة فإن تعوق البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاوض المبادئ وتأخذ المقدمات الموصلة إليها لا يمنع كونها غاية كما في قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك

لتنخرج الناس من الظلمات إلى النور) ونظائرهِ وقيل المعنى إلا ليؤمنوا بعبادتي كما في قوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا لها واحدا) وقيل المراد سعاداء الجنسين كما أن المراد بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) أشقيائهما وبعضه قراءة من قرأ وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوي معناه إلا ليعرفون ومداره قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف خلقت الخلق لأعرف ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق إطلاق اسم السبب على المسبب التنبية على أن الاعتبار هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعاليا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وتميئة أرزاقهم أى ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم بل أتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم^(١) من عندي فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إن الله هو الرزاق﴾ الذى يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق وفيه تلويح بأنه غنى عنه وقرىء لى أنا الرزاق ﴿ذو القوة المتين﴾ بالرفع على أنه نعت للرزاق أو لذو أو خبر بعد خبر أو خبر لمضمرة وقرىء بالجر على أنه وصف للقوة على تأويل الاقتدار أو الأيد .

﴿فإن للذين ظلموا﴾ أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وضعوا مكان التصديق تكذيبا وهم أهل مكة ﴿ذنوبا﴾ أى نصيبا وافرا من العذاب ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ مثل أنصبا نظرائهم من الأمم المحكية وهو مأخوذ من مقاسمة السقااة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء ﴿فلا يستعجلون﴾ أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى الحجى به يقال استعجله أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله

أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله أى طلب وقوعه بالعجلة ومنه قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وهو جواب لقولهم (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ﴿فويل للذين كفروا﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حين الصلة من الكفر وإشعارا بعلّة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذابا عظيما كما أن الفاء الأولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى : ﴿من يومهم الذى يوعدون﴾ للتعليل أى يوعدونه من يوم بدر وقيل يوم القيامة وهو الأنسب بما (١) فى صدر فى السورة الكريمة الآتية والأول هو الأوفق لما قبله من حيث أنهما من العذاب الدينى . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ربح هبت وجرت فى الدنيا .

(١) فى ١١ : وهو الأنسب لا

سورة الطور ﴿١﴾

مكية ، وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والطور) الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل بمدن سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى (وكتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن أو ألواح موسى عليه السلام وهو الأنسب بالطور أو ما يكتب في اللوح أو ما يكتبه الحفظة (في رق منشور) الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة وتنكيرهما للتفخيم أو للإشعار بأنهما ليسا بما يتعارفه الناس (والبيت المعمور) أي الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين أو الضراح وهو في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة (والسقف المرفوع) أي السماء ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور (والبحر المسجور) أي المملوء وهو البحر المحيط أو الموقد من قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) فالمراد به الجنس روى أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة نارا يسجر بها نار جهنم .

(إن عذاب ربك لواقع) أي لنازل حتما جواب للقسم وقوله تعالى (ماله من دافع) إما خبر ثان لأن أو صفة لواقع ومن دافع إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ومن مزيدة للتأكيد وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لما أنها أمور عظام تنبئ عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضيبتها الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى (يوم تمور السماء مورا) ظرف لواقع مبين لكيفية الوقوع منبئ عن كمال هوله وفضاعته والمور الاضطراب والتدرد في المجيء والذهاب وقيل هو تحرك في تموج قيل تدور السماء كما تدور الرحا

وتسكفأ بأهلها تسكفؤ السفينة وقيل تختلف أجزاؤها (وتسير الجبال سيرا) أى تزول عن وجه الأرض فتصير هباء وتأكيد الفعلين بمصدرهما للإيدان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أى مورا عجيبا وسيرا بديعا لا يدرك كنههما .

عاقبة المكذبين

(فويل يومئذ للمكذبين) أى إذا وقع ذلك أو إذا كان الأمر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك لهم (الذين هم فى خوض) أى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب (يلعبون) يلعبون (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) أى يدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعوا إلى النار وقرىء يدعون من الدعاء فيكون دعا حالا بمعنى مددوعين ويوم إما بدل من يوم تمور أو ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها وقوله تعالى (أفسحر هذا) توييخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كأنه قيل كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضا سحر وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوييخ (أم أنتم لا تبصرون) أى أم أنتم عمى عن الخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر أو أم سدت أبصاركم كما سدت فى الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون (إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) (أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا) أى ادخلوها وقاسوا شدائدنا فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) أى الأمران فى عدم النفع لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه وقوله تعالى (إنما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان واجب الوقوع حتما كان الصبر وعدمه سواء فى عدم النفع .

عاقبة المتقين

﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ أى فى آية جنات وأى نعيم على أن التنوين للتفخيم أو فى جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنوين (فأكين) ناعمين متلذذين ﴿بما آتاهم ربهم﴾ وقرئ فأكين وفاكون على أنه الخبر والظرف لغو متعلق بالخبر أو خبر آخر ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ عطف على آتاهم على أن ما مصدرية أو على خبر إن أو حال بإضمار قد إما من المستكن فى الخبر أو فى الحال وإما من فاعل أنى أو من مفعوله أو منهما وإظهار الرب فى موقع الإضمار مضافا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل ﴿كلوا واشربوا﴾ أى يقال لهم كلوا واشربوا أكلا وشربا ﴿هنيئاً﴾ أو طعاما وشربا هنيئاً وهو الذى لا تنغيص فيه ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسببه أو بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئاً أى هناكم ما كنتم تعملون أى جزاؤه ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ مصطفة ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وقرئ بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور وقرئ بعين عين والباء مع أن التزويج مما يتعدى إلى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والإلصاق أو للسببية إذ [أن] ^(١) المعنى صيرناهم أزواجا بسدين فإن الزوجية لا تتحقق بدون انضمامهم إليهم وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا﴾ إلخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال السكل وهم الذين شاركهم ذريتهم فى الإيمان وهو مبتدأ خبره ألحقناهم وقوله تعالى ﴿واتبعهم ذريتهم﴾ عطف على آمنوا وقيل اعتراض وقوله تعالى ﴿بإيمان﴾ متعلق بالاتباع أى اتبعهم ذريتهم بإيمان فى الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء واعتبار هذا القيد للإيدان بثبوت الحكم فى الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقا وقرئ ذرياتهم للبالغة فى الكثرة وذرياتهم بكسر الذال وقرئ وأتبعناهم ذرياتهم أى جعلناهم تابعين لهم فى الإيمان

وقرىء أتبعتمهم ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ أى فى الدرجة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال إنه تعالى يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه ثم تلا هذه الآية ﴿ وما ألتناهم ﴾ وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ من عملهم ﴾ من ثواب عملهم ﴿ من شيء ﴾ بأن أعطينا بعض ثواباتهم أبناءهم فتنقص ثوابهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض الفضل والإحسان وقرىء ألتناهم بكسر اللام من ألت يألت كعلم بعم والأول كضرب يضرب ولتناهم من لات يليت وألتناهم من ألت يؤلت ولتناهم من ولت يلت والكل بمعنى واحد هذا وقد قيل الموصول معطوف على حور والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين وقوله تعالى وأتبعتمهم عطف على زوجناهم وقوله تعالى بإيمان متعلق بما بعده أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم أو بسبب إيمان داني المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ قيل هو فاعيل بمعنى مفعول والمعنى كل امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح فإن عمله فسكه وإلا أهلكه وقيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن أى دائم ثابت وهذا أنسب بالمقام فإن الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيء فالجملة تعليل لما قبلها .

﴿ وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون ﴾ وزدناهم على ما كان لهم من مبادئ التمتع وقتاً فوقتاً ما يشتهون من فنون النعماء ^(١) وألوان الآلاء ﴿ يتنازعون فيها ﴾ أى يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكال رغبة واشتياق كما يفى عنه التعبير عن ذلك بالتنازع ﴿ كاساً ﴾ أى خمر اسمية لها باسم محلها ﴿ لا لغو فيها ﴾

أى فى شربها حيث لا يتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام
 ﴿ولا تأثم﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أى ينسب إلى الإثم لو فعله فى
 دار التكليف كما هو ديدن المتأدبين فى الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحسن
 الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام وقرىء لا لغو فيها ولا تأثم بالفتح
 ﴿ويطوف عليهم﴾ أى بالكأس ﴿غلمان لهم﴾ أى ممالك مخصوصون بهم
 وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ مصون فى الصدف
 من بياضهم وصفائهم أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة قيل لقتادة
 هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي
 نفسى بيده أن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر
 الكواكب^(١) وعنه عليه الصلاة والسلام إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى
 الخادم من خدانه فيجيبه ألف يابيه لييك لييك^(٢) وأقبل بعضهم على بعض
 يتسألون ﴿أى يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيسكون
 كل بعض سائلاً ومسؤولاً لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معينا
 ﴿قالوا﴾ أى المسئولون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة ﴿إنا كنا قبل﴾ أى
 فى الدنيا ﴿فى أهلنا مشفقين﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى
 معتنين بطاعته أو وجلين من العاقبة ﴿فمن الله علينا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق
 ﴿ووة ناهذاب السموم﴾ عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وقرىء
 ووقلنا بالتشديد ﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أى نعبده أو نسأله الوقاية ﴿لأنه
 هو البر﴾ المحسن ﴿الرحيم﴾ الكثير الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل
 أجاب وقرىء أنه بالفتح بمعنى لأنه ﴿فذكر﴾ فاثبت على ما أنت عليه
 من التذكير بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تسكثرت بما يقولون
 بما لا خير فيه من الأباطيل.

(١) أخرجه أحمد فى المسند عن قتادة .

(٢) أخرجه السيوطى فى البدور السافرة باب نعيم أهل الجنة .

رد أباطيل الكفار

﴿ فإنت بنعمة ربك ﴾ بحمده وإنعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل
 ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ كما يقولون قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ أم يقولون شاعر
 تتربص به ريب المنون ﴾ وهو ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث
 الدهر وقيل المنون الموت وهو فى الأصل فعول من منه إذا قطعه لأن الموت
 قطوع أى بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر ﴿ قل تربصوا فإنى معكم من
 المتربصين ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى وفيه عدة كريمة بإهلاكهم
 ﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ أى عقولهم ﴿ بهذا ﴾ أى بهذا التناقض فى المقال فإن
 الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى الأمور والمجنون مغطى عقله بمخمل فكره
 والشاعر ذو كلام موزون متسق تخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى واحد
 وأمر الأحلام بذلك مجاز عن أدائها إليه ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ مجاوزون
 الحدود فى المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون
 ما يقولون من الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرئ بل هم
 ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أى اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بل لا يؤمنون ﴾
 فككفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل التى لا يخفى على أحد بطلانها كيف
 لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أنى بما عجز
 عنه كافة الأمم من العرب والعجم .

﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ مثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث
 النظم ومن حيث المعنى ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ فيما زعموا فإن صدقهم فى ذلك
 يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام فى
 البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار وكثرة المزاولة
 لأساليب النظم والنثر والمباعدة فى حفظ الوقائع والأيام ولا ريب فى أن القدرة
 على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعى الأمر بذلك ﴿ أم تخلقوا من غير
 شيء ﴾ أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر وقيل
 أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاة ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لأنفسهم

فلذلك لا يعبدون الله سبحانه ﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾
 أى إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا الله وهم غير موقنين
 بما قالوا وإلا لما أعرضوا عن عبادته ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ أى خزائن
 رزقه ورحمته حتى يرزقوا الثبوة من شاءوا ويمسكوها بمن شاءوا أو أعندهم
 خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره ﴿ أم هم
 المسيطرون ﴾ أى الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاءوا حتى يدبروا أمر
 الربوبية وينبؤوا الأمور على إرادتهم ومشيتهم وقرىء المصيطرون بالصاد لما كان
 الطاء ﴿ أم لهم سلم ﴾ منصوب إلى السماء ﴿ يستمعون فيه ﴾ صاعدين إلى كلام
 الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور
 التى يتقولون فيها رجما بالغيب ويعلمون بها أطعامهم الفارغة ﴿ فليأت مستمعهم
 بسلطان مبين ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه .

﴿ أم له البنات ولحكم البنون ﴾ تسفيه لهم وتركيبك لعقولهم وإيدان بأن
 من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت والتطلع
 على الأسرار الغيبية والالتفات إلى الخطاب لتشديد ما فى أم المنقطعة من الإنكار
 والتوبيخ .

﴿ أم تسألهم أجرا ﴾ رجوع إلى خطابه عليه الصلاة والسلام
 وإعراض عنهم أى بل أنسألهم أجرا على تبليغ الرسالة ﴿ فهم ﴾ لذلك
 ﴿ من مغرم ﴾ من التزام غرامة فادحة ﴿ منقولون ﴾ محملون النقل
 فلذلك لا يتبعونك ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب
 ﴿ فهم يكتبون ﴾ ما فيه حتى يتكلموا فى ذلك بنفى أو إثبات ﴿ أم يريدون
 كيدا ﴾ هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ﴿ فالذين
 كفروا ﴾ هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما
 فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به أو جميع الكفرة وهم داخلون فيهم
 دخولاً أولياً ﴿ هم المكيدون ﴾ أى هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم
 وبإله لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر أو هم المغلوبون فى

الكيد من كايده فكدته ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى عن إشرأ كههم أو عن شركة ما يشركونه ﴿ وإن يروا كسفا ﴾ قطعة ﴿ من السماء ساقطا ﴾ لتعذيبهم ﴿ يقولوا ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿ سحاب مركوم ﴾ أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب ﴿ فذرهم حتى يلاقوا ﴾ وقرىء حتى يلقوا ﴿ يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ على البناء للفعول من صعقته الصاعقة أو من أصعقته وقرىء يصعقون بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الأولى كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حيا حينئذ ولأن قوله تعالى :

﴿ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ﴾ أى شيئا من الإغناء بدل من يومهم ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا فى الانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه فى أمره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذى من جملة مناصبتهم يوم بدر وأما النفخة الأولى فليست بما يجرى فى مدافعتة الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ما تأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم ﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ أى لهم ووضع الموصل موضع الضمير لما ذكر من قبل أى وإن هؤلاء الظلمة ﴿ عذابا ﴾ آخر ﴿ دون ذلك ﴾ دون ما لا قوه من القتل أى قبله وهو القحط الذى أصابهم سبع سنين أو وراه كما فى قوله :

* تريك القذى من دونها *

وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرىء دون ذلك قريبا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الأمر كما ذكرنا وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عنادا أو لا يعلمون شيئا أصلا .

(واصبر لحكم ربك) يأمأهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحران ومعااة الموم (فإناك بأعيننا) أى فى حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونككوك وجمع العين لجمع الضمير والإيدان بغاية الاعتناء بالحفظ (وسبح) أى نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبسا (بحمد ربك) على نعمائه الفائتة للحصر (حين تقوم) من أى مكان قت قال سعيد بن جبير وعطاء أى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه صل لله حين تقوم من منامك وقال الضحاك والريبع إذا قت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك وقوله تعالى :

(ومن الليل فسبحه) أفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل (وإدبار النجوم) أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلاة العشاءين وإدبار النجوم صلاة الفجر وقرى أدبار النجوم بالفتح أى فى أعقابها إذا غربت أو خفيت. عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والطور كان حقا على الله تعالى أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته .

سورة النجم

مكية ، وآياتها إحدى أو اثنتان وستون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ المراد بالنجم إما الثريا فإنه اسم غالب له أو جنس النجوم وبهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هويًا بوزن قبول إذا غرب وهويًا بوزن دخول إذا علا وصعد وأما النجم من نجوم القرآن فهو به نزوله والعامل في إذا فعل القسم فإنه بمعنى مطلق الوقت مفسلخ من معنى الاستقبال كما في قولك آتيتك إذا احمر البسر وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبه الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يبتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذى يبتدى به السابلة إلى سواء السبيل

دفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ أى ما عدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ﴿ وما غوى ﴾ أى وما اعتقد باطلا قط أى هو فى غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية فى شيء أصلاً وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن كما أشير إليه فى مطلع سورة يس وسورة الزخرف وتنبيه على مناط اهتمامه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل والقرآن الذى هو علم فى الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق ما ضل عنها محمد عليه الصلاة والسلام وما غوى والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبيته لهم للإيدان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفي عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى بالرشاد فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضية لذلك جتما وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الأخير ظاهر

وأما على الأولين فلأن النجم لا يهتدى به السارى عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وإنما يهتدى به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلى جبريل من الأفق الأعلى ودنوه منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل وأما حمل هويته على انتشاره يوم القيامة أو على انقضاء النجم الذي يرجم به أو حمل النجم على النبات وحمل هويته على سقوطه على الأرض أو على ظهوره منها فما لا يناسب المقام .

(وما ينطق عن الهوى) أى وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلاً فإن المراد استمرار نفي النطق عن الهوى لا نفي استمرار النطق عنه كما مراراً .

(إن هو) أى ما الذى ينطق به من القرآن (إلا وحى) من الله تعالى وقوله تعالى (يوحى) صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى (عليه شديد القوى) أى ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فإنه الواسطة في إبداء الخوارق وناهيك دليلاً على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى هو تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح بشمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أسرع من رجعة الطرف (ذو مرة) أى حصافة في عقله ورأيه ومثانة في دينه (فاستوى) عطف على عليه بطريق التفسير فإنه إلى قوله تعالى ما أوحى بيان لكيفية التعليم أى فاستقام على صورته التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التى جبل عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراً فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الأرض من المغرب وملا الأفق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه^(١) قبل ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير النبى عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه الدارقطنى والطبرانى فى الأوسط عن جابر وأبي هريرة

والسلام فإنه رآه فيها مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الأمر وقوله تعالى ﴿ وهو بالآفاق الأعلى ﴾ أى أفق الشمس حال من فاعل استوى ﴿ ثم دنا ﴾ أى أراد الدنو من النبي عليهما الصلاة والسلام ﴿ فندى ﴾ أى استرسل من الآفاق الأعلى مع تعلق به فدنا من النبي يقال تدلت الشجرة ودلى رجله من السرير وأدلى دلوه والدوالى الثمر المعلق ﴿ فكان ﴾ أى مقدار امتداد ما بينهما ﴿ قاب قوسين ﴾ أى مقدارهما فإن القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقيل فكان جبريل عليه السلام كما في قولك هو منى معقد الإزار ﴿ أو أدنى ﴾ أى على تقديركم كما في قوله تعالى أو يزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفى البعد الملبس .

﴿ فأوحى ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ إلى عبده ﴾ عبد الله تعالى وإضافته قبل الذكر لغاية ظهوره كما في قوله تعالى ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ ﴿ ما أوحى ﴾ أى من الأمور العظيمة التي لا تنفي بها العبادة أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى قيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ﴿ ما كذب الفؤاد ﴾ أى فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه يبصره من صورة جبريل عليهما السلام أى ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه يبصره وقرىء ما كذب أى صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة أو أبعد ما ذكر من أحواله المنافية للمهارة تمارونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه وقرىء أفتمرونه أى أفتغلّبونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى كما يقال غلبته على كذا وقيل أفتمرونه أفتجحدونه من مراء حقه إذا جحده ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أى وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأن الفعل اسم للمرة من الفعل

فكانت في حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة أخرى فنصبها على المصدر
 ﴿عند سدره المنتهى﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها
 كقلال هجر وورقها كأذان الفيول تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله
 تعالى في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها والمنتهى موضع
 الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وقيل إليها ينتهى علم الخلائق وأعمالهم
 ولا يعلم أحد ما وراءها (١) وقيل ينتهى إليها أرواح الشهداء وقيل ينتهى إليها
 ما يبط من فوقها ويصعد من تحتها قيل إضافة السدرة إلى المنتهى إما إضافة
 الشيء إلى مكانه كقولك أشجار البستان أو إضافة المحل إلى الحال كقولك
 كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى علوم الخلائق أو إضافة الملك إلى
 المالك على حذف الجار والمجرور أى سدرة المنتهى إليه وهو الله عز وجل
 قال تعالى إلى ربك المنتهى ﴿عندها جنة المأوى﴾ أى الجنة التي يأوى إليها
 المنتقون أو أرواح الشهداء والجملة حالية وقيل الأحسن أن يكون الحال هو
 الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى ﴿إذ يغشى السدرة
 ما يغشى﴾ ظرف زمان لآه لا لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فإن ما النافية
 لا يعمل ما بعدها فيما قبلها والغشيان بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشى أو بمعنى
 الإتيان يقال فلان يغشاني كل حين أى يأتيني والأول هو الأليق بالمقام وفي
 إلهام ما يغشى من التغميم ما لا يخفى وتأخير عن المفعول للتشويق إليه أى
 ولقد رآه عند السدرة وقت ما غشها ما غشها مما لا يكتننه الوصف ولا يفي به
 البيان كيف ولا كما وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها
 البديعة وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد وقيل يغشها الجسم الغفير من
 الملائكة يبدون الله تعالى عندها وقيل يزورونها متبركين بها كما يزور الناس
 الكعبة وقيل يغشها سبحات أنوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما تجلى للجبيل
 لسكنها كانت أقوى من الجبل وأثبت حيث لم يصبها ما أصابه من الدك وقيل

يفشاها فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت السدرة يفشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وعنه عليه الصلاة والسلام يفشاها رفر من طير خضر^(١) ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه ﴿ وما طغى ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد هناك من الأمور العجيبة المذهلة ما لا يحصى بل أثبتته إنباتا صحيحا متيقنا أو ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها وما جاوزها .

﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أى واقفه لقد رأى الآيات التى هى كبرها وعظماها حين عرج به إلى السماء فأرى من عجائب الملك والمملوك ما لا يحيط به نطاق العبارة ويجوز أن تكون الكبرى صفة للآيات والمفعول محذوف أى شيئا عظيما من آيات ربه وأن تكون من مزيدة .

توبيخ الكفار

﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ هى أصنام كانت لهم فاللات كانت لتقيف بالطائف وقيل لقريش بنخلة وهى فعلة من لوى لأنهم كانوا يلون عليها ويطوفون بها وقرىء بتشديد التاء على أنه اسم فاعل اشتهر به رجل كان يلبس السمن بالزيت ويطعمه الحاج وقيل كان يلبس السويق بالطائف ويطعمه الحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وقيل كان يجلس على حجر فلما مات سمي الحجر باسمه وعبد من دون الله وقيل كان الحجر على صورته والعزى تأنيث الأعز كانت لغطفان وهى سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضمة يدها على رأسها وهى تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى .

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك العزى ولن تعبد أبداً^(١) ومناة
صخرة لهديل وخزاعة وقيل لثقيف وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك تمني
عندها أى تراق وقرىء ومناة وهى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون
عندها الأنواء تبركاً بها والأخرى صفة ذم لها وهى المتأخرة الوضعية المقدار
وقد جوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للآلات والعزى ثم أنهم كانوا مع
ما ذكر من عبادتهم لها يقولون إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله تعالى
الله عن ذلك علواً كبيراً فقليل لهم توبيخاً وتبكيثاً أفرأيتم الخ والهمزة للإنكار
والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شئون الله تعالى المنافية لها
غاية المنافاة وهى قلبية ومفعولها الثانى محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى أعقيب
ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملائكة وملكوته وجلاله وجبروته
وأحكام قدرته ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتهم هذه
الأصنام مع غاية حقارتها وقهارة بنات له تعالى وقيل المعنى أفرأيتهم هذه الأصنام
مع حقارتها وذلتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم من عظمتهم وقيل أخبرونى عن
آلهتكم هل لها شيء من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآلى
السابقة وقيل المعنى أظننتم أن هذه الأصنام التى تعبدونها تنفعكم وقيل أظننتم أنها
تشفع لكم فى الآخرة وقيل أفرأيتهم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم
ولإن تركتموها لا تضركم والاول هو الحق كما يشهد به قوله تعالى :

(ألسم الذكر وله الآلى) شهادة بينة فإنه توبيخ مبنى على التوبيخ الأول
وحيث كان مداره تفصيل جانب أنفسهم على جنبه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناث مخ
اختيارهم لأنفسهم الذكور وجب أن يكون مناط الأول نفس تلك النسبة حتى يقتضى
بناء التوبيخ الثانى عليه وظاهر أن ليس فى شيء من التقديرات المذكورة من
تلك النسبة عين ولا أثر وأما ما قيل من أن هذه الجملة مفعول ثانٍ للرؤية وخلوها
عن العائد إلى المفعول الأول لما أن الأصل أخبرونى أن الآلات والعزى ومناة ألكم

(١) انظر السيوطى فى الدر المنثور .

الذكر وله من أى تلك الأصنام فوضع موضعها الاثنى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع ما فيه من التمهلات التى ينبغى تنزيه (ساحة) ^(١) التنزيل عن أمثالها يقتضى اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير على جناب الله العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه .

(تلك) إشارة إلى القسمة المنفحة من الجملة الاستفهامية ((إذا قسمة ضيزى)) أى جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه وهى فعلى من الضيز وهو الجور لكننه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل فى بيض فإن فعلى بالكسر لم يأت فى الوصف وقرئ ضيزى بالهمزة من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت وقرئ ضيزى إما على أنه مصدر وصف به كدعوى أو على أنه صفة كسكرى وعطشى ((إن هى)) الضمير للأصنام أى ما الأصنام باعتبار الألوهية التى يدعونها ((إلا أسماء)) محضة ليس تحتها مما تنبى هى عنه من معنى الألوهية شئ ما أصلا وقوله تعالى ((سميتوها)) صفة لأسماء وضميرها لها لا للأصنام والمعنى جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيسست إلى الإسم فعناها جعله إسمًا للمسمى وإن قيسست إلى المسمى فعناها جعله مسمى للإسم وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التى يسمونها آلهة مجردة ليس لها مسميات قطعا كما فى قوله تعالى ((ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها)) الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هى للأسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والإعزاز والتقرب إليها بالقرين وأنت خير بأنه لو سلم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعانى الخاصة للأصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هى فى سلب الألوهية عنها كما هو زعمهم ^(٢) المشهور فى حق جميع الأصنام على وجه برهاني فإن انتفاء الموصوف يقتضى انتفاء الوصف بطريق الأولوية أى ما هى إلا أسماء

(١) سقط من ط .

(٢) فى ٩١ على زعمهم للمشهور .

خالية عن المسميات وضعتموها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ برهان تتعلقون به ﴿ أى يتبعون ﴾ النفات إلى الغيبة للإيدان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إلا الظن ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق توهمها باطلا ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أى تشتهيهم أنفسهم الأماراة بالسوء ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ قيل هى حال من فاعل يتبعون أو اعتراض وأيا ما كان ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهو النفس وزيادة نقبيح الحالمين فإن اتباعهما من أى شخص كان قبيح وعن هداة الله تعالى بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتاب أقبح .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لا يجدى نقعا أصلا والهمزة الإنكار والنفي أى ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهي نفسه من الأمور التى من جعلتها أطعامهم الفارغة في شفاعاة الآلهة ونظارها التى لا تكاد تدخل تحت الوجود ﴿ فله الآخرة والأولى ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتما فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعا به تعالى مقتضى لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور وقوله تعالى ﴿ ولم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ﴾ لإقناط لهم عما علقوا به أطعامهم من شفاعاة الملائكة لهم موجب لإقناطهم من شفاعاة الأصنام بطريق الأولوية وكى خبرية مفيدة للكثير علما الرفع على الابتداء والخبر هى الجملة المنفية وجمع الضمير فى شفاعتهم مع أفراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئا من الإغناء فى وقت من الأوقات ﴿ إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ لهم فى الشفاعاة ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل من الشفاعاة بألف منزل فإذا كان حال الملائكة فى باب فى الشفاعاة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾

وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿ليسمون الملائكة﴾
 المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق أى يسمون كل واحد منهم ﴿تسمية
 الأنثى﴾ فإن قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بأن كلا منهم بفته^(١) سبعانه
 وهى التسمية بالأنثى وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها فى الشناعة
 والفضاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن
 بها رأسا وقوله تعالى ﴿وما لهم به من علم﴾ حال من فاعل يسمون أى يسمونهم
 والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلا وقرىء بها أى بالملائكة أو بالتسمية
 ﴿إن يتبعون﴾ فى ذلك ﴿إلا الظن﴾ الفاسد ﴿وإن الظن﴾ أى جنس الظن
 كما يلوح به الإظهار فى موقع الإضمار ﴿لا يغنى من الحق شيئا﴾ من الإغناء
 فإن الحق الذى هو عبارة عن حقيقة الشيء لا يدرك إلا بالعلم والظن لا اعتداد
 به فى شأن المعارف الحقيقية وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى إليها ﴿فأعرض
 عن تولى عن ذكرنا﴾ أى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به
 أى وصفهم بما فى حيز صلته من الأوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها أى
 فأعرض عن ذكرنا أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني وهو القرآن المنطوى على
 علوم الأولين والآخرين المذكور لأمر الآخرة أو عن ذكرنا كما ينبغى فإن
 ذلك مستتبع لذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها
 ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ راضيا بها قاصرا نظره عليها والمراد النهى عن
 دعوته والاعتناء بشأنه فإن من أعرض عما ذكر وانهمك فى الدنيا بحيث كانت
 هى منتهى همته وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عنادا وإصرارا
 على الباطل ﴿ذلك﴾ أى ما أدام فيه من التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا
 ﴿مبلغهم من العلم﴾ لا يكادون يجاوزونه إلى غيره حتى تجدبهم الدعوة والإرشاد
 وجمع الضمير فى مبلغهم باعتبار معنى من كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها

(١) فى ١١ : بناته .

والمراد بالعلم مطلق الإدراك المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا وقوله تعالى ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ تعليل للأمر بالإعراض وتكرير قوله تعالى هو أعلم لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من أضل عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلاً وبمن اهتدى من شأنه الاهتداء في الجملة أى هو المبالغ في العلم بمن لا يرعوى عن الضلال أبداً وبمن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيره فلا تتعب نفسك في دعوتهم فإنهم من القبيل الأول وفي تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العلم بأحوال الفريقين عليه تعالى رمز إلى أنه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم بما يليق به من الجزاء ففيه وعيد ووعد ضمناً كما سيأتي صريحاً .

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أى خلقاً وملاكاً لا غيره أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً وقوله تعالى ﴿ليجزى﴾ الخ متعلق بما دل عليه أعلم الخ وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله فإن كون الكل مخلوقاً له تعالى بما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ألا يعلم من خلق كما أنه قيل فيعام ضلال من ضل واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزى ﴿الذين أساءوا بما عملوا﴾ أى بعقاب ما عملوا عن الضلال الذى عبر عنه بالإساءة بيانا لحاله أو بسبب ما عملوا .

﴿ويجزى الذين أحسنوا﴾ أى اهتدوا ﴿بالحسنى﴾ أى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى وقيل متعلق بما دل عليه قوله تعالى ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ كأنه قيل خلق ما فيهما ليجزى الخ ، وقيل : متعلق بضل واهتدى على أن اللام للعاقبة أى هو أعلم بمن ضل ليؤول أمره إلى أن يحزبه الله تعالى بعمله وبمن اهتدى ليؤول أمره إلى أن يحزبه بالحسنى وفيه من البعد ما لا يخفى وتكرير الفعل لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء والتنبيه على تباين الجزاءين ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره أو بيان أو نعت أو منصوب على المدح وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب

عليه الوعيد بخصوصه وقرئ **كبير الإثم** على إرادة الجنس أو الشرك (والفواحش) وما خش من الكبائر خصوصا (إلا اللمم) أى إلا ما قل وصغر فإنه مغفور عن يجنب^(١) الكبائر قيل هى النظرة والغمزة والقبلة وقيل هى الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا وقيل عادة النفس الحين بعد الحين والاستثناء منقطع (إن ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبية على أن إخراجهم عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوهم عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية وقيل المعنى له أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا يياس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه تعالى^(٢).

(هو أعلم بكم) أى بأحوالكم يعلمها (إذ أنشأكم) فى ضمن إنشاء أيكم آدم عليه السلام (من الأرض) لإنشاء إجماليا حسبا مر تقريره مرارا (وإذ أنتم أجنة) أى ووقت كونكم أجنة (فى بطون أمهاتكم) على أطوار مختلفة مترتبة لا يخفى عليه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) لترتيب النهى عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم أى إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالسكينة أو بما يستلزمها من زكاء العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته (هو أعلم بمن اتقى) المعاصى جميعا وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها وقيل كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى ويتوفيقه

(١) فى ١١ : لمن يجنب . (٢) فى ١١ : منه تعالى وهو أوضح .

وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم فإن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر .

(أفرايت الذي تولى) أى عن اتباع الحق والثبات عليه (وأعطى قليلاً) أى شيئاً قليلاً أو إعطاءً قليلاً (وأكدى) أى قطع العطاء من أقوالهم أكدى الحافر إذا بلغ السكدية أى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر قالوا نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فغيره بعض المشركين وقال له تركت دين الأسياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله فارتد وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي وقيل نزلت في العاص بن وائل السهمي لما أنه كان يوافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور وقيل في أبي جهل كان ربما يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور وكان يقول والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق وذلك قوله تعالى (وأعطى قليلاً وأكدى) والأول هو الأشهر المناسب لما بعده من قوله تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى) الخ أى أعنده علم بالأمور الغيبية التي من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) أى وفر وأتم ما ابتلى به من السكيات أو أمر به أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أنه أتاه جبريل عليه السلام حين يلقى في النار فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا وعلى ذبح الولد ويروى أنه كان يمشى كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم وأكثر (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) أى أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن «أن» هي المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها وحمل الجملة الجزر على أنها بدل مما في صحف موسى أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما في صحفها فقل هو أن لا تزر الخ والمعنى أنه لا يؤخذ أحد بذنب غيره ليمتلاص الثاني عن عقابه ولا يقدح في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من

بين سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن ذلك وزر
بالإضلال الذي هو وزره وقوله تعالى :

مسئولية الإنسان

((وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)) بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره
من حيث جلب النفع إليه إثر بيان عدم انتفاعه به من حيث دفع الضرر عنه
وأما شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الأحياء
للأموات وصدقهم عنهم وغير ذلك مما لا يكاد يحصى من الأمور النافعة للإنسان
مع أنها ليست من عمله قطعا فحيث كان مناط منفعة كل منها عمله الذي هو
الإيمان والصلاح ولم يكن لشيء منها نفع ما بدونه جعل النافع نفس عمله وإن
كان بانضمام عمل غيره إليه وأن مخففة كاختها معطوفة عليها وكذا قوله تعالى :
((وأن سعيه سوف يرى)) أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة في
صحيفته وميزانه من أريته الشيء ((ثم يجزاه)) أى يجزى الإنسان سعيه يقال
جزاه الله بعمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ويجوز أن يجعل
الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى ((الجزاء الأوفى)) أو يبدل هو عنه كما في
قوله تعالى ((وأسروا النجوى الذين ظلموا)) (وأن إلى ربك المُنتهى)) أى انتهاء
الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً وقرئ بكسر إن
على الابتداء ((وأنه هو أضحك وأبكى)) أى هو خلق قوى الضحك والبكاء
((وأنه هو أمات وأحيى)) لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإن أثر القاتل
نقض البنية وتفريق الاتصال وإنما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة
((وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى)) تدفق في الرحم أو
تخلق أو يقدر منها الولد من مئى بمعنى قدر ((وأن عليه النشأة الآخرة)) أى
الإحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرئ النشأة بالمد وهى أيضا مصدر نشأه
((وأنه هو أغنى وأفقى)) وأعطى القنية وهى ما يتأكل من الأموال وأفردها
بالذكر لأنها أشرف الأموال أو أرضى وتحقيقه جمل الرضا له قنية ((وأنه هو
رب الشعرى)) أى رب معبودهم وهى العبور وهى أشد ضياء من الغميصاء

وكانت خزاعة تعبد لها سن لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشrafهم وكانت قریش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو كبشة تشبها له عليه الصلاة والسلام به لخالفته لإياهم في دينهم .

(وأنه أهلك عادا الأولى) هي قوم هود عليه السلام وعاد الأخرى إرم وقيل الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح وقرى عاد الأولى بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام وعاد لولى بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل حركتها إلى لام التعريف (وثمود) عطف على عاد لأن ما بعده لا يعمل فيسه وقرى وثمود بالتنوين (فما أبقي) أى أحدا من الفريقين (وقوم نوح) عطف عليه أيضا (من قبل) أى من قبل إهلاك عاد وثمود (لأنهم كانوا هم أظلم وأطغى) من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه الصلاة والسلام حتى لا يكون به حراك وما أثر فيهم دعاؤه قريبا من ألف سنة (والمؤتفكة) هي قرى قوم لوط انتفكت بأهلها أى انقلبت بهم (أهوى) أى أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء (ففضاها ما غشى) من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع ما لا غاية وراءه (فبأى آلاء ربك تتماهى) تشكك والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة قوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) أو لكل أحد وإسناد فعل التماهى إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه فإن صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها المعنى الأول فقط كما في يداعونهم أى يدعونهم وقد تجرد عنهم أيضا فيكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلقه كما فيما نحن فيه فإن المراء متعدد بتعدد الآلاء فتدبر وتسمية الأمور المعدودة آلاء مع أن بعضها نقم لما أنها أيضا نعم من حيث أنها نصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين .

﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ هذا إما إشارة إلى القرآن والنذير مصدر أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والنذير بمعنى المنذر وأياً ما كان فالتنوین للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعمت لنذير مقرر له ومتضمن للوعيد أى هذا القرآن الذى تشاهدونه نذير من قبيل الانذارات المتقدمة التى سمعتم عاقبتها أو هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الأولين والأولى على تأويل الجماعة^(١) لمراعاة الفواصل وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين وفى تعقيب به بقوله تعالى ﴿ أنفت الآزفة ﴾ إشعار بأن تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة أى دنت الساعة الموصوفة بالدنو فى نحو قوله تعالى (اقتربت الساعة) ﴿ ايس لها من دون الله كاشفة ﴾ أى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله تعالى لكنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها إلا الله تعالى فإنه المؤخر لها أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أو ليس لها من غير الله تعالى كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية ﴿ أفن هذا الحديث ﴾ أى القرآن ﴿ تعجبون ﴾ إنكاراً ﴿ وتضحكون ﴾ استهزاء مع كونه أبعد شيء من ذلك ﴿ ولا تبكون ﴾ حزناً على ما فرطتم فى شأنه وخوفاً من أن يحقق بكم ما حاق بالأمم المذكورة ﴿ وأتم سامدون ﴾ أى لاهون أو مستكبرون من سمد البعير إذا رفع رأسه أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما فى قول من قال :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

والجملة حال من فاعل لا تبكون خلا أن مضدونها على الوجه الأخير قيد

للنفي والإنكار وأرد على نفي البكاء والسمود معا وعلى الوجوه الأول قيد للنفي والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود والأول أوفى بحق المقام فتدبر والفاء في قوله تعالى ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ لترتيب الأمر أو توجهه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستمراء ووجوب تلقيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع أى وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذى أنزله واعبدوه . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والنجم أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد ووجد به بمكة شرفها الله تعالى .

سورة القمر ﴿١﴾

مكية ، وآيها خمس وخمسون آية

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ روى أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضى الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهب وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتي القمر وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة ويرده قوله تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ فإنه ناطق بأنه قد وقع وأنهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقرىء وقد انشق القمر أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد أو الاستحكام أى وإن يروا آية من آيات الله يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد على مر الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر أو قوي مستحكم لا يمكن إزالته وقيل

مستمر ذاهب يزول ولا يبق تخنية لأنفسهم وتعليلاً وهو الأنسب بعلوم في
 العناد والمكابرة ويؤيده ما سيأتى لرده وقرىء وإن يروا على البناء للمفعول
 من الإراءة (وكذبوا) أى بالنبي صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما أظهره
 الله تعالى على يده من المعجزات (واتبعوا أهواءهم) التى زينها الشيطان لهم
 أو كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا أهواءهم وقالوا سحر القمر أو
 سحر أعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى (وكل
 أمر مستقر) استئناف مسوق لإقناطهم عما علقوا به أما نهم الفارغة من عدم
 استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته
 ورسوخه أى وكل أمر من الأمور مستقر أى منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة
 ومن جملتها أمر النبي صلى الله عليه وسلم فسيهvir إلى غاية يتبين عندها حقيقته
 وعلو شأنه وإيهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى
 التصريح به وقيل المعنى كل أمر من أمرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر
 أى سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا وشقاوة أو سعادة
 فى الآخرة وقرىء بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان أى ذو
 استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار وبالسكسر والجر على
 أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة أى اقتربت الساعة وكل أمر مستقر ،
 (ولقد جاءهم) أى فى القرآن وقوله تعالى (من الأنباء) أى أنباء القرون
 الحالية أو أنباء الآخرة متعلق بمحذوف هو حال مما بعده أى وبالله لقد جاءهم
 . كأننا من الأنباء (ما فيه مزدجر) أى ازدجار من تعذيب أو وعيد أو موضع
 ازدجار على أن فى تجريدية والمعنى أنه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال
 تقلب دالاً مع الدال والذال والزاي للتناسب وقرىء مزجر بقلبها زاء وإدغامها
 (بحكمة بالغة) غايتها لا خلل فيها وهى بدل من ما أو خبر لمحذوف وقرىء
 بالنصب حالاً منها فإنها موصولة أو موصوفة تخصصت بصفتها فساغ نصب
 المحال عنها (فما تنفى النذر) نفي للإغناء أو إنكار له والفاء لترتيب عدم
 الإغناء على نفي الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة

على تجديد عدم الإغناء واستمراره حسب تجديد مجيء الزواجر واستمراره وما على الوجه الثاني منصوبة أى فأى إغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار .

من أهوال البعث ونظائره فى الدنيا

(فتول عنهم) لعلك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم البتة (يوم يدع الداع) منصوب بيجرجون أو باذكر والداعى إسرائيل عليه السلام ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر فى قوله تعالى (كن فيكون) وإسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفاً (إلى شئ نكر) أى منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة وقرئ نكر بالتخفيف ونكر بمعنى أنكر (خشعاً أبصارهم) حال من فاعل (يخرجون) والتقديم لأن العامل متصرف أى يخرجون (من الأجداث) أدلة أبصارهم من شدة الهول وقرئ خاشعاً والإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرئ خاشعة على الأصل وقرئ خشع أبصارهم على الابتداء والخبر على أن الجملة حال (كأنهم جراد منتشر) فى السكثرة والتروج والفرق فى الأقطار (مهطعين إلى الداع) مسرعين ماضى أعناقهم إليه أو ناظرين إليه (يقول الكافرون) استئناف وقع جواباً عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال وأهله بسوء الحال كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون (هذا يوم عسر) أى صعب شديد وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع فى تعداد بعض ما ذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثيرها بها تقريراً لنسحوى قوله تعالى (فما تغنى النذر) أى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح وقوله تعالى (فكذبوا عبداً) تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب) الخ ، وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيباً لاثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقبيه قرن آخر مكذب مثله .

وقيل : كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبداً لأنه من جملتهم وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه ﴿ وقالوا مجنون ﴾ أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون ﴿ وازدجر ﴾ عطف على قالوا أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية وقيل هو من جملة ما قالوه أى هو مجنون وقد ازدجرته الجن ونخبطته ﴿ فدعا ربه أنى ﴾ أى بآنى وقرىء بالكسر على إرادة القول ﴿ مغلوب ﴾ أى من جهة قوى مالى قدرة على الاتقام منهم ﴿ فانتصر ﴾ أى فالتقم لى منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم بعد اللتيا والنى فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه ويقول اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ منصب وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها وقرىء ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب ﴿ وجفنا الأرض عيونا ﴾ أى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله وجفنا عيون الأرض فقير قضاء لحق المقام ﴿ فالتقى الماء ﴾ أى ماء السماء وماء الأرض والإفراد لتحقيق أن التقاء المائين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرىء المائان لاختلاف النوعين والمساوان بقلب الهمزة واوا ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أى كأننا على حال قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿ وحملناه ﴾ أى نوحاً عليه السلام ﴿ على ذات ألواح ﴾ أى أخشاب عريضة ﴿ ودسر ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهى صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث إنها كالشرح لها تؤدى مؤداها ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ بمرأى منا أى محفوظة بحفظنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لأنه كان نعمة كفرها فإن كل نبي نعمة من الله تعالى على أمته ورحمة وأى نعمة ورحمة وقد جوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل

إلى الضمير واستتاره في الفعل بعد انقلابه مرفوعا وقرىء لمن كفر
أى للكافرين .

(ولقد تركناها) أى السفينة أو الفعلة (آية) يعتبر بها من يقف على
خبرها وقال قتادة أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة وقيل على الجودى دهرها
طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة (فهل من مدكر) أى معتبر بتلك
الآية الحقيقة بالاعتبار وقرىء مذتكر على الأصل ومذكر بقلب التاء ذالا
والإدغام فيها (فكيف كان عذابى ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا
على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف والنذر جمع نذير بمعنى الإنذار (ولقد
يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت في أواخر القصص الأربع تقريرا
لمضمون ما سبق من قوله تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة
بالغة فما تنفى النذر) وتنبئها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية
في الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار أى وبالله لقد سهلنا
القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناء بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا
فيه من الوعيد والوعد (للذكر) أى للتذكر والانتعاظ (فهل من مدكر) إنكار
ونفى للتمط على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب
المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه
وعباراته عما لا يساعده المقام (كذبت عاد) أى هودا عليه السلام ولم
يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارة إلى بيان ما فيه الازدجار
من العذاب وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) لتوجيه قلوب السامعين
نحو الاصفاء إلى ما يلقي إليهم قبل ذكره لا لتحويله وتعظيمه وتعجيبهم من
حالة بعد ياناه كما قبله وما بعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم أو فاسمعوا
كيف كان عذابى وإنذارانى لهم وقوله تعالى (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا)
استئناف بيان ما أجمل أو لا أى أرسلنا عليهم ريحا باردة أو شديدة الصوت
(فى يوم نحس) شؤم (مستمر) أى شؤمه أو مستمر عليهم إلى أن
أهلكهم أو شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشد مرارته وكان يوم الأربعاء

آخر الشهر ﴿ تنزع الناس ﴾ تقلعهم روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعهم موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أى منقلع عن مغارسه قيل شهبوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رؤسهم فنبقى أجسادا وجثثا بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر إلى اللفظ كما أن تأنيثها فى قوله تعالى (أعجاز نخل خاوية) للنظر إلى المعنى وقوله تعالى :

﴿ فكيف كان عذبي ونذري ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وما قيل من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحق بهم فى الآخرة يردده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ الكلام فيه كالذى مر فيما سبق ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أى الإذارات والمواعظ التى سمعوها من صالح أو بالرسول عليهم السلام فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل لانفاقهم على أصول الشرائع ﴿ فقالوا أبشرا منا ﴾ أى كائنا من جنسنا واتصابه بفعل يفسره ما بعده ﴿ واحدا ﴾ أى منفردا لا تبع له أو واحدا من آحادهم لا من أشrafهم وهو صفة أخرى لبشرا وتأخيرها عن الصفة المؤولة للتنبية على أن كلا من الجنسية والوحدة بما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرىء أبشرا منا واحد على الابتداء وقوله تعالى ﴿ تتبعه ﴾ خبره والأول أوجه للاستفهام ﴿ إنا إذا ﴾ أى على تقدير اتباعنا له وهو منفرد ونحن أمة جمعة ﴿ لفى ضلال ﴾ عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ أى جنون فإن ذلك بمعزل من مقتضى العقل وقيل كان يقول لهم إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عى الحق وسعر أى نيران جمع سمير فعكسوا عليه عليه السلام لغاية عتوم فقالوا إن اتبعناك كننا إذن كما تقول ﴿ ألقى الذكر ﴾ أى الكتاب والوحى ﴿ عليه من يذنا ﴾ وفيما من هو أحق منه بذلك ﴿ بل هو كذاب أشمر ﴾ أى ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه وقوله تعالى ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشمر ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدا له ووعيدا لقومه والسين لتقريب

مضمون الجملة وتأكيده والمراد بالغد وقت نزول العذاب أى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على الترفع أصالح هو أم من كذبه وقرىء سيعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ أو على حكاية ما أجابهم به صالح وقرىء الأشر كقوله حذر فى حذر وقرىء الأشر أى الأبلغ فى الشرارة وهو أصل مرفوض كالأخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة ويأباه قوله تعالى :

((إنا مرسلو الناقة)) الخ فإنه استئناف مسوق لبيان مبادئ الموعود حتما أى مخرجوها من الهضبة حسبها سألوا ((فتنة لهم)) أى امتحانا ((فارتقبهم)) أى فانتظروهم وتبصروا يصنعون ((واصطبر)) على أذيتهم ((ونذهم أن الماء قسمة بينهم)) مقسوم لها يوم وطهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء ((كل شرب محتضر)) يحضره صاحبه فى نوبته ((فنادوا صاحبهم)) هو قدار بن سالف أحيمر ثمود ((فتعاطى فعقر)) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فأحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشيء بتكلف ((فكيف كان عذابي ونذر)) الكلام فيه كالذى مر فى صدر قصة عاد ((إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة)) هى صيحة جبريل عليه السلام ((فكانوا)) أى فصاروا ((كهشيم المحتظر)) أى كالشجر اليابس الذى يتخذ من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالخشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته فى الشتاء وقرىء بفتح الظاء أى كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها ((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت قوم لوط)) بالندر إنا أرسلنا عليهم حاصبا ((أى ريحا تحصبهم أى ترميهم بالحصباء)) إلا آل لوط نجيناهم بسحر ((فى سحر)) وهو آخر الليل وقيل هو السدس الأخير منه أى ملتبسين يسحر ((نعمة من عندنا)) أى إناعامنا وهو علة لنجيننا ((كذلك)) أى مثل ذلك الجزاء العجيب ((نجزي من شكر)) نعمتنا بالإيمان والطاعة ((ولقد أنذرهم لوط)) عليه السلام ((بطشتنا)) أى أخذتنا الشديدة بالعذاب ((فتماروا)) فكذبوا ((بالندر)) متشاكين ((ولقد راودوه عن ضيفه)) قصدوا الفجور

هم ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فمسحناها وسويناها كسائر الوجوه روى أنهم لم يدخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون الى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا على أسنة الملائكة أو ظاهر الحال والمراد به الطمس فإنه من جملة ما أنذروه من العذاب ﴿ ولقد صبحهم بكرة ﴾ وقرىء بكرة غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار مخصوص ﴿ عذاب مستقر ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهى إليه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته تعالى تشديدا للعذاب ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ من ما فيه من الكلام .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القصصى لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول مآلاتها من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ^(١) والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك أى وبالله لقد جاءهم الإنذارات وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل فإذا فعلوا حينئذ فقل كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات التسع ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ مقتدر ﴾ لا يعجزه شيء .

﴿ أ كفاركم ﴾ يامعشر العرب ﴿ خير ﴾ قوة وشدة وعدة وعدة أو مكانة ﴿ من أولئكم ﴾ الكفار المعدودين والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الأمور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شر منهم مكانا وأسوأ حالا وقوله تعالى ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ لإضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر أى بل ألكم براءة وأمن من تبعات ما تعملون من الكفر والمعاصي وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ما أنتم عليه وقوله تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾

(١) فى ١١ : إيجابها بالاتعاظ

إضراب من التبكيت المذكور إلى وجه آخر من التبكيت والالتفات للإيذان
 باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم
 لغيرهم أى بل يقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم ورأى أمرنا مجتمع
 لا نرام ولا نضام أو منتصر من الأعداء لا تغلب أو متناصر ينهر بعضنا بعضا
 والإفراد باعتبار لفظ الجميع وقوله تعالى ﴿ سيمزم الجمع ﴾ رد وإبطال لذلك
 والسين للتأكيد أى يهزم جمعهم البتة ﴿ ويولون الدبر ﴾ أى الأدبار وقد قرئ
 كذلك والتوحيد لإرادة الجنس أو لإرادة أن كل واحد منهم يولى دبره وقد
 كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه
 يقول لما نزلت سيمزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدري أى جمع يهزم
 فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول
 سيمزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وقرئ سيمزم ^(١) الجمع أى الله عز
 وعلا ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعدهم
 أصل عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ أى فى أقصى غاية من
 الفظاعة والمرارة والداهية الأمر الفظيع الذى لا يمتدى إلى الخلاص عنه
 وإظهار الساعة فى موقع إضهارها لترية تهويلها .

﴿ إن المجرمين ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فى ضلال وسعر ﴾ أى فى
 هلاك ونيران مسعرة وقيل فى ضلال عن الحق فى الدنيا ونيران فى الآخرة
 وقوله تعالى ﴿ يوم يسحبون ﴾ الخ منصوب إما بما يفهم من قوله تعالى فى ضلال
 أى كائنون فى ضلال وسعر يوم يحجرون ﴿ فى النار على وجوههم ﴾ وإما بقول
 مقدر بعده أى يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أى قاسوا حرها
 وألمها وسقر علم جهنم ولذلك لم يصرّف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته
 والقول المقدر على الوجه الأول حال من ضمير يسحبون ﴿ إنا كل شيء ﴾
 من الأشياء ﴿ خلقناه بقدر ﴾ أى ملتبسا بقدر معين اقتضته الحكمة التى عليها

يدور أمر التكوين أو مقدرا مكتوبا في اللوح قبل وقوعه وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخلقناه خبره ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أى كلمة واحدة سريعة التكوين وهو قوله تعالى كن أو لا فعلة واحدة هو الإيجاد بلا معالجة ﴿ كلمح بالبصر ﴾ فى اليسر والسرعة وقيل معناه قوله تعالى وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم وقيل أتباعكم ﴿ فهل من مدكر ﴾ يتمظ بذلك ﴿ وكل شيء فعلوه ﴾ من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل ﴿ فى الزبر ﴾ أى فى ديوان الحفظه ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من الأعمال ﴿ مستطير ﴾ مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى ﴿ إن المجرمين ﴾ الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين ما لهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقل ﴿ إن المتقين ﴾ [بالإيمان]^(١) أى من الكفر والمعاصى ﴿ فى جنات ﴾ عظيمة الشأن ﴿ ونهر ﴾ أى أنهار كذلك والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرئ نهر جمع نهر كأسد وأسد ﴿ فى مقعد صدق ﴾ فى مكان مرضى وقرئ فى مقاعد صدق ﴿ عند ملك مقتدر ﴾ أى مقرين عند ملك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر فى كل غيب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر .

* * *

(١) سقطت من ط .

﴿سورة الرحمن﴾

مكية ، أو مدنية أو متبعضة وآيات وسبعون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لما عدد في السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نعم الله عز وجل وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لمل الناس على التذكر والامتثال ونعى عليهم لإعراضهم عن ذلك عدد في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية والانفسية والافاقية وأنكر عليهم أثر كل فن منها لإخلاصهم بمواجب شكرها وبدى بتعليم القرآن فليل (الرحمن علم القرآن) لأنه أعظم النعم شأنًا وأرفعها مكانًا كيف لا وهو مدار للسعادة الدنيوية والدنيوية عيار على سائر الكتب السماوية ما من مرصد يرنو إليه أحد اق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للايذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها وقد اقتصر على ذكره تنبيهًا على أصالته وجلالة قدره ثم قيل (خلق الإنسان عليه البيان) تهيئة للعلم وتبيينًا لسكيفية التعليم والمراد بخلق الإنسان إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عما في الضمير وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه بل منه ومن فهم بيان غيره أيضا إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن والجل للثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الأخيرتين عن العاطف لورودها على منهاج التعديد (الشمس والقمر بحسبان) أي يحريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلها بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السلفية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنين والحساب .

(والنجم) أي النبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له (والشجر) أي الذي له ساق (يسجدان) أي يتقادان له تعالى فيما يريد

بهما طبعاً انقياد الساجدين من المسكفين طوعاً والجلتان خبران آخران للرحمن جردتا عن الرابط اللفظي تمويلاً على كمال قوة الارتباط المعنوي إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى ولا إلى كون سجود النجم والشجر لما سواه تعالى كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له وإخلاء الجملة الأولى عن العاطف لما ذكر من قبل وتوسيط العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث أن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل .

(والسما رفعها) أي خلقها مرفوعة محلاً ورتبة حيث جعلها مفشاً أحكامه وقضايه ومنزل أوامره ومحل ملائكته وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى وقرئ بالرفع على الابتداء (ووضع الميزان) أي شرع العدل وأمر به بأن وفر كل مستحق ما استحقه ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم به أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام بالعدل قامت السموات والأرض قيل فعلى هذا الميزان القرآن وهو قول الحسين بن الفضل كما في قوله تعالى (وأزلنا معهم الكتاب والميزان) وقيل هو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما وهو قول الحسن وقتادة والضحاك^(١) فالمدنى خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضايهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم (أن لا تطغوا في الميزان) أي لئلا تطغوا فيه على أن دان، ناصبة ولا نافية ولا معلقة بقروله تعالى ووضع الميزان أو أي لا تطغوا على أنها مفسرة لما في الشرع من معنى القول ولا ناهية أي لا تعتدوا ولا تتجاوزوا الإنصاف وقرئ لا تطغوا على إرادة القول (وأقيموا الوزن بالقسط) قوموا وزنكم بالعدل وقيل أقيموا لسان

(١) وهو كذلك قول الشعبي والثوري . انظر الدر المنثور للسيوطي .

الميزان بالقسط والعدل وقيل الإقامة باليد والقسط. بالقلب ﴿ ولا تحسروا الميزان ﴾ أى لا تنقصوه أمر أولا بالتسوية ثم نهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ثم الحسran الذى هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية به وتأكيذا للأمر باستعماله والحث عليه وقرئ ولا تحسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها يقال خسر الميزان يخسره و بفتح السين أيضا على أن الأصل ولا تحسروا فى الميزان لحذف الجار وأوصل الفعل .

﴿ والأرض وضعها ﴾ أى خفضها مدحوة على الماء ﴿ للأنام ﴾ أى الخلق قيل المراد به كل ذى روح وقيل كل ما على ظهر الأرض من دابة وقيل الثقلان وقوله تعالى ﴿ فيها فاكهة ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ما أفاده الجملة السابقة من كون الأرض موضوعة لمنافع الأنام وتفصيل المنافع العائدة إلى البشر وقيل حال مقدرة من الأرض فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور وفاكهة رفع على الفاعلية أى فيها ضروب كثيرة مما يتفسكه به ﴿ والنخل ذات الأكام ﴾ هى أوعية الثمر جمع كم أو كل ما يسكن أى يغطى من ليف وسعف وكفرى فإنه مما ينتفع به كالمسكوم من ثمره وجماره وجذوعه ﴿ والحب ﴾ هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ ذو العصف ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿ والريحان ﴾ قيل هو الرزق أريد به اللب أى فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب الذى له عصف هو علف الأنعام وريحان هو مطعم الناس وقرئ والحب ذا العصف والريحان أى خلق الحب والريحان أو أخص ويجوز أن يراد وذا الريحان لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والريحان إما فيعلان من روح فقلبت واوه ياء وأدغم ثم خفف أو فعلا قلبت واوه ياء للتخفيف أو للفرق بينه وبين الروحان وهو ما له روح قاله القرطبي ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ الخطاب للنفلين المدلول عليهما بقوله تعالى للأنام وسينطق به قوله تعالى أيها الثقلان والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن

المالكية السككية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد التكبير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بأنه تعالى كفرهم بها إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالة فإن إشراكهم لأهلهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة أى فإذا كان الأمر كما فصل فبأى فرد من أفراد آلاء مالسكم ومريبكم بتلك الآلاء تكذبان مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق .

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بموجب^(١) شكر النعمة المتعلقة بذوات^(٢) كل واحد من الثقلين والصلصال الطين اليابس الذى له صلصلة والفخار الخزف وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصلاً فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدهما وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وخلق الجن ﴾ أى الجن أو أبا الجن ﴿ من مارج ﴾ من لهب صاف ﴿ من نار ﴾ بيان لما رج فإنه فى الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ بما أفاض عليكم فى تضاعيف خلقكم من سوايغ النعم ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ بالرفع على خبرته مبتدأ محذوف أى الذى فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ومن قضيته أن يكون رب ما بينهما من الموجودات قاطبة وقيل على الابتداء والخبر قوله تعالى مرج الخ وقرىء بالجر على أنه بدل من ربكما ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ بما فى ذلك من فوائد

(١) فى ١١ : بموجب

(٢) فى الأصل : بذاتى

لا تحصى من اعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته إلى غير ذلك ﴿ مرج البحرين ﴾ أى أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها والمعنى أرسل البحر المالح والبحر العذب ﴿ يلتقيان ﴾ أى يتجاوران ويتماس سطوحهما لافصل بينهما فى مرأى العين وقيل أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه ﴿ بينهما برزخ ﴾ أى حاجز من قدرة الله عز وجل أو من الأرض ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ وأيس منهما شئ يقبل التكذيب ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ ﴾ الدر ﴿ والمرجان ﴾ الحرز الأحمر المشهور وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صفاره فنسبة خروجهما حينئذ إلى البحرين مع أنهما إنما يخرجان من الملح على ما قالوا لما قيل أنهما لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب أو لأنهما لما التقيا وصارا كالشئ الواحد ساغ أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر مع أنهما لا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وهو الأظهر وقرئ يخرج مبنيا للمفعول من الإخراج ومبنيا للفاعل بنصب اللؤلؤ والمرجان وبنون العظمة ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار ﴾ أى السفن جمع جارية وقرئ برفع الراء وب حذف الياء كقول من قال :

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها ثمان

﴿ المنشآت ﴾ المرفوعات الشرع أو المصنوعات وقرئ بكسر الشين أى الرافعات الشرع أو اللاتى ينشئن الأمواج بحرین ﴿ فى البحر كالأعلام ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه ﴿ كل من عليها ﴾ أى على الأرض من الحيوانات أو المركبات ومن للتغليب أو من الثقلين ﴿ فإن ﴾ هالك لأعماله ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ أى ذاته عز وجل ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾

أى ذو الاستغناء المطبق والفضل التام وقيل الذى عنده الجلال والإكرام
 للمخلصين من عباده وهذه من عظام صفاته تعالى ولقد قال صلى الله عليه وسلم
 أظنوا بي إذا الجلال والإكرام وعنه عليه الصلاة والسلام أنه مر برجل وهو
 يصلى ويقول يا ذا الجلال والإكرام فقال قد استجيب لك وقرىء ذى الجلال
 والإكرام على أنه صفة ربك وأياً ما كان فى وصفه تعالى بذلك بعد ذكر فناء
 الخلق وبقائه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه حسبما ينبىء
 عنه قوله تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن إحيائهم بالحياة الأبدية
 وإثابتهم بالنعيم المقيم أجل النعماء ^(١) وأعظم الآلاء ﴿ يسأله من فى السموات
 والأرض ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه فى ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر
 أحوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال فإنهم كافة من حيث
 حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من السمكالات
 بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة
 الوجود أصلاً فهم فى كل آن مستمرّون على الاستدعاء والسؤال وقد مر فى
 تفسير قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) من سورة إبراهيم عليه السلام
 ﴿ كل يوم ﴾ أى كل وقت من الأوقات .

﴿ هو فى شأن ﴾ من الشؤون التى من جملة ما سألوا فإنه تعالى
 لا يزال ينشئ أشخاصاً ويفنى آخرين ويأتى بأحوال ويذهب بأحوال حسبما
 تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة وفى الحديث من شأنه أن يفرغ ذنبا
 ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين قيل وفيه رد على اليهود حيث يقولون
 إن الله لا يقضى يوم السبت شيئاً ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع مشاهدتكم
 لما ذكر من إحسانه .

﴿ سنفرغ لكم ﴾ أى سنتجرّد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة عند

(١) فى ١١ : أجل النعم .

انتهاء شئون الخلق المشار إليها بقوله تعالى (كل يوم هو في شأن) فلا يبقى حينئذ إلا شأن واحد هو الجزاء فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل وقيل هو مستعار من قول المتهدد^(١) لصاحبه سأفرغ لك أى سأجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه وقرئ سيفرغ مبنيا للفاعل وللفعول وقرئ سنفرغ إليكم أى سنقصد إليكم ﴿ أيها الثقلان ﴾ هما الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزانة آرائهما أو لأنهما مثقلان بالتكليف ﴿ فبأى آلاء ربكما ﴾ التى من جملة التنبية على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدى إلى سوء الحساب ﴿ تكذبان ﴾ بأقوالكما وأعمالكما .

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخطبوا بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لا تقف بما كلفوه ﴿ إن استطعتم ﴾ إن قدرتم على ﴿ أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ أى أن تربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن أقطار سمواتى وأرضى ﴿ فأنفذوا ﴾ منها وخلصوا أنفسهم من عقابى ﴿ لاتنفذون ﴾ لاتقدرون على النفوذ ﴿ إلا بسلاطن ﴾ أى بقوة وقهر وأنتم من ذلك بمعزل بعيد روى أن الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى من التنبية والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة ﴿ يرسل عليكم شواظ ﴾ قيل هو اللهب الخالص وقيل المختلط بالدخان وقيل اللهب الأخضر المنقطع من النار وقيل هو الدخان الخارج من اللهب وقيل هو النار والدخان جميعاً وقرئ شواظ بكسر الشين ﴿ من نار ﴾ متعلق بيرسل أو بمضمهر هو صفة لشواظ أى كائن من نار والنون للتفخيم ﴿ ونحاس ﴾ أى دخان وقيل صفر مذاب يصب على رؤوسهم

وقرىء بكسر الزون وقرىء بالجر عطفًا على نار وقرىء نرسل بنون العظمة
 ونصب شواظًا ونحاسًا وقرىء نحس جمع نحاس مثل لحاف ولحف وقرىء
 ونحس أى نقتل بالعذاب ﴿ فلا تنتهرون ﴾ أى لا تمتنعان ﴿ فبأى آلاء ربكما
 تكذبان ﴾ فإن بيان عاقبة ما هم عليه من الكفر والمعاصي لطف وأى لطف
 ونعمة وأى نعمة ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أى انصدعت ^(١) يوم القيامة ﴿ فكانت
 وردة ﴾ كوردة حمراء وقرىء وردة بالرفع على أن كان تامة أى حصلت السماء
 وردة فيكون من باب التجريد كقول من قال :

ولئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

﴿ كالدهان ﴾ خبر ثان لكانت أو نعت لوردة أو حال من اسم كانت
 أى كدهن الزيت وهو إما جمع دهن أو اسم لما يدهن به كالخزام والأدام
 وقيل هو الأديم الأحمر وجواب إذا محذوف أى يكون من الأحوال والأحوال
 ما لا يحيط به دائرة المقال ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع عظم شأنها
 ﴿ فيومئذ ﴾ أى يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر ﴿ لا يسأل عن ذنبه إنس
 ولا جان ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك أول ما يخرجون من القبور ويحشرون
 إلى الموقف ذودا ذودا على اختلاف مراتبهم وأما قوله تعالى ﴿ فوريك لفسانهم
 أجمعين ﴾ ونحوه ففى موقف المناقشة والحساب وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة
 وإفراده لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل لا يسأل عن ذنبه إنسى ولا جنى
 ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع كثرة منافعها فإن الإخبار بما ذكر عما
 يترجم عن الشر المؤدى إليه وأما ما قيل عما أنعم الله على عباده المؤمنين فى هذا
 اليوم فلا تعلق له بالمقام وقوله تعالى :

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ استئناف يجرى مجرى التعليل لعدم السؤال

قيل يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل بما يعلمون من السكابة والخرن

(فيؤخذ بالنواصي والآقدام) الجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل يقال أخذه إذا كان المأخوذ مقصوداً بالأخذ ومنه قوله تعالى (خذوا حذركم) ونحوه وأخذ به إذا كان المأخوذ شيئاً من ملابسات المقصود بالأخذ ومنه قوله تعالى (لا تأخذ بالحق ولا برأى) وقول المستغيث خذ يدي أخذ الله بيدك أى يجمع بين نواصيهم وأقدامهم فى سلسلة من وراء ظهورهم وقبل تسجدهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصي وتارة تأخذ بالآقدام (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى :

(هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) على إرادة القول أى يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على أن الجملة إما استئناف وقع جواباً عن سؤال ناشئ من حكاية الأخذ بالنواصي والآقدام كأنه قيل فماذا يفعل بهم عند ذلك فقيل يقال إلخ أو حال من أصحاب النواصي والآقدام لأن الألف واللام عوض عن المضاف إليه وما بينهما اعتراض (يطوفون بينها) أى بين النار يحرقون بها (وبين حميم آن) ماء بالغ من الحرارة أقصاها يصب عليهم أو يسقون منه وقيل إذا استغاثوا من النار أغيثوا بالحميم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد أشير إلى سر كون بيان أمثال هذه الأمور من قبيل الآلاء مراراً .

(ولمن خاف مقام ربه) شروع فى تعداد الآلاء الفائضة عليهم فى الآخرة بعد تعداد ما وصل إليهم فى الدنيا من الآلاء الدينية والدنيوية وأعلم أن ما عدد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة من فنون الكرامات كما أن أنفسها آلاء جليلة واصله إليهم فى الآخرة كذلك حكاياتها الواصلة إليهم فى الدنيا آلاء عظيمة لا يكونها داعية لهم إلى السعى فى تحصيل ما يؤدى إلى فعلها من الإيمان والطاعة وأن ما فصل من فاتحة السورة الكريمة إلى قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) من النعم الدينية والدنيوية والآنفسية والآفاقية آلاء جليلة واصله إليهم فى الدنيا وكذلك حكاياتها من حيث إيجابها للشكر والمثابة على ما يؤدى إلى استدامتها وأما ما عدد فيما بين قوله تعالى سنفرغ لكم وبين هذه الآية من الأحوال الهائلة التى ستقع فى الآخرة فليست هى من قبيل الآلاء وإنما الآلاء

حكاياتها الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها من الكفر والمعاصي كما أشير إليه في تضاعيف تعدادها ومقامه تعالى موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامه تعالى على أحواله من قام عليه إذا راقبه أو مقام الخائف عنده عند ربه للحساب بأحد المعنيين وإضافته إلى الرب للتفخيم والتهويل أو هو مقحم للتعظيم .

((جنتان)) جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنى فإن الخطاب للفريقين فالعنى لكل خائفين منسجا أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثني بعد ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى :

((ذواتا أفنان)) صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيها على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ والأفنان إما جمع فن أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار أو جمع فنن أى ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها التى تورق وتثمر وتمد الظل ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) وليس فيها شيء يقبل التكذيب .

((فيهما عينان تجريان)) صفة أخرى لجنتان أى فى كل واحدة منهما عين تجري كيف يشاء صاحبها فى الأعلى والأسافل وقيل تجريان من جبل من مسك وعن ابن عباس والحسن تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين قال أبو بكر الوراق فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ^(١) ((فبأى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى ((فيهما من كل فاكهة زوجان)) أى صنفان معروف وغريب أو رطب ويابس صفة أخرى لجنتان وتوسط الاعتراض بين الصفات لما مر آنفا

(١) انظر تفاصيل أكثر فى الدر للنثور.

((فباى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى ((متكئين)) حال من الخائفين لأن من خاف في معنى الجمع أو نصب على المدح ((على فرش بطائنها من إستبرق)) من ديباج ثخين وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظواهرها وقيل ظواهرها من سندس وقيل من نور ((وجنى الجنتين دان)) أى ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع قال ابن عباس رضى الله عنهما تدنو الشجرة حتى يجتنها ولى الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا وقرىء جنى بكسر الجيم ((فباى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى :

((فهن)) أى فى الجنان المدلول عليها بقوله تعالى (جنتان) لما عرفت أنهما لكل خائفين من الثقلين أو لكل خائف حسب تعدد عمله وقد اعتبر الجمعية فى قوله تعالى متكئين وقيل فيما فيهما من الآماكن والقصور وقيل فى هذه الآلاء المحدودة من الجنتين والعيزين والفاكهة والفرش ((قاصرات الطرف)) نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ((لم يطمثن إانس قبلهم ولا جان)) أى لم يمس الإنسيات أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن المدلول عليهم بقاصرات الطرف وقيل بقوله تعالى متكئين وفيه دليل على أن الجن يطمثون وقرىء يطمثن بضم الميم والجملة صفة لقاصرات الطرف لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصصها بالإضافة ((فباى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى :

((كأنهن الياقوت والمرجان)) إما صفة لقاصرات الطرف أو حال منها كالتى قبلها أى مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجنة والمرجان أى صفار الدر فى بياض البشرة وصفائها فان صفار الدر أنصح بياضا من كباره قيل إن الحوراء تلبس سبعين حلة فبرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ((فباى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى ((هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)) استئناف مقرر لمضمون ما فصل قبله أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب ((فباى آلاء ربكما تكذبان)) وقوله تعالى

(ومن دونهما جنتان) مبتدأ وخبر أى ومن دون تينك الجنتين الموعودتين
 للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأى آلاء ربكما
 تكذبان) وقوله تعالى (مدهامتان) صفة لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما
 ذكر من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإينكار
 والتوبيخ أى خضر اوان تضر بان إلى السواد من شدة الخضرة وفيه إشعار بأن
 الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى
 الأوليين الأشجار والفواكه (فبأى آلاى ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان)
 أى فوارتان بالماء والنضج أكثر من النضج بالحاء المهملة وهو الرش (فبأى
 آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان) عطف الأخيران على الفاكهة
 عطف جبريل وميكال على الملائكة بيانا لفضلهما فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء
 والرمان فاكهة ودواء وعن هذا قال أبو حنيفة رحمه الله من حلف لا يأكل
 فاكهة فأكل رمانا أو رطباً لم يحنث^(١) (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى
 (فيهن خيرات) صفة أخرى لجنتان كالجلمة التى قبلها والكلام فى جميع التضمير
 كالذى مر فيما مر وخيرات مخففة من خيرات لأن خيراً الذى بمعنى أخير لا يجمع
 وقد قرئ على الأصل (حسان) أى حسان الخلق والخلق (فبأى آلاء ربكما
 تكذبان) وقوله تعالى :

(حور) بدل من خيرات (مقصورات فى الخيام) قصرن فى خدورهن
 يقال امرأة قصيرة وقصورة أى مخدرة أو مقصورات العارف على أزواجهن
 وقيل إن الحيمة من خيامهن درة بجوفة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله
 تعالى (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) كالذى مر فى نظيره من جميع الوجوه
 (فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين) نصب على الاختصاص (على رفرف
 خضر) الرفرف إما اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة قيل هو ما تدلى

من الأسرة من أعلى الثياب وقيل هو ضرب (١) من البسط. أو البسط. وقيل الوسائد وقيل الفارق وقيل كل ثوب عريض رفرف ويقال لأطراف البسط. وفضول القسطاط رفارف ورفرف السحاب هيدبه ((وعبقري حسان)) العبقري منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب والمراد به الجنس ولذلك وصف بالجمع حملا على المعنى كما في رفرف على أحد الوجهين وقرئ على رفارف خضر بضمين وعبقري كدائفي نسبة إلى عباقر في اسم البلد (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى ((تبارك اسم ربك)) تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر في السورة السكريمة من آلائه الفائضة على الأنام أى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ما صدرت به السورة من اسم الرحمن المنبئ عن إفاضته الآلاء المفصلة وارتفع عما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها وإذا كان حال اسمه بملازمة دلالاته عليه فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى وقيل الاسم بمعنى الصفة وقيل مقحم كما في قول من قال :

✽ إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ✽

((ذى الجلال والإكرام)) وصف به الرب تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقدير وقرئ ذو الجلال على أنه نعمت للاسم . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه .

سورة الواقعة

مكية ، وهي سبع وتسعون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا وقعت الواقعة) أى إذا قامت القيامة وذلك عند النفخة الثانية والتعبير عنها بالواقعة للإيدان بتحقيق وقوعها لا محالة كأنها واقعة في نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع في حيز الشرط كأنه قيل كانت الكائنة وحدثت الحادثة وانتصاب إذا بمضمر ينبىء عن الهول والفضاعة كأنه قيل إذا وقعت الواقعة يكون من الأحوال ما لا ينى به المقال وقيل بالنبي المفهوم من قوله تعالى (ليس لوقتها كاذبة) أى لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى أو تكذب في نفسها كما تكذب اليوم واللام كى في قوله تعالى (يا ليتنى قدمت لحياتى) وهذه الجملة على الوجه الأول اعتراض مقرر لمضمون الشرط على أن الكاذبة مصدر كالعافية أى ليس لأجل وقعها وفي حقها كذب أصلاً بل كل ما ورد في شأنها من الأخبار حق صادق لا ريب فيه وقوله تعالى (خافضة رافعة) خبر مبتدأ محذوف أى هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين وهو تقرير لمعظمها وتهويل لأمرها فإن الوقائع العظام شأنها كذلك أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى الدرجات ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها بنثر السكواكب وإسقاط السماء كسفا وتصيير الجبال في الجو كالسحاب وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل وقرىء خافضة رافعة بالنصب على الحال من الواقعة وقوله تعالى (إذا رجت الأرض رجاً) أى زلزلت زلزلة شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة رافعة أى تنخفض وترفع وقت رج الأرض إذ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض أو بدل من إذا وقعت (وبست الجبال بساً) أى فتنت حتى صارت مثل السوقى الملتوت من بس السوقى إذا لته أو سيقنت

وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها كقوله تعالى وسيرت الجبال وقرى رجت وبست أى ارتجحت وذهبت ﴿ فكانت ﴾ أى فصارت بسبب ذلك ﴿ هباء ﴾ غبارا ﴿ منبثا ﴾ منتشرا ﴿ وكنتم ﴾ إما خطاب للأمة الحاضرة والأمم السالفة تعليلا أو للحاضرة فقط ﴿ أزواجا ﴾ أى أصنافا ﴿ ثلاثة ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو فى الذكر فهو زوج وقوله تعالى :

﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها فقوله تعالى فأصحاب الميمنة مبتدأ وقوله ما أصحاب الميمنة خبره على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان ما بعده خبره والجملة خبر الأول والأصل ما م أى أى شئ هم فى حالهم وصفتهم فإن ما وإن شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم أو طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل فى التفعيم وكذا الكلام فى قوله تعالى (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفضاء كأنه قيل فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال وأصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وتكلموا فى الفريقين ففيل أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية أخذنا من تيمنهم بالميمان وتشاؤمهم بالشمال وقيل الذين يؤتون صحتهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمالهم وقيل الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار وقيل أصحاب اليمين وأصحاب الشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعاتهم والأشقياء مشأيم عليها بمعاصيهم وقوله تعالى ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هو القسم الثالث من الأزواج الثلاثة ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم فى الفضل ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم عن أن يرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه وتكلموا فيهم أيضاً فقيل هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلغم

وتوان وقيل الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات وقيل هم الذين صلوا إلى القبلة كما قال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وقيل هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل المسارعون في الخيرات وأياً ما كان فالجملة مبتدأ وخبر والمعنى والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت محاسنهم كقول أبي النجم :

ه أنا أبو النجم وشعري شعري *

وفيه من تفخيم شأنهم والإيدان بشيوع فضلهم واستغنائهم عن الوصف بالجميل ما لا يخفى وقيل والسابقون إلى طاعة الله تعالى السابقون إلى رحمته أو السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنة وقوله تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى السابقين وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان يبعد منزلتهم في الفضل ومحلل الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿ المقربون ﴾ أى الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم وأعليت مراتبهم ورقبت إلى حظائر القدس نفوسهم الزكية هذا أظهر ما ذكر في إعراب هذه الجملة وأشهره والذي تقتضيه جزالة التنزيل أن قوله تعالى (فأصحاب الميمنة) خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله تعالى (وأصحاب المشأمة) وقوله تعالى (والسابقون) فإن المتروك عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام الثلاثة وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها إليها والتقدير فأصحاب الميمنة والآخر أصحاب المشأمة والثالث السابقون خلا أنه لما أخرج بيان أحوال القسمين الأولين عقب كل منهما جملة معترضة بين القسمين منبهة عن ترائي^(١) أحوالهما في الخير والشر لإنشاء إجمالها مشعر بأن لأحوال كل منهما تفصيلاً مترقباً لكن لا على أن ما الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على ما رآه سيوريه في أمثاله بل على أنها خبر لما بعدها فإن مناط الإفادة بيان أن أصحاب الميمنة أمر بديع كما يفيد كونهما خبراً لا بيان أن أمر أبعدها

(١) في ١١ : تنأى .

أصحاب الميمنة كما يفيد كونهما مبتدأ وكذا الحال في ما أصحاب المشأمة وأما القسم الأخير فحيث قرن بيان محاسن أحواله بذكره لم يحتج فيه إلى تقديم الأنموذج فقوله تعالى السابقون مبتدأ والإظهار في مقام الإضمار للتفخيم وأولئك مبتدأ ثان أو بدل من الأول وما بعده خبر له أول والثاني والجملة خبر للأول وقوله تعالى ﴿ في جنات النعيم ﴾ متعلق بالمقربون أو بمضمر هو حال من ضميره أى كائنين في جنات النعيم وقيل خبر ثان لاسم الإشارة وفيه أن الإخبار بكونهم فيها بعد الإخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية وقرىء في جنة النعيم .

نعيم المتقين

وقوله تعالى ﴿ ثلثة من الأولين ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هم أمة جهة من الأولين وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الأنبياء العظام ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أى من هذه الأمة ولا يخالفه قوله عايه الصلاة والسلام إن أمتى يكثرون سائر الأمم فإن أكثرية سابقى الأمم السالفة من سابقى هذه الأمة لا تمنع أكثرية تابعى هؤلاء من تابعى أولئك ولا يردده قوله تعالى في أصحاب اليمين ﴿ ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين ﴾ لأن كثرة كل من الفريقين في أنفسهما لا تنافى أكثرية أحدهما من الآخر وسيأتى أن الثلثين من هذه الأمة وقد روى مرفوعا أن الأولين والآخرين ههنا أيضا متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم واشتقاق الثلثة من الثل وهو الكسر ﴿ على سرر موضونة ﴾ حال أخرى من المقربين أو من ضميرهم في الحال الأولى وقيل خبر آخر للضمير والموضونة المتسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت أو المتواصلة من الوضن وهو الفسج ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ حالان من الضمير المستكن فيما تعلق به على سرر أى مستقرين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب ﴿ يطوف عليهم ﴾ حال أخرى أو استئناف أى يدور حولهم للخدمة ﴿ ولدان مخلدون ﴾ أى مبقون أبدا على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحولون عنها وقيل

مقرطون والخلد القرط قيل هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها روى ذلك عن علي رضي الله عنه وعن الحسن رحمه الله وفي الحديث أولاد الكفار خدام أهل الجنة ﴿باكواب﴾ بآنية لا عرى لها ولا خراطيم ﴿وأباريق﴾ أى آنية ذات عرى وخراطيم ﴿وكأس من معين﴾ أى خمر جارية من العيون قيل إنما أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأساً إلا إذا كانت مملوءة ﴿لا يصدعون عنها﴾ أى بسببها وحقيقته لا يصدر صداهم عنها وقرىء لا يصدعون أى لا يتصدعون ولا يفرقون كقوله تعالى ﴿يومئذ يصدعون﴾ وقرىء لا يصدعون أى لا يفرق بعضهم بعضاً ﴿ولا ينزفون﴾ أى لا يسكرون من أنزف الشارب إذا نفذ عقله أو شرابه ﴿وفاكهة بما يتخيرون﴾ أى يختارونه ويأخذون خيره وأفضله .

﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أى يتمنون وقرىء ولحوم طير ﴿وحور عين﴾ بالرفع عطف على ولدان أو مبتدأ محذوف الخبر أى وفيها أو لهم حور وقرىء بالجر عطفاً على جنات النعيم كأنه قيل هم فى جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور أو على أكواب لأن معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب ينعمون باكواب وبالنصب أى ويؤتون حورا ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ صفة لحور أو حال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ مفعول له أى يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم أو مصدر مؤكد أى يحزون جزاء ﴿لا يسمعون فيها لغوا﴾ أى باطلا ﴿ولا تأثيا﴾ أى ولا نسبة إلى الإثم أى لا لغو فيها ولا تأثيم ولا سماع كقوله :

* ولا ترى الضب بها ينحجر *

﴿إلا قليلا﴾ أى قولا ﴿سلاما سلاما﴾ بدل من قليلا كقوله تعالى ﴿لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما﴾ أو صفته أو مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما والمعنى أنهم يفتشون السلام فيسلمون سلاما بعد سلام أو لا يسمع كل من المسلم والمسلم عليه إلا سلام الآخر بدءا أو ردا وقرىء سلام سلام على الحكاية وقوله تعالى :

(وأصحاب اليمين) شروع في تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شئونهم الفاضلة إثر تفصيل شئون السابقين وهو مبتدأ وقوله تعالى (ما أصحاب اليمين) جملة استفهامية مسوقة لتفخيمهم والتمجيب من حالهم وقد عرفت كيفية سبكها محلها إما الرفع على أنها خبر للمبتدأ أو معترضة لا محل لها والخبر قوله تعالى (في سدر مخضود) وهو على الأول خبر ثان للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان ما أبهم في قوله تعالى (ما أصحاب اليمين) من علو الشأن أي هم في سدر غير ذى شوك لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق كأنه خضد شوكة أى قطع وقيل مخضود أى مثنى أغصانه لكثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب (وطلع منضود) قد نضد حمله من أسفله الى أعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز أو أم غيلان وله أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة وعن السدى شجر يشبه طلع الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل وعن علي رضي الله عنه أنه قرأ وطلع وما شأن الطلع وقرأ قوله تعالى (لها طلع نصيد) ف قيل أو نحو لها قال آى القرآن لا تهاج ولا تحول^(١) وعن بن عباس نحوه (وظل محدود) ممتد منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (وماء مسكوب) يسكب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب أو مصبوب سائل يجري على الأرض في غير أخدود كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن وحال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي إذنا بالتفاوت^(٢) بين الحالين (وفاكهة كثيرة) بحسب الأنواع والأجناس (لأمقطوعة) في وقت من الأوقات كفوا كه الدنيا (ولا ممنوعة) عن متاوليها بوجه من الوجوه لا يحظر عليها كما يحظر على بساين الدنيا وقرى فاكهة كثيرة بالرفع على وهناك فاكهة الخ كقوله تعالى وحوور عين (وفرش مرفوعة) أى رفعة القدر أو منضدة مرتفعة أو مرفوعة على الأسرة وقيل الفرش النساء حيث

(١) أى لا نحمل ألفاظها غير معانيها .

(٢) في ١١ بياناً للتفاوت .

يكفى بالفرش عن المرأة وارتفاعها كونهن على الأرائك قال تعالى (هم وأزواجهن في ظلال على الأرائك متكئون) ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء﴾ وعلى التفسير الأول أضمر لهن لدلالة ذكر الفرش التي هي المضاجع عليهن دلالة بينة والمعنى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً أو أبدعناهن من غير ولاد لإبداء أو إعادة وفي الحديث هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شهما رمصا جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء كلما أناهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً وذلك قوله تعالى ﴿فجعلناهن أبكاراً﴾ وقوله تعالى ﴿عرباً﴾ جمع عروب وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعل وقرىء عرباً بسكون الراء ﴿أتراباً﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن واللام في قوله تعالى ﴿لأصحاب اليمين﴾ متعلقة بأنشأنا أو جعلنا أو بأتراباً كقولك هذا ترب لهذا أى مساو له في السن وقيل بمحذوف هو صفة لأبكاراً أى كائنات لأصحاب اليمين أو خبر مبتدا محذوف أى هن لأصحاب اليمين وقيل خبر لقوله تعالى :

﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ وهو بعيد بل هو خبر مبتدا محذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أى هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين وقد مر الكلام فيهما وعن أبى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة من الأولين أى من سابق هذه الأمة وثلة من الآخرين من هذه الأمة في آخر الزمان وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعاً من أمتي .

عقاب الكافرين

﴿وأصحاب الشمال﴾ شروع في تفصيل أحوالهم التي أشير عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن حال أصحاب اليمين والكلام في قوله تعالى ﴿ما أصحاب الشمال﴾ عين ما فصل في نظيره وكذا في قوله تعالى ﴿في سموم وحميم﴾ والسموم حر نار ينفذ في المسام والحميم الماء المتناهي في الحرارة

﴿ وظل من يحموم ﴾ من دخان أسود بهم ﴿ لا بارد ﴾ كسائر الظلال ﴿ ولا كريم ﴾ فيه خير ما في الجملة سمي ذلك ظلاً ثم نفى عنه وصفاء البرد والكرم الذي عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل وقرىء لا بارد ولا كريم بالرفع أى لا هو بارد ولا كريم وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ تعليل لا بتلاشهم بما ذكر من العذاب أى لأنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب^(١) في الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات السكرية منهمكين في الشهوات فلا جرم عذبوا بنقضها ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ أى الذنب العظيم الذى هو الشرك ومنه قولهم بلغ الغلام الحنث أى الحلم وقت المؤاخذة بالذنب ﴿ وكانوا يقولون ﴾ لغاية عتوهم وعنادهم ﴿ أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما ﴾ أى كان بعض أجزاءنا من اللحم والجلد ترابا وبعضها عظاما نخرة وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية وإذا متمحضة للظرفية والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى ﴿ أننا لمبعوثون ﴾ لا نفسه لأن ما بعد أن واللام والهمزة لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث وهو المرجع للإنكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالسلبية وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضاها الصدارة كما في مثل قوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا لإنكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم ترابا وعظاما بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم ومرجعه الى إنكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه وتكرير الهمزة في قوله تعالى :

﴿ أوأبأؤنا الأولون ﴾ لتأكيد النكير والواو للعطف على المستكن في

لمبعوثون وحسن ذلك الفصل بالهمزة يعنون أن بعث آبائهم الأولين أبعد من الوقوع وقرىء أو آباؤنا ﴿قل﴾ ردا لإنكارهم وتحقيقا للحق ﴿إن الأولين والآخرين﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم وفي تقديم الأولين مبالغة في الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعضهم مع مراعاة الترتيب الوجودي ﴿لمجموعون﴾ بعد البعث وقرىء لمجمعون ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم والإضافة بمعنى من كخاتم فضة ﴿ثم إنكم أيها الضالون﴾ عطف على أن الأولين داخل تحت القول وثم للتراخي زمانا أورتبة ﴿المسكذبون﴾ أى بالبعث والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ﴿لا تكون﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدئون الأكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية متعلقة بمضمر هو وصف لشجر أى كائن من زقوم ﴿فالتون منها البطون﴾ أى بطونكم من شدة الجوع ﴿فشاربون عليه﴾ عقيب ذلك بلا ريث ﴿من الحميم﴾ أى الماء الحار في الغاية وتأنيت ضمير الشجر أولا وتذكيره ثانيا باعتبار المعنى واللفظ وقرىء من شجرة فضمير عليه حينئذ لازقوم وقيل للأكل وقوله تعالى ﴿فشاربون شرب الحميم﴾ كالتفسير لما قبله على طريقة قوله تعالى ﴿فسكذبوا عبدا﴾ أى لا يكون شربكم شربا معتادا بل يكون مثل شرب الحميم وهى الإبل التى بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى جمع أهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال على أنه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذى لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار فى أحشائهم ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فإذا ملأوا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة والمرارة سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الحميم وقرىء شرب الحميم بالفتح وهو أيضا مصدر وقرىء بالكسر على أنه اسم المشروب ﴿هذا﴾ الذى ذكر من أنواع العذاب ﴿نزلهم يوم الدين﴾ أى يوم الجزاء فإذا كان ذلك نزلهم وهو ما يمد للنازل بما حضر

فأظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار وأطمأنت بهم الدار في النار وفيه من
 التحكم بهم ما لا يخفى وقرىء نزلهم بسكون الزاى تخفيفا والجملة مسوقة من جهته
 تعالى بطريق الفذالة مقررمة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول
 وقوله تعالى ﴿ نحن خلقناكم فلو لا تصدقون ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى
 الكفرة بطريق الإلزام والتبكيك والفاء لترتيب التحضيض على ما قبلها
 أى فهلا تصدقون بالخلق فإن ما لا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبىء عن خلافه
 ليس من التصديق فى شيء وقيل بالبعث استدلالا عليه بالإشياء فإن من قدر
 عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبرا .

حجة الله على الكفار

﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ أى تقذفون فى الأرحام من النطف وقرىء بفتح
 التاء من مئى النطفة بمعنى أمناها ﴿ أنتم تخلقونه ﴾ أى تقدرونه وتصورونه
 بشرا سويا ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ له من غير دخل شيء فيه وأم قيل منقطعة لأن
 ما بعدها جملة فالمعنى بل نحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير وقيل متصلة
 ومجىء الخالقون بعد نحن بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة ﴿ نحن
 قدرنا بينكم الموت ﴾ أى قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين
 حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة وقرىء قدرنا مخففا ﴿ وما نحن
 بمسوقين ﴾ أى إنا قادرون ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ لا يغلبنا أحد على أن
 نذهبكم ونأتى مكانكم بأشباهم^(١) من الخلق ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾
 من الخلق والأطوار ولا تعهدون بمثلها قال الحسن رحمه الله أى نجعلكم قردة
 وخنازير وقيل المعنى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فمن هذا شأنه
 كيف يصحز عن إعادتكم وقيل المعنى وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير
 وقته وعلى أن نبدل الخ لإما حال من فاعل قدرنا أو علة للتقدير وعلى بمعنى
 اللام وبينهما اعتراض .

(١) فى الأصل شياهم .

(ولقد علمتم النشأة الأولى) هي خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وقيل هي فطرة آدم عليه السلام من التراب (فلو لا تذكرون) فلو لا تذكرون أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى حتما فإنه أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس وقرىء فلو لا تذكرون من الثلاثى وفي الخبر عجا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور .

(أفرأيتم ما تحرثون) أى تبتذرون حبه وتعملون فى أرضه (أنتم تزرعونه) تبتونه وتردونه نباتا يرف (أم نحن الزارعون) أى الملتبثون لا أنتم والكلام فى أم كما مر آنفا (لو نشاء لجمعناهم خطأ) ههنا متكسرا مفتتا بعد ما أنبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله (فظلمتم) بسبب ذلك (تفكحون) تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال أو تتندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه أو على اقترفتهم لأجله من المعاصى فتحدثون فيه والنفسكة التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعبر بالتنقل بالحديث وقرىء تفكحون أن تتندمون وقرىء فظلمتم بالكسر وفظلمتم على الأصل (إنا لمغرمون) أى المزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك وقرىء أننا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدره بقول هو فى حيز النصب على الحالية من فاعل تفكحون أى قائلين أو تقولون إنا لمغرمون (بل نحن محرومون) حرمانا رزقنا أو محارفون محدودون لاحظ لنا ولا بحث لا محدودون .

(أفرأيتم الماء الذى تشربون) عذبا فراتا وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (أنتم أنزلتموه من المزن) أى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون) له بقدرتنا (لو نشاء لجمعناهم أجاجا) ملحا زعاقا لا يمكن شربه وحذف اللام ههنا مع إثباتها فى الشرطية الأولى للتمويل على علم السامع أو الفرق بين المطعوم والمشروب فى الأهمية وصعوبة الفقد والشرطيتان

مستأنفتان مسوقتان لبيان أن عصمته تعالى للزرع والماء عما ينخل بالتمتع بهما
 نعمة أخرى بعد نعمة الإنبات والإزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى ﴿فلولا
 تشكرون﴾ تخصيص على شكر الكل ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾ أي
 تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها﴾ التي منها الزناد
 وهي المرخ والعفار ﴿أم نحن المنشئون﴾ لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها
 بالإشياء المنبئة عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من
 الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التي لا تخلو عن النار حتى قيل في كل شجر
 نار واستمجد المرخ والعفار^(١) كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإشياء في قوله
 تعالى ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر لذلك﴾ وقوله تعالى :

﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ استئناف مبين لمنافعها أي جعلناها تذكرة لغير النار
 جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من
 نار جهنم أو تذكرة وأنموذجاً من نار جهنم لما روى عن النبي عليه الصلاة
 والسلام ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم
 وقيل تبصرة في أمر البعث فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب
 ﴿ومتاعاً﴾ ومنفعة ﴿للمقوين﴾ للذين ينزلون القواء وهي القفر وتخصيصهم
 بذلك لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين
 إلى الاقتداح بالزناد وقد جوز أن يراد بالمقوين الذين خلت بطونهم ومزادهم
 من الطعام وهو بعيد لعدم انحصار ما بهمهم ويسد خللهم فيما لا يؤكل إلا
 بالطبخ وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الآثم هو النفع الآخروي والفاء
 في قوله تعالى ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لترتيب ما بعدها على عدد من بدائع
 صنعه تعالى وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى إما تنزيهاً له تعالى عما يقوله
 الجاحدون بوحدانيته الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها أو تعجباً من أمرهم
 في غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها أو شكراً على تلك

النعم السابقة أى فأحدث التسييح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق الاسم
للشيء ذكر له والعظيم صفة للاسم أو الرب (فلا أقسم) أى فأقسم ولا
مزيدة للتأكيد كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أو فلأنا أقسم لحذف المبتدأ وأشيع
فتحة لام الابتداء ويعضده قراءة من قرأ فلا أقسم أو فلا رد لكلام يخالف
المقسم عليه وأما ما قيل من أن المعنى فلا أقسم إذا لأمر أوضح من أن يحتاج
إلى قسم فىأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به (بمواقع النجوم) أى
بمساقطها وهى مغاربها وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة
على وجود مؤثر دائم لا يتغير أو لأن ذلك وقت قيام المنهجين والمبتهلين إليه
تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم أو بمنازلتها وبجاريها فإن له تعالى فى
ذلك من الدليل على عظم قدرته وكمال حكمته ما لا يحيط به البيان وقيل النجوم
نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها وقوله تعالى (ولأنه لقسم لو تعلمون عظيم)
اعتراض فى اعتراض قصد به المبالغة فى تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده
حيث اعتراض بقوله ولأنه لقسم بين القسم وجوابه الذى هو قوله تعالى :
(لأنه لقرآن كريم) أى كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة فى
صلاح المعاش والمعاد أو حسن مرضى أو كريم عند الله تعالى وبقوله تعالى
لو تعلمون بين الموصوف وصفته وجواب لو أما متروك أريد به نفي علمهم أو
محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملم بموجبه (فى كتاب مكنون)
أى مصون من غير المقرين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم وهو اللوح
(لا يمسه إلا المطهرون) إما صفة أخرى لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة
المزهبون عن الكدورات الجسمانية وأوضار الأوزار أو للقرآن فالمراد بهم
المطهرون من الأحداث فيكون نفياً بمعنى النهى أى لا ينبغى أن يمسه إلا من
كان على طهارة من الناس على طريقة قوله عليه الصلاة والسلام : «المسلم أخو
المسلم لا يظلمه ولا يسلبه»^(١) أى لا ينبغى له أن يظلمه أو يسلبه إلى من يظلمه

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

وقيل لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر وقرىء المتطهرون والمطهرون بالإدغام والمطهرون من أطهره بمعنى طهره والمطهرون أى أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار أو غيره ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ صفة أخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرىء تنزيلا ﴿ أفهكذا الحديث ﴾ الذى ذكرت نعمته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم ﴿ أتم مدهنون ﴾ أى متناولون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أى شكر رزقكم ﴿ أنكم تكذبون ﴾ أى تضعون التكذيب موضع الشكر وقرىء وتجعلون شكركم أنكم تكذبون أى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وقيل الرزق المطار والمعنى وتجعلون شكر ما يرزقكم الله تعالى من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تأسبونه إلى الأنواء والأول هو الأوفق لسباق النظم الكريم وسيافه فإن قوله عز وجل :

﴿ فلولاً إذا بلغت الخلقوم ﴾ إلخ تبسكيت مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم إلى هنا من القوارع الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معاشهم كما ستقف عليه ولولا للتخصيص لإظهار عجزهم وإذا ظرفية أى فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقيل نفس أحدكم الخلقوم وتداعت إلى الخروج ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ تنظرون ﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات ﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ علما وقدره وتصرفا ﴿ منكم ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ﴿ ولاكن لا تبصرون ﴾ لا تدركون ذلك لجهلكم بشئنا وقوله :

﴿ فلولاً إن كنتم غير مدينين ﴾ أى غير مربوبين من دان السلطان رعيته إذا ساسهم واستعبدتهم ناظر إلى قوله تعالى نحن خلقناكم فلولاً تصدقون فإن

التحضيض يستدعى عدم المحضض عليه حتماً وقوله تعالى ﴿ ترجعونها ﴾ أى النفس إلى مقرها هو العامل في إذا والمحضض عليه بلولا الأولى والثانية مكررة للتأكيد وهى مع ما في هذه الأدليل جواب الشرط والمعنى إن كنتم غير مبروين كما ينبى عنه عدم تصديقكم بخلقنا إياكم فهلا ترجعون النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في اعتقادكم فإن عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم وقوله تعالى :

﴿ فإما إن كان من المقربين ﴾ إلخ شروع في بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة أى فإما إن كان الذى بين حاله من السابقين من الأزواج الثلاثة عبر عنهم بأجل أوصافهم ﴿ فروح ﴾ أى فله استراحة وقرى فروح بضم الراء وفسر بالرحمة لأنها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة ﴿ وربحان ﴾ ورزق ﴿ وجنة نعيم ﴾ أى ذات تنعم ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبى عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الآخرين .

وقوله تعالى ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه اللام لا حكاية لإنشاء سلام بعضهم على بعض وإلا لقليل عليك والالتفات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ ذمما لهم بذلك وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب ﴿ فنزل ﴾ أى فله نزل كائن ﴿ من حميم ﴾ يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل فيما قبل ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أى إدخال في النار وقيل إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وقيل ذلك ما يجده في القبر من سموم النار ودخانها ﴿ إن هذا ﴾ أى الذى ذكر في السورة السكرية ﴿ هو حق اليقين ﴾ أى حق الخبر اليقين وقيل الحق الثابت من اليقين والفاء في قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على

ما قبلها فإن حقيقة ما فصل في تضاعيف^(١) السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التي من جملتها الإشراف به والتكذيب بآياته الناطقة بالحق . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا .

سورة الحديد

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها تسع وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله ما في السموات والأرض) التسييح تنزيهه تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجناحه سبحانه من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضاً فإن ما في السموات والأرض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما كما مر في آية الكرسي أريد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسييح غيرهم فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقصان وهو المراد بقوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وهو متعدد بنفسه كما في قوله تعالى وسبحوه واللام إما مزيدة للتأكيد كما في نصحت له وشكرت له أو للتعليل أي فعل التسييح لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه ومجيئه في بعض الفوائض ماضياً وفي البعض مضارعاً للإيدان بتحقيقه في جميع الأوقات وفيه تنبيه على أن حق من شأنه التسييح الاختياري أن يسبحه تعالى في جميع أوقاته كما عليه الملائكة الأعلى حيث يسبحون

الليل والهار لا يفترون ﴿ وهو العزيز ﴾ القادر الغالب الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلّة الحكم وكذا قوله تعالى ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أى التصرف السكلى فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات بما نعله وما لا نعله وقوله تعالى :

﴿ يحيى ويميت ﴾ استئناف مبين لبعض أحكام الملك والتصرف وجعله حالاً من ضمير له ليس كما ينبغي ﴿ وهو على كل شيء ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿ قدير ﴾ مبالغ فى القدرة ﴿ هو الأول ﴾ السابق على سائر الموجودات لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿ والآخر ﴾ الباقى بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقها فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهى فانية ﴿ والظاهر ﴾ وجوداً لكثرة دلالة الواضحة ﴿ والباطن ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتشفين بهما والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متصف باستمرار الوجود فى جميع الأوقات والظهور والخفاء ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخبى ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ يبان لبعض أحكام ملكهما وقد مر تفسيره مراراً ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ مر بيانه فى صورة سبأ ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما داروا وقوله تعالى ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم فتأخيرهم عن الخلق لما أن المراد به ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم لا لما قيل من أنه دليل عليه وقوله تعالى :

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى إليه وحده لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً ترجع

جميع الأمور على البناء للمفعول من رجع رجعا وقرىء على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ مر تفسيره مرارا وقوله تعالى :

﴿ وهو عليهم ﴾ أى مبالغ فى العلم ^(١) ﴿ بذات الصدور ﴾ أى بمكنوناتها اللازمة لها بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان لإحاطته بأعمالهم التى يظهرونها .

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا لما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة عبر عما بأيديهم من الأموال والأرزاق بذلك تحقيقا للحق وترغيبا لهم فى الإنفاق فإن من علم أنها لله عز وجل وإنما هو بمنزلة الوكيل يهرفها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الإنفاق أو جعلكم خلفاء عن قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ حسبما أمروا به ﴿ لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ أجر كبير ﴾ وفيه من المبالغات ما لا يخفى حيث جعل الجملة اسمية وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق وكرر الإسناد ونظم الأجر بالتنكير ووصف بالكبير وقوله عز وجل ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ استئناف مسوق لتوبيخهم على ترك الإيمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم فى ذلك عذر ما فى الجملة على أن لا تؤمنون حال من الضمير فى لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار أى أى شئ حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفى إلى السبب فقط مع تحقق المسبب لا إلى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى (وما لى لا أعبد الذى فطرنى) فإن همزة الاستفهام كما تكون تارة لإنكار الواقع كما فى أضرب أباك وأخرى لإنكار الوقوع كما فى أضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فيما نحن فيه وفى قوله تعالى (ما لكم لا ترجون لله

(١) فى ١١ أى بليغ فى العلم .

وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فإن كلا من عدم الإيمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان إلى السبب أيضا كما في قوله تعالى (وما لي لا أعبد) إلى آخره فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعاً فإن عدم العبادة أمر مفروض حتماً قد أنكر ونفى سببه فانتفى نفسه أيضاً وقوله تعالى :

((والرسول يدعوكم لئوأمّنوا بربكم)) حال من ضمير لا تؤمنون مفيدة لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجب أي وأي عذر في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويذهبكم عليه وقوله تعالى ((وقد أخذ ميثاقكم)) حال من مفعول يدعوكم أي وقد أخذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان من قبل وذلك بنصب الأدلة والتكئين من النظر وقرئ وقد أخذ مبنيًا للمفعول برفع ميثاقكم ((إن كنتم مؤمنين)) لموجب ما فإن هذا موجب لا موجب وراه ((هو الذي ينزل على عبده)) حسبما يعن لكم من المصالح ((آيات بينات)) واضحات ((لينخرجكم)) أي الله تعالى أو العبد بها ((من الظلمات إلى النور)) من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ((وإن الله بكم لرؤوف رحيم)) حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات بعد نصب الحجج العقلية .

دعوة إلى الإنفاق

وقوله تعالى ((وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله)) توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر من الأعذار وحذف المفعول لظهور أنه الذي بين حاله فيما سبق وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ أي وأي شيء لكم في أن لا تنفقوا فيما هو قرينة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة وإنما أتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عينه من المصارف وقوله ((والله ميراث السموات والأرض)) حال من فاعل لا تنفقوا ومفعوله مؤكدة للتوبيخ فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر ومع محقق ما يوجب الإنفاق (١٨ — أبو السعود — خامس)

أشد في القبح وأدخل في الإنكار فإن بيان بقاء جميع ما في السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى من أصحابها أحد أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى في الحقيقة وهم خلفاؤه في التصرف فيها كأنه قيل وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء بل تبقى كلها لله تعالى وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وترتبة المهابة وقوله تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أن لهم أجرا كبيرا على الإطلاق حثا لهم على تحرى الأفضل وعطف القتال على الإنفاق للإيذان بأنه من أهم مراد الإنفاق مع كونه في نفسه من أفضل العبادات وأنه لا يخلو من الإنفاق أصلا وقسيم من أنفق محذوف لظهوره ودلالة ما بعده عليه وقرئ قبل الفتح بخير من والفتح فتح مكة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من أنفق والجمع بالنظر إلى معنى من كما أن أفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقاتهم في الفضل ومحل الرفع على الابتداء أى أولئك المنفوتون بذنوبكم النعتين الجميلين ﴿ أعظم درجة ﴾ وأرفع منزلة ﴿ من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا من الإنفاق والقتال قبل عزة الإسلام وقوة أهله عند كمال الحاجة إلى النصر بالنفوس والمال وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه أفواجا وقلة الحاجة إلى الإنفاق والقتال ﴿ وكلا ﴾ أى وكل واحد من الفريقين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا الأولين فقط وقرئ وكل بالرفع على الابتداء أى وكل وعده الله تعالى ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه ^(١) وقيل نزلت الآية في أبي بكر رضى الله تعالى عنه فإنه أول من آمن وأول من أنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضربا أشرف به على الهلاك وقوله تعالى :

(من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات المنفقين أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات (فيضاعفه له) بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل أقرض الله أحد فيضاعفه له أى فيعطيه أجره أضاعافاً (وله أجر كريم) أى وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف فكيف وقد ضوعف أضاعافاً كثيرة وقرىء بالرفع عطفاً على يقرض أو حملاً على تقدير مبتدأ أى فهو يضاعفه وقرىء بضعفه بالرفع والنصب (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) ظرف لقوله تعالى وله أجر كريم أو لقوله تعالى فيضاعفه أو منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم وقوله تعالى (يسمى نورهم) حال من مفعول ترى قيل نورهم الضياء الذى يرى (بين أيديهم وبأيمنهم) وقيل هو هداهم وبأيمنهم كتبهم أى يسمى لإيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى أيمنهم كتب أعمالهم وقيل هو القرآن وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى كالرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إيمانهم رجله ينطفىء تارة ويلبع أخرى قال الحسن يستضيئون به على الصراط وقال مقاتل يكون لهم دليل إلى الجنة (بشراكم اليوم جنات) مقدر بقول هو حال أو استئناف أى يقال لهم بشراكم أى ما تبشرون به جنات أو بشراكم دخول جنات (نجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك) أى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة (هو الفوز العظيم) الذى لا غاية وراءه وقرىء ذلك الفوز العظيم .

بين المؤمنين والكافرين

(يوم يقول المنافقون والمنافقات) بدل من يوم ترى (ل الذين آمنوا أنظرونا) أى انتظرونا يقولون ذلك لما أن المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة كالبرق .

الحافظ على ركاب توف بهم وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم وقرىء أنظرونا من النظرة وهي الإمهال جعل اتئادهم في المضى إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نقتبس من نوركم﴾ أى نستضيء منه وأصله اتخاذ القبس ﴿قيل﴾ طرداً لهم وتهكماً بهم من جهة المؤمنين أو من جهة الملائكة ﴿ارجعوا وراءكم﴾ أى إلى الموقف ﴿فالتمسوا نورا﴾ فإنه من ثم يقتبس أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مبادئه من الإيمان والأعمال الصالحة أو ارجعوا خائبيين خاسئين فالتمسوا نورا آخر وقد علموا أن لا نور وراءهم وإنما قالوه تخديباً لهم أو أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكماً بهم ﴿فضرب بينهم﴾ بين الفريقين ﴿بسور﴾ أى حائط والبام زائدة ﴿له باب باطنه﴾ أى باطن السور أو الباب وهو الجانب الذى يلي الجنة ﴿فيه الرحمة وظاهره﴾ وهو الطرف الذى يلي النار ﴿من قبله﴾ من جهته ﴿العذاب﴾ وقرىء فضرب على البقاء للفاعل ﴿ينادونهم﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فإذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب فليل ينادونهم ﴿ألم نسكن﴾ فى الدنيا ﴿معكم﴾ يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر ﴿قالوا بلى﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿ولسكنكم فنتنم أنفسكم﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وتربصتم﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وارتبتهم﴾ فى أمر الدين ﴿وغرتمكم الأمانى﴾ الفارغة التى من جملتها الطمع فى انتكاس أمر الإسلام ﴿حتى جاء أمر الله﴾ أى الموت ﴿وغركم بالله﴾ السكريم ﴿الغرور﴾ أى غركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم وقرىء الغرور بالضم ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾ فداء وقرىء تؤخذ بالتاء ﴿ولا من الذين كفروا﴾ أى ظاهراً وباطناً ﴿ماواكم النار﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿هى مولاكم﴾ أى أولى بكم وحقيقته مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما يقال هو مثنة الكرم أى مكان لقول القائل إنه لسكريم أو مكانكم عن قريب من الولى وهو القرب أو ناصركم على طريقة قوله :

* تحية بينهم ضرب وجيع *

أو متوليكم تتولاكم كما توليتهم موجباتها ﴿ وبئس المصير ﴾ أى النار .
تقويم المؤمنين

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ استئناف ناع عليهم
بتأقلهم فى أمور الدين ورخاوة عقدهم فيها واستبطاء لانتدابهم لما نذبوا إليه
بالترييب والترهيب وروى أن المؤمنين كانوا مجذبين بمكة فلما هاجروا أصابوا
الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت وعن ابن مسعود رضى الله عنه
ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين وعن ابن عباس
رضى الله تعالى عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث
عشرة سنة من نزول القرآن (١) أى ألم يحىء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى
وتطمئن به ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال بأوامره والاتباء عما نهوا عنه من
غير توان ولا فتور من أنى الأمر إذا جاء أناه أى وقته وقرىء ألم يئن من آن
يئين بمعنى أنى وقرىء ألما يأن وفيه دلالة على أن المنفى متوقع ﴿ وما نزل من
الحق ﴾ أى القرآن وهو عطف على ذكر الله فإن كان هو المراد به أيضا فالعطف
لتغاير العنوانين فإنه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا فالعطف
كما فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت
عليهم آياته زادتهم إيمانا) ومعنى الخشوع له الانقياد التام لأوامره ونواهيهِ
والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التى من جملتها ما سبق وما لحق من
الإنفاق فى سبيل الله تعالى وقرىء نزل من التنزيل مبينا للفاعل وأنزل ﴿ ولا يكونوا
كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ عطف على تخشع وقرىء بالتاء على الالتفات
للاعتناء بالتحذير وقيل هو نهى عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد أن
وبخوا وذلك أن بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا
بالتوراة والإنجيل خشعوا لله وركت قلوبهم ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أى الأجل
وقرىء الأمد بتشديد الدال أى الوقت الأطول وغلبهم الجفاء وزالت عنهم

(١) انظر الدر المنثور وابن كثير .

الروعة التي كانت تأتيهم من السكتابين ﴿ فقسست قلوبهم ﴾ فهي كاللحجارة أو أشد قسوة ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما فى كتبهم بالسكينة .

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب فى الحشوع والتحذير عن القساوة ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ كى تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ أى المصدقين والمصدقات وقد قرىء كذلك وقرىء بتخفيف الصاد من التصديق أى الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ قيل هو عطف على ما فى المصدقين من معنى الفعل فإنه فى حكم الذين اصدقوا أو صدقوا على القراءتين وعقب بأن فيه فصلا بين أجزاء الصلة بأجنبي وهو المصدقات وأجيب بأن المعنى أن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى من غير فصل وقيل إن المصدقات ليس بعطف على المصدقين بل هو منصوب على الاختصاص كأنه قيل إن المصدقين على العموم تغلبوا وأخص المصدقات من بينهم كما تقول إن الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا لكن لا على أن مدار التخصيص مزيد استحقاقهم لمضاعفة الأجر كما فى المثال المذكور بل زيادة احتياجهم إلى التصديق الداعية إلى الاعتناء بحثن على التصديق لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يامعشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار^(١) وقيل هو صلة لموصول محذوف معطوف على المصدقين كأنه قيل والذين أقرضوا والقرض الحسن عبارة عن التصديق من الطيب عن طيبة النفس وخلوص النية على المستحق للصديقة ﴿ يضاعف لهم ﴾ على البناء للمفعول مسندا إلى ما بهمه من الجار والمجرور وقيل إلى مصدر ما فى حيز الصلة على حذف مضاف أى ثواب التصديق وقرىء على البناء للفاعل أى يضاعف الله تعالى وقرىء يضاعف بتشديد العين وفتحها

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول والأجهورى فى إرشاد الرحمن من طرق .

﴿ولهم أجر كريم﴾ مر ما فيه من الكلام ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ كافة وقد مر بيان كيفية الإيمان بهم في خاتمة سورة البقرة .

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول الذي هو مبتدأ وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه قد مر سره مرارا وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿هم﴾ مبتدأ ثالث خبره ﴿الصديقون والشهداء﴾ وهو مع خبره خبر للثاني وهو مع خبره خبر للأول أو هم ضمير الفصل وما بعده خبر لأولئك والجملة خبر للموصول أى أولئك ﴿عند ربهم﴾ بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله تعالى أو هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخباره تعالى ورسله والقائمون بالشهادة لله تعالى بالوحدانية ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة وقوله تعالى ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ بيان ثمرات ما وصفوا به من نهوت الكمال على أنه جملة من مبتدأ وخبر عملها الرفع على أنه خبر ثان للموصول أو الخبر هو الجار وما بعده مرتفع به على الفاعلية والضمير الأول على الوجه الأول للموصول والآخران للصديقين والشهداء أى لهم مثل أجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذف أداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور وبين تمام ما للفريقين الآخرين بل بين تمام ما للأول من الأصل والأضغاف وبين ما للآخرين من الأصل بدون الأضغاف وأما على الوجه الثاني فرجع الكل واحد والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم وقد قيل والشهداء مبتدأ وعند ربهم خبره وقيل الخبر لهم أجرهم الخ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿أصحاب الجحيم﴾ بحيث لا يفارقونها أبدا .

ترهيد في الدنيا

﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ بعد ما بين حال الفريقين في الآخرة شرح حال الحياة الدنيا التي اطمأن بها الفريق الثاني وأشير إلى أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها وأنها مع ذلك سريعة الزوال وشبكة الاضمحلال حيث قيل ﴿كمثل غيث أعجب الكفار﴾ أي الحراث ﴿نباته﴾ أي النبات الحاصل به ﴿ثم يهيج﴾ أي يحف بعد خضرته ونضارته ﴿فتراه مصفرا﴾ بعد ما رأيته ناضرا موقنا وقرى مصفارا وإنما لم يقل فيصفى لئذنا بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ﴿ثم يكون حطاما﴾ هشيا متكسرا وعمل الكاف قيل النصب على الحالية من الضمير في لعب لأنه في معنى الوصف وقيل الرفع على أنه خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف أي مثل الحياة الدنيا كمثل الخ وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا ترهيدا فيها وتنفيرا عن المكوف عليها أشير إلى نفاة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم وقدم ذكر العذاب فقيل ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الدنيا ﴿ومغفرة﴾ عظيمة ﴿من الله ورضوان﴾ عظيم لا يقادر قدره ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة عن سعيد بن جبیر الدنيا متاع الغرور إن أهلك عن طلب الآخرة فأما إذا دعيتك إلى طلب رضوان الله تعالى فنعم المتاع ونعم الوسيلة ﴿سابقوا﴾ أي سارعوا مسارعة المسابقين لأقراهم في المضمار ﴿إلى مغفرة﴾ عظيمة كأنه ﴿من ربكم﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي كعرضهما جميعا وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها وقيل المراد بالعرض البسطة وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها ﴿ذلك﴾ الذي وعد من المغفرة والجنة

(فضل الله) عطاؤه (يؤتيه) تفضلاً وإحساناً (من يشاء) إيتاءه إياه من غير إيجاب (والله ذو الفضل العظيم) ولذلك يؤتى من يشاء مثل ذلك الفضل الذي لا غاية وراءه .

(ما أصاب من مصيبة في الأرض) كجذب وعاهة في الزرع والثمار (ولا في أنفسكم) كمرض وآفة (إلا في كتاب) أى إلا مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى أو في اللوح (من قبل أن نبرأها) أى نخلق الأنفس أو المصائب أو الأرض (إن ذلك) أى إثباتها في كتاب (على الله يسير) لاستغنائها فيه عن العدة والمدة (لكيلا تأسوا) أى أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا (على ما فاتكم) من نعم الدنيا (ولا تفرحوا بما آتاكم) أى أعطاكم الله تعالى منها فإن من علم أن الكل مقدر يفوت ما قدر فواته ويأتى ما قدر إتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت وقرئ بما آتاكم من الإتيان وفى القراءة الأولى إشعار بأن فوات النعم يلحقها إذا خليت وطباعها وأما حصولها وبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجدنها ويبقيها وقرئ بما أوتيتم والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرح الموجب للبطر والاختيال ولذلك عقب بقوله تعالى (والله لا يحب كل مختال فخور) فإن من فرح بالخطوط الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالة وفى تخصيص التذيل بالنهى عن الفرح المذكور إيدان بأنه أقبح من الأسى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يرضن به غالباً ويأمر غيره به أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) فإن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه مجود فى ذاته لا يضره الإعراض عن شكره بالتقرب إليه بشئ من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وقرئ فإن الله الغنى .

(لقد أرسلنا رسلنا) أى الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم وهو الأظهر (بالبينات) أى الحجج والمعجزات (وأزلنا معهم الكتاب) أى جنس الكتابات الشامل للكل (والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى بالعدل روى

أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال مر قومك
 يزنوا به وقيل أريد به العدل ليقام به السياسة ويدفع به العدوان ﴿ وأزلنا
 الحديد ﴾ قيل نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد
 السندان والكلبتان والميقعة والمطارقة والإبرة وروى معه المر والمسحات وعن
 الحسن وأزلنا الحديد خلقناه كقوله تعالى وأزل لكم من الأنعام وذلك أن
 أوامره تعالى وقضياه وأحكامه تنزل من السماء وقوله تعالى ﴿ فيه بأس شديد ﴾
 لأن آلات الحروب إنما تتخذ منه ﴿ ومنافع للناس ﴾ إذ ما من صنعة إلا
 والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها والجملة حال من الحديد وقوله تعالى ﴿ ويعلم
 الله من ينصره ورسله ﴾ عطف على محذوف يدل عليه ما قبله فإنه حال متضمنة
 للتعليل كأنه قيل ليستعملوه وليعلم الله علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله
 باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة في مجاهدة أعدائه أو متعلق بمحذوف
 مؤخر والواو اعتراضية أى وليعلم الله من ينصره ورسله أزله وقيل عطف على
 قوله تعالى ليقوم الناس بالقسط وقوله تعالى ﴿ بالغيب ﴾ حال من فاعل ينصر
 أو مفعوله أى غائبا عنهم أو غائبين عنه وقوله تعالى ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾
 اعتراض نذيلي جىء به تحقيقا للحق وتنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعميرهم
 للقتال ليس لحاجته فى إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرته بل إنما هو لينتفعوا
 به ويصلوا بامثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو غنى بقدرته وعزته عنهم فى
 كل ما يريد .

﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى لقد
 أرسلنا رسلكم بالحق وتكرير القسم لإظهار مزيد الاعتناء بالأمر أى وبالله لقد
 أرسلناهما ﴿ وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ يأن استنبأناهم وأوحينا
 إليهم الكتب وقيل المراد بالكتاب الخط بالقلم ﴿ فمنهم ﴾ أى من الذرية أو
 من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مهتد ﴾ إلى الحق
 ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن سنن
 المقابلة للبالغة فى الذم والإيذان بغلبة الضلال وكثرتهم ﴿ ثم قفينا على آثارهم

برسلنا) أى ثم أرسلنا بعدهم رسلنا ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ أى أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية فإن الرسل الملقى بهم من الذرية ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ وقرىء بفتح الهمزة فإنه أعجمى لا يلزم فيه مراعاة أبنية العرب ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة﴾ وقرىء رأفة على فعالة ﴿ورحمة﴾ أى وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم ونحوه في شأن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رحماء بينهم ﴿ورهبانية﴾ منصوب إما بفعل مضمّر يفسره الظاهر أى وابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ وإما بالعطف على ما قبلها وابتدعوها صفة لها أى وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم أى وفقناهم للتراحم بينهم ولا يتداع الرهبانية واستحداثها وهى المبالغة فى العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى وقرىء بضم الراء كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان وسبب ابتداعهم لها أن الجبارة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقَاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل فخافوا أن يفتنوا فى دينهم فاختروا الرهبانية فى قال الجبال فارين بدينهم مخلصين أنفسهم للعبادة وقوله تعالى ﴿ما كتبناها عليهم﴾ جملة مستأنفة وقيل صفة أخرى لرهبانية والنفي على الوجه الأول متوجه إلى أصل الفعل وقوله تعالى ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أى ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكمهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله فذمهم حينئذ بقوله تعالى ﴿فأرعوها حق رعايتها﴾ من حيث أن النذر عهد مع الله لا يحل نكثه لا سيما إذا قصد به رضاه تعالى وعلى الوجه الثانى متوجه إلى قيده لا إلى نفسه والاستثناء متصل من أعم العلل أى ما كتبناها عليهم بأن وفقناهم لا بتداعها لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعاها كلهم بل بعضهم ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم﴾ إيماناً صحيحاً وهو الإيمان برسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها فإنها بعد البعثة لغو محض وكفر بحت وأنى لها استتباع الأجر ﴿أجرهم﴾ أى ما يخص بهم من الأجر ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن حد الاتباع وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية [من] ^(١) قبل النسخ والمخلين بها إذ ذلك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم به بما لا يساعده المقام .

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أى بالرسل المتقدمة ﴿اتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وآمنوا برسوله﴾ أى بمحمد عليه الصلاة والسلام وفى إطلاقه إيذان بأنه علم فرد فى الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره ﴿يؤتكم كفلين﴾ نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بالرسول وبمن قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام لكن لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ويجعل لكم نورا تمشون به﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى (يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ﴿ويغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿والله غفور رحيم﴾ أى مبالغ فى المغفرة والرحمة وقوله تعالى ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب﴾ أى ليعلموا ولا مزيدة كما ينبىء عنه قراءة ليعلم وليسى يعلم ولأن يعلم بادغام النون فى الياء وأن فى قوله تعالى ﴿أن لا يقدرّون على شىء من فضل الله﴾ مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف والجملة فى حين النصب على أنها مفعول يعلم أى ليعلموا أنه لا ينالون ^(٢) شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذى هو الإيمان برسوله وقوله تعالى ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ عطف على أن لا يقدرّون وقوله

(١) سقطت من ط .

(٢) فى ١١ : أنهم لا ينالون .

تعالى ﴿يؤتية من يشاء﴾ خبر ثان لأن وقيل هو الخبر والجار حال لازمة وقوله تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغبر أهل الكتاب فالمعنى اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكافرين في قوله تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله وروى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وقرئ ليلا بقلب الهمزة ياء لا فتاحتها بعد كسرة وقرئ بسكون الياء وفتح اللام كاسم المرأة وبكسر اللام مع سكون الياء وقرئ أن لا يقدرُوا هذا وقد قيل لا غير مزيدة وضمير لا يقدرُونَ للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه والمعنى لثلاثا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون به على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين على أن عدم عليهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله تعالى وأن الفضل بيد الله لمخ عطفًا على أن لا يعلم . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله

﴿سورة المجادلة﴾

مدنية ، وقيل العشر الأول مكى والباقي مدنى ، وآياتها ثنتان وعشرون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قد سمع الله﴾ بإظهار الدال وقرىء بإدغامها فى السين ﴿قول التى
تجادلك فى زوجها﴾ أى تراجعك الكلام فى شأنه وفيما صدر عنه فى حقها
من الظهار وقرىء تحاورك أى تسائلك ﴿وتشتكى إلى الله﴾ عطف
على تجادللك أى تتضرع إليه تعالى وقيل حال من فاعله أى تجادللك وهى
متضرعة إليه تعالى وهى خولة بذت ثعلبة بن مالك بن خزامة الخزرجية ظاهر
عنها زوجها أوس بن الصامت أخو عبادة ثم ندم على ما قال فقال لها ما أظنك
إلا قد حرمت على فشق عليها ذلك فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال حرمت عليه فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقا فقال حرمت عليه وفى
رواية ما أراك إلا قد حرمت عليه فى المراءى كلها فقالت أشكو إلى الله فأتى
ووجدى وجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قال عليه
الصلاة والسلام حرمت عليه هتفت وشكت إلى الله تعالى فنزلت^(١) وفى
كلمة قد إشعار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام والمجادلة كانا يتوقعان أن
ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عنها كرها كما يلوح به ما روى أنه عليه
الصلاة والسلام قال لها عند استفتائها ما عندى فى أمرك شىء وأنها كانت ترفع
رأسها إلى السماء وتقول اللهم إنى أشكو إليك فأنزل على لسان نبيك ومعنى
سمعه تعالى لقولها لإجابة دعائها لا مجرد عليه تعالى بذلك كما هو المعنى بقوله تعالى
﴿واقه يسمع تحاوركما﴾ أى يعلم تراجعكما الكلام وصيغة المضارع للدلالة
على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجده فى نظمها فى سلك

(١) أخرجه الواحدى والأجهورى فى أسباب النزول وإرشاد الرحمن .

الخطاب تغليبا تشريف لها من جهتين والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبله فإن إلحافها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام لإياها بجواب منبئ عن التوقف وترقب الوحي وعلمه تعالى بحالها من دواعي الإجابة وقيل هي حال وهو بعيد وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ أَتَاكَ نَفْعٌ مِنْهُ فَأَنْصِتْ لَهُ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق أى مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات ومن قضيته أن يسمع تحاورهما ويرى ما يقارنه من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع وإظهار الاسم الجليل في الموقعين لتزينة المأبة وتعليل الحكم بوصف الألوهية وتأكيده استقلال الجملتين .

حكم الظهار

وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ شروع في بيان شأن الظهار في نفسه حكمه المترتب عليه شرعا بطريق الاستئناف والظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت على كذا ظهر أى مشتق من الظهر وقد مر تفصيله في الأحزاب وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم وفى منكم مزيد توبيخ للعرب وتهجين لعاداتهم فيه فإنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم وقرى يظاهرون من إظهار ويظاهرون ويظهرون وقوله تعالى ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ خبر للموصول أى ما نسأوهم أمهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت وقرى أمهاتهم بالرفع على لغة تميم وبأمهاتهم ﴿ إِنْ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أى ما هن ﴿ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن من المرضعات وأزواج النبي عليه الصلاة والسلام فدخن بذلك في حكم الأمهات وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة ﴿ وَلَهُنَّ لَيَقُولُنَّ ﴾ بقولهم ذلك ﴿ مِنْكُمْ أَمْ نَقُولُنَّ ﴾ على أن مناط التأكيد ليس صدور القول عنهم فإنه أمر محقق بل كونه منكرا أى عند الشرع وعند العقل والطبع أيضا كما يشعر به تنكيره ونظيره قوله تعالى ﴿ لَكُمْ لَيَقُولُنَّ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ وزورا ﴿ أَيْ مَحْرَفًا عَنِ الْحَقِّ ﴾ وإن الله لعفو

غفور) أى مبالغ فى العفو والمغفرة فيغفر لما سلف منه على الإطلاق أو بالمشاب عنه وقوله تعالى ((والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه أمرا منكرا بطريق التشريع الحكيم المنتظم لحكم الحادثة انتظاما أوليا أى والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يعودون لما قالوا أى إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي لا بالتقرير والتكرير كما فى قوله تعالى (أن تعودوا لمثله أبدا) فإن اللام وإلى تتعاقبان كثيرا كما فى قوله تعالى (هدانا لهذا) وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله تعالى (بأن ربك أوحى لها) وقوله تعالى (وأوحى إلى نوح) .

((فتحير رقة) أى فتداركه أو فعلية أو فالواجب إعتاق رقة أى رقة كانت وعند الشافعى رحمه الله تعالى يشترط الإيمان والفناء للسببية ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرار الظهار وقيل ما قالوا عبارة عما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلا للقول منزلة المقول فيه كما ذكر فى قوله تعالى (وزرته ما يقول) أى المقول فيه من المال والولد فالمعنى ثم يريدون العود للاستمتاع فتحير رقة ((من قبل أن يتماسا) أى من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعا ولمسا ونظرا إلى الفرج بشهوة وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر وإن أعتق بعض الرقة ثم مس عليه أن يستأنف عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى ((ذلك)) إشارة إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ خبره ((توعظون به)) أى تزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور فإن الفرائد مزاجر عن تعاطي الجنائيات والمراد بذكره بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقة الذى هو علم فى استتباع الثواب العظيم بل هو ردكم وزجركم عن مباشرة ما يوجب ((واقه بما تعملون)) من الأعمال التى من جملتها التكفير وما يوجب من جنائىة الظهار ((خير)) أى عالم بطواهرها وبواطنها ومجازيكم بها لحفاظوا على حدود ما شرع لكم ولا تخلوا بشيء منها ((فمن لم يجد)) أى الرقة ((فصيام شهرين)) أى فعلية صيام شهرين ((مشتا بعين))

من قبل أن يتماسا ﴿ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ ﴾ (فن لم يستطع) أى الصيام
 لسبب من الأسباب ﴿ فإطعام ستين مسكينا ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بر أو
 صاع من غيره ويجب تقديمه على المسيس لكن لا يستأنف إن مس في خلال
 الإطعام ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من البيان والتعليم للأحكام والنهي عليها
 وما فيه من معنى البعد قد مر سره مرارا ومجمله إما الرفع على الابتداء أو النصب
 بمضمحل مغل بما بعده أى ذلك واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾
 وتعملوا بشرائعه التى شرعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه فى جاهليكم ﴿ وتلك ﴾
 إشارة إلى الأحكام المذكورة وما فيه من معنى البعد لتعظيمها كما مر غير مرة
 ﴿ حدود الله ﴾ التى لا يجوز تعديها ﴿ وللكافرين ﴾ أى الذين لا يعملون بها
 ﴿ عذاب أليم ﴾ عبر عنه بذلك للتغليظ على طريقة قوله تعالى (ومن كفر
 فإن الله غنى عن العالمين) .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ أى يعادونهما ويشاقونهما فإن كلا من
 المتعادين كما أنه يكون فى عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه كذلك يكون
 فى حد غير حد الآخر غير أن^(١) لورود المحادة فى أثناء ذكر حدود الله دون
 المعادة والمشافة من حسن الموقع ما لا غاية ورايه ﴿ كتبوا ﴾ أى أخذوا
 وقيل خذلوا وقيل أذلوا وقيل أهلكوا وقيل لعنوا وقيل غيظوا وهو ما وقع
 يوم الخندق قالوا معنى كتبوا سيكتبون على طريقة قوله تعالى (أتى أمر الله) وقيل
 أصل الكبت السكب ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ من كفار الأمم الماضية
 المعادين للرسول عليهم الصلاة والسلام ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ حال من
 واو كتبوا أى كتبوا لمحادتهم والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد
 الله ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم وقيل آيات تدل على صدق
 الرسول وصحة ما جاء به ﴿ وللكافرين ﴾ أى بتلك الآيات أو بكل ما يجب
 الإيمان به فيدخل فيه تلك الآيات دخولا أوليا ﴿ عذاب مهين ﴾ يذهب

(١) فى ١١ : غير أنه

بعضهم وكبرهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار أو بمهين أو بإضمار اذكر تعظيماً لليوم وتهويلاً له ﴿جَمِيعاً﴾ أى كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حالة واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح بيان صدورها عنهم أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤس الإشهاد تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم وقوله تعالى ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ عما قبله من السؤال إما عن كيفية التنبئة أو عن سببها كأنه قيل كيف ينبئهم بأعمالهم وهى أعراض متقضية^(١) متلاشية فقليل أحصاه الله عدداً لم يفقه منه شيء فقوله تعالى : ﴿وَنَسُوهُ﴾ حيثئذ حال من مفعول أحصى بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أو قبل لم ينبئهم بذلك فقليل أحصاه الله ونسوه فينبئهم به ليعرفوا أن ما عاينوه من العذاب إنما حاق بهم لأجله فيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور قط. والجملة اعتراض تذييل مقرر لإحصائه تعالى وقوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وفي قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أى ألم تعلم علماً يقينياً متاخماً للمشاهدة بأنه تعالى يعلم ما فيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما وقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الخ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه تعالى ومبين لكيفيته ويكون من كان التامة وقرىء تكون بالتاء اعتباراً لتأنيث النجوى وإن كان غير حقيقى أى ما يقع من تناجى ثلاثة نفر أى من مسارتهم على أن نجوى مضافة إلى ثلاثة أو على أنها موصوفة بها إما بتقدير مضاف أى من أهل نجوى ثلاثة أو يجعلهم نجوى فى أنفسهم مبالغة ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أى الله عز وجل ﴿رَابِعُهُمْ﴾ أى جاعلهم أربعة من حيث أنه

(١) فى ط : منقضية وما أثبتناه أوضح

أنه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿ولا خمسة﴾ ولا نجوى خمسة ﴿إلا هو سادسهم﴾ وتخصيص العديدين بالذكر إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجى المنافقين وإما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم بعد ذلك ف قيل ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ أى بما ذكر كالواحد والاثنين ﴿ولا أكثر﴾ كالسنة وما فوقها ﴿إلا هو معهم﴾ يعلم ما يجرى بينهم وقرىء ولا أكثر بالرفع عطفاً على محل من نجوى أو محل ولا أدنى بأن جعل لا لتنفى الجففس ﴿أيما كانوا﴾ من الأما كن ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكانى حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قربا وبعداً ﴿ثم ينبئهم﴾ وقرىء ينبئهم بالتخفيف ﴿بما عملوا يوم القيامة﴾ تفضيحاً لهم وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿إن الله بكل شئ عليم﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل سواء .

﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾ نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والهمزة للتعجب من حالهم وصيغة المضارع للدلالة على تكرار عودهم وتجده واستحضار صورته العجيبة وقوله تعالى ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ عطف عليه داخل في حكمه أى بما هو لإثم في نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول عليه الصلاة والسلام وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه عليه الصلاة والسلام لزيادة تشديدهم واستعظام معصيتهم وقرىء ويتناجون بالإثم والعدوان بكسر العين ومعصيات الرسول ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحبك به الله﴾ فيقولون السام عليكم أو أنعم صباحاً والله سبحانه يقول (وسلام على المرسلين) ﴿ويقولون في أنفسهم﴾ أى فيما بينهم ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ أى هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً ﴿حسبهم جهنم﴾ عذاباً ﴿يصلونها﴾ يدخلونها ﴿فبئس المصير﴾ أى جهنم ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتكم﴾ فى أنديةكم

وفي خلواتكم ﴿ فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ كما يفعله المنافقون.
 وقرىء فلا تتنجسوا وفلا تتناجوا بمحذوف إحدى التاءين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾.
 أى بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام.
 ﴿ واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ وحده لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً
 فيجازيكم بكل ما تأتون وتذرون ﴿ إنما النجوى ﴾ المعهودة التى هى التناجى.
 بالإثم والعدوان ﴿ من الشيطان ﴾ لا من غيره فإنه المزين لها والحامل عليها
 وقوله تعالى ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ خبر آخر أى إنما هى ليحزن المؤمنين.
 بتوهمهم أنها فى نكبة أصابتهم ﴿ وليس بضارهم ﴾ أى الشيطان أو التناجى
 بضار المؤمنين ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أى
 بمشيئته ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ولا يبالوا بنجواهم فإنه تعالى يعصمهم
 من شره وضره .

من آداب الإسلام

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا ﴾ أى توسعوا وليفسح بعضهم
 عن بعض ولا يتضاموا من قولهم أفسح عني أى تنح وقرىء تفاسحوا وقوله
 تعالى ﴿ فى المجالس ﴾ متعلق بقيل وقرىء فى المجلس على أن المراد به الجنس.
 وقيل مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا يتضامون تنافساً فى القرب
 منه عليه الصلاة والسلام حرصاً على استماع كلامه وقيل هو المجلس من مجالس
 القتال وهى مراكز الغزاة كقوله تعالى مقاعد للقتال قيل كان الرجل يأتى الصف
 ويقول تفسحوا فبأبواب لحرصهم على الشهادة وقرىء فى المجلس بفتح اللام فهو
 متعلق بتفسحوا قطعاً أى توسعوا فى جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿ فافسحوا ﴾
 يفسح الله لكم ﴿ أى فى كل ما تريدون التفسح فيه من المسكان والرزق والصدر
 والقبر وغيرها ﴾ وإذا قيل انشزوا ﴿ أى انفضوا للتوسعة على المقبلين أو لما
 أمرتم به من صلاة أو جهاد أو غيرهما من أعمال الخير ﴾ فانشزوا ﴿ فانهضوا ﴾
 ولا تثبطوا ولا تفرطوا وقرىء بكسر الشين ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾
 بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا والإيواء إلى غرف الجنان فى الآخرة ﴿ والذين ﴾

أوتوا العلم) منهم خصوصا (درجات) عالية بما جمعوا من أثرى العلم والعمل فإن العلم مع علو رتبته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة لا يدرك شأوه العمل العارى عنه وإن كان فى غاية الصلاح ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره وفى الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١) «واقفه بما تعملون خبير» تهديد لمن لم يمثل بالآمر وقرىء يعملون بالياء التحثانية .

(يا أيها الذين آمنوا إذا فاجتنب الرسول) فى بعض شؤونكم المهمة الداعية إلى مناجاته عليه الصلاة والسلام (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) أى قصدوا قبلها مستهارة من له يدان وفى هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وإنفاع الفقراء والزجر عن الإفراط فى السؤال والقيز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا واختلف فى أنه للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى أأشفقتم وهو وإن كان متصلا به تلاوة لكنه مترخا عنه نزولا وعن على رضى الله عنه أن فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيرى كلن لى دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته عليه الصلاة والسلام تصدقت بدرهم وهو على القول بالوجوب محمول على أنه لم يتفق للأغنياء مناجاة فى مدة بقائه إذ روى أنه لم يبق إلا عشرة وقيل إلا ساعة (ذلك) أى التصدق (خير لكم وأطهر) أى لأنفسكم من الرية وحب المال وهذا يشعر بالندب لكن قوله تعالى (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) منبئ عن الوجوب لأنه ترخيص لمن لم يجد فى المناجاة بلا تصدق (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) أى أخفتم الفقر من تقديم الصدقات أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع صدقات لجمع المخاطبين (فإذا لم تفعلوا) ما أمرتم به وشق عليكم ذلك (وتاب الله عليكم) بأن رخص لكم أن لا تفعلوه وفيه إشعار بأن لإشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم من الانفعال ما قام مقام توبتهم وإذا على بابها من المضى وقيل بمعنى إذا كما فى قوله تعالى (إذ الأغلال فى أعناقهم) وقيل

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة .

بمعنى إن ﴿ فأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾ أى فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فى سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر لما وقع فى ذلك من التفريط ﴿ والله خير بما تعملون ﴾ ظاهره وباطنه ﴿ ألم تر ﴾ تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين أى ألم تنظر ﴿ إلى الذين تولوا ﴾ أى والوا ﴿ قوما غضب الله عليهم ﴾ وهم اليهود كما أنبأ عنه قوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك والجملة مستأنفة أو حال من فاعل تولوا ﴿ ويخلفون على الكذب ﴾ أى يقولون والله إنا مسلمون وهو عطف على تولوا داخل فى حكم التعجيب وصيغة المضارع للدلالة على تكرار (١) الحلف وتجده حسب تكرار ما يقتضيه وقوله تعالى ﴿ وهم يعلمون ﴾ حال من فاعل يخلفون مفيدة لسكال شناعة ما فعلوا فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح وفيه دلالة على أن الكذب يعلم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى أنت وأصحابك خلف بالله ما فعل فقال عليه الصلاة والسلام فعلت فأنطلق فجاء بأصحابه فخلفوا بالله ما سبوه فنزلت .

﴿ أعد الله لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ عذابا شديدا ﴾ نوعا من العذاب متناهية ﴿ لأنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ فيما مضى من الزمان المتطاوّل فتمرّوا على سوء العمل وضروا به وأصروا عليه ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرة التى يخلفون بها عند الحاجة وقرىء بكسر الهمزة أى لإيمانهم الذى أظهره لأهل الإسلام ﴿ جنة ﴾ وقاية وسترة دون دمائهم وأموالهم فالإيمان على هذه القراءة عبارة عن التستر بما أظهره بالفعل وأما على القراءة الأولى فهو عبارة عن إعدادهم

لأيمانهم الكاذبة وتهيتنهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا من
 المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقه بوقوع
 الجنایة والخيانة واتخاذ الجنة^(١) لا بد أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضا
 كما يعرب عنه الفاء في قوله تعالى ﴿فصدوا﴾ أى الناس ﴿عن سبيل الله﴾
 في خلال أمنهم بتثبيطهم من لقوا عن الدخول في الإسلام وتضعيف أمر المسلمين
 عندهم ﴿فلهم عذاب مهين﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم وقيل الأول
 عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ﴿لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من
 الله﴾ أى من عذابه تعالى ﴿شيثا﴾ من الإغناء روى أن رجلا منهم قال لننصرن
 يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من
 الصفات القبيحة ﴿أصحاب النار﴾ أى ملازموها ومقارنوها ﴿هم فيها خالدون﴾
 لا يخرجون منها أبدا ﴿يوم يبعثهم الله جميعا﴾ قيل هو ظرف لقوله تعالى
 لهم عذاب مهين ﴿فيحلفون له﴾. أى لله تعالى يومئذ على أنهم مسلمون
 ﴿كما يحلفون لكم﴾ في الدنيا ﴿ويحسبون﴾ في الآخرة ﴿أنهم﴾ بتلك
 الإيمان الفاجرة ﴿على شيء﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه
 في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم^(٢) وأموالهم ويستجرون بها
 فوائد دنيوية ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ البالغون في الكذب إلى غاية لامطمح
 ورامها حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب وزعموا أن إيمانهم
 الفاجرة تروج الكذب لديه كما تروجه عند الغافلين .

﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ أى استولى عليهم من حذت الإبل إذا استوليت
 عليها وجمعتها وهو مما جاء على الأصل كاستصوب واستنوق أى ملكهم
 ﴿فأنساهم ذكر الله﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بالسننهم ﴿أولئك﴾
 الموصوفون بما ذكر من القبايح حزب الشيطان أى جنوده وأتباعه ﴿ألا إن
 حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ أى الموصوفون بالخسران الذى لا غاية ورامه
 حيث فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم وأخذوا بدله العذاب الأليم وفى تصدير

الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق وإظهار المضافين معاً في موقع الإضمار بأحد الوجهين وتوسط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان عبر عنهم بالوصول للتنبيه بما في حيز الصلة على أن موادة من حاد الله ورسوله محادة لهما والإشعار بعلة الحكم ﴿أولئك﴾ بما فعلوا من التولي والموادة ﴿في الأذلين﴾ أى في جملة من هو أذل خلق الله من الأولين والآخرين لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك .

﴿كتب الله﴾ استئناف وارد لتعليل كونهم في الأذلين أى قضى وأثبت في اللوح وحيث جرى ذلك مجرى القسم أجيب بما يجاب به فقيل ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ أى بالحجة والسيف وما يجرى مجراه أو بأحدهما ونظيره قوله تعالى ﴿ولقد سبقت كتبنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقرئ ورسلي بفتح الياء ﴿إن الله قوى﴾ على نصر أنبيائه ﴿عزيز﴾ لا يغلب عليه في مراده .

﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد وتجد إما متعد إلى اثنين فقوله تعالى ﴿يوادون من حاد الله ورسوله﴾ مفعوله الثاني أو إلى واحد فهو حال من مفعوله لتخصصه بالصفة وقيل صفة أخرى له أى قوما جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين موادة أعداء الله ورسوله والمراد بنفى الوجدان نفى الموادة على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جد في طلبه كل أحد ﴿ولو كانوا﴾ أى من حاد الله ورسوله واجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها ﴿آباءهم﴾ آباء المودين ﴿أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ فإن قضية الإيمان بالله تعالى أن يهجر الجميع بالمرة والكلام في لو قد مر على التفصيل مرار ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن

كانوا أقرب الناس إليهم وأمس رحما وما فيه من معنى البعد لرفعة درجاتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ أى أثبت فيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الإيمان فإن جزء الثابت في القلب ثابت فيه قطعا ولا شيء من أعمال الجوارح يثبت فيه ﴿ وأيدم ﴾ أى قواهم ﴿ بروح منه ﴾ أى من عند الله تعالى وهو نور القلب أو القرآن أو النصر على العدو وقيل الضمير للإيمان لحياة القلوب به فن تجريدية وقوله تعالى :

﴿ ويدخلهم ﴾ إلخ بيان لآثار رحمته الأخروية إثر بيان الطافه الدنيوية أى ويدخلهم في الآخرة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أبد الأبدن وقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة وقوله تعالى ﴿ ورضوا عنه ﴾ بيان لا يتهاجم بما أوتوه عاجلا وآجلا وقوله تعالى ﴿ أولئك حزب الله ﴾ تشریف لهم ببيان اختصاصهم به عز وجل وقوله تعالى ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين والفوز بسعادة النشأتين والكلام فى تحلية الجملة بفنون التأكيد كما مر فى مثلها .

عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة .

﴿سورة الحشر﴾

مدينة ، وآياها أربع وعشرون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ مر ما فيه من الكلام في صدر سورة الحديد وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالح بن النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هرون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بنى إسرائيل انتظاراً لبعثته عليه الصلاة والسلام وعاهدوا أن لا يكونوا له ولا عليه فلما ظهر عليه الصلاة والسلام يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعتته في التوراة لا ترد له راية فلما كان يوم أحد ما كان ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فخالفوا قريشاً عند الكعبة على قتاله عليه الصلاة والسلام فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم بالسكتائب فقال لهم أخرجوا من المدينة فاستمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ففدس عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه إليهم لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها فحاصروهم النبي عليه الصلاة والسلام إحدى وعشرين ليلة فلما قذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعاء إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فأنزل الله تعالى (سبح لله ما في السموات) إلى قوله (والله على كل شيء قدير) وقوله تعالى :

طرد اليهود من المدينة

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى وأحكام حكمته لإثروصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إما بناء على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام أو على جملة مستعارا لاسم الإشارة كما في قوله تعالى (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) أى بذلك وعليه قول رؤبة بن العجاج :

• كأنه في الجلد توليع الحق •

كما هو المشهور كأنه قيل ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذي أخرج لإخفيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة وقوله تعالى ﴿ لأول الحشر ﴾ أى فى أول حشرهم إلى الشام وكانوا من سبطلهم يصيبهم جلاء قط. وهم أول من أخرج من جزيرة العرب إلى الشام أو هذا أول حشرهم وآخر حشرهم لإجلاء عمر رضى الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام وقيل آخر حشرهم حشر يوم القيامة لأن المحشر يكون بالشام .

﴿ ما ظننتم ﴾ أيها المسلمون ﴿ أن يخرجوا ﴾ من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم وقوة منعهم ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أى ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله تعالى وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بمحصانة حصونهم واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ويجوز أن يكون مانعتهم خبرا لأن وحصونهم مرتفعا على الفاعلية ﴿ فأتاهم الله ﴾ أى أمر الله تعالى وقدره المقدور لهم ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم وغلب شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة وقيل الضمير فى أتاهم ولم يحتسبوا

للمؤمنين أى فأتاهم نصر الله وقرىء فأتاهم أى فأتاهم الله العذاب أو النصر
 ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أى أثبت فيها الخوف الذى يربعها أى يملؤها
 ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم ﴾ ليسدوا بما نقصوا منها من الخشب والحجارة أفواه
 الأزقة ولثلا يبقى بعد جلاصهم مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها
 المرغوب فيها بما يقبل النقل ﴿ وأيدى المؤمنين ﴾ حيث كانوا يخربونها لإزالة
 لمتحصنهم ومتمنهم وتوسيعا لمجال القتال ونكاية لهم وإسناد هذا إليهم لما
 أنهم السبب فيه فكأنهم كلفوهم إياه وأمرهم به قيل الجملة حال أو تفسير للرعب
 وقرىء يخربون بالتشديد للتكثير وقيل الإخراص التعطيل أو ترك الشيء
 خرابا والتخريب النقض والهدم ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ فاتعظوا بما
 جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا يكاد تهتدى إليه الأفكار واتقوا
 مباشرة ما أدام إليهم من الكفر والمعاصى أو انتقلوا من حال الفريقين إلى حال
 أنفسكم فلا تعملوا على تعاضد الأسباب بل توكلوا على الله عز وجل وقد استدل
 به على حجية القياس كما فصل فى موقعه .

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ أى الخروج عن أوطانهم على ذلك
 الوجه الفظيع ﴿ لعذبهم فى الدنيا ﴾ بالقتل والسبى كما فعل ببني قريظة ﴿ وطهم
 فى الآخرة عذاب النار ﴾ استتاف غير متعلق بجواب لولا جىء به لبيان أنهم
 إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لانهما لهم من عذاب الآخرة ﴿ ذلك ﴾
 أى ما حاق بهم وما سيحيق ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾
 وفعلوا ما فعلوا بما حكى عنهم من القبائح ﴿ ومن يشاق الله ﴾ وقرىء يشاقق
 الله كما فى الأنفال والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها لمشاقته عليه الصلاة
 والسلام وليوافق قوله تعالى ﴿ فإن الله شديد العقاب ﴾ وهو إما نفس الجزء
 قد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزء
 المحذوف أى يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة
 لما قبلها وتقرين لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل ذلك الذى
 حاق بهم من العقاب العاجل والآجل بسبب مشاقته لله تعالى ورسوله وكل من

يشاق الله كأننا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذا ن لهم عقاب شديد ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ أى أى شئ قطعتم من نخلة وهى فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسرة ما قبلها كديمة وتجمع على ألوان وقيل من اللين وتجمع على لين وهى النخلة الكريمة ﴿ أو تركتموها ﴾ الضمير لما وتأنينه لتفسيره باللينة كما فى قوله تعالى ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ قائمة على أصولها ﴿ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشئ ما وقرىء على أصلها إما على الاكتفاء من الواو بالضم أو على أنه جمع كرهن وقرىء قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما ﴿ فيأذن الله ﴾ فذاك أى قطعها وتركها بأمر الله تعالى ﴿ وليخزى الفاسقين ﴾ أى وليذل اليهود ويغيظهم إذن فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف أحبوا وبتصرفون فيها حسبما شاؤوا من القطع والترك يزدادون غيظا ويتضاعفون حسرة واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم وتخصيص اللينة بالقطع إن كانت من الألوان لاستبقاء العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل وإن كانت هى الكرام لىكون غيظهم أشد وقوله تعالى :

﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ شروع فى بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخلهم من التخريب والقطع أى ما أعاده إليه من ما لهم وفيه إشعار بأنه كان حقيقا بأن يكون له عليه الصلاة والسلام وإنما وقع فى أيديهم بغير حق فرجعه الله تعالى إلى مستحقه لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿ منهم ﴾ أى من بنى النضير ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ أى فما أجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف وهو سرعة السير ﴿ من خيل ولا ركاب ﴾ هى ما يركب من الإبل خاصة كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارسا ولا واحد لها من لفظها وإنما الواحدة منها راحلة والمعنى ما قطعتم لها شقة بعيدة ولا لقيتم مشقة شديدة ولا قتالا شديدا وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشيا

وما كان فيهم رாகب إلا النبي عليه الصلاة والسلام فافتتحها صلحا من غير أن يجرى بينهم مسابقة كأنه قيل وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصلتموه بكبد اليمين وعرق الجبين ﴿ولكن الله يسلم رسوله على من يشاء﴾ أى سنته تعالى جارية على أن يسلمهم على من يشاء من أعدائهم تسليطا خاصا وقد سلط النبي عليه الصلاة والسلام على هؤلاء تسليطا غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم في أموالهم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها وقوله تعالى .

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ بيان لمصارف النية بعد بيان إفاءه عليه عليه الصلاة والسلام من غير أن يكون للمقاتلة فيه حق وإعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير ووضع أهل القرى موضع ضميرهم للإشعار بشمول ما لعقاراتهم أيضا ﴿فاته وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ اختلف في قسمة النية فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة وسائر المساجد وقيل يخمس لأن ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والتغور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول وقيل بخمس خمسة كالغنيمة^(١) فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور ﴿كيلا يكون﴾ أى النية الذى حقه أن يكون للفقراء يعيشون به ﴿دولة﴾ بضم الدال وقرىء بفتحها وهى ما يدول للإنسان أى يدور من الغنى والجدة والغلبة وقيل الدولة بالفتح من الملك بالضم وبالضم من الملك بكسرها أو بالضم فى المال وبالفتح فى النصرة أى كيلا يكون جدا .

﴿بين الأغنياء منكم﴾ يتكاثرون به أو كيلا يكون دولة جاهلية بينكم

(١) انظر باب الخمس من الحراج ليعى بن آدم .

فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عز بن وقيل الدولة بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف فالمعنى كيلا يكون النية شيئاً يتداوله الأغنياء ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والدولة بالفتح بمعنى التداول فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم أو كيلا يكون إمساك تداول بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء وقرىء دولة بالرفع على أن كان تامة أى كيلا يقع دولة على ما فصل من المعاني ﴿وما آتاكم الرسول﴾ أى ما أعطاكموه من النية أو من الأمر ﴿تخذوه﴾ فإنه حقكم أو فتمسكوا به فإنه واجب عليكم ﴿وما نهاكم عنه﴾ عن أخذه أو عن تعاطيه ﴿فانتهاوا﴾ عنه ﴿واتقوا الله﴾ في مخالفته عليه الصلاة والسلام ﴿إن الله شديد العقاب﴾ فيعاقب من يخالف أمره ونهيه .

﴿للفقراء المهاجرين﴾ بدل من لذى القربى وما عطف عليه فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يسمى فقيراً ومن أعطى أغنياء ذوى القربى خص الأبدال بما بعده وأما تخصيص اعتبار الفقر بنية بنى النصير فتعسف ظاهر ﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ حيث اضطروهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ من الديار والأموال وقيد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكدده ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ عطف على يبتغون فهي حال مقدرة أى ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين^(١) لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة وأى نصرة ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما فصل من الصفات الحميدة ﴿هم الصادقون﴾ الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان﴾ كلام مستأنف مسوق لملاح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص النية بهم أحسن رضا وإكمله ومعنى تبوؤهم الدار أنهم اتخذوا المدينة والإيمان

مباة وتمكنوا فيها أشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان وقيل ضمن
التبوء معنى اللزوم وقيل تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقول من قال :
* علفتها تبنا وماء باردا *

وقيل المعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان لحذف المضاف من الثاني
والمضاف إليه من الأول وعوض منه اللام وقيل سمي المدينة بالإيمان لسكونها
مظهره ومنشأه (من قبلهم) أى من قبل هجرة المهاجرين على المعاني الأول
ومن قبل تبوء المهاجرين على الآخرين ويحوز أن يجعل اتخاذ الإيمان مباة
ولزومه وإخلاصه على المعاني الأول عبارة عن إقامة كافة حقوقه التي من جملتها
إظهار عامة شعائره وأحكامه ولا ريب في تقدم الأنصار في ذلك على المهاجرين
لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلبا واعتقادا إذ لا يتصور
تقدمهم عليهم في ذلك .

(يحبون من هاجر إليهم) خبر للموصول أى يحبونهم من حيث مهاجرتهم
إليهم لمحبتهم الإيمان (ولا يجدون في صدورهم) أى في نفوسهم (حاجة)
أى شيئا محتاجا إليه يقال خذ منه حاجتك أى ما تحتاج إليه وقيل إثر حاجة
كالطلب والحزاة والحسد والغيط. (مما أوتوا) أى مما أوتى المهاجرون من
الغنى وغيره (ويؤثرون) أى يقدمون المهاجرين (على أنفسهم) فى كل
شيء من أسباب المعاش حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداها
ويزوجها واحدا منهم (ولو كان بهم خصاصة) أى حاجة وخلة وأصلها
خصاص البيت وهى فرجه والجملة فى حيز الحال وقد عرفت وجهه مرارا
وكان النبی عليه الصلاة والسلام قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط
الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجاجة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف
والحرث بن الصمة وقال لهم إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم
وشاركتموهم فى هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم
لكم شيء من الغنيمة فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم

بالغنيمة ولا نشاركم فيها فنزلات^(١) وهذا صريح في أن قوله تعالى والذين تبوءوا الخ مستانف غير معطوف على الفقراء أو المهاجرين نعم يجوز عطفه على أولئك فإن ذلك إنما يستدعى شركة الأنصار للمهاجرين في الصدق دون الغنى فيكون قوله تعالى يحبون وما عطف عليه استثناء مقرر لصدقتهم أوحالا من ضمير تبوءوا ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ الشح بالضم والكسر وقد قرئ به أيضاً اللؤم وإضافته الى النفس لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذى هو البخل أى ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحها حتى يحالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من باعتبار معناها العام المنتظم للذكورين انتظاماً أولياً ﴿ هم المفاحون ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه والجملة اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم وقرئ يوق بالتشديد .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين وأيا ما كان فالوصول مبتدأ خبره ﴿ يقولون ﴾ الخ والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين والسبق بالإيمان كما أن ما عطف عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار أى يدعون لهم ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ أى فى الدين الذى هو أعز وأشرف عندهم من النسب ﴿ الذين سبقونا بالإيمان ﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضائلهم ﴿ ولا نجعل فى قلوبنا غلا ﴾ وقرئ غمرا وهما الحقد ﴿ للذين آمنوا ﴾ على الإطلاق ﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ أى مبالغ فى الرأفة^(٢) والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا ﴿ ألم تر

(١) انظر الواحدى فى أسباب النزول والأجهورى فى إرشاد الرحمن أخرجاه من

طرق .

(٢) فى ١١ : أى ببلغ فى الرأفة .

إلى الذين نافقوا ﴿ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من له حظ من الخطاب وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ الخ استئناف لبيان المتعجب منه وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم أو لاستحضار صورته واللام في قوله تعالى ﴿ لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ للتبليغ والمراد بأخوتهم إما توافقهم في الكفر أو صداقتهم وموالاتهم واللام في قوله تعالى :

من خلائق النفاق

﴿ إئن أخرجتم ﴾ أى من دياركم قسراً موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ لنخرجن معكم ﴾ جواب القسم أى والله لئن أخرجتم لنخرجن معكم البتة ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أى فى شأنكم ﴿ أحدا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿ أبدا ﴾ وإن طال الزمان وقيل لا نطيع فى قتالكم أو خذلانكم وليس بذلك لأن تقدير القتال مترقب بعد ولأن وعدمهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ أى لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود بما لا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لو كانت لمكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم ولا ريب فى أن ما فعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدعوا أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة فى الدين ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فى مواعيدهم المؤكدة بالإيمان الفاجرة وقوله تعالى :

﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ الخ تكذيب لهم فى كل واحد من

أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن أبي وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير ذلك سرا ثم أخلفوهم وفيه حجة بينة لصحة ^(١) النبوة وإعجاز القرآن .

﴿ ولئن نصروهم ﴾ على القرض والتقدير ﴿ ليولن الأدبار ﴾ فرارا ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أى المنافقون بعد ذلك أى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو ليهزم من اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿ لأنتم أشد رهبة ﴾ أى أشد رهوبة على أنها مصدر من المبني للمفعول ﴿ في صدورهم من الله ﴾ أى رهبتهم منكم في السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله فإنهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ أى شيئا حتى يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أى اليهود والمنافقون بمعنى لا يقدرّون على قتالكم ﴿ جميعاً ﴾ أى مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ بالدروب والختادق ﴿ أو من وراء جدر ﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوك لفرط رهبتهم وقرى جدر بالتخفيف وقرى جدار وبإمالة فتحة الدال وجدر وجدر وهما الجدار ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ استئناف سيق ليبان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى قلوبهم من الرعب ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ مجتمعين متفقين ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ متفرقة لا ألفة بينها ﴿ ذلك بأنهم ﴾ أى ما ذكر من تشقت قلوبهم بسبب أنهم ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ أى لا يعقلون شيئا حتى يعرفوا الحق ويتبعوه وتطامن به قلوبهم وتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة فيقعون في تيه الضلال وتشقت قلوبهم حسب تشقت طرقة وتفرق فنونه وأما ما قيل من

أن المعنى لا يعقلون أن تشتت القلوب بما يوهن قواهم فبمعزل من السداد وقوله تعالى:

((كمثل الذين من قبلهم)) خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أى مثل المذكورين من اليهود والمنافقين كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع على ما قيل [من] ^(١) أنهم أخرجوا قبل بنى النضير ((قريبا)) فى زمان قريب واتصابه بمثل إذ التقدير كوقوع مثل إلخ ((ذاقوا وبال أمرهم)) أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا ((ولهم)) فى الآخرة ((عذاب ألیم)) لا يقادر قدره والمعنى أن حال هؤلاء كحال أولئك فى الدنيا والآخرة لكن لا على أن حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك وأما حال المنافقين فهى ما نطق به قوله تعالى ((كمثل الشيطان)) فإنه خبر ثان للمبتدأ المقدر مبين لحالهم متضمن لحال أخرى لليهود وهى اغترارهم بمقالة المنافقين أولا وخيبتهم آخرأ وقد أجهل فى النظم الكريم حيث أسند كل من الخبيرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلا من المثليين إلى ما يماثله كأنه قيل مثل اليهود فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم إلخ ومثل المنافقين فى إغرائهم لإياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان ((إذ قال للإنسان أكفر)) أى أغراء على الكفر إغراء الأمر بالمأمور على المأمور به ((فلما كفر قال إني برىء منك)) وقرىء أنا برىء منك إن أريد. بالإنسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة كما ينبىء عنه قوله تعالى ((إني أخاف الله رب العالمين)) وإن أريد به أبو جهل فقوله تعالى أكفر عبارة عن قول إبليس يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم وتبرؤ قوله يومئذ (إني برىء منكم أنى أرى ما لا ترون إني أخاف الله) الآية ((فسكان عاقبتهما)) بالنصب على أنه خبر كان واسمها ((أنهما فى النار)) وقرىء

بالعكس ونذكر أنه أوضح ﴿ خالدين فيها ﴾ وقرئ خالدان فيها على أنه خبر أن وفي النار لغو ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي الخلود في النار جزاء الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي في كل ما تأتون وما تذررون ﴿ ولتنتظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة [هي] ^(١) غده وتذكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكبر نفس فلا استقلال الأنفس المتواظرفيا قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنتظر نفس واحدة في ذلك .

﴿ واتقوا الله ﴾ تكرير للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي من المعاصي ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي نسوا حقوقه تعالى وما قدره حق قدره ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها ﴿ فأنساهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ أنفسهم ﴾ أي جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوها ما يشفعها ولم يفعلوا ما يخلصها أو أراهم يوم القيامة من الأحوال ما أنساهم أنفسهم ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ السكاملون في الفسوق ﴿ لا يستوى أصحاب النار ﴾ الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود في النار .

﴿ وأصحاب الجنة ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيدان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبي عنه عدم الاستواء من جهنم لا من جهة مقابلتهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيعتين المتفاوتتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب

زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) إلى غير ذلك من المواقع وأما قوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصفة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها ولا دلالة في الآية الكريمة على أن المسلم لا يقتص بالكافر وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر لأن المراد عدم الاستواء في الأحوال الآخروية كما ينه عنه التعبير عن الفريقين بصاحبة النار وصاحبة الجنة وكذا قوله تعالى ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين أي هم الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ العظيم الشأن المنطوى على فنون القوارع ﴿ على جبل ﴾ من الجبال ﴿ لرأيت ﴾ مع كونه علما في القسوة وعدم التأثير مما يصادمه ﴿ خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ أي متشققا منها وقرىء مصدعا بالإدغام وهذا تمثيل وتخيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ كما ينطق به قوله تعالى ﴿ ونلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ وحده ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها وما حضر له من الأجرام وأعراضها وتقديم الغيب على الشهادة لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به أو المعدوم والموجود أو السر والعلائية ﴿ هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ كرر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ الملك القدوس ﴾ البليغ في النزاهة عما يوجب نقصانا ما وقرىء بالفتح وهي لغة فيه ﴿ السلام ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للبالغثة ﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار ﴿ المهيمن ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفيعل من

إلا من بقلب همز ته هاء (العزیز) الغالب (الجبار) الذي جبر خلقه على ما أراد أو جبر أحوالهم أى أصلحها (المتكبر) الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصانا أو البليغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) تنزيه له تعالى عما يشركونه به تعالى (١) أو عن إشراكهم به تعالى لإثر تعداد صفاته التي لا يمكن أن يشاركه تعالى في شيء منها شيء ما أصلا (هو الله الخالق) المقدر للأشياء على مقتضى حكمته (البارئ) الموجد لها بريئا من التفاوت وقيل المميز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة (المصور) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد (له الأسماء الحسنى) لدالاتها على المعاني الحسنة (يسبح له ما في السموات والأرض) ينطق بتزده تعالى عن جميع النقائص تنزها ظاهرا (وهو العزيز الحكيم) الجامع للكمالات كافة فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم ، عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

سورة الممتحنة

مدينة ، وآيها ثلاث عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) نزلت في حاطب ابن أبى بلتعة وذلك أنه لما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح كتب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم نخذوا حذرکم وأرسله مع سارة مولاة بنى المطلب فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وطليحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة نخذوه منها وخلوها فإن أبى فاضربوا عنقه فأدركوها ثم فجحدت فسل على سيفه فأخرجته من عقاصها فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال ما حملك على هذا فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكنى كنت امرأ مخلصا فى قريش وليس لى فىهم من يحمى أهلى فأردت أن آخذ عندهم يدا وقد علمت أن كتابى لن يغنى عنهم شيئا فصدقته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره^(١) (تلقون إليهم بالمودة) أى تواصلون إليهم المودة على أن الباء زائدة كما فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو تلقون إليهم أخبار النبى عليه الصلاة والسلام بسبب المودة التى بينكم وبينهم والجملة إما حال من فاعل لا تتخذوا أو صفة لأولياء وإبراز الضمير فى الصفات الجارية على غير من هى له وإنما يشترط فى الاسم دون الفعل أو استئناف (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) حال من فاعل تلقون وقيل من فاعل لا تتخذوا وقرئ لما جاءكم أى كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب الإيمان سببا للكفر (يخرجون الرسول ولأياكم) أى من مكة وهو إما حال من فاعل كفروا أو استئناف

(١) انظره فى أسد الغابة ١/٣٥٢ .

مبين لكفرهم وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ تعليل للإخراج وفيه تغليب المخاطب على الغائب والتفات من التكلم إلى الغيبة الإشعار بما يوجب الإيمان من الألوهية والربوبية ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل وابتغاء مرضاتي ﴾ متعلق بلا تتخذوا كأنه قيل لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي وقوله تعالى ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ أى تسرون إليهم المودة أو الأخبار بسبب المودة ﴿ وأنا أعلم ﴾ أى والحال أنى أعلم منكم ﴿ بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ ومطلع رسولى على ما تسرون فأى طائل لكم فى الأسرار وقيل أعلم مضارع والباء مزيدة وما موصولة أو مصدرية وتقديم الإخفاء على الإعلان قد مر وجهه فى قوله تعالى ﴿ يعلم ما يسرون وما يعلمون ﴾ ﴿ ومن يفعله منكم ﴾ أى الاتخاذ ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ فقد أخطأ الحق والصواب .

﴿ إن يثقفوكم ﴾ أى إن يظفروا بكم ﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ أى يظهروا ما فى قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها أحكامها ﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ بما يسوؤكم من القتل والأسر والشتم ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ أى تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضى للإيدان بتحقيق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾ قراباتكم ﴿ ولا أولادكم ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم وتقربون إليهم بحاماة عليهم ﴿ يوم القيامة ﴾ بجلب نفع أو دفع ضرر ﴿ يفصل بينكم ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ أى يفرق الله بينكم بما اعتراكم من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية فإلىكم ترفضون حق الله لمراعاة حق من هذا شأنه وقرئ يفصل ويفصل مبنيًا للفعول ويفصل ويفصل مبنيًا للفاعل وهو الله تعالى ويفصل ويفصل بالنون ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم به ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ أى خصلة حميدة حقيقة بأن يؤتسى ويفتدى بها وقوله تعالى ﴿ فى إبراهيم والذين معه ﴾ أى من أصحابه^(١)

المؤمنين صفة ثانية لأسوة أو خبر لكان ولكم للبيان أو حال من المستمكن في حسنة أو صلة لها لا لأسوة عند من لا يجوز العمل بعد الوصف (إذ قالوا) ظرف لخبر كان (لقومهم إنا برآء منكم) جمع برىء كظريف وظرفاء وقرىء برآء كظراف وبرآء كرخال وبرآء على الوصف بالمصدر مبالغة (وما تعبدون من دون الله) من الأصنام (كفرنا بكم) أى بدينكم أو بمعبودكم أو بكم وبه فلا نفعت بشأنكم وبأهتكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) أى هذا دأبنا معكم لا نفرکه (حتى تؤمنوا بالله وحده) وتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة حيفئذ ولاية والبغضاء محبة .

(إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) استثناء من قوله تعالى أسوة حسنة فإن استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر وإن كان جائزا عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم كما نطق به النص لكنه ليس بما ينبغى أن يؤتى به أصلا إذ المراد به ما يجب الانتساء به حتما لورود الوعيد على الإعراض عنه بما سيأتى من قوله تعالى (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) فاستثناءه من الأسوة إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان والمغفرة للكافر المرجو لإيمانه وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل وأما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا هذا وأما تعليل عدم كون استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر بما ينبغى أن يؤتى به بأنه كان قبل النهى أو لموعة وعدا لإياه فبمعزل من السداد بالكلية لا بتناؤه على تناول النهى لاستغفاره عليه الصلاة والسلام له وإنبائه عن كونه مؤتى به لو لم ينه عنه وكلاهما بين البطلان لما أن مورد النهى هو الاستغفار للكافر بعد تبين أمره وقد عرفت أن استغفاره عليه الصلاة والسلام لأبيه كان قبل ذلك قطعا وأن ما يؤتى به ما يجب الانتساء به^(١) به لا ما يجوز فعله في الجملة وتجوز أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام له بعد النهى كما هو المفهوم من ظاهر قوله أو لموعة وعدا لإياه مما لا مباح له وتوجيه

الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبي الآية لأنها كانت هي الحاملة له عليه الصلاة والسلام على الاستغفار وتخصيص هذه العدة بالذكر دون ما وقع في سورة مريم من قوله تعالى (سأستغفر لك ربى) لورودها على طريق التوكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائراً عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه في سورة التوبة وقوله تعالى ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ من تمام القول المستثنى محله النصب على أنه حال من فاعل لاستغفرن لك أى أستغفر لك وليس فى طاقى إلا الاستغفار فورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده الذى هو فى نفسه من خصال الخير لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر إلى الله تعالى وقوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ الخ من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام ومن معه من الأسوة الحسنة وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإناابة والمصير على الله تعالى قالوه بعد المجاهرة وقشر العصا التجاء إلى الله تعالى فى جميع أمورهم لاسيما فى مدافعة الكفرة وكفاية شروهم كما ينطق به قوله تعالى :

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نطيعه ﴿ واغفر لنا ﴾ ما فرط منا من الذنوب ﴿ ربنا إنك أنت العزيز ﴾ الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع والجوار هذا وأما جعل الآيتين تلقيناً للمؤمنين من جهته تعالى وأمرأ لهم بأن يتوكلوا عليه وينيبوا إليه ويستعينوا به من فتنة الكفرة ويستغفروا عما فرط منهم تبكلاً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة فلا يساعده النظم الكريم ﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أى فى إبراهيم ومن معه ﴿ أسوة حسنة ﴾ تكرير للمبالغة فى الحث على الاتساء به عليه الصلاة والسلام ولذلك صدر بالقسم وقوله تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ بدل من لكم فائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وأن تركه من

مخايل عدم: الإيمان بهما كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ومن يقول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة .

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾ أى من أقاربكم المشركين ﴿ مودة ﴾ بأن يوافقكم فى الدين وعدم الله تعالى بذلك لما رأى منهم من التصلب فى الدين والتشدد لله فى معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقرباهم ومقاطعتهم لإياهم بالكلية تطيبيا لقلوبهم واقد أنجز وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافى ما تم ﴿ والله قدير ﴾ أى مبالغ فى القدرة فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ويرحمهم وقيل غفور لما فرط منكم فى موالاتهم من قبل ولما بقى فى قلوبكم من ميل الرحمة ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أى لا ينهاكم عن البر بهؤلاء فإن قوله تعالى ﴿ أن تبروهم ﴾ بدل من الموصول ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أى تفضلوا إليهم بالقسط أى العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أى العادلين . روى أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها^(١) وقيل المراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يمينوا عليه ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ﴾ وهم عتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ وهم سائر أهلها ﴿ أن تولوهم ﴾ بدل اشتغال من الموصول أى إنما ينهاكم عن أن تتولوهم ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ لوضعهم الولاية فى موضع العداوة أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بيان لحكم من يظهر الإيمان بعد بيان حكم فريق

(١) انظر تفاصيل القصة فى سيرة السلف للأصبهاني ترجمة أسماء .

الكافرين ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات﴾ من بين الكفار ﴿فامتنوهن﴾ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في الإيمان . يروى أن رسول الله كان يقول للتي يمتحنها بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض بالله ما خرجت التماس دنيا بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ لأنه المطلع على ما في قلوبهن والجللة اعتراض ﴿فإن علمتموهن﴾ بعد الامتحان ﴿مؤمنات﴾ علماً يمكنكم تحصيلاً وتبلغه طاقتكم بعد التتبع والتي من الاستدلال بالعلام واللائل والاستشهاد بالآمارات والمخايل وهو الظن الغالب وتسميته علماً للإيدان بأنه جار مجرى العلم في وجوب العمل به ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ أى إلى أزواجهن الكفيرة لقوله تعالى ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ فإنه تعليل للنهي عن رجوعهن إليهم والتكرير إما لتأكيد الحرمة أو لأن الأول لبيان زوال النكاح الأول والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿وأتوهن ما أنفقوا﴾ أى وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من جاءنا منكم رددناه فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي عليه الصلاة والسلام بالحديبية فأقبل زوجها مسافر المخزومي وقيل صيفي بن الراهب فقال يا محمد اردد على امرأتى فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتناك منا فزلت لبيان أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء فاستحلها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر رضى الله عنه .

﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن﴾ فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿إذا آتيتوهن أجورهن﴾ شرط لإتاء المهر في نكاحهن لإيداناً بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر ﴿ولا تنكوا بهن الكوافر﴾ جمع عصمة وهى ما يعتصم به من عقد وسبب أى لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة ولا علقه زوجية قال ابن عباس رضى الله عنهما من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه وعن النخعي رحمه الله هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر وعن مجاهد أمرهم بطلاق

الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وقرىء ولا تمسكوا بالتشديد ولا تمسكوا بحذف إحدى التامين من تمسكوا ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ من مهر نساءكم اللاحقات بالكفار ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ من مهر أزواجهن المهاجرات ﴿ ذلكم ﴾ الذى ذكر ﴿ حكم الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ يحكم بينكم ﴾ كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أى يحكمه الله أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة. روى أنه لما نزلت الآية أدى المؤمنون مأمروا به من مهر المهاجرات إلى أزواجهن المشركين وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهر الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزل قوله تعالى ﴿ وإن فاتكم ﴾ أى سبقكم وانفلت منكم ﴿ شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ أى أحد من أزواجكم وقد قرىء كذلك وإيقاع شيء موقعه للتحقير والإشباع فى التعميم أو شيء من مهر أزواجكم ﴿ فعاقبتم ﴾ أى فجاءت عقيبتكم أى نوبتكم من أداء المهر شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء مهر نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهر نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره ﴿ فأتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوهن زوجها الكافر وقيل معناه إن فاتكم فأصابتكم من الكفار عقيبى هى الغنيمة فأتوا بديل الفات من الغنيمة وقرىء فاعقبتم وفمعقبتم بالتشديد وفمعقبتم بالتخفيف وفتح القاف وبكسرهما قيل جميع من لحق بالمشركون من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبى سفيان وفاطمة بنت أمية وبرور بنت عقبة وعبدية بنت عبد العزى وهند بنت أبى جهل وكلثوم بنت جرول ﴿ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ فإن الإيمان به تعالى يقتضى التقوى منه تعالى .

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك ﴾ أى مبايعات لك أى قاصدات للبايعة نزلت يوم الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال شرع فى بيعة النساء ﴿ على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ أى شيئاً من الأشياء أو شيئاً من الإشرار ﴿ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ﴾ أريد به وأد

البنات وقرىء ولا يقتلن بالتشديد ﴿ ولا يأتين بهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك كنى عنه بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها لأن بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها.

﴿ ولا يمصلنك في معروف ﴾ أى فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في جقهن لكثرة وقوعها فيها يدينهن مع اختصاص بعضهن ببعضهن ﴿ فبايعن ﴾ أى على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها ﴿ واستغفر لهن الله ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة فإنها عبارة عن ضمان الثواب من قبله عليه الصلاة والسلام بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى مبالغ في المغفرة والرحمة فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه واختلف في كيفية مبايعته عليه الصلاة والسلام لهن يومئذ فروى أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا ومعه عمر رضى الله تعالى عنه أسفل منه فجعل عليه الصلاة والسلام يشترط عليهن البيعة وعمر يصالحهن وروى أنه كلف امرأة وقفت على الصفا فبايعتهن وقبل دها بقدر من ماء فغمس فيه يده ثم غمس أيديهن وروى أنه عليه الصلاة والسلام بايعهن وبين يديه وأيدين ثوب قطرى والأظهر الأشهر ما قالت عائشة رضى الله عنها والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط إلا بما أمر الله تعالى وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امرأة قط (١) وكان يقول إذا أخذ عليهن قد بايعتهن كلاماً وكان المؤمنات إذا هاجرن إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنهن بقول الله عز وجل (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات) إلى آخر الآية فإذا أقررن بذلك من قوطن قال لهن انطلقن فقد بايعتكن (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) هم عامة الكفرة وقيل اليهود لما روى أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم .

((قد يشوا من الآخرة) لكفرهم بها أو لعلمهم بأنه لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات) كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أي كما يئس منها الذين ماتوا منهم لأنهم وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من نعيمها المقيم وابتلاءهم بعذابها الآليم والمراد وصفهم بكمال اليأس منها وقيل المعنى كما يشوا من موتهم أن يعيشوا ويرجعوا إلى الدنيا أحياء والإظهار في موقع الإضمار للإشعار بعلّة يأسهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة .

سورة الصف ﴿١﴾

مدنية ، وقيل مكية ، وآيها أربع عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذي مر في نظيره ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ روى أن المسلمين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فلما نزل الجهاد كرهوه فنزلت وما قيل من أن النازل قوله تعالى إن الله يحب الذير يقاتلون في سبيله صفا بين الاحتلال وروى أنهم قالوا يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه فنزلت (هل أدلكم على تجارة) إلى قوله تعالى (وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) فولوا يوم أحد وفيه التزام أن ترتيب الآيات السكرية ليس على ترتيب النزول وقيل لما أخبر الله تعالى بشواب شهداء بدر قالت الصحابة اللهم أشهد لنا لقينا قتالا لنفرغ فيه وسعنا ففروا يوم أحد فنزلت وقيل لأنها نزلت فيمن يتمدح كاذبا حيث كان الرجل يقول قتلته ولم يقتل وطعنت ولم يطعن وهكذا وقيل كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم فقتله صهيب وانتحل قتله آخر فنزلت في المنتحل وقيل نزلت في المنافقين ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وليس بذلك كما سئره ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالهما معا كما في عم وفيم ونظائرهما معناها لأي شئ تقولون نفعل ما لا تفعلون من الخير والمعروف على أن مدار التعبير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم وإنما وجهها إلى قولهم تنبيهها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً وقد كانوا يحسبونه معروفاً ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماحته وكبر من باب نعم وبئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده وأن تقولوا هو المخصوص بالذم وقيل قصد (٢١ - أبو السعود - خامس)

فيه التعجب من غير لفظه وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتا على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه كبر عند من يحقر دونه كل عظيم وقوله تعالى :

دعوة إلى الجهاد

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ بيان لما هو مرضى عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده وهذا صريح في أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال لا عما تقولونه المتمدح أو انتحلته المنتحل أو ادعاه المناق وأن مناط التعبير والتوبيخ هو إخلاصهم لا وعدهم كما أشير إليه وقرىء يقاتلون بفتح التاء ويقتلون وصفا مصدر وقع موقع الفاعل أو المفعول ونصبه على الحالية من فاعل يقاتلون أى صافين أنفسهم أو مصفوفين وقوله تعالى ﴿ كانوا بنيان مرصوص ﴾ حال من المستكن في الحال الأولى أى مشبهين في تراصهم من غير فرجة وخلل ببنيان رص بعضه إلى بعض ورصف حتى صار شيئا واحدا وقوله تعالى ﴿ وإذا قال موسى لقومه ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التلويح أى واذكر هؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل حين نذبتهم إلى قتال الجبابرة بقوله (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) فلم يمثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا (يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) إلى قوله تعالى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) وأصروا على ذلك وآذوه عليه الصلاة والسلام كل الأذى ﴿ يا قوم لم تؤذوني ﴾ أى بالمخالفة والمصيان فيما أمركم به وقوله تعالى ﴿ وقد تعلمون أني رسلا الله إليكم ﴾ جملة حالية مؤكدة لإنكار الإيذاء ونفى سببه وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره أى والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات القاهرة التي معظمها إهلاك عدوكم

وإنجاؤكم من ملكته (١) أنى رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة ومن قضية عليكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمى وتسارعوا إلى طاعتى .

﴿ فلما زاغوا ﴾ أى أصروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه ﴿ أزاع الله قلوبهم ﴾ أى صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو النقي والضلال وقوله تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الإزاعة ومؤذن بعلة أى لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الفواية هداية موصلة إلى البغية لا هداية موصلة إلى ما يوصل إليها فإنها شاملة للكل والمراد بهم إما المذكورون خاصة والاظهار فى موقع الإضرار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية به أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمه دخولا أوليا أيا ما كان فوصفهم بالفسق ناظر إلى ما فى قوله تعالى (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم . وأما ما قيل بصدد بيان أسباب الآذية من أنهم كانوا يؤذونه عليه الصلاة والسلام بأنواع الأذى من انتقاصه وعيه فى نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعهم وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله جهرة والتسكذيب الذى هو تضيق حق الله وحقه فما لا تعلق له بالمقام وقوله تعالى :

التشهير بمحمد

﴿ ولما قال عيسى ابن مريم ﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها ولما معمول لمضممر معطوف على عاملها ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ ناذاهم بذلك استئالة لقلوبهم إلى تصديقه فى قوله تعالى ﴿ أنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ فإن تصديقه عليه الصلاة والسلام إياها من أقوى الدواعى

إلى تصديقهم إياه وقوله تعالى ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي ﴾ معطوف على مصدقاً داع إلى تصديقه عليه الصلاة والسلام مثله من حيث أن البشارة به واقعة في التوراة والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجار فإنه صلة للرسول والصلات بمعزل من تضمن معنى الفعل وعليه يدور العمل أي أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما تقدمني من التوراة ومبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول ﴿ اسمه أحمد ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن ديني التصديق بكتب الله وأنيائه جميعاً بمن تقدم وتأخرو قرىء من بعدي بفتح الياء ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ مشيرين إلى ما جاء به أولاً إليه عليه الصلاة والسلام وتسميته سحراً للبالغة ويؤيده قراءة من قرأ هذا ساحر ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الكذب وهو يدعي إلى الإسلام ﴾ أي أي الناس أشد ظلاماً ممن يدعي إلى الإسلام الذي يوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله عز وجل بقوله لـالكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر أي هو أظلم من كل ظالم وإن لم يتعرض ظاهر الكلام لنفي المساوي وقد مر بيانه غير مرة وقرىء يدعى يقال دعاه وادعاه مثل لمسه والتسمه ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لعدم توجههم إليه ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ أي يريدون أن يطفئوا دينه أو كتابه أو حجته النيرة واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبالك أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله ﴿ بأفواههم ﴾ بطنهم فيه مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿ والله متم نوره ﴾ أي مبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه وقرىء متم نوره بلا إضافة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ أي إرغاماً لهم والجملة في حين الحال على ما بين مراراً .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾ بالقرآن أو المعجزة ﴿ ودين الحق ﴾

والله الحنيفة ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ليعلمه على جميع الأديان المخالفة له
ولقد أنجز الله عز وعلا وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو
مغلوب مقهور بدين الإسلام ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك وقرىء هو الذى
أرسل نبيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾
وقرىء تنجيكم بالتشديد وقوله تعالى ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في
سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنهم
قالوا كيف نعمل أو ماذا نصنع ف قيل تؤمنون بالله الخ وهو خبر فى معنى الأمر
جىء به للإيدان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه ويؤيده قراءة
من قرأ ﴿ آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا ﴾ وقرىء تؤمنوا وتجاهدوا على إضمار
لام الأمر ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد بقسميه وما فيه
من معنى البعد لما مر غير مرة ﴿ خير لكم ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم
وأنفسكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم فان الجهلة لا يعتمد
بأفعالهم أو إن كنتم تعلمون أنه خيرا لكم حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك
واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون
وتفعلون ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بالفظ الخبر
أو لشرط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره أن تؤمنوا وتجاهدوا أو هل
تقبلون أن أدلكم يغفر لكم وجعله جوابا هل أدلكم بعيد لأن مجرد الدلالة
لا يوجب المغفرة ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة
فى جنات عدن ذلك ﴾ أى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنات الموصوفة بما
ذكر من الأوصاف الجليلة ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذى لا فوز ورائه ﴿ وأخرى ﴾
ولكم إلى هذه النعم العظيمة نعمة أخرى عاجلة ﴿ تحبونها ﴾ وترغبون فيها
وفيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل وقيل أخرى منصوبة بإضمار
يعطكم أو تحبون أو مبتدأ خبره ﴿ نصر من الله ﴾ وهو على الأول بدل
أو بيان وعلى تقدير النصب خبر مبتدأ محذوف ﴿ وفتح قريب ﴾ أى عاجل
عطف على نصر على الوجوه المذكورة وقرىء نصرنا وفتحنا قريبا على الاختصاص

أو على المصدر أى تنهضون نصراً ويفتح لكم فتحاً أو على البدلية من أخرى على تقدير نصبها أى يعطكم نعمة أخرى نصراً وفتحاً ﴿وبشر المؤمنين﴾ عطف على محذوف مثل قل يا أيها الذين آمنوا وبشر أو على تؤمنون فإنه فى معنى آمنوا كأنه قيل آمنوا واجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا أيها الرسول بما وعدتهم على ذلك عاجلاً وآجلاً ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ وقرئ أنصار الله بلا إضافة لأن المعنى كونوا بعض أنصار الله وقرئ كونوا أنتم أنصار الله ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله﴾ أى من جندى متوجها إلى نصرة الله كما يقتضيه قوله تعالى ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى أى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى من أنصارى إلى الله أو قل لهم كونوا كما قال عيسى للحواريين والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ﴿فأمنت طائفة من بنى إسرائيل﴾ أى بعمى وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرة الدين ﴿ركفرت طائفة﴾ أخرى به وقاتلوهم ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ أى قويناهم بالحجة أو بالسيف وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ غالبين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلباً عليه مستغفراً له ما دام فى الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه .

سورة الجمعة ﴿١﴾

مدنية ، وآيها إحدى عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) تسيبها مستمرا (الملك القدوس العزيز الحكيم) وقد قرىء الصفات الأربع بالرفع على المدح (هو الذى بعث فى الأميين) أى فى العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرءون قيل بدئت الكتابة بالطائفة أخذوها من أهل الحيرة وهم من أهل الأنبار (رسولا منهم) أى كانوا من جملتهم أميا مثلهم (يتلو عليهم آياته) مع كونه أميا مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم (ويزكيهم) صفة أخرى لرسولا معطوفة على يتلو أى يحملهم على ما يصيرون به أذكاء من خبائث العقائد والأعمال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل (١) بالتعليم المترتب على التلاوة للايدان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جارية على حياتها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر فى سورة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب والحكمة رمز إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث النبوية من الأحكام والشرائع (وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) من الشرك وخبث الجاهلية وهو بيان لشدّة افتقارهم إلى من يرشدهم وإزاحة لما عسى يتوهم من تعلله عليه الصلاة والسلام من الغير وإن هى المخففة واللام هى الفارقة (وآخرين منهم)

عطف على الآمين أو على المنصوب في يعلمهم أى يعلمهم ويعلم آخريين منهم أى من الآمين وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين فإن دعوته عليه الصلاة والسلام وتعليمه يعم الجميع ﴿لما يلحقوا بهم﴾ صفة لآخرين أى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ المبالغ في العزة والحكمة ولذلك مكن رجلا أميا من ذلك الأمر العظيم واصطفاه من بين كافة البشر ﴿ذلك﴾ الذى امتاز به من بين سائر الأفراد ﴿فضل الله﴾ وإحسانه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ تفضلا وعطية ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذى يستحق دونه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ أى علموها وكلفوا العمل بها ﴿ثم لم يحملوها﴾ أى لم يعملوا بما فى تضاعيفها من الآيات التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ أى كتبنا من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ويحمل إما حال والعامل فيها معنى المثل أو صفة للحمار إذ ليس المراد به معينا فهو فى حكم النكرة كما فى قول من قال :

• ولقد أمر على اللثيم يسبنى •

﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله على أن التمييز محذوف والفاعل المفسر به مستتر ومثل القوم هو المخصوص بالذم والموصول صفة للقوم أو بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا إلخ على أن مثل القوم فاعل بئس والمخصوص بالذم الموصول محذوف المضاف أو بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء على أن الموصول صفة القوم والمخصوص بالذم محذوف وهم اليهود الذين كذبوا بما فى التوراة من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الواضحين للتكذيب فى موضع التصديق أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للذهاب الخالف .

دحض مزاعم اليهود

(قل يا أيها الذين هادوا) أى يهودوا (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس) كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويدعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة ويقولون إن يدخل الجنة إلا من كان هودا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم لإظهار الكذبهم إن زعمتم ذلك (فتمنوا الموت) أى فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة (إن كنتم صادقين) جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أى إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة الأكدار (ولا يتمنونه أبدا) أخبار بما سيكون منهم والباء في قوله تعالى (بما قدمت أيديهم) متعلقة بما يدل عليه النفي أى يأبون التنى بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي الموجبة لدخول النار ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة أفاعيله عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة (والله عليم بالظالمين) أى بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لظهورهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون في كل ما يأتون وما يذرون من الأمور التي من جملتها إدعاء ما هم عنه بمعزل والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدي إلى ذلك فوق الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد كما يعرب عنه قوله تعالى .

(قل إن الموت الذي تفرون منه) فإن ذلك إنما يقال لهم بعد ظهور فرارهم من التنى وقد قال عليه الصلاة والسلام ولو تمنوا لما تواتوا من ساعتهم،^(١) وهذه إحدى المعجزات أى أن الموت الذي تفرون منه ولا تهجسرون على أن تمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال كفركم (فإنه ملاقيكم) البتة من غير صارف

(١) انظر ابن جرير لمعركة طرق الحديث ١٧ / ٧٨ .

يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف وقرئ بدونها وقرئ تفرون منه ملاقيكم ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصي بأن يجازيكم بها .

آداب الجمعة

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة ﴾ أى فعل النداء لها أى أذن لها ﴿ من يوم الجمعة ﴾ بيان لاذا وتفسير لها وقيل من بمعنى فى كما فى قوله تعالى (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى فى الأرض وإنما سعى جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة وقيل أول من سماها جمعة كعب بن لؤى وكانت العرب تسميه العروبة وقيل إن الأنصار قالوا قبل الهجرة للهوود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فلهوا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلى فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فانزل الله آية الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الإسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بنى عمرو بن عوف وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة حامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أى أمشوا واقصدوا إلى الخطبة والصلاة ﴿ وذروا البيع ﴾ واتركوا المعاملة ﴿ ذلكم ﴾ أى السعى إلى ذكر الله وترك البيع ﴿ خير لكم ﴾ من مباشرته فإن نفع الآخرة أجل وأبقى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى الخير والشر الحقيقين أو إن كنتم أهل العلم .

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أى أديت وفرغ منها ﴿ فانتشروا فى الأرض ﴾

لإقامة مصالحكم ﴿وابتغوا من فضل الله﴾ أى الربح فالأمر بالإطلاق بعد الحظر وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يؤمروا يطلب شيء من الدنيا إنما هو عبادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله وعن الحسن وسعيد بن المسيب طلب العلم وقيل صلاة التطوع ﴿واذكروا الله كثيرا﴾ ذكرأ كثيرا أو زمانا كثيرا ولا تخصوا ذكره تعالى بالصلاة ﴿لعلكم تفلحون﴾ كى تفوزوا بخير الدارين ﴿ولذا رأوا تجارة أو طهوا انفضوا إليها﴾ روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي عليه الصلاة والسلام يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه فابق معه عليه الصلاة والسلام إلا ثمانية وقيل أحد عشر وقيل اثنا عشر وقيل أربعون فقال عليه الصلاة والسلام والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادى نارا وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق وهو المراد باللهو وتخصيص التجارة بجمع الضمير لأنها المقصودة أو لأن الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموما فما ظنك بالانفضاض (بالسكية) إلى اللهو وهو مذموم فى نفسه وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليه فحذف الثانى لدلالة الأول عليه وقرئ إليهما ﴿وتركوك قائما﴾ أى على المنبر ﴿قل ما عند الله﴾ من الثواب ﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ فإن ذلك نفع محقق مخلد بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم ﴿والله خير الرازقين﴾ فإليه اسعوا ومنه اطلبوا الرزق . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها فى أمصار المسلمين .

سورة المنافقون ﴿١﴾

مدينة ، وآية إحدى عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاءك المنافقون) أى حضروا مجلسك (قالوا نشهد إنك لرسول الله) مؤكدين كلامهم بأن واللام للايدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم وقوله تعالى (والله يعلم إنك لرسوله) اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم وسط بينه وبين قوله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) تحقيقا وتعيينا لما نيط به التكذيب من أنهم قالوه عن اعتقاد كما أشير إليه وإمالة من أول الأمر لما عسى يتوهم من توجه التكذيب إلى منطوق كلامهم أى والله يشهد إنهم لكاذبون فيما ضمنوا مقاتلتهم من أنها صادرة عن اعتقاد وطمأنينة قلب والإظهار في موقع الإضمار لنزهمهم والإشعار بعلّة الحكم .

من سمات النفاق

(اتخذوا أيمانهم) الفاجرة التى من جملتها ما حكى عنهم (جنة) أى وقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتجهيزتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعماها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجنابة واتخاذ الجنة لا بد أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضا كما يفصح عنه الفاء فى قوله تعالى (فصدوا عن سبيل الله) أى قصدوا من أراد الدخول فى الإسلام بأنه عليه الصلاة والسلام ليس برسول ومن أراد الإنفاق فى سبيل الله بالنهى عنه كما سيذكر عنهم ولا ريب فى أن هذا الصد منهم متقدم على حلفهم بالفعل وقرىء إيمانهم أى ما أظهروه علي ألسنتهم فاتخاذهم جنة عبارة عن

استعماله بالفعل فانه وقاية دون دمائهم وأموالهم فعنى قوله تعالى فصدوا حيثئذ فاستمروا على ما كانوا عليه من الصد والإعراض عن سبيله تعالى ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من النفاق والصد وفى ساء معنى التعجب وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من القول الناعى عليهم لانهم أسوأ الناس أعمالا أو إلى ما وصف من حالهم فى النفاق والكذب والاستتار بالإيمان الصورى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالإشار إليه لما مر مرارا من الإشعار ببعد منزلته فى الشر ﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿آمنوا﴾ أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل فى الإسلام ﴿ثم كفروا﴾ أى ظهر كفرهم بما شوهده منهم من شواهد الكفر ودلائله أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم ﴿فطبع على قلوبهم﴾ حتى تملأوا على الكفر واطمأنوا به وقرئ على البناء للفاعل وقرئ فطبع الله ﴿فهم لا يفقهون﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقيقته أصلا .

﴿ولإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ لضخامتها وبروق منظرهم لبسابة وجوههم ﴿وان يقولوا تسمع لقولهم﴾ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم وكان ابن أبى جسيما فصيحاً بحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أمثاله وهم رؤساء المدينة وكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يجوبون بها كلهم ويسمعون إلى كلامهم وقيل الخطاب لكل أحد من يصلح للخطاب ويؤيده قراءة يسمع على البناء للمفعول وقوله تعالى ﴿كانهم خشب مسندة﴾ فى حيز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو كلام مستأنف لا محل له شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقدين فيها بخشب منصوبة مسندة إلى الحائط فى كونهم أشباحا خالية عن العلم ^(١) والخير وقرئ خشب على أنه جمع خشبة كبذن جمع بدنة وقيل هو جمع خشباء وهى الخشبة التى دعر جوفها أى فسد شبهوا بها فى نفاقهم وفساد بواطنهم وقرئ خشب كدرة ومدر

(يحبسون كل صبيحة عليهم) أى واقعة عبيهم ضارة لهم لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم وقيل كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهلك أستارهم وينبج دماءهم وأموالهم (هم العدو) أى هم الكاملون في العداوة والرائخون فيها فإن أعدى الأعداء العدو المكاشر الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الهاء الدوى والجملة مستأنفة وجعلها مفعولا ثانيا للحسيان مما لا يساعده النظم الكريم أصلا فإن الفاء في قوله تعالى (فاحذرهم) لترتيب الأمر بالاحذر على كونهم أعدى الأعداء (قاتلهم الله) دعاء عليهم وطلب من ذاته تعالى أن يلعنهم ويخزيهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك وقوله تعالى (أنى يؤفكون) تعجيب من حالهم أى كيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الكفر والضلال .

(وإذا قيل لهم) عند ظهور جنائتهم بطريق النصيحة (تعالوا يستغفروا لكم رسول الله لوأرؤوسهم) أى عطفوها استكبارا (ورأيتهم يصدون) يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار (وهم مستكبرون) عن ذلك (سواء عليهم أستغفرت لهم) كما إذا جاءوك معتذرين من جنائيتهم وقرىء استغفرت بحذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة أم عليه وقرىء آستغفرت بأشباع همزة الاستفهام لا بقلب همزة الوصل ألفا (أم لم تستغفروا لهم) كما إذا أصرروا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والإستغفار (لن يغفر الله لهم) أبدا لإصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) الكاملين في الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين في الكفر والنفاق والمراد إما هم بأعيانهم والإظهار في موقع الإيضاح لبيان غلوهم في الفسق أو الجنس وهم داخلون في زميرتهم دخولا أوليا وقوله تعالى (هم الذين يقولون) أى للانصار (لا تنفقوا على من عند رسول الله) صلى الله عليه وسلم (حق ينفضوا) يعنون فقراء المهاجرين استئناف جار مجرى التعليلي لفسقهم أو لعدم مغفرة تعالى لهم وقرىء حق ينفضوا من انفض القوم إذا فئت أزوادهم وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزأودهم وقوله تعالى

﴿ وقل خزائن السموات والأرض ﴾ رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انقضاء الفقراء من حوله عليه الصلاة والسلام ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ذلك لجهايم بالله تعالى وبشئونه ولذلك يقولون من مقالات الكفر ما يقولون .

﴿ ويقولون لننرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ روى أن جهم بن سفيان أجير عمر رضى الله عنه نازع سنانا الجهمي حليف ابن أبي وقعة فصرخ جهم يا للمهاجرين وسنان يا للانصار فأعان جهما جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا فاشتكى إلى ابن أبي فقال للانصار لا تنفقوا الخ والله لننرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل عني بالأعز نفسه وبالأذل جانب المؤمنين وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به فرد عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿ وقل العزة لرسوله وللمؤمنين ﴾ أى والله الغلبة والقوة لمن أعزه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم فيهدون ما يهدون . روى أن عبد الله بن أبي لما أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان مخلصا وقال لنن لم نقر الله ورسوله بالعز لأضربن عنقك فلما رأى منه الجدة قال أشهد أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين فقال النبي عليه الصلاة والسلام لابنه جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا .

توجيه للمؤمنين

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ أى لا يشغلكم الإهتمام بتدبير أمورهم والإعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عز وجل من الصلاة وسائر العبادات المذكورة للمعبود والمراد نهيهم عن التلهي بها وتوجيه النهي إليها للمبالغة كما في قوله تعالى (ولا يحجر منكم شأن قوم) الخ ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أى التلهي بالدنيا من الدين ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾

أى الكاملون فى الحسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفانى ﴿ وأنفقوا
 مما رزقناكم ﴾ أى بعض ما أعطيناكم تفضلا من غير أن يكون حصوله من
 جهنم ادخارا للآخرة ﴿ من قبل أن يأتى أحدكم الموت ﴾ بأن يشاهد دلائله
 ويعاين أماراته ومخايله وتقديم المفعول على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام
 بما قدم والتشويق إلى ما آخر ﴿ فيقول ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿ رب لولا أخرتنى ﴾
 أى أمهلتنى ﴿ إلى أجل قريب ﴾ أى أمد قصير ﴿ فأصدق ﴾ بالنصب على جواب
 التمنى وقرىء فأصدق ﴿ وأكن من الصالحين ﴾ بالجزم عطفًا على محل فأصدق
 كأنه قيل إن أخرتنى أصدق وأكن وقرىء وأكون بالنصب عطفًا على لفظه
 وقرىء وأكون بالرفع أى وأنا أكون عدة منه بالصلاح ﴿ ولن يؤخر الله
 نفسا ﴾ أى ولن يمهلها ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أى آخر عمرها أو انتهى أن أريد
 بالأجل الزمان الممتد من أول العمر إلى آخره ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾
 فجازىكم عليه إن خيرا خفي وإن شرا فشر فسارعوا فى الخيرات واستعدوا
 لما هو آت وقرىء يعملون بالياء النحنائية . عن النبي صلى الله عليه وسلم من
 قرىء سورة المنافقين برىء من النفاق .

﴿سورة التغابن﴾

مختلف فيها ، وآيها ثمانى عشرة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى ينزهه سبحانه جميع ما فيها من المخلوقات عما لا يابق بجانب كبريائه تنزيها مستمرا ﴿له الملك وله الحمد﴾ لا لغيره إذ هو المبدى لكل شىء وهو القائم به والمهيمن عليه وهو المولى لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره فاسترعاه من جنابه وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده ﴿وهو على كل شىء قدير﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء ﴿هو الذى خلقكم﴾ خلقا بديما حاويا لجميع مبادئ الكمالات العلية والعملية ومع ذلك ﴿فمنكم كافر﴾ أى فبعضكم أو بعض منكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تستدعيه خلقته ﴿ومنكم مؤمن﴾ مختار للإيمان كاسب له حسبا تقتضيه خلقته وكان الواجب عليكم جميعا أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمسكنكم منه بل تشبتم شعبا وتفرقتم فرقا وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم والأنسب بمقام التوبيخ وحمله على معنى ففمنكم كافر مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدر إيمانه موفق لما يدعو إليه عما لا يلائم المقام ي﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يردكم من الكفر والعصيان ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ حيث برأكم فى أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما ينيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخصلة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ﴿وليه المصير﴾

في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً فأحسنوا سرائركم باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خلقن له .

﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ من الأمور السكّية والجزئية والأحوال الجليلة والخفية ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ أى ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور والتصرّيح به مع اندراجها فيما قبله لأنه الذى يدور عليه الجزاء ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما وقوله تعالى ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلمهم أى هو محيط بجميع المضممرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه ما يسرونه وما يعلنونه وإظهار الجلالة للإشعار بعلّة^(١) الحكم وتأكيد استقلال الجملة قيل وتقديم تقرير القدرة على تقرير العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى علمه بما فيها من الإثقان والاختصاص ببعض الأنحاء ﴿ ألم يأتكم ﴾ أيها الكفرة ﴿ نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم المهصرة على الكفر ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ عطف على كفروا والوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور وأمرهم كفرهم عبر عنه بذلك للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة أى ألم يأتكم خبر الذين كفروا من قبل فذاقوا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا ﴿ ولهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لا يقادر قدره ﴿ ذلك ﴾ أى ما ذكر من العذاب الذى ذاقوه في الدنيا وما سيدوقونه في الآخرة ﴿ بأنه ﴾ بسبب أن الشأن ﴿ كانت تأتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى بالمعجزات الظاهرة ﴿ فقالوا ﴾ عطف على كانت ﴿ أبشر يهودنا ﴾ أى قال كل قوم من المذكورين في حق رسولهم الذى أتاهم بالمعجزات منكبرين ليكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك أبشر يهودنا كما قالت ثمود (أبشرا منا واحد نتبعه) وقد أجهل في الحكاية فأسند القول إلى جميع الأقسام وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما أجهل

الخطاب والأمر في قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (فكفروا) أي بالرسول (وتولوا) عن التدبر فيما أتوا به من البينات وعن الإيمان بهم (واستغنى الله) أي أظهر استغناؤه عن إيمانهم وطاعتهم حيث أهلكتهم وقطع دابرهم ولولا غناه تعالى عنهما لما فعل ذلك (والله غنى) عن العالمين فضلا عن إيمانهم وطاعتهم (حميد) يحمده كل مخلوق بلسان الحال أو مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد .

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) الزعم ادعاء العلم يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن المخفقة مع ما في حيزها والمراد بالموصول كفار مكة أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبدا (قل) ردا عليهم وإبطالا لزعمهم بإثبات ما نفوه (بلى) أي تبعثون وقوله (وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) أي لتحاسبن ولتجزون بأعمالكم جملة مستقلة داخلية تحت الأمر وإرادة التأكيد ما أفاده كلمة بلى من إثبات البعث وبيان تحقيق أمر آخر متفرع عليه منوط به ففيه تأكيد لتحقيق البعث بوجهين (وذلك) أي ما ذكر من البعث والجزاء (على الله يسير) لتحقيق القدرة التامة وقبول المادة والفاء في قوله تعالى (فآمنوا) فصريحة مفصحة عن شرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره أي إذا كان الأمر كذلك فآمنوا (بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذي أنزلنا) وهو القرآن فإنه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك والاتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال (والله بما تعملون) من الامتثال بالأمر وعدمه (خبير) فمجازيكم عليه والجملة اعتراض تذييلي مقدر لما قبله من الأمر موجب للامتثال به بالوعد والوعيد والاتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (يوم يجمعكم) ظرف لتنبؤن وقيل للخبير لما فيه من معنى الوعيد كأنه قيل والله مجازيكم ومعاقبكم يوم يجمعكم أو مفعول لأذكر وقرئ نجمكم بنون العظمة (ليوم الجمع) ليوم يجمع فيه الأولون والآخرين أي لأجل ما فيه من الحساب والجزاء (ذلك يوم التغابن) أي يوم غيب بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الأشقياء الوكاو سعداء

وبالعكس وفي الحديث : « ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأن التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا .

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر) أى الله عز وجل وقرىء بنون العظمة (عنه سيئاته) يوم القيامة (ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) وقرىء ندخله بالنون (ذلك) أى ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات (الفوز العظيم) الذى لا فوز وراه لا تطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن (ما أصاب من مصيبة) من المصائب الدنيوية (إلا ياذن الله) أى بتقديره وإرادته كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان متوقفة على إذنه تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) عند إصابته للنبات والاسترجاع وقيل يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وقيل يهد قلبه أى يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة (١) والخير وقرىء يهد قلبه على البناء للمفعول ورفع قلبه وقرىء ينصبه على نهج سفه نفسه وقرىء بالهمزة أى يسكن (والله بكل شئ) من الأشياء التى من جعلتها القلوب وأحوالها (عليم) فيعلم إيمان المؤمن ويهدى قلبه إلى ما ذكر (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الصائتين في الكيفية وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى (فإن توليتم) أى عن إطاعة الرسول وقوله تعالى (فإنما على رسولنا البلاغ المبين) تحليل للجواب المحذوف أى فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وإظهار الرسول مضافا إلى نون العظمة فى مقام إضماره لتشمير فيه

(١) فى ١١ : للازدیاد من الطاعة .

عليه الصلاة والسلام والإشعار بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام محض البلاغ ولزيادة تشنيع النولى عنه ﴿الله لا إله إلا هو﴾ جملة من مبتدأ وخبر أى هو المستحق للمعبودية لا غيره وفى إضمار خبر لا مثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنجاحة معروف ﴿وعلى الله﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ وإظهار الجلالة فى موقع الإضمار للإشمار بعلّة التوكل والأمر به فإن الألوهية مقتضية للاتباع إليه تعالى بالسكينة وقطع التعلق عما سواه بالمرة .

من توجيهات القرآن

﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾ يشغلونكم عن اطاعة الله تعالى أو يخاضعونكم فى أمور الدين أو الدنيا ﴿فاحذروهم﴾ الضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى فإنهم عدوى أو للأزواج والأولاد جميعاً فالأمور به على الأول الحذر عن الكل وعلى الثانى إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتغالهم على العدو ﴿وإن تغفوا﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارئة للتوبة ﴿وتصفحوا﴾ بترك التثريب والتعيير ﴿وتغفروا﴾ بإخفائها وتمهيد عذرها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويفضل عليكم وقيل إن ناساً من المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا تنطلقون وتضيعوننا فارقوا لهم ووقفوا فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأولين قد دفعوا فى الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو وقيل قالوا لهم أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم وقالوا لئن جمعنا الله فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعهم الخبر لحثوا على أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ بلاء وعنة يوقعونكم فى الإثم من حيث لا تحسبون ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ لمن أثر محبة الله تعالى وطاعته على

حبة الأموال والأولاد والسعي في تدبير مصالحهم ﴿ فأتقوا الله ما استطعتم ﴾
 أى ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقاتكم ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظه ﴿ وأطيعوا ﴾
 أوامره ﴿ وأنفقوا ﴾ مما رزقكم في الوجوه التى أمركم بالإنفاق فيها خالصا
 لوجهه ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ أى اتوا خيراً لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها
 وأنفع وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لكون الأمور
 المذكورة خيراً لأنفسهم ويحوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أو إنفاقة
 خيراً أو خبراً لكان مقدراً جواباً للأوامر أى يكن خيراً لأنفسكم ﴿ ومن
 يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الفائزون بكل مرام .

﴿ إن تقرضوا الله ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التى عينها ﴿ قرضاً
 حسناً ﴾ مقروننا بالإخلاص وطيب النفس ﴿ يضاعفه لكم ﴾ بالواحد
 عشرة إلى سبعائة وأكثر وقرىء يضعفه لكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ ببركة
 الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿ والله شكور ﴾ يعطى الجزيل
 بمقابلة النزر القليل ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم ﴿ عالم
 الغيب والشهادة ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المبالغ فى
 القدرة والحكمة .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة .

سورة الطلاق ﴿١﴾

مدنية ، وآياتها إحدى عشرة أو اثنتا عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ تخصيص النداء به عليه الصلاة والسلام مع عموم الخطاب لآمنته أيضاً لتشريفه عليه الصلاة والسلام وإظهار جلالة منصبه وتحقيق أنه المخاطب حقيقة ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه الصلاة والسلام إياهم وتغليبهم عليهم لا لأن نداءه كندائهم فإن ذلك الاعتبار لو كان في حيز الرعاية لكان الخطاب هو الآخر به لشمول حكمه لكل قطعا والمعنى إذا أرتبتم تطليقهن وعزمتن عليه كما في قوله تعالى ﴿إذا قتم إلى الصلاة﴾ ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ أي مستقبلات لها كقولك أتيتك الليلة خلت من شهر كذا فإن المرأة إذا طلقت في طهر يعقبه القرء الأول من أقرائهم فقد طلقت مستقبل لعدتها والمراد أن يطلقن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة ﴿وأحصوا العدة﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقرأ كوامل ﴿واتقوا الله ربكم﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ من مساكنهن عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكنائها كأنها أملاكهن ﴿ولا يخرجن﴾ ولو بإذن منكم فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج وقيل المعنى لا يخرجن باستبداد منهن أما إذا اتفقا على الخروج جاز إذ الحق لا يعدوهما ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ استثناء من الأول قيل هي الزنا فيخرجن لإقامة الحد عليهن وقيل إلا أن يبدون على الأزواج فيحل حينئذ إخراجهن ويؤيده قراءة إلا أن يفحشن عايكم أو من الثاني المباعدة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة ﴿وتلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام وما في اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان بعلو

درجتها وبعد منزلتها ﴿حدود الله﴾ التي عينها لعباده ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي حدوده المذكورة بأن: أدخل بشيء منها على أن الإظهار في حيز الإضرار لتحويل أمر التعدى والإشعار بعلة الحكم في قوله تعالى ﴿فقد ظلم نفسه﴾ أي أضر بها وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله تعالى :

﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل جضمون الشرطية وقد قالوا إن الأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دينوى يلحقه بسبب تعديه ولا يمكن تداركه أو عن مطلق الضرر الشامل للدينوى والآخرى ويخص التعليل بالدينوى ليكون احتراز الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى وقوله تعالى لا تدري خطاب للمتعدى بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى لا للنبي عليه الصلاة والسلام كما توهم فالمعنى ومن يتعد حدود الله فقد أضر بنفسه فأنك لا تدري أيها المتعدى عاقبة الأمر لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدى أمرا يقتضى خلاف ما فعلته فيبدل بينفضها حجة وبالإعراض عنها لإقبالها إليها ويتسنى تلافيه رجعة أو استئناف نكاح ﴿فاذا بلغن أجلهن﴾ شارفن آخر عدتهن ﴿فأمسكوهن﴾ فراجعوهن ﴿بمعروف﴾ بحسن معاشرة وإنفاق لائق ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ بإيفاء الحق وإتقاء الضرر بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾ عند الرجعة والفرقة قطعا للتنازع وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى وأشهدوا إذا تبايعتم ويروى عن الشافعى أنه للوجوب في الرجعة ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أيها الشهود عند الحاجة خالصا لوجهه تعالى ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الحث على الإشهاد والإقامة أو على جميع ما فى الآية .

﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ إذ هو المنتفع به والمقصود تذكيره وقوله تعالى ﴿ومن يتق الله﴾ النخ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من وجوب مراعاة حدود الله تعالى بالوعد على الاتقاء عن تعديها كما أن ما تقدم من قوله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه مؤكده بالوعد على تعديها

فالمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط
في الإشهاد وغيره من الأمور ﴿ يجعل له مخرجاً ﴾ مما عسى يقع في شأن
الأزواج من العموم والوقوع في المضائق ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب
﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أى من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه ويجوز
أن يكون كلاماً جرى به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى (ذلكم يوعظ
به من كان يؤمن بالله) إلى آخره فالمعنى ومن يتق الله في كل ما يأتى وما يذر
يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة فيندرج فيه ما نحن فيه
اندراجاً أولياً عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قرأها فقال مخرجاً من شبهات
الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة وقال عليه الصلاة والسلام انى
لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكففتهم ومن يتق الله فمأزال يقرؤها ويعيدها .
وروى أن عوف به مالك الأشجعي أسر المشركون ابنه سالماً فأتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال أسر ابني وشكاً إليه الفاقة فقال عليه الصلاة والسلام
أتق الله وأكثر قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ففعل فبينما هو في
بيته اذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الابل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت .
﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أى كافيه في جميع أموره ﴿ إن الله
بالخ أمره ﴾ بالإضافة أى منفذ أمره وقرىء بتثوين بالغ ونصب أمره أى
يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب وقرىء برفع أمره على أنه
مبتدأ وبالغ خبر مقدم والجملة خبر إن وأمره مرتفع به على الفاعلية أى نافذ
أمره وقرىء بالغاً أمره على أنه حال وخبر إن قوله تعالى ﴿ قد جعل الله لكل
شيء قدراً ﴾ أى تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً وهو بيان لوجوب التوكل عليه تعالى
وتفويض الأمر إليه لأنه اذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون الا
بتقديره تعالى لا يبقى الا التسليم للقدر والتوكل على الله تعالى ﴿ واللذان يشن
من المحيض من نسائكم ﴾ لكبرهن وقد قدرهن بستين سنة وبخمس وخمسين
﴿ إن اردتكم ﴾ أى شككنكم وجهاتكم كيف عدتهن ﴿ فعدنهن ثلاثة أشهر واللاتي
لم يحضن ﴾ بعد لصغرهن أى فعدتهن أيضاً كذلك فحذف ثقة بدلالة ما قبله

﴿ عليه وأولات الأحمال أجلهن ﴾ أى منتهى عدتهن ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن وقد نسخ به عموم قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) لتراخى نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود رضى الله عنه من شاء بآهله ان سوره النساء القصرى نزلت بعد التى فى سورة البقرة وقد صح أن سبيعة بنت الحرث الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها قد حللت فتزوجى ﴿ ومن يتق الله ﴾ فى شأن أحكامه ومراعاة حقوقها ﴿ يجعل له من أمره يسرا ﴾ أى يسهل عليه أمره ويوفقه للخير .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان ببعد منزلته فى الفضل وإفراد الكفاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ أمر الله أنزله إليكم ﴾ لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى لا لتعيين خصوصية المخاطبين وقد مر فى قوله تعالى (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله) من سورة البقرة ﴿ ومن يتق الله ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿ ويعظم له أجرا ﴾ بالمضاعفة وقوله تعالى ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات فقيل أسكنوهن مسكنامن حيث سكنتم أى بعض مكان سكنكم وقوله تعالى ﴿ من وجدكم ﴾ أى من وسعكم أى مما تطيقونه عطف ببيان لقوله من حيث سكنتم وتفسير له .

﴿ ولا تضاروهن ﴾ أى فى السكنى ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ وتلجثوهن إلى الخروج ﴿ وإن كن ﴾ أى المطلقات ﴿ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ فيخرجن من العدة أما المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ بعد ذلك ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ على الإرضاع ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى تشاوروا وحقيقته ليأمر بعضكم بعضا بحمىل فى الإرضاع .

والأجر ولا يكن من الأب مما كسبه ولا من الأم معاصرة ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي تضايقتم ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ أي فستوجد ولا تعوز مرضعة أخرى وفيه معاتبة للأم على المعاصرة ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ وإن قل أي لينفق كل واحد من المومنين والمعسر ما يملكه وسعه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾ جل أو قل فإنه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها وفيه تطيب لقلب المعسر وترغيب له في بذل مجهوده وقد أكد ذلك بالوعد حيث قيل ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ أي عاجلا أو آجلا ﴿ وكأى من قرية ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿ عنت ﴾ أي أعرضت ﴿ عن أمر ربها ورسوله ﴾ بالعتو والتمرد والعناد ﴿ لحاسبناها حسابا شديدا ﴾ بالاستقصاء والتنفير والمناقشة في كل فقير وقطمير ﴿ وعذبناها عذابا نكرا ﴾ أي منكرا عظيما وقرئ نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحققهما كما في قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة) ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ هاتلا لا خسرو راده ﴿ أعد لهم عذابا شديدا ﴾ تكرر للوعيد وبيان لكونه مترقبا كما أنه قيل أعد الله لهم هذا العذاب ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ ويجوز أن يراد بالحساب استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحائف الحفظلة وبالعذاب ما أصابهم عاجلا وقد جوز أن يكون عنت وما عطف عليه صفة للقرية وأعد لهم جوابا لقوله تعالى كأى ﴿ الذين آمنوا ﴾ منصوب بإضمار أعنى بيانا المنادى أو عطف بيان له أو نعت وفي إبداله منه ضعف لتعذر حمله .

﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ هو جبريل عليه السلام سمي به لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر الذي هو القرآن كما ينهى عنه أبدال قوله تعالى ﴿ رسولا ﴾ منه أو لأنه مذكور في السموات وفي الأسم أو أريد بالذكر الشرف كما في قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) كأنه في نفسه شرف إما لأنه شرف المنزل عليه وإما لأنه هو مجد وشرف عند الله تعالى كقوله تعالى (عند ذى العرش مكين) أو هو النبي عليه الصلاة والسلام وعليه الأكثر عبر عنه بالذكر لمواظبته على

تلاوة القرآن أو تبليغه والتذكير به وعبر عن إرساله بالإيزال بطريق الترشيع أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه وأبدل منه رسولا للبيان أو هو القرآن ورسولا منصوب بمقدر مثل أرسل أو يذكر على إعمال المصدر المنون أو بدل منه على أنه بمعنى الرسالة وقوله تعالى ﴿ يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ نعت لرسولا وآيات الله القرآن ومبينات حال منها أى حال كونها مبينات لكم ماتحاجون إليه من الأحكام وقرىء مبينات أى بينها الله تعالى لقوله تعالى (قد بينا لكم) الآيات واللام في قوله تعالى :

﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ متعلقة ببتلو أو بأنزل وفاعل يخرج على الأول ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام أو ضمير الجلالة والموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله أى ليحصل لهم الرسول أو الله عز وجل ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه سيؤمن ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ﴾ حسبما بين في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وقرىء تدخله بالفور وقوله تعالى ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ حال من مفعول يدخله والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿ قد أحسن الله له رزقا ﴾ حال أخرى منه أو من الضمير في خالدين بطريق التداخل وإفراد ضمير له قد مر وجهه وفيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله المؤمنين من الثواب ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ ومن الأرض مثلن ﴾ أى خلق من الأرض مثلن في العدد وقرىء مثلن بالرفع على أنه مبتدأ ومن الأرض خبره واختلاف في كيفية طبقات الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وفي كل أرض سكان من خلق الله تعالى وقال الضحاك مطبقة بعضها فوق بعض من غير فتوق بخلاف السموات قال القرطبي والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه كما روى البخارى وغيره من أن كعبا حلف

بالذى فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر من فيها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق قال نعم قال فما الخلق قال إما ملائكة أو جن قال الماوردى وعلى هذا تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا دون من عداهم وإن كان فيهم من يعقل من خلق وفى مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها والثانى أنهم لا يشاهدون السماء وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه وحكى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها سبع أرضين متفرقة بالبحار وتظل الجميع السماء ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ أى يجرى أمره وقضاؤه بينهن وينفذ ملكه فيهن وعن قتادة فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه وقيل هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره وقرئ ينزل الأمر ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴾ متعلق بخلق أو يبتنزل أو بمضمرة يعمها أى فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ لاستحالة صدور الأفاعيل المذكورة من ليس كذلك ويجوز أن يكون العامل فى اللام بيان ما ذكر من الخلق وتنزل الأمر أى أوحى ذلك وبينه لتعلموا بما ذكر من الأمور التى تشاهدونها والتى تلتقونها من الوحي من عجائب المصنوعات أنه لا يخرج عن قدرته وعلوه شيء ما أصلا وقرئ ليعلموا عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿سورة التحريم﴾

مدنية ، وآيها ثلثا عشرة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ روى أن النبي عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمى على فقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمي فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين وقيل خلا بها في يوم حفصة فأرضاهما بذلك واستكتمها فلم تسكتم فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل عليه السلام فقال راجعها فإنها صوامة قوامة وإنما لمن نسائك في الجنة وروى أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلا في بيت زينت جعش فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا نشم منك ريح المغافير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره النفل لحرم العسل فنزلت فمعهذه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ﴿تبتغي مرضاة أرواجك﴾ إما تفسير لتحرم أو حال من فاعله أو استئناف ببيان ما دعاه إليه مؤذن بعدم صلاحيته لذلك ﴿والله غفور﴾ مبالغ في الغفران قد غفر لك هذه الزلة ﴿رحيم﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك به وإنما عاتبك بحاماة على عصمتك ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أى شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقده بالكفارة أو بالاستئناء متصلا حتى لا يحث والاول هو المراد ههنا ﴿والله مولاكم﴾ سيدكم ومتولى أموركم ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الحكيم﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبا تقتضيه الحكمة ﴿ولما أسر النبي إلى بعض أزواجه﴾ وهى حفصة ﴿حديثا﴾ أى حديث تحريم مارية أو العسل أو أمر الخلافة ﴿فلما نبأت به﴾ أى أخبرت حفصة عائشة بالحديث وأفشته إليها وقرىء أنبات به ﴿وأظهره الله عليه﴾ أى أطلع الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام على إفشاء حفصة ﴿عرف﴾

أى النبى عليه الصلاة والسلام حفصة)) بعض الحديث الذى أفشته قيل هو حديث الإمامة روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لها ألم أقل لك اكتمى على قالت والذى بعثك بالحق ما ملكك نفسى فرحا بالكرامة التى خص الله تعالى بها أباه)) (وأعرض عن بعض)) أى عن تعريف بعض تكراً قيل هو حديث مارية)) فلما نبأها به)) أى أخبر النبى عليه الصلاة والسلام حفصة بما عرفه من الحديث)) قالت من أنباك هذا)) أى إشفاءها للحديث)) قال نبأنى المعلم الخبير)) الذى لا تخفى عليه خافية .

((إن تتوبا إلى الله)) خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للبالغة فى العتاب)) فقد صغت قلوبكما)) إفاء للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق أى فقد وجد منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه وقرىء فقد زاغت)) وإن تظاهرا عليه)) باسقاط إحدى النامين وقرىء على الأصل وبشديد الظاء وتظاهرا أى تعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإشفاء سره)) فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين)) أى فإن يعدم من يظاهاه فإن الله هو ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه نال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وقد روى ذلك مرفوعاً إلى النبى عليه الصلاة والسلام وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللاتق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فإنه جمع بين الظهير المعنوى والظهير الصورى كيف لا وإن جبريل ظهير له عليهما السلام يؤيده بالتأييدات الإلهية وهما وزيراه وظهيراه فى تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة ولأن بيان مظاهرتها له عليه الصلاة والسلام أشد تأثيراً فى قلوب بذهنهما وتوهمنا لأمرهما فكان حقيقاً بالتقديم بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين كما هو المشهور)) والملائكة)) مع تسكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم)) بعد ذلك)) قيل أى بعد نصره الله عز وجل وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين)) ظهير)) أى فوج

مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يماديه فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهر أوه وما ينبى عنه قوله تعالى بعد ذلك من فضل نصرتهن على نصره غيرهم من حيث أن نصره الكل نصره الله تعالى وإن نصرته تعالى بهم وبمظاهرهم أفضل من سائر وجوه نصرته هذا ما قالوه ولعل الأنسب أن يجعل ذلك إشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة ويكون بيان بعدية مظاهرة الملائكة تداركا لما يوهمه الترتيب الذكري من أفضلية المتقدم فمكانه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين وسائر الملائكة بعد ذلك ظهير له عليه الصلاة والسلام إنيذانا بعلو رتبة مظاهرتهن وبعد منزلتها وخبرا لفصلها عن مظاهرة جبريل عليه السلام.

(عسى ربه أن طلقكن أن يبدله) أى يعطيه عليه السلام بذلك (أزواجا خير منكن) على التغليب أو تعميم الخطاب وليس فيه ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصه وإن فى النساء خيرا منهن فإن تعليق طلاق الكل لا ينافى تطليق واحدة وما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه وقرىء أن يبدله بالتشديد (مسلمات مؤمنات) مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات (قانتات) مصليات أو مواظبات على الطاعة (ناتبات) من الذنوب (عابدات) متعبدات أو متذللات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام (سائحات) صائمات سمي الصائم سائحا لأنه يسيح فى النهار بلا زاد أو مهاجرات وقرىء سبحات (ثيبات وأبكارا) وسط بينهما العاطف لتنافيهما .

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصى وفعل الطاعات (وأهلكم) بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم وقرىء أهلكم عطفا على واو قوا فيكون أنفسكم عبارة عن أنفس الكل على تغليب المخاطبين أى قوا أتم وأهلكم أنفسكم (نارا وقودها الناس والحجارة) أى نارا تتقدمها اتقاد غيرها بالخطب وأمر المؤمنين باتقاء هذه النار المعدة للكافرين كما نص عليه فى سورة البقرة المبالغة فى التحذير (عليها ملائكة) أى تلى أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية (غلاظ

شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفعال أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ أى أمره على أنه بدل اشتغال من الله أو فيما أمرهم به على نزع الخافض أى لا يمتنعون من قبول الأمر ويلتزمونه ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى ويؤدون ما يؤمرون به من غير تامل ولا توان وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه أى يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعاصى بعد ما نهيتهم عنهما أشد النهى وأمرتم بالإيمان والطاعة فلا عذر لكم قطعاً .

دعوة إلى التوبة

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ أى بالغة فى النصح وصفت التوبة بذلك على الإسناد المجازى وهو وصف التائبين وهو أن ينصحووا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقتها وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين عليها مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون فى قبسح من القبائح موطنين أنفسهم على ذلك بحيث لا يلويهم عنه صارف أصلا عن على رضى الله عنه أن التوبة يجمعها ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن لا تعود وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى المعصية وأن تذيبها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية وعن شهر بن حوشب أن لا يعودولو حز بالسيف وأحرق بالنار وقيل نصوحا من نصاحرة الثوب أى توبة ترفو خروقتك فى دينك وترم خلك وقيل خالصة من قوطهم غسل ناصح إذا خلص من الشمع ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أى تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها واستعماله الجدة والعزيمة فى العمل بمقتضياتها وقرىء توبيا نصوحا وقرىء نصوحا وهو مصدر نصح فإن النصح والنصوح كالشكر والشكور أى ذات نصوح أو تنصح نصوحا أو توبوا لتنصح أنفسكم على أنه مفعول له ﴿ عمى ربكم أن يكفر عنكم ﴾ (٢٣ - أبو السعود - خامس)

سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) ورود صيغة الأطلاق للجري على سنن الكبرياء والإشعار بأنه تفضل والتوبة غير موجبة له وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة .

(يوم لا يخزي الله النبي) ظرف ليدخلكم (والذين آمنوا معه) عطف على النبي وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق واستحجاد إلى المؤمنين على أن عصمهم من مثل حالهم وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى (نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم) أى على الصراط وهو على الأول استئناف أو حال وهذا قوله تعالى (يقولون) ملح وعلى الثانى خبر آخر للموصول أى يقولون إذا طغى نور المنافقين (ربنا أنعم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شئ قدير) وقيل يدعون تقربا إلى الله مع تمام نورهم وقيل تفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون لإتمامه تفضلا وقيل السابقون إلى الجنة يملأون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك الذين يقولون ربنا أنعم لنا نورنا .

دعوة إلى الجهاد

(يا أيها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة (واغلظ عليهم) واستعمل المشوثة على الفريقين فيما تجاهدان من القتال والمحاجة (وماؤام جهنم) سيرون فيها عذابا غليظا (وبئس المصير) أى جهنم أو مصيرهم (ضرب الله مثلا للذين كفروا) ضرب المثل في أمثال هذه المواقع عبارة عن إيراد حالة غريبة ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة أى جعل الله مثلا لحال هؤلاء الكفرة حالا وما لا على أن مثلا مفعول ثان لضرب واللام متعلقة به وقوله تعالى :

(امرأة نوح وامرأة لوط) أى حالهما مفعوله الأول آخر عنه ليتصل به ما هو شرح وتفصيل لحالهما ويتضح بذلك حال هؤلاء فقوله تعالى (كانتا تحت

عبدین من عبادنا صالحین ﴿ بیان لحالها الداعية لهما إلى الخير والصلاح أى كاتبا في عصمة نبيين عظيمي الشأن متمكنتين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة وحيازة سعادتهما وقوله تعالى ﴿ نغائتاها ﴾ بیان لما صدر عنهما من الجنابة العظيمة مع تحقق ما ينفيها من صحبة النبي أى خائتاها بالكفر والنفاق وهذا تصوير لحالها المحاكية لحال هؤلاء الكفرة في خيانتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمسكهم التام من الإيمان والطاعة وقوله تعالى ﴿ فلم يغنيا ﴾ الخ بیان لما أدى إليه خيانتها أى فلم يغن النبيان ﴿ عنهما ﴾ بحق الزواج ﴿ من الله ﴾ أى من عذابه تعالى ﴿ شيئا ﴾ أى شيئا من الإغناء ﴿ وقيل ﴾ لهما عند موتها أو يوم القيامة ﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ أى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام .

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ أى جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفرة لا تضرهم حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله وهي في أعلى غرف الجنة وقوله تعالى ﴿ إذ قالت ﴾ ظرف لمحدوف أشير إليه أى ضرب الله مثلا للمؤمنين حالها إذ قالت ﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ قريبا من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين . روى أنها لما قالت ذلك أريت بيتها في الجنة من درة وانزع روحها ﴿ ونجى من فرعون وعمله ﴾ أى من نفسه الخبيثة وعمله السيئ ﴿ ونجى من القوم الظالمين ﴾ من القبط التابعين له في الظلم ﴿ ومريم ابنة عمران ﴾ عطف على امرأة فرعون تسلية للأرامل أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع كون قومها كفارا ﴿ التي أحصت فرجا فنفخنا فيه ﴾ وقرىء فيها أى مريم ﴿ من روحنا ﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصلا ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ بصحفه المنزلة أو بما أوحى إلى أنبيائه ﴿ وكتبه ﴾ بجميع كتبه المنزلة وقرىء بكلمة الله وكتابه أى بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل ﴿ وكانت من القاتنين ﴾ أى من عداد

المواظبين على الطاعة والتمذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم لأنها من أعقاب هارون أخى موسى عليهما السلام .

وعن النبي عليه الصلاة والسلام : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلوات الله عليه وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التحريم آناه الله توبة نصاحا .

سورة الملك

مكية ، وتسمى الواقعة والمنجية لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر وآياتها ثلاثون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك الذى بيده الملك) البركة والنماء والزيادة حسية كانت أو عقلية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبتها إلى الله عز وجل على المعنى الأول وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله وصيغة التفاعل للمبالغة فى ذلك فإن ما لا يتصور نسبته إليه تعالى من الصيغ كالتكبر ونحوه إنما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها وعلى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته من فنون الخيرات والصيغ حيث يمحور أن تكون لإفادة تمام تلك الخيرات وازديادها شيئا فشيئا وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية السكال وإنباتها عن نهاية التعظيم لم يحز استعمالها فى حق غيره سبحانه ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تبارك وتعالى

وإسنادها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيز الصلة على تحقق مضمونها واليد مجاز عن القدرة النامة والاستيلاء الكامل أى تعالى وتعاظم بالذات عن كل ماسواه ذاتا وصفة وفعلًا الذى بقبضة قدرته التصرف السكلى فى كل الأمور ﴿ وهو على كل شئ قدير ﴾ من الأشياء ﴿ مبالغ فى القدرة عليه يتصرف فيه حسب مقتضيه شئئنه المبنية على الحكم البالغة والجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضمونها مفيدة لجريان أحكام ملكة تعالى فى جلال الأمور ودقائقها وقوله تعالى .

﴿ الذى خالق الموت والحياة ﴾ شروع فى تفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابقائهما على قوانين الحكم والمصالح واستتبعهما لغايات جليلة والموصول بدل من الموصول الأول داخل معه فى حكم الشهادة بتعالیه تعالى والموت عند أصحابنا صفة وجودية مضادة للحياة وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه تعالى خلق الموت فى صورة كبش أملح لا يمر بشئ ولا يجد رائحته شئ إلا مات وخلق الحياة فى صورة فرس بقاء لا تمر بشئ ولا يجد رائحتها شئ إلا حي فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير وقيل هو عدم الحياة فعنى خلقه حينئذ تقديره أو لإزالة الحياة وأياً ما كان فالأقرب أن المراد به الموت الطارىء وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مداريتهما لما ينطق به قوله تعالى :

﴿ ليعلمكم أيكم أحسن عملاً ﴾ فإن استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل بما لا ريب فيه مع أن نفس العمل لا يتحقق بدون الحياة الدنيوية وتقديم الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل واللام متعلقة بخلق أى خلق موتكم وحياتكم على أن الألف واللام عوض عن المضاف إليه ليعاملكم معاملة من يحتقركم أيكم أحسن عملاً فيحازيكم على مراتب متفاوتة حسب تفاوت طبقات علومكم وأعمالكم فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أيكم أحسن عملاً وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فإن لكل من القلب والقلب عملاً خاصاً به فكما أن الأول أشرف من الثانى كذلك الحال

في عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد أثر ذى
 أثير وإنما طريقها النظري التفكير في بدائع صنع الله تعالى والتدبر في آياته
 المنصوبة في الأنفس والآفاق وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال
 « لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل
 الأرض » قالوا وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله عز وجل الذي هو عمل
 القاب ضرورة أن أحدا لا يقدر على أن يعمل بمجوارحه كل يوم مثل عمل
 أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور
 الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من
 معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل
 وقيل بطريق الاستعارة التبعية وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لهم
 باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن فقط
 الإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصل من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان
 المحسنين مع تحقق أصل الإيمان والطاعة في الباتين أيضاً لكمال تعاضد الموجبات
 له وأما الإعراض عن ذلك فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن
 الانتظام في سلك الغاية الأنعال الإلهية وإنما هو عمل يهدر عن عامله بسوء
 اختياره من غير مصلح له ولا تقرب وفيه من الترغيب في الترقى إلى معارج
 العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة تقاضها ما لا يخفى (وهو
 العزيز) الغالب الذى لا يفوته من أساء العمل (الغفور) لمن تاب منهم .

(الذى خلق سبع سموات) قيل هو نعمت للعزیز الغفور أو بيان أو
 بدل والأوجه أنه نصب أو رفع على المدح متعلق بالموصوفين السابقين معنى وإن
 كان منقطعا عنهما إعرابا كما مر تفصيله في قوله تعالى (الذين يؤمنون
 بالغيب) من سورة البقرة منتظم معهما في سلك الشهادة بآماله سبحانه
 ومع الموصول الثانى فى كونه مدارا للبلوى كما نطق به قوله تعالى (وهو الذى
 خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن
 عملا) وقوله تعالى :

(طباقا) صفة لسبع سموات أى مطابقة على أنه مصدر طابقت النعل إذا خصفتها وصف به المفعول أو مصدر مؤكد لمحدوف هو صفتها أى طابقت طباقا وقوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) صفة أخرى لسبع سموات وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلو الحكم وبأنه تعالى خلقها بقدرته القاهرة رحمة وتفضلا وبأن في إبداعها نعمة جليلة أو استئناف والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ومن لئلا كيد النفي أى ما ترى فيه من شيء من تفاوت أى اختلاف وعدم تناسب من القوت فإن كلا من المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر وقرئ من تفوت ومعناها واحد وقوله تعالى (فارجع البصر هل ترى من فطور) متعلق به على معنى التسيب حيث أخبر أولا بأنه لا تفاوت في خلقهن ثم قيل فارجع البصر حتى يتضح لك ذلك بالمعينة ولا يبق عندك شبهة ما والفطور الشقوق والصدوع جمع فطر وهو الشق يقال فطره فانفطر .

(ثم ارجع العصر كرتين) أى رجعتين أخريين في إرتداد الخلل والمراد بالثنائية التكرير والتكثير كما في لبيك وسعديك أى رجعة بعد رجعة وإن كثرت (ينقلب إليك البصر غاسقا) أى بعيدا محروما من إصابتها ما التمسه من العيب والخلل كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقفاء (وهو حسير) أى كليل لاطول المعاودة وكثرة المراجعة وقوله تعالى :

(ولقد زينا السماء الدنيا) بيان لكون خلق السموات في غاية الحسن والبهاء إثر بيان خلوها عن شائبة القصور وتهدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها أى وبالله لقد زينا أقرب السموات إلى الأرض (بمصابيح) أى بكواكب مضيئة بالليل لإضاءة السرج من السيارات والثوابت تترامى كأن كلها مركوزة فيها مع أن بعضها في سائر السموات وما ذاك إلا لأن كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق تحار في فهمه الأفكار وطراز فائق نهيم في دركه الأنظار (وجعلناها رجوما للشياطين) وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب وقيل معناه وجعلناها

ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون ولا يساعده المقام والرجوم جمع رجم بالفتح وهو ما يرمي به ﴿ وأعتدنا لهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب السعير ﴾ بعد الاحتراق في الدنيا بالشهب ﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿ عذاب جهنم ﴾ وقرئ بالنصب على أنه عطف على عذاب السعير وللذين على لهم ﴿ وبئس المصير ﴾ أى جهنم ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها ﴾ أى لجهنم وهو متعلق بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى ﴿ شقيقا ﴾ لأنه في الأصل صفته فلما قدمت صارت حالا أى سمعوا كأننا لها شقيقا أى صوتا كهصوت الحخير وهو حسيسها المنكر الفظيع قالوا الشقيق في الصدر والزفير في الحلق ﴿ وهى تفور ﴾ أى والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه وجعل الشقيق لأهلها منهم ومن طرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشقيق ﴾ يرد قوله تعالى :

﴿ تكاد تميز ﴾ أى تتميز وتتفرق ﴿ من الغيظ ﴾ أى من شدة الغضب عليهم فإنه صريح في أنه من آثار الغضب عليهم كما في قوله تعالى ﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ فأين هو من شقيقهم الناشئ من شدة ما يقاسونه من العذاب الأليم والجملة إما حال من فاعل تفور أو خبر آخر وقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج ﴾ استئناف مسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها وقيل حال من ضميرها أى كلما ألقى فيها جماعة من الكفرة .

﴿ سألهم خزنتها ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع لينذروا عذابا فوق عذاب وحسرة على حسرة ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا كما وقع في سورة الزمر ويعرب عنه جوابهم أيضا ﴿ قالوا ﴾ اعترافا بأنه تعالى قد أراح علمهم بالهكاية ﴿ بلى قد جاءنا نذير ﴾ جامع بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير وتحسرا على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم وتمهيدا لبيان ما وقع منهم من التفریط تندما واغتما على ذلك أى قال كل فوج من تلك الأفواج قد جاءنا نذير أى واحد حقيقة أو حكما كأنبياء بنى إسرائيل فإنهم في حكم نذير واحد فأنذرنا وتلا علينا ما نزل آية تعالى من آياته .

﴿ فكنذبنا ﴾ ذلك النذر في كونه نذيرا من جهة تعالى ﴿ وقلنا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات لإفراطا في التكذيب وتماديا في النكير ﴿ ما نزل الله ﴾ على أحد ﴿ من شيء ﴾ من الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم ﴿ إن أنتم ﴾ أى ما أنتم فى ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إلا فى ضلال كبير ﴾ بعيد عن الحق والصواب وجمع ضمير الخطاب مع أن مخاطب كل فوج نذيره لتغليبه على أمثاله مبالغة فى التكذيب وتماديا فى التضليل كما يفى عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه فإنه ملوح بعمومه حتما وأما إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل فأمر تحقيقى يصار إليه تهويل ما ارتكبوا من الجنائيات لا مساغ لاعتباره من جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم كيف لا وهو منوط بملاحظة إجماع النذر على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام وأين هم من ذلك وقد حال الجريض دون القريض هذا إذا جعل ما ذكر حكاية عن كل واحد من الأفواج وأما إذا جعل حكاية عن الكل فالنذر إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف عام أى أهل نذر أو منعوت به فيتفق كلا طرفى الخطاب فى الجمعية ومن اعتبر الجمعية بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأول ولم يخص اعتبارها بالتقدير الأخير فقد اشتبه عليه الشئون واختلط^(١) به الظنون وقد جوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول على أن مرادهم بالضلال ما كانوا عليه فى الدنيا أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسمية له باسم سببه وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة فتأمل وكن على الحق المبين .

﴿ وقالوا ﴾ أيضا معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لو كنا نسمع ﴾ كلاما ﴿ أو نعقل ﴾ شيئا ﴿ ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى فى عذابهم ومن أتباعهم وهم الشياطين لقوله تعالى ﴿ وأعدنا لهم عذاب السعير ﴾ كأن الخزنة قالوا لهم فى تضاعيف التوبيخ ألم تسمعوا آيات ربكم ولم تعقلوا معانيها حتى

(١) فى ١٤ : اشتبهت واختلطت .

لا تكذبوا بها فأجابوا بذلك ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ الذي هو كفرهم وتكذيبهم
بآيات الله ورسوله ﴿فسحقا﴾ بسكون الحاء وقرىء بضمها مصدر مؤكد
لما لفعل متعد من المزيدي بحذف الزوائد كما في قعدك الله أى فأسحقهم الله أى
أبعدهم من رحمته سحقاً أى إسحقاً أو لفعل مترتب على ذلك الفعل أى فأسحقهم
الله فسحقوا أى بعدوا سحقاً أى بعدا كما في قول من قال :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف
أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ وعلى هذين الوجهين قوله تعالى وأنبتها
نباتا حسنا واللام في قوله تعالى ﴿لأصحاب السعير﴾ للبيان كما في هيت لك
ونحوه والمراد بهم الشياطين والياخلون في عدادهم بطريق التخليب ﴿إن الذين
يخشون ربهم بالغيب﴾ أى يخافون عذابه غائبا عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين
الناس أو بما خفي منهم وهو قلوبهم ﴿لهم مغفرة﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وأجر
كبير﴾ لا يقادر قدره .

﴿واسرؤا قواكم أو جهرؤا به﴾ بيان لتساوي السر والجهر بالنسبة إلى
عليه تعالى كما في قوله (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) قال ابن عباس
رضى الله عنهما نزلت في المشركين كانوا يتألمون من النبي عليه الصلاة والسلام
فيؤجى إليه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم لبعض أسرؤا قواكم كيلا
يسمع رب محمد فقيل لهم أسرؤا ذلك أو أجهرؤا به فإن الله يعلمه وتقديم السر
على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في
بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه
بما يجهرؤن به مع كونها في الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس
بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى أو
لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شيء يجهر به إلا وهو أومبأذيه
مضمئر في القلب يتعلق به الأسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم
على تعلقه بحالته الثانية وقوله تعالى ﴿إنه علم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله
وتقرير له وفي صيغة الفعل وتحلية الصدور بلام الاستفراق ووصف الضمائر

بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه كأنه قيل إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدر والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها وقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة عليه تعالى بالمضمر والمظهر أى ألا يعلم السر والجهر من أوجد بموجب حكمته جميع الأشياء التي ههنا جملة ما وقوله تعالى ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكدة للإنكار والنفي أى ألا يعلم ذلك والحال أنه المتوصل عليه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ويجوز أن يكون من خلق منصوبا والمعنى ألا يعلم الله من خلقه والحال أنه بهذه المثابة من شمول العلم ولا مساغ لإخلاء العلم عن المفعول بإجرائه مجرى يعطى ويمنع على معنى ألا يكون عالما من خلق لأن الخلق لا يتأتى بدون العلم لخلو الحال حينئذ من الإفادة لأن نظم الكلام حينئذ ألا يكون عالما وهو مبالغ في العلم ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ لينه يسهل عليكم السلوك فيها وتقديم لكم على مفعولى الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما عند كون المقدم بما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن والفاء في قوله تعالى ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ لترتيب الأمر على الجعل المذكور أى فاسلكوا في جوانبها أو جبالها وهو مثل لفرط التذليل فإن منكب البعير أرق أعضائه وأنبأها عن أن يظأه الراكب بقدمه فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يتأتى المشى في مناكبها لم يبق منها شيء لم يتذلل ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ واتمسوا من نعم الله تعالى ﴿ وإليه النشور ﴾ أى المرجع بعد البعث لا إلى غيره فبالقوا في شكر نعمه وآلائه .

﴿ أأنتم من فى السماء ﴾ أى الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم أو الله سبحانه على تأويل من فى السماء أمره وقضاؤه أو على زعم العرب حيث كانوا

يزعمون أنه تعالى في السماء أى أأمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعال عن
المسكان ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها
ونأكلون من رزقه لكفرانكم تلك النعمة أى يقابلها ملتبسة بكم فيغيبككم فيها
كما فعل بقارون وهو بدل اشتال من آمن وقيل هو على حذف الجار أى من أن
يخسف ﴿ فإذا هي تمور ﴾ أى تضطرب ذهابا ومجيئا على خلاف ما كانت عليه
من الذل والاطمئنان ﴿ أم أمنتم من في السماء ﴾ لأضراب عن التهديد بما ذكر
وانتقال إلى التهديد بوجه آخر أى بل أأمنتم من في السماء ﴿ أن يرسل عليكم
حاصبا ﴾ أى حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل وقيل
ريحا فيها حجارة وحصاب كأنها تقاع (١) الحصاب لشدها وقوتها وقيل هى سحب
فيها حجارة ﴿ فستعلون ﴾ عن قريب البتة ﴿ كيف نذير ﴾ أى إنذارى عند
مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ وقرىء فسيعلمون بالياء
﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة
كقوم نوح وعاد وأضرابهم والانتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم
﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب أى كان على غاية
الهور والفضاعة وهذا هو مورد التأكيد القسمى لا تكذيبهم فقط. وفيه
من المبالغة في تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه
ما لا يخفى .

﴿ أولم يروا ﴾ أغفلوا ولم ينظروا ﴿ إلى الطير فوقهم صافات ﴾
باسطات أجنحتهن (٢) في الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطنها صفتن قوادمها
صفا (ويقبضن) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن حينما خفينا للاستظهار به على
التحرك وهو السر في إثارة يقبض الدال على تجدد القبض تارة بعد تارة على قابضات
﴿ ما يسكن ﴾ في الجو عند الصف والقبض على خلاف مقتضى الطبع
﴿ إلا الرحمن ﴾ الواسع رحمته كل شيء بأن برأهن على أشكال وخصائص

(١) في ١١ : كانت تقاع . (٢) في ١١ : أجنحتهن .

وهيأهن للجرى في الهواء والجملة مستأنفة أو حال من الضمير في يقبضن ﴿لأنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيفية إبداع المبدعات وتدير المصنوعات وقوله تعالى ﴿أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ تبكيت لهم بنفى أن يكون لهم ناصر غير الله تعالى كما يلوح به التعرض لعنوان الرحمانية وبعضه قوله تعالى ﴿ما يسكنهن إلا الرحمن﴾ أو ناصر من عذابه تعالى كما هو الأنسب بما سيأتى من قوله تعالى إن أمسك رزقه كقوله تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ في المعنيين معا خلا أن الاستفهام هناك متوجه إلى نفس المانع وتحققه وهنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهن بإظهار عجزهم عن تعيينه وأم منقطعة مقدرة بيل المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عز وجل إلى التبكيت بما ذكر والاتفات للتشديد في ذلك ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها لأن ما بعدها من الاستفهامية وهي مبتدأ وهذا خبره والموصول مع صلته صفته كما في قوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده وإيثار هذا لتحقير المشار إليه وينصركم صفة لجند باعتبار لفظه ومن دون الرحمن على الوجه الأول إما حال من فاعل ينصركم أو نعمت لمصدره وعلى الثانى متعلق بينصركم كما في قوله تعالى من ينصرنى من الله فالمنى بل من هذا الحقير الذى هو فى زعمكم جند لكم ينصركم متجاوزا نصر الرحمن أو ينصركم نصراً كأننا من دون نصره تعالى أو ينصركم من عذاب كائن من عند الله عز وجل وتوهم أن أم معادلة لقوله تعالى أو لم يروا الخ مع القول بأن من استفهامية مما لا تقرب له أصلاً وقوله تعالى ﴿إن الكافرون إلا فى غرور﴾ اعتراض مقرر لما قبله زاع^(١) عليهم ما هم فيه من غاية الضلال أى ما هم فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط أو أن آلهتهم تحفظهم من بأس الله إلا فى ضرور عظيم وضلال فاحش من جهة الشيطان ليس لهم فى ذلك شيء يعتد به فى الجملة والاتفات إلى الغيبة

(١) فى ١١ : ينعى عليهم .

للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم والإظهار في موقع الإضمار لذنوبهم بالكفر وتعليل غرورهم به والكلام في قوله تعالى :

﴿ أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك ﴾ أي الله عز وجل ﴿ رزقه ﴾ يأمسك المطر وسائر مباديه كالذي مر تفصيله خلا أن قوله تعالى ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ منبئ عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قبل إثبات التبعيت والتعجيز لم يتأثروا بذلك ولم يذعنوا للحق بل لجوا وتمادوا في عتو أي عناد واستكبار وطفیان ونفور أي شراد عن الحق وقوله تعالى ﴿ أفن يمشى مكباً على وجهه أهدى ﴾ الخ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحالهما وتحقيقاً لشأن مذهبهما والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم وخرورهم في مهاوى الغرور وركوبهم متن عشواء العتو والنفور وعدم اهتدائهم في مسلك الحاجة إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة وأما بحسب المعنى فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقبل فهل من يمشى مكباً الخ والمكب الساقط على وجهه يقال أكب خر على وجهه وحقيقته صار ذا كعب ودخل في السكب كأقشع الغمام أي صار ذا قشع والمعنى أفن يمشى وهو يعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلال قوله أهدى إلى المقصد الذي يؤمه .

﴿ أم من يمشى سوياً ﴾ أي قائماً سالماً من الخطب والعتار ﴿ على صراط مستقيم ﴾ مستوى الأجزاء لا عوج فيه ولا انحراف قيل خير من الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه ولا حاجة إلى ذلك فإن الثانية معطوفة على الأولى عطف المفرد كقوله أزيد أفضل أم عمرو وقيل أريد بالمكب الاعمى وبالسوى البصير وقيل من يمشى مكباً هو الذي يحشر على وجهه إلى النار ومن يمشى سوياً الذي يحشر على قدميه إلى الجنة ﴿ قل هو الذي أنشأكم ﴾ لإنشاء بديعاً ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا بها فيها من الأوامر والنواهي وتمتثلوا بمواعظها ﴿ والأبصار ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية

الشاهدة بشئون الله عز وجل ﴿والأفئدة﴾ لتفكروا بها فيما تسمعون
وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة
﴿قليلًا ما تشكرون﴾ أى باستعمالها فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة
وقليلًا نعمت لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى شكرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا
تشكرون وقيل القلة عبارة عن العدم ﴿قل هو الذى ذرأكم فى الأرض﴾
أى خلقكم وكثركم فيها لا غيره ﴿واليه تحشرون﴾ للجزاء لا إلى غيره
اشتراكا أو استقلالًا فابنوا أموركم على ذلك ﴿ويقولون﴾ من فرط عتوهم
وعنادهم ﴿مقى هذا الوعد﴾ أى الحشر الموعود كما بنى عنه قوله تعالى
واليه تحشرون ﴿إن كنتم صادقين﴾ يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام فى الوعد وتلاوة
الآيات المتضمنة له وجواب الشرط محذوف أى إن كنتم صادقين فيما تخبرونه
من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته ﴿قل إنما العلم﴾ أى العلم بوقته ﴿عند
الله﴾ عز وجل لا يطالع عليه غيره كقوله تعالى ﴿قل إنما علمها عند ربى﴾
﴿ولما أنا نذير مبين﴾ أنذركم وقوع الموعود لا محالة وأما العلم بوقت وقوعه
فليس من وظائف الإنذار والفاء فى قوله تعالى :

﴿فلما رأوه﴾ فصبيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما
كأنه قيل وقد أتاهم الموعود فرأوه فلما رأوه إلى آخره كما مر تحقيقه فى قوله
تعالى فلما رآه مستقرا عنده إلا أن المقدر هناك أمر واقع مرتب على ما قبله
بالفاء وهنا أمر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف وقوله تعالى
﴿زلفة﴾ حال من مفعول رأوا إما بتقدير المضاف أى ذا زلفة وقرب
أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى مزدلفا أو على أنه مصدر نعمت به بمبالغة
أو ظرف أى رأوه فى مكان ذى زلفة ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ بأن
غشيتهم السكابة ورهقها القتر والذلة ووضع الموصول موضع ضميرهم لزمهم
بالكفر وتعليل المساءة به ﴿وقيل﴾ توبيخا لهم وتشديدا لعذابهم ﴿هذا
الذى كنتم به تدعون﴾ أى تطلبونه فى الدنيا وتستعجلونه لإنكارها واستهزاء

على أنه تفتعلون من الدعاء وقيل هو من الدعوى أى تدعون أن لا بعث ولا حشر وقرىء تدعون هذا وقد روى عن مجاهد أن الموعد عذاب يوم بدر وهو بعيد .

((قل أرأيتم)) أى أخبروني ((إن أهلكنى الله)) أى أمانتى والتعبير عنه بالإهلاك لما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ((ومن معى)) من المؤمنين ((أو رحمنا)) بتأخير آجالنا فنحن فى جوار رحمته متر بصون لإحدى^(١) الحسينيين ((فمن ينجى الكافرين من عذاب أليم)) أى لا ينجيكم منه أحد متنا أو بقينا ووضع الكافرين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليل نفي الإنجاء به ((قل هو الرحمن)) أى الذى أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها ((آمنا به)) وحده لما علمنا أن كل ما سواه إما نعمة أو منعم عليه ((وعليه توكلنا)) لا على غيره أصلا لعلنا بأن ما عداه كائننا ما كان بمزل من النفع والضرر ((فستعلمون)) عن قريب البتة ((من هو فى ضلال مبين)) منا ومنكم وقرىء فسيعلمون بالباء التحتانية ((قل أرأيتم)) أى أخبروني ((إن أصبح ماؤكم غورا)) أى غائرا فى الأرض بالكلية وقيل بحيث لا تناله الدلاء وهو مصدر وصف به ((فمن يأتكم بماء معين)) جار أو ظاهر سهل المأخذ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الملك فكأن به أحياء ليلة القدر .

سورة ن مكية ، وآيها ثلثان وخمسون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ن ﴾ بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر وبالفتح لانتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لأفعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا بإضمار أذكر لا فتحا كما سبق في فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنه علم للسورة ثم إن جعل اسما للحرف مسرودا على نمط التعديد للتحدى بأحد الطريقين المذكورين في موقعه أو اسما للسورة منصوبا على الوجه المذكور أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف فالواو في قوله تعالى ﴿ والقلم ﴾ للقسم وإن جعل مقسما به فهي للعطف عليه وأيا ما كان فإن أريد به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر وإن أريد به الجنس فاستحقاق ما في أيدي الناس لذلك لكثرة منافعه ولو لم يكن له مزية سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز قائلا لكفي به فضلا موجبا لتعظيمه وقرئ بإدغام النون في الواو ﴿ وما يسطرون ﴾ الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذكره وقيل للقلم على أن المراد به أصحابه كأنه قيل وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أن ما موصولة أو وسطهم على أنها مصدرية وقيل للقلم نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مجرى العقلاء لإقامته مقامهم وقيل المراد بالقلم ما خط اللوح خاصة والجمع للتعظيم وقوله تعالى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ جواب القسم والباء متعلقة بمضمر هو حال من الضمير في خبرها والعامل فيها معنى النفي كأنه قيل أنت بريء من الجنون لمنبسأ بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة والتعرض لوصف الربوبية المنبشة عن التبليغ إلى معارج السكالك مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والإيدان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها

والمراد تنزيهه عليه الصلاة والسلام عما كانوا ينسبونه عليه الصلاة والسلام
إليه من الجنون حسداً وعداوة ومكايمة مع جزمهم بأنه عليه الصلاة والسلام
في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية من حصانة العقل ورزانة الرأي
﴿ وإن لك ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم وتحملك لأعباء
الرسالة ﴿ لأجراً ﴾ لثواباً عظيماً لا يقادر قدره ﴿ غير ممنون ﴾ مع عظمه كقوله
تعالى ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أو غير ممنون عليك من جهة الناس فإنه عطاؤه تعالى بلا
توسط ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لا يدرك شأوه أحد من الخلق ولذلك
تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه
عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن ألسنت تقرأ القرآن (قد أفلح
المؤمنون) والملتان معطوفتان على جواب القسم ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ قال
ابن عباس رضي الله عنهما فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من
الباطل وقيل فستبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلبة الإسلام
واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيباً معظمياً في قلوب العالمين
وكونهم أذلة صاغرين قال مقاتل هذا وعيد بعذاب يوم بدر ﴿ بأيكم المفتون ﴾
أي أيكم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة أو بأيكم الجنون على أن المفتون مصدر
كالمنقول والمجلود أو بأي الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق
الكافرين أي في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم وهو تعريض بأبي جهل بن
هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما كقوله تعالى (سيعلمون غداً من الكذاب
الأشر) وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ تعليل لما نبئ
عنه ما قبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد وتأكيده لما فيه من الوعد
والوعيد أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله تعالى المؤدى إلى سعادة الدارين وهام
في تيه الضلال متوجهاً إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبدية وهذا هو المجنون الذي
لا يفرق بين النفع والضرر بل يحسب الضرر نفعاً فيؤثره والنفع ضرراً فيهجره
﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إلى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين عن كل محذور
وهم العقلاء المراجيح فيجزي كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب
والثواب وإعادة هو أعلم لزيادة التقرير والفناء في قوله تعالى ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾

ترتيب النهى على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه عليه الصلاة والسلام وضلالهم
أو على جميع ما فصل من أول السورة وهذا تبيين وإلحاح للتصميم على معاصاتهم
أى دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك أو نهى عن مداخلتهم
ومداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره عليه الصلاة والسلام استجلاباً لقلوبهم
لا عن طاعتهم حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ودوا لو تدهن ﴾ فإنه تعليل
للنهى أو للاتهام وإنما عبر عنها بالطاعة للبالغة في الزجر والتنفير أى أحبوا
لو تلائمهم وتسامحهم في بعض الأمور ﴿ فيدهنون ﴾ أى فهم يدهنون حينئذ
أو فهم الآن يدهنون طمعاً في ادهانك وقيل هو معطوف على تدهن داخل
في حيز لو والمعنى ودوا لو يدهنون عقيب ادهانك وبأباه ما سيأتى من بدتهم
بالإدهان على أن إدهانهم أمر محقق لا يناسب إدخاله تحت التمنى وأياً ما كان
فالمعتبر في جانبهم حقيقة الإدهان الذى هو إظهار الملاينة وإضمار خلافها
وأما في جانبه عليه الصلاة والسلام فالمعتبر بالنسبة إلى ودادتهم هو إظهار
الملاينة فقط وأما إضمار خلافها فليس في حيز الاعتبار بل هم في غاية الكراهة
له وإنما اعتباره بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام وفى بعض المصاحف فيدهنوا
على أنه جواب التمنى المفهوم من ودوا أو أن ما بعده حكاية لودادتهم وقيل على
أنه عطف على تدهن بناء على أن لو بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب
وينسبك منها وما بعدها مصدر يقع مفعولاً لودوا كأنه قيل ودوا أن تدهن
فيدهنوا وقيل لو على حقيقتها وجوابها وكذا مفعول ودوا أى ودوا ادهانك
لو تدهن فيدهنوا السروا بذلك .

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل تقديم هذا الوصف
على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر ﴿ مهين ﴾
حقير الرأى والتدبير ﴿ هماز ﴾ عياب طعان ﴿ مشاء بنميم ﴾ مضرب يقال
للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعادة والإفساد بينهم فإن النميم والغيمة
السعاية ﴿ مناع للخير ﴾ أى بخيل أو مناع للناس من الخير الذى هو الإيمان
موالطعة والإيفاق ﴿ معتد ﴾ متجاوز في الظلم ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام ﴿ غل ﴾

جاف غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ﴿ بعد ذلك ﴾ بعد ما عدا من مثالبه ﴿ زيم ﴾ دعى مأخوذ من الزنمة وهي الهنة من جلد الماعز تقطع فتختل متدلية في حلقها وفي قوله تعالى بعد ذلك دلالة على أن دعوته أشد معاييه وأقبح قبائحهم قيل هو الوليد بن المغيرة فإنه كان دعيا في قريش وأيس من سنخهم^(١) ادعاه المغيرة بعد ثمانى عشرة من مولده وقيل هو الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة ﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ متعلق بقوله تعالى لا تطع أى لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولا مستظرا بالبنين وقوله تعالى ﴿ إذا تبلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ استئناف جار مجرى التعليل للنهى وقيل متعلق بما دل عليه الجملة الشرطية من معنى الجحود والتكذيب لا بجواب الشرط لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كأن قيل لسكونه مستظرا بالمال والبنين كذب بآياتنا وفيه أنه يدل على معنى أن مدار تكذبيه كونه ذا مال وبنين من غير أن يكون لسائر قبائحه دخل في ذلك وقرىء أن كان على معنى لأن كان ذا مال كذب بها أو أنطيعه لأن كان ذا مال وقرىء إن كان بالسكسر والشرط للبخاطب أى لا تطع كل خلاف شارطا^(٢) يساره لأن إطاعة الكافر لغناه بمنزلة اشتراط غناه في الطاعة ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ بالسكى على أكرم مواضعه لغاية إهانتة وإذلاله قيل أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقيت علامتها وقيل معناه سنعمله يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها عن سائر الكفرة ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أى أهل مكة بالقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لا يهتم هذه الجنة دون صنعاء بفرستخين فكان يأخذ منها قوت ستة ويتصدق بالباقي وكان ينادى الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وما فى أسفل الأكداس وما أخطأ القطاف من العنب وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى :

(١) فى ١١ : أى ليس من أصلهم . (٢) فى ١١ : مشترك وهما بمعنى .

﴿إِذْ أَسْمَوُ الْيَصْرَ مِنْهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعها داخلين في الصباح ﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾
 أى لا يقولون إن شاء الله وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤداه
 مؤدى الاستثناء فإن قولك لا أخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله
 بمعنى واحد أو ولا يستننون حصّة المساكين كما كان يفعله أبوهم والجملة مستأنفة
 ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أى على الجنة ﴿طَافٍ﴾ بلاء طائف وقرى طيف ﴿من﴾
 ربك ﴿مبتدأ من جهة تعالى﴾ ﴿وهم نائمون﴾ غافلون عما جرت به المقادير
 ﴿فأصبحت كالصريم﴾ كالبلستان الذى ضمرت ثماره بحيث لم يبق منها شيء
 فعيل بمعنى مفعول وقيل كالليل أى احترقت فاسودت وقيل كالنهار أى دبست
 وابتضت سمياً بذلك لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه وقيل الصريم الرمال
 ﴿فتنادوا﴾ أى نادى بعضهم بعضاً ﴿مصبحين﴾ داخلين في الصباح ﴿أن﴾
 اغدوا ﴿أى اغدوا على أن مفسرة أو بأن اغدوا على أنها مصدرية أى اخرجوا
 غدوة﴾ ﴿على حرثكم﴾ بستانكم وضيعتكم وتعديّة الغدو يعلى لتضمينته معنى
 الإقبال أو الاستيلاء ﴿إن كنتم صارمين﴾ قاصدين للصرم ﴿فانطلقوا وهم﴾
 يتخافتون ﴿أى يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافة وخفى وخفت وخفد ثلاثها﴾
 فى معنى السكتم ومنه الخفدود للخفاش ﴿أن لا يدخلنها﴾ أى الجنة ﴿اليوم﴾
 عليكم مسكين ﴿أن مفسره لما فى التخافت من معنى القول وقرىء بطرحها على﴾
 إضمار القول والمراد بنهى المسكين عن الدخول المبالغة فى النهى عن تمسكهم من
 الدخول كقولهم لا أرينك هنا ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ أى على أنسكد
 لا غير من حاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر وحاردت الإبل إذا منعت درها
 والمعنى أنهم أرادوا أن يتنكسكوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفهم
 فغدوا بحال لا يقدرّون فيها إلا على أنسكد والحرمان وذلك أنهم طلبوا حرمان
 المساكين فتمجّلوا الحرمان والمسكنة أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب
 خيرها قادرين بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها أى غدوا حاصلين
 على أنسكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع وقيل الحرد الحرد وقد
 قرىء بذلك أى لم يقدرّوا إلا على حق بعضهم لبعض لقوله تعالى يتلاومون

وقيل الحرد القصد والسرعة أى غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وقيل هو علم للجنة .

﴿ فلما رأوها قالوا ﴾ في بديهة رؤيتهم ﴿ إنا لضالون ﴾ أى طريق جنتنا وما هى بها ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قالوه بعدما تأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر مضربين عن قولهم الأول أى لسنا ضالين بل نحن محرومون حرمانا خيرا بجنايتنا على أنفسنا ﴿ قال أوسطهم ﴾ أى رأيا أوسنا ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ لولا تذكرون الله تعالى وتوبون إليه من خبت نيتكم^(١) وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فغيرهم كما بنى عنه قوله تعالى ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ وقبل المراد بالقسميح الاستثناء لا اشتراكهما في التعظيم أو لأنه تنزيه له تعالى عن أن يحرق فى ملكه . ما لا يشاؤه ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أى يلوم بعضهم بعضا فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استنصوبه ومنهم من سكوت راضيا به ومنهم من أنكره ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ متجاوزين حدود الله ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا ﴾ وقرىء بالتشديد أى يعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ راجون العفو طالبون الخير وإلى لا انتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع عن مجاهد تابوا فأبدلوا خيرا منها وروى أنهم تعاقبوا وقالوا إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنن كما صنع أبونا فدعوا الله تعالى وتضرعوا إليه فأبدلهم الله تعالى من ليلتهم ما هو خير منها قالوا إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إن القوم لما أخلصوا وعرف الله منهم الصدق أبدلهم جنة يقال لها الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا وقال أبو خالد الباقى دخلت تلك

الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أم من أهل الجنة أم من أهل النار فقال لقد كلفتني تعباً وعن الحسن رحمه الله تعالى قول أصحاب الجنة إنا إلى ربنا راغبون لا أدرى إيماناً كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة فتوقف في أمرهم والأكثرون على أنهم تابوا وأخلصوا حكاة القشيري ﴿كذلك العذاب﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقدم لإفادة القصر والآلاف واللام للعمد أى مثل الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿وأعذاب الآخرة أكبر﴾ أعظم وأشد ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أنه أكبر لا حترزوا عما يؤديهم إليه ﴿إن للمتقين﴾ أى من الكفر والمعاصي ﴿عند ربهم﴾ أى فى الآخرة أو فى جوار القدس ﴿جنات النعيم﴾ جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال كما عليه نعيم الدنيا وقوله تعالى :

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم ورد لما يقوله الكفرة عند سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين فيها فإنهم كانوا يقولون إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساونا والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنخيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ تعجباً من حكمهم واستبعاداً له وإيداناً بأنه لا يصدر عن عاقل ﴿أم لكم كتاب﴾ نازل من السماء ﴿فيه تدرسون﴾ أى تقرأون ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ أى ما تتخيرونه وتشهنونه وأصله أن لكم بالفتح لأنه مدروس فلما جرى باللام كسرت ويجوز أن يكون حكاية للمدروس كما هو كقوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين وتخير الشيء واختياره أخذ خيره ﴿أم لكم إيمان علينا﴾ أى عهود مؤكدة بالإيمان ﴿بالغة﴾ متناهية فى التوكيد وقرئت^(١) بالنصب على الحال

والعامل فيها أحد الطرفين ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ متعلق بالمقدر في لكم أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدها حتى نحكمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون أو يبالغ أى أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهى إليه وإفرة لم تبطل منها يمين .

﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم علينا أيمان أم أقسمنا لكم ﴿ سلمهم ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأسقاهم عن رتبة الخطاب أى سلمهم مبكتا لهم ﴿ أيهم بذلك ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زعيم ﴾ أى قائم يتصدى لتصحيحه ﴿ أم لهم شركاء ﴾ يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ فى دعواهم إذ لا أقل من التقليد وقد نبه فى هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم شيء يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد الذى لا يفلح من تشبث بذيله وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ أى يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل فى ذلك وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن فى الحرب قال حاتم :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقيل ساق الشيء أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان أى يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عيانا وتتكبره للتحويل أو التعظيم وقرئ تكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول والفعل للساعة أو الحال وقرئ تكشف بالنون وتكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أى دخل فى الكشف وناسب الظرف فليأتوا أو مضمرة مقدم أى اذكر يوم الخ أو مؤخر أى يوم يكشف عن ساق الخ يكون من الأحوال وعظائم الأحوال ما لا يبلغه الوصف ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ تويخا وتعنيفاً على تركهم إياه فى الدنيا وتحسيراً لهم على تفريطهم فى ذلك ﴿ فلا يستطيعون ﴾ لزوال القدرة عليه وفيه دلالة على أنهم يقصدون

السجود فلا يتأتى منهم ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه تعقم أصلا بهم أى
ترد عظاما بلا تفاصيل لا تنثنى عند الرفع والخفض وفى الحديث وتبقى أصلا بهم
طبقة واحداً أى فقارة واحدة ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حال من مرفوع يدعون
على أن أبصارهم مرتفع به على الفاعلية ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره
فيها ﴿ ترهقهم ﴾ تلحقهم وتفشام ﴿ ذلة ﴾ شديدة ﴿ وكانوا يدعون إلى
السجود ﴾ فى الدنيا والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير أو لأن المراد
به الصلاة أو ما فيها من السجود والدعوة دعوة التكليف ﴿ وهم سالمون ﴾
متمكنون منه أقوى تمكن أى فلا يجيبون إليه ويأبونه وإنما ترك ذكره
ثقة بظهوره .

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ أى كله إلى فإنى أكفيك أمره أى
أى حسبك فى الإيقاع به والانتفاء منه أن تكمل أمره إلى وتخطى بينى وبينه
فإنى عالم بما يستحقه من العذاب ومطيق له والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها
من أحوالهم المحكية أى وإذا كان حالهم فى الآخرة كذلك فذرني ومن
يكذب بهذا القرآن وتوكل على فى الانتقام منه وقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم ﴾
استئناف مسوق لبيان كيفية التعذيب المستفاد من الأمر السابق إجمالا والضمير
لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فى يكذب باعتبار لفظها أى سنستنزهم
إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿ من حيث
لا يعلمون ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم بل يزعمون أنه إيثار لهم
وتفضيل على المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم ﴿ وأملئ لهم ﴾ وأملهم ليزدادوا
إنما وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم ﴿ إن كيدى متين ﴾ لا يوقف
عليه ولا يدفع بشئ وتسمية ذلك كيدا لكونه فى صورة السكيد ﴿ أم تسألهم ﴾
على الإبلاغ والإرشاد ﴿ أجوا ﴾ دنيويا ﴿ فهم ﴾ لأجل ذلك ﴿ من مغرم ﴾
أى غرامة مالية ﴿ مثقلون ﴾ مكلفون حملا ثقيلًا فيعرضون عنك ﴿ أم عندهم
الغيب ﴾ أى اللوح أو المخفيات ﴿ فهم يكتبون ﴾ منه ما يحكمون ويستغنون
به عن عليك ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وهو إمامهم وتأخير نصرته عليهم

((ولا تكن كصاحب الخوت)) أى يونس عليه السلام ((إذ نادى)) فى بطن الخوت ((وهو مكظوم)) مملوء غيظا والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهى لا على النداء فإنه أمر مستحسن ولذلك لم يذكر المنادى وإذ منصوب بمضاف محذوف أى لا يكن حالك كحالهِ وقت ندائه أى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه .

((لولا أن تداركه نعمة من ربه)) وقرئ رحمة وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه وحسن تذكير الفعل للفصل بالضمير وقرئ تداركته وتداركه أى أى تداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يقال فيه تداركه ((لنبذ بالعراء)) بالأرض الحالية من الأشجار ((وهو مذموم)) ملهم مطرود من الرحمة والكرامة وهو حال من مرفوع نبذ عليها يعتمد جواب لولا لأنها هى المنفية لا النبذ بالعراء كما مر فى الحال الأولى والجملة الشرطية استئناف وإن لبيان كون المنهى عنه أمراً محذورا مستتبعا للغائلة وقوله تعالى : ((فاجتنباه)) ربه ((عطف على مقدر أى فتداركته نعمة من ربه فاجتنباه بأن رد إليه الوحي وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون وقيل استنباه إن صح أنه لم يكن نبيا قبل هذه الواقعة)) فجعله من الصالحين)) من الكاملين فى الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه أولى . روى أنها نزلت بأحد حين هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المهزمين من المؤمنين وقيل حين أراد أن يدعو على ثقيف ((وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم)) وقرئ ليزلقونك بفتح الياء من زلقه بمعنى أزلقه ويزلقونك وإن هى المخففة واللام دليلها والمعنى أنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شرا بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك من قولهم نظرا يكاد يصرعنى أى لو أمكنه بنظره الصرع لفعله أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين إذ قد روى أنه كان فى بنى أسديان فآراد بعضهم أن يعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفى الحديث إن العين لتدخل الرجل القبر والجمال القدر ولعله من خصائص بعض النفوس وعن الحسن دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ((لما سمعوا الذكر))

أى وقت سماعهم بالقرآن على أن لما ظرفية منصوبة بيزلقونك وذلك لإشتداد
 بغضهم وحسدكم عند سماعه ﴿ويقولون﴾ لغاية حيرتهم فى أمره عليه الصلاة
 والسلام ونهاية جهلهم بما فى تضاعيف القرآن من تعاجيب الحكم وبدائع
 العلوم المحجوبة عن العقول المنغمسة بأحكام الطبائع ولتنفير الناس عنه ﴿إنه
 لمجنون﴾ وحيث كان مدار حكمهم الباطل ماسمعه منه عليه الصلاة والسلام
 رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقل ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾
 على أنه حال من فاعل يقولون مفيدة لغاية بطلان قولهم وتعجيب السامعين من
 جرأتهم على تفوه تلك العظيمة أى يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين أى
 تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم فأين من أنزل عليه ذلك
 وهو مطلع على أسرارهم طرا ومحيط بجميع حقائقه خبرا بما قالوا وقيل معناه
 شرف وفضل لقوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقيل الضمير لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم وكونه مذكرا وشرفا للعالمين لا ريب فيه . عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن
 الله أخلاقهم .



﴿سورة الحاقة﴾

مكية ، وآياتها إحدى وخمسون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحاقة﴾ أى الساعة أو الحالة الثابتة الوقوع الواجبة المجىء لا محالة أو التى يحق فيها الأمور الحققة من لحساب والثواب والعقاب أو التى تحقق فيها الأمور أى تعرف على الحقيقة من حقه بحقه إذا عرف حقيقته جعل الفعل لها مجازا وهو لما فيها من الأمور أو لمن فيها من أولى العلم وأياما كان لحذف الموصوف لللايدان بكال ظهور انصافه بهذه الصفة وجريانها مجرى الاسم وارتفاعها على الابتداء خبرها ﴿ما الحاقة﴾ على أن ما مبتدأ ثان والحاقة خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والأصل ما هى أى شىء هى فى حالها وصفتها فإن ما قد يطلب بها الصفة والحال فوضع الظاهر موضع المضمرة تأكيذا لوطا هذا ما ذكره فى إعراب هذه الجملة ونظائرهما وقد سبق فى سورة الواقعة أن مقتضى التحقيق أن تكون ما الاستتمامية خبرا لما بعدها فإن مناط الإفادة بيان أن الحاقة أمر بديع^(١) وخطب فظيع كما يفيد كونه ما خبرا لا بيان أن أمرا بديعا الحاقة كما يفيد كونه مبتدأ وكون الحاقة خبرا وقوله تعالى : ﴿وما أدرك﴾ أى وأى شىء أعلمك ﴿ما الحاقة﴾ تأكيذا لوطا وفظاعتها بيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى أن أعظم شأنها ومدى هولها وشدها بحيث لا تسكد تبلغه دراية أحد ولا وهمه وكيفما قدرت حالها فى أعظم من ذلك وأعظم فلا يتسنى الإعلام وما فى حيز الرفع على الابتداء وأدراك خبره ولا مساغ ههنا للعكس وما الحاقة جملة من مبتدأ وخبر على الوجه الذى عرفته محلها النصب على إسقاط الحافض لأن أدرك يتعدى إلى

(١) أى غاية فى الابداع والاختراع .

المفعول الثانى بالياء كما فى قوله تعالى (ولا أدراكم به) فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت فى موضع المفعول الثانى والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها من الجملة الواقعة خبرا لقوله تعالى الحاقة مؤكدة لهُولها كما مر ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ أى بالحالة التى تفرع الناس بفنون الأفراع والأهوال والسماء بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ووضعها موضع ضمير الحاقة للدلالة على معنى القرع فيها تشديدا لهُولها والجملة استئناف مسوق لإعلام بعض أحوال الحاقة له عليه الصلاة والسلام لئلا يترتب عليه ما أدركه عليه الصلاة والسلام بها أحد كما فى قوله تعالى (وما أدراك ما هيه نار حامية) ونظائره خلا أن المبين هناك نفس المسئول عنها وههنا حال من أحوالها كما فى قوله تعالى (وما أدراك ما ليل القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) فكما أن المبين هناك ليس نفس ليلة القدر بل فضلها وشرفها كذلك المبين ههنا هول الحاقة وعظم شأنها وكونها بحيث يحق لإهلاك من يكذب بها كأنه قيل وما أدراك ما الحاقة كذبت بها ثمود وعاد فأهلكوا ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أى بالواقعة المجاوزة للحد وهى الصيحة أو الراجفة ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أى شديدة الصوت لها صرصرة أو شديدة البرد تحرق بيردها ﴿عاتية﴾ شديدة العصف كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها أو على عاد فلم يقدروا على ردها وقوله تعالى ﴿سخرها عليهم﴾ الخ استئناف جىء به بيازا لكيفية إهلاكهم بالريح أى سلطها الله عليهم بقدرته القاهرة ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ أى متتابعات جمع حاسم كشهود جمع شاهد من حسمت الدابة إذا تابعت بين كها أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته أو قاطعات قطعت دابرهم ويجوز أن يكون مصدرا منتصبا على العلة بمعنى قطعاً أو على المصدر لفعله المقدر حالا أى تحسمهم حسوما ويؤيده القراءة بالفتح وهى كانت أيام العجوز من صبيحة أربعماء إلى غروب الأربعماء الآخر وإنما سميت عجوزا لأن عجوز آمن عاد توارت فى سرب فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها وقبل هى أيام العجوز وهى آخر الشتاء وأسمائها الصن

والصنبر والوبر والامر والمؤتمر والمعلل ومطفى الجمر وقيل ومكفى الظن.
 ﴿ فترى القوم ﴾ إن كنت حاضرا حينئذ ﴿ فيها ﴾ في مهابها أو في تلك الليالي
 والأيام ﴿ صرعى ﴾ موتى جمع صريع ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ أى أصول نخل
 ﴿ خاوية ﴾ متآكلة الأجواف .

﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى بقية أو نفس باقية أو بقاء على أنها مصدر
 كالـ كاذبة والطاغية ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أى ومن تقدمه وقرىء ومن
 قبله أى ومن عنده من أتباعه ويؤيده أنه قرىء ومن معه ﴿ والمؤتفكات ﴾
 أى قرى قوم لوط أى أهلها ﴿ بالخطئة ﴾ بالخطأ أو بالفعل أو الأفعال ذات
 الخطأ التى من جملتها تكذيب البعث والقيامة ﴿ فعضوا رسول ربهم ﴾ أى فعصى
 كل أمة رسولها حين نهوهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿ فأخذهم ﴾ أى الله
 عز وجل ﴿ أخذة رابية ﴾ أى زائدة فى الشدة كما زادت قبائحهم فى القبح من
 ربا الشيء إذا زاد ﴿ إنا لما طغيا الماء ﴾ بسبب إصرار قوم نوح على فنون
 الكفر والمعاصى ومبالغتهم فى تكذيبه عليه الصلاة ^(١) والسلام فيما أوحى إليه
 من الأحكام التى من جملتها أحوال القيامة ﴿ حملناكم ﴾ أى فى أصلاب آبائكم
 ﴿ فى الجارية ﴾ فى سفينة نوح عليه السلام والمراد بحملهم فيها رفعهم فوق
 الماء إلى انقضاء أيام الطوفان لا مجرد رفعهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة
 فى فإنها ليست بصلة للحمل بل متعلقة بمحذوف هو حال من مفعوله أى رفعناكم
 فوق الماء وحفظناكم حال كونكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا وفيه تنبيه
 على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى إنما السفينة سبب صورى ﴿ لنجعلها ﴾
 أى لنجعل الفعلة التى هى عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿ لكم
 تذكرة ﴾ عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع وحكمته وقوة قهره وسعة رحمته
 ﴿ وتنبها ﴾ أى تحفظها والوعى أن تحفظ الشيء فى نفسك والإيعاء أن تحفظه
 فى غير نفسك من وعاء وقرىء تعيها بسكون العين تشبها له بكتف ﴿ أذن

واعية ﴿ أى أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكيره وإشاعته والتفكير فيه ولا تضيعه بترك العمل به والتسكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلتها يتسبب لنجاة الجرم الغفير وإدانة نسلهم وقرىء أذن بالتخفيف ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ شروع في بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقييده وحسن تذكيره للفصل وقرىء نفخة واحدة بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم ﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أى وقلعت ورفعت من أماكنها بمجرد القدرة الإلهية أو بتوسط الزلزلة أو الريح العاصفة ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أى فضربت الجبلتان إثر رفعهما ببعض ضربة واحدة حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا وقيل فبسطنا بسطة واحدة فصارتا قاعا صاففا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا من قولهم اندك السنام إذا تفرش وبعير أدك وناقة دكاه ومنه الدكان ﴿ فيومئذ ﴾ فيحيثذ وقعت الواقعة ﴿ أى قامت القيامة ﴾ وانشقت السماء ﴿ لنزول الملائكة ﴾ فى ﴿ أى السماء ﴾ يومئذ واهية ﴿ ضعيفة مسترخية بعد ما كانت محكمة ﴾ والملك ﴿ أى الخلق المعروف بالملك ﴾ على أرجائها ﴿ أى جوانبها جمع رجا بالقصر أى تشق السماء التى هى مساكنهم فيلجأون إلى أكنافها وحافاتها .

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية ﴿ يومئذ ثمانية ﴾ من الملائكة عن النبي عليه الصلاة والسلام هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فيكونون ثمانية وروى ثمانية أملاك أرجلهم فى تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤسهم وهم مطرقون مسبحون وقيل بعضهم على صورة الإنسان وبعضهم على صورة الثور وبعضهم على صورة النسر وروى ثمانية أملاك فى خلق الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاما وعن شهر بن حوشب أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وعن الحسن الله أعلم أم ثمانية

آلاف وعن الضحك ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ويجوز أن يكون الثانية من الروح أو من خلق آخر وقيل هو تمثيل لعظمته تعالى بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام لكونها أقصى ما يتصور من العظمة والجلال وإلا فشئونه سبحانه أجل من كل ما يحيط به فلك العبارة والإشارة ﴿يومئذ تعرضون﴾ أى تسألون وتحاسبون عبر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم . روى أن فى يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفاتر كتابه بيمينه وإهالك بشماله وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لسكن لما كان اليوم اسما لزمان متسع يقع فيه النفختان والصحفة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صرح جعله ظرفا للكل ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ حال من مرفوع تعرضون أى تعرضون غير خاف عليه تعالى سر من أسراركم قبل ذلك أيضا وإنما العرض لإفشاء الحال والمبالغة فى العدل أو غير خاف يومئذ على الناس كقوله تعالى يوم تبلى السرائر وقرئ يخفى بالياء التحتانية ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه﴾ تفصيل لأحكام العرض ﴿فيقول﴾ تبجعا وإتهاجا .

﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ ها اسم لخذ وفيه ثلاث إغاث أجودهن هاء يارجل وهاء يا امرأة وهاؤما يارجلان أو امرأتان وهاؤون يارجال وهاؤن يانسوة ومفعوله محذوف وكتابه مفعول اقرأوا لأنه أقرب العاملين ولأنه لو كان مفعول هاؤم لقبل أقرؤه إذ الأولى إضماره حيث أمكن وإهاء فيه وفى حساييه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل واستحب إثباتها لثباتها فى الإمام ﴿إني ظننت أنى ملاق حساييه﴾ أى علمت ولعل التعبير عنه بالظن للإشعار بأنه لا يقدر فى الاعتقاد ما يهيجس فى النفس من الخطرات التى لا ينفك عنها العلوم النظرية غالبا ﴿فهو فى عيشة راضية﴾ ذات رضا على النسبة بالصيغة كما يقال دارع فى النسبة بالحرف أو جمل لها مجازا وهو لصاحبها وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم ﴿فى جنة عالية﴾

مرتفعة المكان لأنها في السماء أو الدرجات أو الأبنية والأشجار ﴿قطوفها﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح مصدر ﴿دانية﴾ يتناولها القاعد ﴿كلوا واشربوا﴾ بإضمار القول والجمع باعتبار المعنى ﴿هنيئاً﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أو هنيئتم هنيئاً ﴿بما أسلفتم﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ أى الماضية في الدنيا وعن مجاهد أيام الصيام وروى يقول الله تعالى ديا أوليائى طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغازت أعينكم وخصصت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم وكلاوا واشربوا الآية ﴿وأما من أوتى كتابه بشماله﴾ ورأى ما فيه من قبائح الأعمال ﴿فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حساييه﴾ لما شاهد من سوء العاقبة ﴿ياليتها﴾ ياليت الموتة التى متها ﴿كانت القاضية﴾ أى القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقى فضمير ليتها للموتة ويجوز أن يكون لما شاهده من الحالة أى ياليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت على لما أنه وجدها أمر من الموت فتمتاه عندها وقد جوز أن يكون للحياة الدنيا أى ياليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق حياً ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ مالى من المال والاتباع على أن ما نافية والمفعول محذوف أو استفهامية للإنكار أى أى شيء أغنى عني ما كان لى من اليسار ﴿هلك عني سلطانيه﴾ أى ملكى وتسلمتى على الناس أو حجتى التى كنت أحتج بها في الدنيا أو تسلمتى على القوى والآلات فعجزت على استعمالها في العبادات ﴿خذوه﴾ حكاية لما يقوله الله تعالى يومئذ لحزنة النار ﴿فغلوه﴾ أى شدوه بالأغلال .

﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أى لاتصلوه إلا الجحيم وهى النار العظيمة ليكون الجزاء على وفق المعصية حيث كان يتعاطى على الناس ﴿ثم في سلسلة ذرعتها﴾ أى طولها ﴿سبعون ذراعاً فأسسكوه﴾ فأدخلوه فيها بأن تلفوها على جسده فهو فيها بينها مرهق لا يستطيع حراً كما وتقديم السلسلة كتقديم الجحيم للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر ألوان ما يعذب به وشم لتفاوت ما بين الغل

والتصلية وما بينهما وبين السلك في السلسلة في الشدة ﴿لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ تعليل بطريق الاستئناف التحقيق ووصفه تعالى بالعظيم للإيدان بأنه المستحق للعظمة فحسب فن نسبها إلى نفسه استحق أعظم العقوبات ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ ولا يحث على بذل طعامه أو على إطعامه فضلا أن يئذل من ماله وقيل ذكر الحض للتنبيه على أن تارك الحض بهذه المنزلة فما ظنك بتارك الفعل وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخظة قالوا تخصيص الأمرين بالذكر لما أن أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب ﴿فليس له اليوم ههنا حميم﴾ أى قريب بحميه ويدفع عنه ويحزن^(١) عليه لأن أوليائه يتحامونه ويفرون منه ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ أى من غسالة أهل النار وصديدهم فعلين من الغسل ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ أصحاب الخطايا من خطيء الرجل إذا تعمد الذنب لا من الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم المشركون وقرىء الخاطبون بإبدال الهمزة ياء وقرىء بطرحها^(٢) وقد جوز أن يراد بهم الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله .

﴿فلا أقسم﴾ أى فأقسم على أن لا مزيدة للتأكيد وأما جملة على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق فيرده تعيين المقسم به بقوله تعالى ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ كما مر في سورة الواقعة أى أقسم بالمشاهدات والمغيبات وقيل بالدنيا والآخرة وقيل بالأجسام والأرواح والإنس والجن والخلق والخالق والنعمة الظاهرة والباطنة والاول منتظم للكل ﴿لأنه﴾ أى القرآن ﴿لقول رسول﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه ﴿كريم﴾ على الله تعالى وهو النبي أو جبريل عليهما السلام ﴿وما هو بقول شاعر﴾ كما تزعمون تارة ﴿قليل ما تؤمنون﴾ إيماننا قليلا تؤمنون ﴿ولا بقول كاهن﴾ كما تدعون ذلك تارة أخرى ﴿قليل ما تذكرون﴾ أى تذكرنا

• (٢) أى الخاطئون .

• (١) في الأصل يحزن بالجيم .

قليلًا أو زمانًا قليلًا تتذكرون على أن القلة بمعنى النفي أى لا تؤمنون ولا تتذكرون أصلاً قيل ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع نفي الكاهنية لما أن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مباينته الكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله عليه الصلاة والسلام ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أفوالهم وأنت خبير بأن ذلك أيضاً مما لا يتوقف على تأمل قطعاً وقرئ بالياء فيهما ﴿نزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ سمي الإفتراء تقولاً لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها كأنها جمع أفعولة من القول كالأضاحيك [جمع أضحوكه] ^(١) ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ أى يمينه ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ أى نياط قلبه بهضرب عنقه وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يفضضون عليه وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه وقيل اليمين بمعنى القوة قال قائلهم :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

﴿فأمنكم﴾ أيها الناس ﴿من أحد عنه﴾ عن القتل أو المقتول ﴿حاجزين﴾ دافعين وصف لأحد فإنه عام ﴿ولأنه﴾ أى وإن القرآن ﴿لتذكرة للمتقين﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ فيجازيهم على تكذيبهم ﴿ولأنه لحسرة على الكافرين﴾ عند مشاهداتهم لثواب المؤمنين ﴿ولأنه لحق اليقين﴾ الذى لا يحوم حوله رب ما ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أى فسبح بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وشكراً على ما أوحى إليك . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحاقة حسبه الله حساباً يسيراً .

(١) ما بين الحاصرين سقط من الأصل

سورة المعارج ﴿٣٨٨﴾
مكية ، وآيها أربع وأربعون

(بسم الله الرحمن الرحيم)
(سأل سائل) أى دعا داع (بعذاب واقع) أى استدعاه وطلبه وهو
النضر بن الحرث حيث قال إنكارا واستهزاء إن كان هذا هو الحق من عندك
فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقيل أبو جهل حيث قال
أسقط علينا كسفا من السماء وقيل هو الحرث بن النعمان الفهرى وذلك أنه لما
بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى على رضى الله عنه من كنت مولاه
فعلى مولاه قال اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء
فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر فوقع على دماغه فخرج من أسفل فهلك من
ساعته وقيل هو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل عذابهم وقرىء سأل
وهو إما من السؤال على لغة قریش فالمعنى ما مر أو من السيلان ويؤيده أنه
قرىء سأل سيل أى اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضى للدلالة على تحقق
وقوعه إما فى الدنيا وهو عذاب يوم بدر فإن النضر قتل يومئذ صبوا وقد مر
حال الفهرى وإما فى الآخرة فهو عذاب النار والله أعلم (للكافرين) صفة
أخرى لعذاب أى كائن للكافرين أو صلة لواقع أو متعلق بسأل أى دعا للكافرين
بعذاب واقع وقوله تعالى (ليس له دافع) صفة أخرى لعذاب أو حال منه
لتخصصه بالصفة أو بالعمل أو من الضمير فى للكافرين على تقدير كونه صفة
لعذاب أو استئناف (من الله) متعلق بواقع أو بدافع أى ليس له دافع من
جهته تعالى (ذى المعارج) ذى المصاعد التى يصعد فيها الملائكة بالآوامر
والنواهى أو هى عبارة عن السموات المترتبة بعضها فوق بعض (تخرج الملائكة
والروح) أى جبريل عليه السلام أفرد بالذكر لتمييزه وفضله وقيل الروح خلق
هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة على الناس (إليه) إلى عرشه تعالى
وإلى حيث تهبط منه وأمره تعالى وقيل هو من قبيل قول إبراهيم عليه السلام
إنى ذاهب إلى ربى أى إلى حيث أمرنى به .

(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) مما يعده الناس وهو بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على منهاج التمثيل والتخييل والمعنى أنها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة من سنى الدنيا وقيل معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى في يوم كان مقداره كمقدار خمسين ألف سنة أى يقطعون في يوم ما يقطمه الإنسان في خمسين ألف سنة لو فرض ذلك وقيل في يوم متعلق بواقع وقيل بسال على تقدير كونه من السيلان فالمراد به يوم القيامة واستطالته إما لأنه كذلك في الحقيقة أو لشدته على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات وأيا ما كان فذلك في حق الكافر وأما في حق المؤمن فلا لما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أطول هذا اليوم فقال عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده أنه ليخف على المؤمن حتى أنه يكون أخف من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا » وقوله تعالى :

(فاصبر صبرا جميلا) متعلق بسأل لأن السؤال كان عن استهزاء وتعنت وتكذيب بالوحى وذلك مما يضجره عليه الصلاة والسلام أو كان عن تضجر واستبطاء للنصر أو بسأل سائل أو سال سيل فعناه جاء العذاب لقرب وقوعه فقد شارفت الانتقام (منهم يرويه) أى العذاب الواقع أو يوم القيامة على تقدير تعلق في يوم بواقع (بعيدا) أى يستبعدونه بطريق الإحالة فلذلك يسألون به (وزراه قريبا) هينا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر على أن البعد والقرب معتبران بالنسبة إلى الإمكان والجملة تعليل للأمر بالصبر وقوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) متعلق بقريبا أى يمكن ولا يتعذر في ذلك اليوم أو بمضمحل دل عليه واقع أو بمضمحل مؤخر أى يوم تكون السماء كالمهل الخ يكون من الأحوال والأحوال ما لا يوصف أو بدل من في يوم على تقدير تعلقه بواقع هذا ما قالوا ولعل الأقرب أن قوله تعالى سأل سائل حكاية لسؤالهم المعهود على طريقة قوله تعالى (يسألونك عن الساعة) وقوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد) ونحوهما إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا مادعا به النصر

أو أبو جهل أو الفهرى فالسؤال بمعناه والباء بمعنى عن كما في قوله تعالى (فاسأل به خبيراً) وقوله تعالى (ليس له دافع) الخ استئناف مسوق لبيان وقوع المسؤل عنه لا محالة وقوله تعالى (فاصبر صبراً جميلاً) مترتب عليه وقوله تعالى (انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) تعليل للأمر بالصبر كما ذكر وقوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وهو ما أذيب على مهل من الفلزات وقيل دردى الزيت ^(١)) (وتكون الجبال كالعهن) كالصوف المصبوغ ألواناً لا اختلاف ألوان الجبال منها (جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود) فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميماً) أى لا يسأل قريب قريباً عن أحواله ولا يكلمه لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك وقرئ على البناء للمفعول أى لا يطلب من حميم حميم أو لا يسأل منه حالة (يبصرونهم) أى يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم وما يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلهم بحال أنفسهم وقيل ما يغنى عنه من مشاهدة الحال كيباض الوجه وسواده والاول أدخل في التهويل وجمع الضميرين لعموم الحميم وقرئ يبصرونهم والجملة استئناف (يود المجرم) أى يتمنى الكافر وقيل كل مذنب وقوله تعالى (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى العذاب الذى ابتلوا به يومئذ (ببنيه وصاحبته وأخيه) حكاية لودادتهم ولو في معنى التقي وقيل هي بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها وما بعدها مصدر يقع مفعولاً لبيود والتقدير يود افتداه ببنيه الخ والجملة استئناف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدى بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها وقرئ يومئذ بالفتح على البناء بالإضافة إلى غير متمكن وبتنوين عذاب ونصب يومئذ وانتصابه بعذاب لأنه في معنى تعذيب .

(١) وقيل : الصديد ومته حديث أبى بكر رضى الله عنه حينما أوصى أن يدفن

في ثوب قديم قال : « إنما ذاك للمهل » رواه أحمد في الزهد .

﴿وفصيلته﴾ أى عشيرته التى فصل عنهم ﴿التي تؤويه﴾ أى تضمه فى النسب أو عند الشدائد ﴿ومن فى الأرض جميعا﴾ من الثقلين والخلائق ومن للتغليب ﴿ثم ينجي﴾ عطف على يفتدى أى يرد لو يفتدى ثم لو ينجي الافتداء وثم لاستبعاد الإنجاء يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجي ذلك وهيات ﴿كلا﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع انجاء الافتداء وضمير «إنها» إما للنار المدلول عليها بذكر العذاب أو هو مبهم ترجم عند الخبر الذى هو قوله تعالى ﴿لظى﴾ وهى علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب ﴿زراعة للشوى﴾ نصب على الاختصاص أو حال مؤكدة والشوى الأطراف أو جمع شواة وهى جلدة الرأس وقرىء زاعة بالرفع على أنه خبر ثان لأن أو هو الخبر ولظى بدل من الضمير أو الضمير للقصة ولظى مبتدأ وزاعة خبره ﴿تدعو﴾ أى تجذب وتحضر وقيل تدعو تقول لهم إلى إلى يا كافر با منافق وقيل تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثم تلتقطهم التقاط الحب وقيل تدعو تهلك وقيل تدعو زبائنها ﴿من أدبر﴾ أى عن الحق ﴿وتولى﴾ أعرض عن الطاعة ﴿وجمع فأوعى﴾ أى جمع المال فجعله فى وعاء وكثره ولم يؤد زكاته وحقوقه وتشاغل به عن الدين وزهى باقتفائه حرصا وتأميلا ﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ الهلع سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير وقد فسره أحسن تفسير قوله تعالى ﴿إذا مسه الشر﴾ أى الفقر والمرض ونحوهما ﴿جزوعا﴾ أى مبالغا فى الجزع مكثرا منه ﴿وإذا مسه الخير﴾ أى السعة والصحة ﴿منوعا﴾ مبالغا فى المنع والإمساك والأوصاف الثلاثة أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها وإذا الأولى ظرف لجزوعا والثانية لمنوعا ﴿إلا المصلين﴾ استثناء للمتصفيين بالنعوت الجليلة الآتية من المطبوعين على القبايح الماضية لأنباء نعمتهم عن الاستغراق فى طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإثارة الآجل على العاجل على خلاف القبايح المذكورة الناشئة من الانهماك فى حب العاجلة وقصر النظر عليه .

﴿الذين هم على صلواتهم دائمون﴾ لا يشغلهم عنها شاغل ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ أى نصيب معين يستوجبونه على أنفسهم تقرُّبا إلى الله تعالى وإشفاقا على الناس من الزكاة المفروضة والصدقات الموقوفة ﴿للسائل﴾ للذى يسأله ﴿والمحروم﴾ الذى لا يسأله فيظن أنه غنى فيحرم ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أى بأعمالهم حيث يتعبون أنفسهم فى الطاعات البدنية والمالية طمعا فى المثوبة الآخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصارا لها واستعظاما لجنابه عز وجل كقوله تعالى ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وقوله تعالى ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ اعتراض مؤذن بأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى وإن بالغ فى الطاعة ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ سلف تفسيره فى سورة المؤمنين ﴿فمن ابتغى﴾ أى طلب لنفسه ﴿وراء ذلك﴾ وراء ما ذكر من الأزواج والمملوكات ﴿فأولئك﴾ المبتغون ﴿هم العادون﴾ المتعدون لحدود الله تعالى ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ لا يخلون بشيء من حقوقها ﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾ أى مقيمون لها بالعدل لإحياء لحقوق الناس وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى الأمانات لإبانة فضلها وقرىء لأمانتهم وبشهادتهم على إرادة الجنس ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أى يراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها ومستحباتها وآدابها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولا وآخرأ باعتبارين للدلالة على فضلها وإناقضها على سائر الطاعات وتكرير الموصولات لتزليل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات كما فى قول من قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث السكتائب فى المزدحم

إبذانا بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعمت جليل على حياله له شأن

خطير مستتبع لأحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء منها تنمة للآخر (أولئك) إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليهم للإيدان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره (في جنات) أى مستقرون في جنات لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها وقوله تعالى (مكرمون) خبر آخر أو هو الخبر وفي جنات متعلق به قدم عليه لمراعاة الفواصل أو بمضمهر هو حال من الضمير في الخبر أى مكرمون كائنين في جنات .

(فأولئك كفروا قبلت) حولك (مطعمين) مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك (عن اليمين وعن الشمال عزين) أى فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة من العز وكأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى كان المشركون يحاقون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ويستهنئون بكلامه عليه الصلاة والسلام ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم فنزلت (١) (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان (كلا) ردع لهم عن ذلك الطمع الفارغ (إنا خلقناهم مما يعلمون) قيل هو تعليل للردع والمعنى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون كما في قول الأعشى :

أأزمت من آل ليل ابتكارا وشطت على ذى هوى أن تزارا

وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة فمن لم يستكملها بذلك فهو بمنزل من أن يبوأ مبوأ الكاملين فمن أين لهم أن يطعموا في دخول الجنة وهم مكبون على الكفر والفسوق وإنكار البعث وقيل معناه إنا خلقناهم مما يعلمون من نطفة مذرة فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون لندخل الجنة قبلهم وقيل إنهم مخلوقون من نطفة قدرة لا تناسب عالم القدس فمضى لم تستكمل الإيمان والطاعة ولم تتخلق بالأخلاق الملائكية لم تستعد لدخولها ولا يخفى ما في السكل

(١) انظر إرشاد الرحمن للأجهورى لمعرفة روايات أخرى .

من التحل والاقرب أنه كلام مستأنف قد سبق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته تعالى على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما نزل عليه من الوحي وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية وينشئ بدلهم قوما آخرين فإن قدرته تعالى على ما يعلمون من النشأة الأولى حجة بينة على قدرته تعالى على ذلك كما يفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ والمعنى إذا كان الأمر كما ذكر من أنا خلقناهم مما يعلمون فأقسم برب المشارق والمغارب ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم ﴾ أى نهلكهم بالمرّة حسبما تقتضيه جنائياتهم ونأتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفحتهم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك لكن مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوباتهم ﴿ فذرهم ﴾ نفلهم وشأنهم ﴿ يخوضوا ﴾ فى باطلهم الذى من جملته ما حكى عنهم ﴿ ويلعبوا ﴾ فى دنياهم ﴿ حتى يلاقو يومهم الذى يعدون ﴾ وهو يوم البعث عند النفخة الثانية لا يوم النفخة الأولى كما توهم فإن قوله تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجدات ﴾ بدل من يومهم وقرئ يخرجون على البناء للمفعول من الإخراج ﴿ سراعا ﴾ حال من مرفوع يخرجون أى مسرعين ﴿ كأنهم إلى نصب ﴾ وهو كل ما نصب فعبد من دون الله تعالى وقرئ بسكون الصاد وبفتح النون وسكون الصاد أيضا ﴿ يوفضون ﴾ يسرعون ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ وصفت أبصارهم بالخشوع مع أنه وصف الكل لغاية ظهور آثاره فيها ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ تغشاهم ذلة شديدة ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة ﴿ اليوم الذى كانوا يعدون ﴾ فى الدنيا . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لآمائاتهم وعهدهم راعون .

﴿سورة نوح عليه السلام﴾

مكية ، وآياتها تسع أو ثمان وعشرون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك﴾ أي بأن أنذرهم على أن أن مصدرية حذف منها الجار وأوصل إليها الفعل فإن حذفه مع أن وإن مطرد وجعلت صلتها أمرا كما في قوله تعالى (وأن أقم وجهك) لأن مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ووجوب كون الصلة خبرية في الموصول الاسمي إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجل وهي لا توصف إلا بالجل الخبرية وليس الموصول الحرفي كذلك وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر اشتويا في صحة الوصل بهما فيتجرد عند ذلك كل منهما عن المعنى الخاص بصيغته فيبقى الحدث المجرد عن معنى الأمر والنهي والمضى والاستقبال كأنه قيل أرسلناه بالإنذار وقيل المعنى أرسلناه بأن قلنا له أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار ويجوز أن تكون أن مفسرة لما في الإرسال من معنى القول فلا يكون للجملة محل من الإعراب وعلى الأول محلها النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل والكسائي كما هو المعروف وقرئ أنذر بغير أن على إرادة القول ﴿من قبل أن يأتهم عذاب أليم﴾ عاجل أو آجل لئلا يبقى لهم عذر ما أصلا ﴿قال﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية إرساله عليه الصلاة والسلام بالوجه المذكور كأنه قيل ما فعل عليه الصلاة والسلام فقيل قال لهم ﴿يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ منذر موضح لحقيقة الأمر ، وقوله تعالى ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ متعلق بنذير على الوجهين المذكورين ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي بعض ذنوبكم وهو ما سلف في الجاهلية فإن الإسلام يجبه ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدره

لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان فإن وصف الأجل بالمسمى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أن لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا وهو المراد بقوله تعالى ﴿إن أجل الله﴾ أي ما قدر لكم على تقدير بقاءكم على الكفر ﴿إذا جاء﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿لا يؤخر﴾ فيأدروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه الذي هو بقاءكم على الكفر فلا يجيء ويتحقق شرط التأخير إلى الأجل المسمى فتؤخروا إليه ويجوز أن يراد به وقت إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى (من قبل أن يأتهم عذاب أليم) فإنه أجل موقت له حتماً وحمله على الأجل الأطول بما لا يساعده المقام كيف لا والجملة تعليل للأمر بالعبادة المستتعبة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمى فلا بد أن يكون المنفي عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود فكيف يتصور أن يكون ما فرض مجيئه هو الأجل المسمى ﴿لو كنتم تعلمون﴾ أي لو كنتم تعلمون شيئاً لسارعتم إلى ما أمرتكم به .

﴿قال﴾ أي نوح عليه الصلاة والسلام مناجياً ربه وحاكياً له تعالى وهو أعلم بحاله ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاوز في الإنذار كل حد معهود وضائق عليه الحيل وعيت به العلل ﴿رب إني دعوت قومي﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ليلاً ونهاراً﴾ أي دائماً من غير فتور ولا توان ﴿فلم يزدحم دعائي إلا فراراً﴾ بما دعوتهم إليه وإسناد الزيادة إلى الدعاء لسببته لها كما في قوله تعالى (زادتهم إيماناً) ﴿وإني كلما دعوتهم﴾ أي إلى الإيمان ﴿لتغفر لهم﴾ بسببه ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ أي سدوا مسامعهم من استماع الدعوة ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي بالغوا في التغطى بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إليه أو لئلا يعرفهم فيدعوه ﴿وأصروا﴾ أي أكبوا على الكفر والمعاصي مستعازين من أصر الحمار على العانة إذا أصر أذنيه وأقبل عليها ﴿واستكبروا﴾ عن اتباعي وطاعتي ﴿استكباراً﴾ شديداً ﴿ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسرت لهم أسراراً﴾ أي دعوتهم تارة جهر وأمرة غب

مرة على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة وثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أشد من الإسرار والجمع بينهما أغلظ. من الأفراد أو لتراخي بعضها عن بعض. وجهارا منصوب بدعوتهم على المصدر لأنه أحد نوعي الدعاء أو أريد بدعوتهم جاهرتهم أو هو صفة لمصدر أي دعوتهم دعاء جهارا أي مجاهرا به أو مصدر في موقع الحال أي مجاهرا .

﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿ لأنه كان غفارا ﴾ للتائبين كأنهم تعللوا وقالوا إن كنا على الحق فكيف تتركه وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فأمرهم بما يحق ما سلف منهم من المعاصي ويوجب إليهم المنافع ولذلك وعدم بما هو أوقع في قلوبهم وأحب إليهم من الفوائد العاجلة وقيل لما كذبوه بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل سبعين سنة فوعدم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أي كثير الدورور والمراد بالسماء المظلمة أو السحاب ﴿ ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ بساتين ﴿ ويجعل لكم ﴾ فيها ﴿ أنهارا ﴾ جارية ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقارا على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد ولا ترجون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيها معنى الاستقرار في لكم على أن الإنكار متوجه إلى السبب فقط مع تحقق مضمون الجملة الحالية لا إليهما معا كما في قوله تعالى (ومال لا أعبد الذي فطرني) والله متعلق بمضمون وقع حالا من وقارا ولو تأخر لكان صفة له أي سبب حصل لكم حال حال كونكم غير معتقدين لله تعالى عظمة موجبة لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له ﴿ وقد خلقكم أطوار ﴾ أي والحال أنكم على حال منافية لما أنتم عليه بالسكينة وهي أنكم تعلمون أنه تعالى خلقكم تارات عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نطقاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر فإن التقصير في توقيف من هذه شئونه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها بما

لا يكاد يصدر عن العاقل هذا وقد قيل الرجاء بمعنى الأمل أى مالكم لا تؤملون
له تعالى توقيرا أى تعظيما لمن عبده وأطاعه ولا تكونون على حال تؤملون
فيها تعظيم الله تعالى لإياكم فى دار الثواب والله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة
للوقار والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية^(١) فإن اللائق بحال الكفرة
استبعاد أن لا يعتقدوا وقارا لله تعالى وعظمته مع مشاهدتهم لإثارها وأحكامها
الموجبة للاعتقاد حتما وأما عدم رجائهم لتعظيم الله لإياهم فى دار الثواب فليس
فى حيز الاستبعاد والإنكار مع أن فى جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسف
وفى قوله والله بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى
فإن كونه بيانا للموقر يقتضى أن يكون التوقير صادرا عنه تعالى والوقار وصفا
للمخاطبين وكونه صلة للوقار يوجب كون الوقار وصفا له تعالى وقيل مالكم
لاتخافون الله عظمة وقدرة على أخذكم بالعقوبة أى أى عذر لكم فى ترك الخوف
منه تعالى وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مالكم لاتخشون
الله عقابا ولا ترجون منه ثوابا وعن مجاهد والضحاك مالكم لا تبالون الله عظمة
قال قطرب هى لغة حجازية يقولون لم أرج أى لم أبال وقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا ﴾ أى متطابقة بعضها فوق
بعض ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ أى منورا لوجه الأرض فى ظلمة الليل
ونسبته إلى الكل مع أنه فى السماء الدنيا لما أنها محاطة بسائر السموات فما فيها
يكون فى الكل أو لأن كل واحدة منها شفاقة لا تحجب ما وراءها فيرى الكل
كأنها سماء واحدة ومن ضرورة ذلك أن يكون ما فى واحدة منها كأنه فى الكل
﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ يزيل ظلمة الليل ويبصر أهل الدنيا فى ضوئها
وجه الأرض ويشاهدون الأفاق كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج ما يحتاجون
إلى إبصاره وليس القمر بهذه المثابة إنما هو نور فى الجملة ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أى أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإشياء لكونه أدل على الحدوث

والتسكون من الأرض ونباتا إما مصدر مؤكد لأنبتكم بحذف الزوائد ويسمى اسم مصدر أو لما يترتب عليه من فعله أى أنبتكم من الأرض فنبتهم نباتا ويجوز أن يكون الأصل أنبتكم من الأرض لنباتا فنبتهم نباتا فيحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل اكتفاء في كل منهما بما ذكر في الأخرى كما مر في قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى) وقوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) (ثم يعيدكم فيها) بالدفن عند موتكم (ويخرجكم) منها عند البعث والحشر (لإخراجا) محققا لا ريب فيه (والله جعل لكم الأرض بساطا) تقبلون عليها تقبلكم على بسطكم في بيوتكم وتوسيط لكم بين الجعل ومفعوليه مع أن حقه التأخير لما مر مرارا من الاهتمام ببيان كون المجعول من منافعهم والتشويق إلى المؤخر فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم ملوحا بكونه من المنافع تبقى مترتبة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن (لتسلخوا منها سبلا فجاءا) أى طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع وقيل هو المسلك بين الجبلين ومن متعلقة بما قبلها لما فيه من معنى الاتخاذ أو بمضمر هو حال من سبلا أى كائنة من الأرض ولو تأخر لكان صفة لها .

(قال نوح) أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه أى قال مناجيا له تعالى (رب إنهم عصوني) أى تموا على عصياني فيما أمرتهم به مع ما بالفت في إرشادهم بالعظة والتذكير (واتبعوا من لم يزدده ماله وولده لإخسارا) أى واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوة لهم في الخسار وفي وصفهم بذلك لإشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع في الجملة وقرىء وولده بالضم والسكون على أنه لغة كالحزن أو جمع كالأسد (ومكروا) عطف على صلة من والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار لفظها (مكرا كبارا) أى كبيرا في الغاية وقرىء بالتخفيف والأول أبلغ منه وهو

أبلغ من الكبير وذلك احتياطهم في الدين وصدهم للناس عنه وتحريشهم على أذية نوح عليه السلام ﴿وقالوا لا تذرنا آلهتكم﴾ أى لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة رب نوح ﴿ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ أى ولا تذرنا عبادة هؤلاء خصوصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها قدرا (١) عندهم وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان ود لكعب وسواع لهمدان ويغوث لمذحج ويعوق لمراد ونسر لحمير وقيل هى أسماء رجال صالحين وكانوا بين آدم ونوح وقيل من أولاد آدم عليه السلام ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتبركون بهم ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم وقيل كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر وقرىء ودا بضم الواو ويغوثا ويعوقا للتناسب ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ﴿وقد أضلوا﴾ أى الرؤساء ﴿كثيرا﴾ خلقا كثيرا أو الأصنام كقوله تعالى (رب إنهن أضلان كثيرا من الناس).

﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾ عطف على قوله تعالى رب إنهم عصوني على حكاية كلام نوح بعد قال وبعد الواو النائية عنه أى قال رب إنهم عصوني وقال لا تزد الظالمين إلا ضلالا ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به والمطلوب هو الضلال فى تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر) ويؤيده ما سياتى من دعائه عليه الصلاة والسلام ﴿بما خطيئاتهم﴾ أى من أجل خطيئاتهم وما مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد والتفخيم ومن لم يزد يأتها جعلها إنكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها وقرىء بما خطاياهم وبما خطيئاتهم أى بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها من خطاياهم ﴿أغرقوا﴾ بالطوفان

(١) سقطت من الأصل .

لا بسبب آخر ﴿فادخلوا نارا﴾ المراد إما عذاب القبر فهو عقيب الإغراق وإن كانوا في الماء عن الضحك أنهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب و عذاب جهنم والتعقيب لتزيله منزلة المتعقب لإغراقهم لاقترابه وتحقيقه لا محالة وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه تعالى أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعا من النار ﴿فلم يحمدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ أى لم يجد أحد منهم واحدا من الأنصار وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى وبأنها غير قادرة على نصرهم وتهكم بهم ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ عطف على نظيره السابق وقوله تعالى مما خطيئاتهم الخ اعتراض وسط بين دعائه عليه الصلاة والسلام للإيذان من اول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عددها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها لا أنها حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من الأحوال والآقوال وإلا لآخر عن حكاية دعائه هذا وديارا من الأسماء المستعملة في النقي العام يقال ما بالدار ديار أو ديور كقيام وقيام أى أحد وهو فيعال من الدور أو من الدار أصله ديوار قد فعل به ما فعل بأصل سيد لافعال وإلا لكان دوارا .

﴿إنك إن تذرهم﴾ عليها كلا أو بعضا ﴿يضلوا عبادك﴾ عن طريق الحق ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ أى إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه وكأنه اعتذار بما عسى يرد عليه من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن منكروا إنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم قريبا من ألف سنة ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾ أبوه ملك بن متوشلخ^(١) وأمه شمش بنت أنوش كانا

(١) في ١١ : متوشلخ انظر دائرة المعارف الإسلامية لفريد وجدى .

مؤمنين وقيل هما آدم وحواء وقرىء ولولدى يريد ساما وحاما ﴿ ولمن دخل
يبنى ﴾ أى منزلى وقيل مسجدى وقيل سفينتى ﴿ مؤمنا ﴾ بهذا القيد خرجت
امرأته وابنه كنعان ولكن لم يحزم عليه الصلاة والسلام بخروجه إلا بعدما قيل
له إنه ليس من أهلك وقد مر تفصيله فى سورة هود ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾
عبيهم بالدعاء لآثر ما خص به من يتصل به نسبا ودينا ﴿ ولا تزد الظالمين
إلا تبارا ﴾ أى هلاكا قيل غرق معهم صبيانهم أيضا لكن لا على وجه العقاب
لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعز
عليهم من أنفسهم قال عليه الصلاة والسلام يهلكون مهلكا واحدا ويصعدون
مصادر شقى وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله براءتهم فأهلكهم بغير
عذاب وقيل أعقم الله تعالى أرحام نساءهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان
بأربعين أو سبعين سنة فلم يكن معهم صبي حين غرقوا .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين
تدرهم دعوة نوح عليه السلام .

سورة الجن

مكية ، وآياتها ثمان وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أوحى إلى) وقرئ. أوحى إلى أصله وحى وقد قرئ. كذلك من وحى إليه فقلبت الواو المضمومة همزة كأعد وأذن في وعد ووزن (أنه) بالفتح لأنه فاعل أوحى والضمير للشأن (استمع) أى القرآن كما ذكر في الأحقاف وقد حذف للدلالة ما بعده عليه (ففر من الجن) النفر ما بين الثلاثة العشرة والجن أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية وقبل نوع من الأرواح المجردة وقيل هى النفوس البشرية المفارقة عن أيدائها وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك وقد جرم ما فيه من التفصيل فى الأحقاف (فقالوا) لقومهم عند رجوعهم إليهم (إنا سمعنا قرآنا) كتابا مقروءا (عجبا) بديعاً مبيناً لكلام الناس فى حسن النظم ودقة المعنى وهو مصدر وصف به للمبالغة (يهدى إلى الرشـد) إلى الحق والصواب (فآمنّا به) أى بذلك القرآن (ولن نـشرك بربنا أحداً) حسبما غطى به ما فيه من دلائل التوحيد (وأنه تعالى جد ربنا) بالفتح قالوا هو وما بعده من الجمل المصدرة بأن فى أحد عشر موضعاً عطف على محل الجار والمجرور فى فآمنّا به كأنه قيل فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا أى ارتفع عظمته من جد فلان فى عيني أى عظم تمكّنه أو سلطانه أو غناه على أنه مستعار من الجدل الذى هو البخت والمعنى وصفه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه وقرئ بالكسر وكذا الجمل المذكورة عطفاً على المحكى بعد القول وهو الأظهر لوضوح اندراج كلها تحت القول وأما اندراج الجمل الآتية تحت الإيمان والتصديق كما يقتضيه العطف على محل الجار والمجرور ففيه

لشكال كما ستحيط به خيرا وقوله تعالى ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ بيان لحكم تعالى جده وقرىء جدا ربنا على التمييز وجد ربنا بالكسر أى صدق ربوبيته وحق إلهية عن اتخاذ صاحبة والولد وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد والإيمان ذهبوا للخطأ فيما اعتقدوه كفر الجن من تشبيه الله تعالى بخلقه فى اتخاذ صاحبة والولد فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه .

﴿ وأنه كان يقول سفيها ﴾ أى إبليس أو مرده الجن ﴿ على الله شططا ﴾ أى قولا ذا شطط أى بعد عن القصد ومجازة للحد أو هو شطط فى نفسه لفرط بعده عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى وتعلق الإيمان والتصديق بهذا القول ليس باعتبار نفسه فانهم كانوا عالمين بقول سفيهاهم من قبل أيضاً بل باعتبار كونه شططا كإنه قيل وصدقنا أن ما كان يقوله سفيها فى حقه تعالى كان شططا وأما تعلقهما بقوله تعالى ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾ فغير ظاهر وهو اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيهم أى كنا نظن أنه لن يكذب على الله تعالى أحد أبداً ولذلك اتبعنا قوله وكذبا مصدر مؤكد لتقول لأنه نوع من القول أو وصف لمصدره المحذوف أى قولا كذبا أى مكذوبا فيه وقرىء لن تقول بمحذف احدى التاءين فكذبا مصدر مؤكد له لأن الكذب هو القول ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ كان الرجل من العرب إذا أمسى فى واد قفر وخاف على نفسه يقول أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد الجن وكبيرهم فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا سدا الإنس والجن وذلك قوله تعالى ﴿ فزادهم ﴾ أى زاد الرجال العاذنون الجن ﴿ رهقا ﴾ أى تكبرا وعتوا أو فزاد الجن العاذنين غيا بأن أضلوهم حتى استعاضوا بهم ﴿ وأنهم ظنوا ﴾ أى الإنس ﴿ كما ظننتم ﴾ أيها الجن على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿ أن لن يبعث الله أحدا ﴾ وقيل المعنى أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة الخ فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به والأقرب أنهما كذلك على كل تقدير عطفاً على أنه استمع اذ لا معنى لإدراجهما تحت ما ذكر من الإيمان والتصديق وكذا قوله تعالى :

﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ وما بعده من الجمل المصدرة بأنا ينبغي أن تكون معطوفة على ذلك على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل قل أوحي إلى كيت وكيت وهذه العبارات أى طلبنا بلوغ السماء أو خبرها واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال لمسه واتمسسه واطلمسه كطلبه واطلمبه^(١) وطلبه ﴿ فوجدناها ملئت حرسا ﴾ أى حراسا اسم جمع كخدم مفرد اللفظ ولذلك قيل ﴿ شديدا ﴾ قويا وهم الملائكة يمنعونهم عنها ﴿ وشهابا ﴾ جمع شهاب وهو الشعلة المقتبسة من نار الكواكب ﴿ وأنا كنا نقعد ﴾ قبل هذا ﴿ منها ﴾ من السماء ﴿ مقاعد للسمع ﴾ خالية عن الحرس والشهب أو صالحة للترصد والاستماع وللسمع متعلق بنقعد أى لأجل السمع أو بمضمهر هو صفة لمقاعد كائنة للسمع ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ فى مقدم المقاعد ﴿ يجد له شهابا رصدا ﴾ أى شهابا راصدا له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم أو ذوى شهاب راصدين لله على أنه اسم مفرد فى معنى الجمع كالحرس قيل حدث هذا عند مبعث النبي عليه الصلاة والسلام والصحيح أنه كان قبل البعث أيضا لكنه كثر الرجم بعد البعثة وزاد زيادة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلا فقالوا ما هذا إلا لأمر أراده الله تعالى بأهل الأرض وذلك قولهم ﴿ وأنا لا ندرى أشتر أريد يمن فى الأرض ﴾ بحراسة السماء ﴿ أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ أى خيرا ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر من الآداب الشريفة القرآنية كما فى قوله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين وظائره ﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أى الموصوفون بصلاح الحال فى شأن أنفسهم وفى معاملتهم مع غيرهم المسائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة لا إلى الشر والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريفة ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أى قوم دون ذلك الخذف الموصوف وهم المقتصدون بصلاح الحال على الوجه المذكور لا فى الإيمان والتقوى كما توهم فإن هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن كما يعرب عن قوله تعالى ﴿ كنا طرائق قدا ﴾

وأما حالهم بعد استماعه فسيحكي بقوله تعالى ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أنا منا المسلمون ﴾ أى كنا قبل هذا ذوى طرائق أى مذاهب أو مثل طرائق فى اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق قددا أى متفرقة مختلفة جمع قدة من قد كالمقطعة من قطع ﴿ وأنا ظننا ﴾ أى علمنا الآن ﴿ أن لن نعجز الله ﴾ أى أن الشأن أن نعجز الله كائنين ﴿ فى الأرض ﴾ أينما كنا من أقطارها ﴿ ولن نعجزه هربا ﴾ هاربين منها إلى السماء أو لن نعجزه فى الأرض إن أراد بنا أمرا وإن نعجزه هربا إن طابنا ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ أى القرآن الذى هو الهدى بعينه ﴿ آمنا به ﴾ من غير تعلم وتردد ﴿ فمن يؤمن بربه ﴾ وبما أنزل ﴿ فلا يخاف ﴾ فهو لا يخاف ﴿ بخسا ﴾ أى نقصا فى الجزاء ﴿ ولا رهقا ﴾ ولا أن ترهقه ذلة أو جزاء بخس ولا رهق إذا لم يبخس أحدا حقا ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله تعالى أن يجتنب المظالم وقرىء فلا يخف والأول أدل على تحقيق نجاة المؤمن واختصاصها به ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ الجائرون عن طريق الحق الذى هو الإيمان والطاعة ﴿ فمن أسلم فأولئك ﴾ إشارة إلى من أسلم واجمع باعتبار المعنى ﴿ تحروا ﴾ توخوا ﴿ رشدا ﴾ عظيما يبلغهم إلى دار الثواب ﴿ وأما القاسطون ﴾ الجائرون عن سنن الإسلام ﴿ فسكانوا جهنم خطبا ﴾ توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ أن مخففة من الثقيلة والجملة معطوفة قطعاً على أنه استمع والمعنى وأوحى إلى أن الشأن لو استقام الجن والإنس أو كلاهما ﴿ على الطريقة ﴾ التى هى ملة الإسلام ﴿ لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ أى لو سمننا عليهم الرزق وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب وقيل لو استقام الجن على الطريقة المثلى أى لو ثبت أبوهم الجان على ما كان عليه من عبادة الله تعالى وطاعته ولم يتكبر عن السجود لأدم عليه السلام ولم يكفر وتبعه ولده فى الإسلام لأنعمنا عليهم ووسعنا رزقهم ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه وقيل معناه أنه لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لو سمننا عليهم الرزق استبرأنا

لنوقعهم في الفتنة ونغضبهم في كفران النعمة ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾
 عن عبادته أو عن موعظته أو وحيه ﴿ يسلكه ﴾ يدخله ﴿ عذاباً صعباً ﴾ أى
 شاقاً صعباً يعلو المعضب ويغلبه على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ وأن المساجد
 لله ﴾ عطف على قوله تعالى أنه استمع أى وأوحى إلى أن المساجد مختصة بالله
 تعالى وقيل معناه ولأن المساجد لله ﴿ فلا تدعوا ﴾ أى لا تعبدوا فيها ﴿ مع الله
 أحداً ﴾ غيره وقيل المراد بالمساجد المسجد الحرام والجمع لأن كل ناحية منه
 مسجد له قبلة مخصوصة أو لأنه قبلة المساجد وقيل الأرض كلها لأنها جعلت
 مسجداً للنبي عليه الصلاة والسلام وقيل مواضع السجود على أن المراد نبي
 السجود لغير الله تعالى وقيل أعضاء السجود السبعة وقيل السجودات على أنه جمع
 المصدر الميمي ﴿ وأنه ﴾ من جملة الموحى أى وأوحى إلى أن الشأن ﴿ لما قام
 عبد الله ﴾ أى النبي عليه الصلاة والسلام وإيراده بلفظ العبد للإشعار بما هو
 المقتضى لقيامه وعبادته للتواضع لأنه واقع موقع كلامه عن نفسه ﴿ يدعو ﴾
 حال من فاعل قام أى يعبده وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة كما مر تفصيله في
 في سورة الأحقاف ﴿ كادوا ﴾ أى الجن ﴿ يكونون عليه لبدا ﴾ متراكمين
 من ازدحامهم عليه تعجباً بما شاهدوا من عبادته وسمعوا من قراءته واقداء
 أصحابه به قياماً وركوعاً وسجوداً لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وسمعوا بما لم يسمعوا
 بنظيره وقيل معناه لما قام عليه الصلاة والسلام يعبد الله وحده مخالفاً للمشركين
 كاد المشركون يزدحمون عليه متراكمين واللبد جمع لبدة وهى ما تلبد بعضه على
 بعض ومنها لبدة الأسد وقرىء لبدا جمع لبدة وهى بمعنى اللبدة ولبدا جمع لا بد
 كساجد وسجد ولبدا بضمه جمع لبود كهبور وصبور عن قتادة تلبدت الإنس
 والجن على هذا الأمر ليظفئوه فأبى الله ألا أن يظهره على من ناواه .

﴿ قل إنما أَدْعُو ﴾ أى أعبد ﴿ ربى ولا أشرك به ﴾ برى في العبادة ﴿ أحداً ﴾
 فليس ذلك يبدع ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عدواتى وقرىء
 قال على أنه حكاية لقوله عليه الصلاة والسلام للمتراكمين عليه والأول هو

الآظهر والأوفق لقوله تعالى ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ﴾ كأنه أريد لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا غيا ولا رشدا فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ إن أرادني بسوء ﴿ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ مانجا ومعدلا هذا بيان لمجزه عليه الصلاة والسلام عن شئون نفسه بعد بيان مجزه عليه الصلاة والسلام عن شئون غيره وقوله تعالى :

﴿ إلا بلاغا من الله ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ لإرشاد ونفع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة أو من ملتحدا أى لن أجد من دونه منجيا إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به وقيل إلا مركبة من إن الشرطية ولا النافية ومعناه أن لا أبلغ بلاغا من الله والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ ورسالاته ﴾ عطف على بلاغا ومن الله صفته لاصلته أى لا أملك لكم إلا تبليغا كائنا منه تعالى ورسالاته التى أرسلني بها ﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ فى الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ وقرئ بفتح الهمزة على فقهه أو فجزاؤه أن له نار جهنم ﴿ خالدين فيها ﴾ فى النار أو فى جهنم والجمع باعتبار المعنى ﴿ أبدا ﴾ بلا نهاية وقوله تعالى :

﴿ حتى إذا رآوا ما يوعدون ﴾ غاية لمحذوف يدل عليه الحال من استضعاف الكفار لأنصاره عليه الصلاة والسلام واستقلالهم لعدده كأنه قيل لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رآوا ما يوعدون من فنون العذاب فى الآخرة ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ وحمل ما يوعدون على ما رآوه يوم بدر يأباه قوله تعالى ﴿ قل إن أدرى ﴾ أى ما أدرى ﴿ أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ﴾ فإنه رد لما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعد إنكارا له واستهزاء به فقيل قل إنه كائن لا محالة وأما وقته فما أدرى متى يكون ﴿ عالم الغيب ﴾ بالرفع قيل هو بدل من ربي أو عطف بيان له ويأباه الفاء فى قوله تعالى ﴿ فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾

إذ يكون النظم حينئذ أم يجعل له عالم الغيب أمدا فلا يظهر عليه أحدا وفيه من الاختلال ما لا يخفى فهو خبر مبتدأ محذوف أى هو عالم الغيب والجملة استئناف مقرر لما قبله من عدم الدراية والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرده تعالى يعلم الغيب على الإطلاق أى فلا يطلع على غيبه إطلاعا كاملا ينكشف به جليلة الحال انكشافا تاما موجباً لعين اليقين أحد من خلقه ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أى إلا رسولا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالاته كما يعرب عنه بيان من ارتضى بالرسول تعلقا تاما إما لكونه من مبادئ رسالاته بأن يكون معجزة دالة على صحتها وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى أمر بها المكافون وكيفيات أعمالهم وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام الساعة والبعث وغير ذلك من الأمور الغيبية التى بيانها من وظائف الرسالة وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب التى من جملتها وقت قيام الساعة فلا يظهر عليه أحدا أبدا على أن بيان وقته مخل بالحكمة التشريعية التى عليها يدور فلك الرسالة وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسول لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلا ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما فى رتبة الرسول عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحى الصريح وقوله تعالى ﴿فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا﴾ تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد من الاستثناء وبيان لكيفية أى فانه يسلك من جميع جوانب الرسول عليه السلام عند إظهاره على غيبه حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيوب المتعلقة برسالاته وقوله تعالى :

﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ متعلق بيسلك غاية له من حيث أنه مترتب على الإبلاغ المترتب عليه إذ المراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل وأن مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف والجملة خبرها بـرسالات ربهم عبارة عن الغيب الذى أريد إظهار المرتضى عليه والجمع باعتبار

تعدد أفرادهم وضمير أبلغوا إما للرصد فالمعنى أنه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتضى ليعلم أن الشأن قد أبلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علما مستتبعا للجزاء وهو أن يعلمه موجودا حاصلا بالفعل كما في قوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) والغاية في الحقيقة هو الإبلاغ والجماد وإيراد علمه تعالى لإبراز اعتناؤه تعالى بأمرهما والإشعار بترتيب الجزاء عليهما والمبالغة في الخث عليهما والتحذير عن التفريط فيهما ولما لم يرتضى والجمع باعتبار معنى من كما أن الأفراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظهما فالمعنى ليعلم أنه قد أبلغ الوصل الموحى إليهم رسالات ربهم إلى أنهم كما هي من غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصد إليهم كذلك وقوله تعالى :

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أى بما عند الرصد أو الرسل عليهم السلام حال من فاعل يسلك بإحضار قد أو بدونه على الخلاف المشهور جرى بها لتحقيق استغنائه تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد على الوجه المذكور أى يسلكهم بين يديه ومن خلفه يترتب عليه علمه تعالى بما ذكر والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال جميعا .

﴿ وأحصى كل شيء ﴾ مما كان وما سيكون ﴿ عدا ﴾ أى فردا فردا وهو تمييز منقول من المفعول به كقوله تعالى (وفجرنا الأرض عيونا) والأصل أحصى عدد كل شيء وقيل هو حال أى معدودا محصورا أو مصدر بمعنى إحصاء وأيا ما كان ففائدته بيان أن علمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلى إجمالى بل على وجه جزئى تفصيلى فإن الإحصاء قد يراد به الإحاطة الإجمالية كما في قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تقدرُوا على حصرها إجمالا فضلا عن التفصيل وذلك لأن أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا ممينا من عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبنى على ذلك حسابه هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى (وأحاط بما لديهم) الخ معطوف على مقدر يدل عليه قوله تعالى ليعلم كأنه قيل قد علم ذلك وأحاط بما لديهم الخ فبمعزل من السداد . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنى صدق محمد وكذب به عتق رقبة .

سورة المزمل

مكية ، وآيها تسع عشرة أو عشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها المزمل) أي المتزمل من زمّل بثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاى وقد قرئ على الأصل وقرئ المزمل من زمله مبنيًا للمفعول ومبنيًا للفاعل قيل خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام تهجينًا لما كان عليه من الحالة حيث كان عليه الصلاة والسلام متلففًا بقطيفة مستعدًا للنوم كما يفعله من لا يهمله أمر ولا يعنيه شأن فأمر بأن يترك التزمل إلى التشمير للعبادة والهجود إلى التهجد وقيل دخل عليه الصلاة والسلام على خديجة وقد جثت فرقا أول ما أتاه جبريل عليهما السلام وبوادره ترعد فقال زملوني زملوني فحسب أنه عرض له فيينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل فقال يا أيها المزمل فيكون تخصيص وصف التزمل بالخطاب للملاطفة والتأنيس كما في قوله عليه الصلاة والسلام لعلّ رضى الله عنه حين غاضب فاطمة رضى الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب قم يا أبا تراب ملاطفة له وإشعاراً بأنه غير عاتب عليه وقيل المعنى يا أيها الذى زمّل أمراً عظيماً هو أمر النبوة أى حمّله والزمّل الخمل وازدمله أى احتمله فالتعرض للوصف حينئذ للإشعار بعلميته للقيام أو للأمر به فإن تحمّله عليه الصلاة والسلام لأعباء الغوبة مما يوجب الاجتهاد في العبادة (قم الليل) أى قم إلى الصلاة وانتصاب الليل على الظرفية وقيل القيام مستعار للصلاة ومعنى قم صل وقرئ بضم الميم وبقمتها (إلا قليلاً) استثناء من الليل وقوله تعالى (نصفه) بدل من الليل الباقي بعد النّيا بدل الكل أى قم نصفه والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارن للقيام والإيدان بفضلّه وكون القيام فيه بمنزلة القيام فى أكثره فى كثرة الثواب واعتبار قلته بالنسبة إلى الكل مع عرائنه عن الفائدة خلاف الظاهر (أو

انقص منه) أى أنقص القيام من النصف المقارن له فى الصورة الأولى (قليلًا) أى نقصًا قليلًا أو مقدارًا قليلًا بحيث لا يتحط إلى نصف النصف (أو زد عليه) أى زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى تخييره عليه الصلاة والسلام بين أن يقوم نصفه أو أقل منه أو أكثر وقيل قوله تعالى نصفه بدل من قليلًا والتخيير بحاله وليس بسديد أما أولاً فلأن الحقيق بالاعتناء الذى ينبى عنه الإبدال هو الجزء الباقى بعد الثنبا المقارن للقيام لا الجزء الخارج العارى عنه وأما ثانياً فلأن نقص القيام وزيادته إنما يعتبران بالقياس إلى معياره الذى هو النصف المقارن له فلو جعل نصفه بدلاً من قليلًا لزم اعتبار نقص القيام وزيادته بالقياس إلى ما هو عار عنه بالسكينة والاعتذار بتساوى النصفين مع كونه تمحلاً ظاهراً اعترافاً بأن الحق هو الأول وقيل نصفه بدل من الليل وإلا قليلًا استثناء من النصف والضمير فى منه وعليه للنصف والمعنى التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البتات^(١) وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه وقيل الضميران للأقل من النصف كأنه قيل قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلًا وقيل وقيل والذى يليق بجزالة التنزيل هو الأول والله أعلم بما فى كتابه الجليل (ورتل القرآن) فى أثناء ما ذكر من القيام أى اقرأه على تودة وتبيين حروف (ترتيلًا) بليغاً بحيث يتمكن السامع من عدها من قولهم نغر رتل ورتل إذا كان مفليجاً .

(إنا سنلقى عليك) أى سنوحى إليك وإيشار الإلقاء عليه لقوله تعالى (قولا ثقيلاً) وهو القرآن العظيم المنطوى على تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين لا سيما على الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه عليه الصلاة والسلام مأمور بتحملها وتحميلها للأمة والجملة اعترض بين الأمر وتعليمه لتسهيل ما كلفه عليه الصلاة والسلام من القيام وقيل معنى كونه ثقيلاً أنه رصين لرزاة

لفظه ومثانة معناه أو ثقيل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر أو ثقيل في الميزان أو على الكفار والفجار أو ثقيل تلقيه عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتردد له جلده وعن عائشة رضى الله تعالى عنها رأيتَه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً ﴿إن ناشئة الليل﴾ أى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة أى تنهض من نشأ من مكانه إذا نهض أو إن قيام الليل على أن الناشئة مصدر من نشأ كالعافية أو أن العبادة التى تنشأ بالليل أى تحدث. وأن ساعات الليل فإنها تحدث واحدة بعد واحدة أو ساعاتها الأول من نشأ إذا ابتدأ ﴿هى أشد وطأ﴾ أى هى خاصة أشد ثبات قدم أو كلفة فلا بد من الاعتناء بالقيام وقرىء وطأ أى أشد مواطاة يواطى قلبها لسانها إن أريد بها النفس أو يواطى فيها قلب القائم لسانه أن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ﴿وأقوم قيلاً﴾ وأشد مقالا وأثبت قراءة لحضور القلب وهذوء الأصوات ﴿إن لك في النهار سبعا طويلاً﴾ أى قلباً وتصرفاً في مهماتك واشتغالا بشواغلك فلا تستطيع أن تنفرغ للعبادة فعليك بها في الليل وهذا بيان للداعى الخارجى إلى قيام الليل بعد بيان ما فى نفسه من الداعى وقرىء سبجاً أى تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبج الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه ﴿واذكر اسم ربك﴾ ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أى وجه كان من تسييح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم ﴿وتبتل إليه﴾ أى وانقطع إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة فى مراقبته وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادة عن مراقبة الله تعالى وقطع العلائق عما سواه قيل ﴿تبتلاً﴾ مكان تبتلاً مع ما فيه من رعاية الفواصل .

﴿رب المشرق والمغرب﴾ مرفوع على المدح وقيل على الابتداء خبره . ﴿لا إله إلا هو﴾ وقرىء بالجر على أنه بدل من ربك وقيل على إضمار حرف القسم جوابه لا إله إلا هو والفاء فى قوله تعالى ﴿فاتخذوه كيلاً﴾ لترتيب

الأمر وموجبه على اختصاص الألوهية والربوبية به تعالى ﴿واصبر على ما يقولون﴾ بما لا خير فيه من الخرافات ﴿واهجرم هجرًا جميلًا﴾ بأن تجاهبهم وتداربهم ولا تكافئهم وتكمل أمورهم إلى ربهم كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿وذرنى والمكذبين﴾ أى دعنى وإياهم وكل أمرهم إلى فإنى أكفيكم ﴿أولى النعمة﴾ أرباب النعم وهم صناديد قريش ﴿ومهلهم قليلاً﴾ زماناً قليلاً ﴿إن لدينا أنكالاً﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل والجملة تعليل للأمر أى إن لدينا أموراً مضادة لتنعمهم^(١) ﴿وجحياً وطعاماً ذا غصة﴾ ينشب فى الخلق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم ﴿وعذاباً أليماً﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه كل ذلك معد لهم ومرصد وقوله تعالى ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ أى تضطرب وتزلزل ظرف للاستقرار الذى تعلق به لدينا وقيل متعلق بمضمر هو صفة لعذاباً أى عذاباً واقعاً يوم ترجف ﴿وكانت الجبال﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كشيياً﴾ رملاً مجتمعاً من كشب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول ﴿مهيلاً﴾ مشوراً من هيل هيلاً إذا نثر وأسيل.

﴿إنا أرسلنا إليكم﴾ يا أهل مكة ﴿رسولاً شاهداً عليكم﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ هو موسى عليه السلام وعدم تعيينه لعدم دخله فى التشبيه ﴿فعصى فرعون الرسول﴾ الذى أرسلناه إليه وحمل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى إنا أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿شاهداً عليكم﴾ لإرسالنا كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه وقوله تعالى ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ خارج من التشبيه جىء به للتنبية على أنه سيجيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة والويل الثقيل الغليظ من قولهم كلاً وويل أى وخيم لا يستمر^(٢) لثقله والويل العصا الضخمة ﴿فكيف تتقون﴾ أى كيف تقون أنفسكم

(٢) فى ١١ : لا تستمره النعم .

(١) فى ١١ : نعيمهم .

﴿ إن كفرتم ﴾ أى بقيتم على الكفر ﴿ يوما ﴾ أى عذاب يوم ﴿ يجعل الولدان ﴾ من شدة هوله وفظاعة ما فيه من الدواهي ﴿ شيئا ﴾ شيو خا جمع أشيب إما حقيقة أو تمثيلا وأصله أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه وأسرع فيه الشيب وقد جوز أن يكون ذلك وصفا لليوم بالطول وليس بذلك .

﴿ السماء منفطر ﴾ أى منشق وقرئ منفطر أى متشق والتذكير لإجرائه على موصوف مذكر أى شيء منفطر عبر عنها بذلك للتنيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء وقيل لتأويل السماء بالسقف وقيل هو من باب النسب أى ذات انفطار والباء فى قوله تعالى ﴿ به ﴾ مثلها فى فطرت العود بالقدوم ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ الضمير لله عز وجل والمصدر مضاف إلى فاعله أو لليوم وهو مضاف إلى مفعوله ﴿ إن هذه ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿ تذكرة ﴾ موعظة ﴿ فن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ بالتقرب إليه بالإيمان والطاعة فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ﴾ أى أقل منهما استعير له الأدنى لما أن المسافة بين الشينين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ بالنصب عطفا على أدنى وقرئ بالجر عطفا على ثلثي الليل ﴿ وطائفة من الذين معك ﴾ أى ويقوم معك طائفة من أصحابك ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ وحده لا يقدر على تقديرهما أحد أصلا فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء يقدر عليه موجب للاختصاص قطعا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أى علم أن الشأن لن يقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبدا ﴿ فتأب عليكم ﴾ بالترخيص فى ترك القيام المقدور ورفع التبعة عنكم فى تركه .

﴿ فافروا ما تيسر من القرآن ﴾ فصلوا إما تيسر لكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها قيل كان التهجذ واجبا على التخيير المذكور فمسر عليهم القيام به ففسخ به ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس وقيل

هى قراءة القرآن بعينها قالوا من قرأ مائة آية من القرآن فى ليلة لم يحاجه وقيل من قرأ مائة آية كتب من القانتين^(١) وقيل خمسين آية ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ استئناف مبين لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف .

﴿ وآخرون يضربون فى الأرض ﴾ يسافرون فيها للتجارة يبتغون من فضل الله ﴿ وهو الربح وقد عمم ابتغاء الفضل لتحصيل العلم ﴾ وآخرين يقا تلون فى سبيل الله ﴿ وإذا كان الأمر كما ذكر وتماضت الدواعى إلى الترخيص ﴾ فافروا ما تبسر منه ﴿ من غير تحمل المشاق ﴾ وأقيموا الصلوة ﴿ أى المفروضة ﴾ وآتوا الزكاة ﴿ الواجبة وقيل هى زكاة الفطر إذ لم يكن بمكة زكاة ومن فسر ها بالزكاة المفروضة جعل آخر السورة مدنيا ﴾ وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴿ أريد به الإنفاقات فى سبل الخيرات أو أداء الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعها للفقراء ﴾ وما تقدموا لأنفسكم من خير كان مما ذكر وما لم يذكر ﴿ تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ﴾ من الذى تؤخرونه إلى الوصية عند الموت وخيرا ثانى مفعولى تجدوا وهو تأكيد أو فصل وإن لم يقع بين معرفتين فإن أفعل من فى حكم المعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف وقرىء هو خير على الابتداء والخبر ﴿ واستغفروا الله ﴾ فى كافة أحوالكم فإن الإنسان قلما يخلو من تفريط ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر فى الدنيا والآخرة .

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة من طرق

﴿سورة المدثر﴾
(مكية وآياتها ست وخمسون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها المدثر) أى المدثر وهو لا يس الدثار وهو ما يلبس فوق الثمار الذى يلى الجسد قيل هى أول سورة نزلت . روى عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شئ فنظرت فوق فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض يعنى الملك الذى ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت دثرونى دثرونى فنزل جبريل وقال يا أيها المدثر وعن الزهري أن أول ما نزل سورة اقرأ إلى قوله تعالى ما لم يعلم فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواحق الجبال فاتاه جبريل عليه السلام وقال إنك نبي الله فارجع إلى خديجة فقال دثرونى وصبوا على ماء بارداً فنزل جبريل فقال يا أيها المدثر وقيل سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه متفكراً كما يفعل المغموم فأمر أن لا يدع أنذارهم وإن أسمعوهم وأذوه وقيل كان نائماً متدثراً وقيل المراد المدثر بلباس النبوة والمعارف الإلهية وقرئ المدثر على صيغة اسم المفعول من دثره أى الذى دثر هذا الأمر العظيم وعصب به وفى حرف أبى المنذر يا أيها المدثر على الأصل (قم) أى من مضجعتك أو قم قيام عزم وتصميم (فأنذر) أى أفعّل الإنذار وأحدثه وقيل أنذر قومك كقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) أو جميع الناس حسبما يفيء عنه قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) (وربك فكبر) واختص ربك بالتكبير وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقاداً وقولاً ويروى أنه لما نزل قال رسول الله الله أكبر فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وقد يحمل على تكبير الصلاة وإفاء المعنى الشرط كأنه قيل ما كان أى شئ حدث فلا تدع تكبيره

أو للدلالة على أن المقصود الأولى من الأمر بالقيام أن يكبر ربه وينزهه من الشرك فإن أول ما يجب معرفة الصانع جل جلاله ثم تنزيهه عما لا يليق بجنابه. ﴿ وثيابك فطهر ﴾ مما ليس بظاهر فإنه واجب في الصلاة وأولى وأحب في غيرها وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغسلها بعد تلطخها وبتقصيرها أيضاً فإن طولها يؤدي إلى جر الذبول على القاذورات وهو أول ما أمر به عليه الصلاة والسلام من رفض العادات المذمومة وقيل هو أمر بتطهير النفس مما يستقدر من الأفعال ويستحسن من الأحوال يقال فلان طاهر الذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق ﴿ والرجز فاهجر ﴾ أى واهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه من المآثم وقرئ بكسر الراء وهما لغتان كالذكر والذكر ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ ولا تعط مستكثراً أى رائياً لمسا تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير على أنه نهى عن الاستغزار وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر مما أعطاه وهو جائز ومنه الحديث المستغزر يشاب من هبته فالنهي إما للتحريم وهو خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى اختار له أشرف الأخلاق وأحسن الآداب أو للتنزيه للكل وقرئ تستكثر بالسكون اعتباراً بحال الوقف أو لإبدالا من تمنن كأنه قيل ولا تمنن ولا تستكثر على أنه من المن الذى فى قوله تعالى منا ولا أذى لأن من يمن بما يعطى يستكثره ويعيد به وقرئ بالنصب بإضمار أن مع إبقاء عملها كقول من قال :

ألا أهدأ الزاجرى أحضر الوغى

وقد قرئ بإثباتها ويجوز فى قراءة الرفع أن يحذف أن ويبطل عملها كما يروى أحضر الوغى بالرفع ﴿ ولربك ﴾ أى لوجه تعالى أو لأمره ﴿ فاصبر ﴾ فاستعمل الصبر وقيل على أذية المشركين وقيل على أداء الفرائض .

﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ أى نفخ فى الصور وهو فاعل من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذى هو سبب الصوت والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عافية أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه

والعامل في. إذا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين ﴾ فإن معناه عسر الأمر على الكافرين وذلك إشارة إلى وقت النقر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في المحول والفظاعة ومحله الرفع على الابتداء ويومئذ بدل منه مبنى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن والظاهر يوم عسير وقيل يومئذ ظرف للخبر إذ التقدير وذلك الوقت وقوع يوم عسير وعلى متعلقة بعسير وقيل بمحذوف هو صفة لعسير أو حال من المستمكن فيه وقوله تعالى : ﴿ غير يسير ﴾ تأكيده لعسره عليهم مشعر بيسره على المؤمنين واختلف في أن المراد به يوم النفخة الأولى أو الثانية ، والحق أنها الثانية ، إذ هي التي يختص عسرها بالكافرين وأما النفخة الأولى لحكمها الذي هو الاصعاق يعم البر والفاجر على أنها مختصة بمن كان حيا عند وقوعها وقد جاء في الأخبار أن في الصور نقبا بعدد الأرواح كلها وأنها تتجمع في تلك النقوب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ من كل نقبة روح إلى الجسد الذي نزعته منه فيعود الجسد حيا بإذن الله تعالى .

تهديد الطغاة

﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا ﴾ حال إما من الياء أى ذرني وحدي معه نفاني أكيفيك في الانتقام منه أو من التاء أى خلقتك وحدي لم يشركني في خلقه أحد أو من العائد المحذوف أى ومن خلقتك وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يلقب في قومه الوحيد فهو تهكم به وبلقبه وصرف له عن الغرض الذي يؤمونه من مدحه إلى جهة خذه بكونه وحيدا من المال والولد أو وحيدا من أبيه لأنه كان زنيا كما مر أو وحيدا في الشرارة ﴿ وجعلت له مالا ممدودا ﴾ مبسوطا كثيرا أو ممددا يالغناء من مد النهر ومدته نهر آخر قيل كان له الضرع والزرع والتجارة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال وقيل كان له بالطائف بستان لا ينقطع ثماره صيفا وشتاء وقال ابن عباس

ومجاهد وسعيد بن جبير كان له ألف دينار وقال قتادة ستة آلاف دينار وقال سفيان الثوري أربعة آلاف دينار ، وقال الثوري أيا ألف ألف دينار .

((وبنين شهدا)) حضورا معه بمكة ينمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرف في عمل أو تجارة لسكونهم مكفيين لو فور نعمهم وكثرة خدمهم أو حضورا في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم قيل كان له عشرة بنين وقيل ثلاثة عشر وقيل سبعة كلهم رجال الوليد بن الوليد وخالد وعماره وهشام والمأمون والقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعماره ((ومهدت له تمهيدا)) وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ربحانة قريش ((ثم يطمع أن أزيد)) على ما أوتيته وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه لما لأنه لا مزيد على ما أوتي سعة وكثرة أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم وقيل إنه كان يقول إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي ((كلا)) ردع وزجر له عن طمعه الفارغ وقطع لرجائه الخائب وقوله تعالى ((إنه كان لا ياتنا عنيدا)) تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيق فإن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفران نعمته مع سبوغها مما يوجب حرمانه بالكلية وإنما أوتي ما أوتي استدراجا قيل ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتى هلك ((سأرهقه صعودا)) سأغشيه بدل ما يطمعه من الزيادة أو الجنة عقبة^(١) شاقة المصعد وهو مثل لما يلقي من العذاب الصعب الذي لا يطاق وعن النبي صلى الله عليه وسلم يكلف أن يصعد عقبه في النار كلما وضع يده عليها ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت فإذا رفعها عادت وعنه عليه الصلاة والسلام الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا ((إنه فسكر وقدر)) تعليل للوعيد واستحقاقه له أو بيان لعناده لآياته تعالى أي فسكر ماذا يقول في شأن القرآن وقدر في

نفسه ما يقوله ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ تعجيب من تقديره وإصابته فيه الغرض
الذى كان ينتجيه (١) قريش قاتلهم الله أو ثناء عليه بطريق الاستهزاء أو حكاية
لما كرروه من قولهم قتل كيف قدر تهكما بهم ويأعجابهم بتقديره واستعظامهم
لقوله ومعنى قولهم قتله الله ما أشجعه أو أخزاه الله ما أشعره الإشعار بأنه
قد بلغ من الشجاعة والشعر مبلغا حقيقيا بأن يدعو عليه حاسده بذلك . روى
أن الوليد قال لبني مخزوم والله لقد سمعت من محمد آفا كلاما ما هو من كلام
الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن
أسفله لمغدق وإنه يعلم ما يعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأ
قريش كلهم فقال ابن أخيه أبو جهل أنا أكفيكموه فقعد عنده حزينا وكلبه
بما أحماه فقام فاتاهم فقال تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق وتقولون
إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتماطى شعرا
قط وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب فقالوا في كل ذلك اللهم
الاثم قالوا فما هو ففكر فقال ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل
وأهله وولده ومواليه وما الذى يقوله إلا سحر يآثره عن أهل بابل فلترج
النادى فرحا وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ تكرير
للمبالغة وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها من
التراخي الزمانى .

﴿ ثم نظر ﴾ أى فى القرآن مرة بعد مرة ﴿ ثم عبس ﴾ قطب وجهه
لما لم يجد فيه مطعنا ولم يدر ماذا يقول وقيل نظر فى وجوه الناس ثم قطب
وجهه وقيل نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قطب فى وجهه ﴿ ويسر ﴾
اتباع لعيس ﴿ ثم أدبر ﴾ عن الحق أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
﴿ واستكبر ﴾ عن اتباعه ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى يروى ويتعلم
والفاء للدلالة على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعم

وتلبث وقوله تعالى ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ تأكيد لما قبله ولذلك أخفى عن العاطف ﴿سأصليه سقر﴾ بدل من سأرهقه صعودا ﴿وما أدراك ما سقر﴾ أى أى شيء أعليك ما سقر على أن ما الأولى مبتدأ وأدراك خبره وما الثانية خبر لأنها المفيدة لما قصد إفادته من التهويل والتفطيع وسقر مبتدأ أى أى شيء هى فى وصفها لما مر مرارا من أن ماقد يطلب بها الوصف وإن كان الغالب أن يطلب بها الاسم والحقيقة وقوله تعالى ﴿لاتبقى ولا تذر﴾ بيان لوصفها وحالها وإنجاز للوعد الضمنى الذى يلوح به وما أدراك ما سقر وقيل حال من من سقر وليس بذاك أى لاتبقى شيئا يلقى فيها إلا أهلكته وإذا هلك لم تذر هالكاً حتى يعاد أو لاتبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة ﴿لواحة للبشر﴾ مغيرة لأعلى الجلد مسودة لها قيل تلفح الجلد لفحة فندعه أشد سوادا من الليل وقيل تلوح للناس كقوله تعالى ثم لترونها عين اليقين وقرىء لواحة بالنصب على الاختصاص للتهويل ﴿عليها تسعة عشر﴾ أى ملكا أو صنفا أو صفيا أو نقييا من الملائكة يلون أمرها ويتسلطون على أهلها وقرىء بسكون عين عشر حذرا من توالى الحركات فيما هو فى حكم اسم واحد وقرىء تسعة عشر جمع عشير مثل يمين وأيمن .

﴿وما جعلنا أصحاب النار﴾ أى المدبرين لأمرها القائمين بتعذيب أهلها ﴿إلا ملائكة﴾ ليخالقوا جنس المعذبين فلا يرقوا لهم ولا يستروحوهم إليهم ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحق الله عز وجل وبالغضب له تعالى وأشداهم بأسا عن النبي صلى الله عليه وسلم لأحدهم مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم فى النار ويرمى بالجبل عليهم وروى أنه لما نزل عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فقال أبو الأشد بن أسيد بن كعدة الجمحي وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فأكفوني أتم اثنين فنزلت أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ أى ما جعلنا عددهم إلا العدد الذى تسبب لافتنانهم وهو التسعة عشر فعبر بالآثر عن المؤثر تبيينها على التلازم بينهما

وليس المراد مجرد جعل عددهم ذلك العدد المعين في نفس الأمر بل جعله في القرآن أيضاً كذلك وهو الحكم بأن عليها تسعة عشر إذا بذلك يتحقق اقتنائهم باستقلالهم له واستبعادهم لتولى هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذكر وعليه يدور ما سيأتى من استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً قالوا المخصص لهذا العدد أن اختلاف النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنتى عشرة والطبيعية السبع أو أن جهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفرة كل صنف يعذب بترك الاعتقاد والاقرار والعمل أنواعاً من العذاب يناسبها وعلى كل نوع ملك أو صنف أو صف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه ويتولاه واحد أو أن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس فيبقى تسعة عشر قد تصرف إلى ما يؤاخذ به بأنواع العذاب يتولاها الزبانية (ليستيقن الذين أتوا الكتاب) متعلق بالجعل على المعنى المذكور أى ليكتسبوا اليقين بنبوته عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقاً لما في كتابهم (يزداد الذين آمنوا إيماناً) أى يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك أو كمية بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل (ولا يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون) تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة ما وإنما لم ينظم المؤمنون في سلك أهل الكتاب في نفي الارتياب^(١) حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبية على تباين النفيين حالاً فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الإيمان وكما بينهما والتعبير عنهم باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك (وليقول الذين في قلوبهم مرض) شك أو نفاق فيكون إخباراً بما

(١) في ١١ : الرية .

سيكون في المدينة بعد الهجرة ﴿والكافرون﴾ المصرون على التكذيب ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ أى أى شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل وقيل لما أسعدوه حسبوا أنه مثل مضروب وإفراد قوْلهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتقّتهم للإشعار باستقلاله في الشناعة ﴿كذلك يضل الله من يشاء﴾ ذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الاضلال والهداية ومحل الكفاف في الأصل النصب على أنها صفة لمصدر محذوف وأصل التقدير يضل الله من يشاء ﴿ويهدى من يشاء﴾ إضلالا وهداية كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامه ثم قدم على الفعل لإفادة القصر فصار النظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضل الله من يشاء إضلاله لصرف اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحق ويهدى من يشاء هدايته لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالا وهداية أدنى منهما .

﴿وما يعلم جنود ربك﴾ أى جموع خلقه التى من جعلتها الملائكة المذكورون ﴿إلا هو﴾ إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولو إجمالا فضلا عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ^(١) ونسبه ﴿وما هى﴾ أى سقر أو عدة خزنتها والآيات الناطقة بأحوالها ﴿إلا ذكرى للبشر﴾ إلا تذكرة لهم .

﴿كلا﴾ ردع لمن أنكرها أو أنكار ونفى لان يكون لهم تذكرة والقمر والليل إذا أدبر﴾ وقرئ إذ دبر بمعنى أدبر كقبل بمعنى أقبل ومنه قولهم صاروا كأمس الدابر لقليل هو من دبر الليل أنها إذا خلقه ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أى أضاء وانكشف ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ جواب للقسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتوكيد والكبر جمع الكبرى جعلت ألف التأنيث كتابتها فكما جمعت فعلة على فعل جمعت فعلى عليها ونظيرها القواصع في جمع

(١) السكم المقدار والكيف الماهية : أنظر مادتهما من تعريفات الجرجاني .

القاصعاء كأنها جمع قاصعة أى لإحدى البلايا أو لإحدى الدواهي الكبرى على معنى أن البلايا الكبرى أو الدواهي الكبرى كثيرة وهذه واحدة في العظم لا نظيرة لها (نذيراً للبشر) تمييز أى لإحدى الكبرى إنذاراً أو حال بما دلت عليه الجملة أى كبرت منذرة وقرىء نذير بالرفع على أنه خبر بعد خبر لأن أو لمبتدأ محذوف (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) بدل من للبشر أى نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى أو لم يشأ ذلك فيضله وقيل لمن شاء خبر وأن يتقدم أو يتأخر مبتدأ فيكون في معنى قوله تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله تعالى بكسبها والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشئمة بمعنى الشتم لا صفة وإلا ل قيل رهين لأن فعلاً بمعنى مفعول لا يدخله التأني (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فإكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الرهن بأداء الدين وقيل هم الملائكة وقيل الأطفال وقيل هم الذين سبقت لهم من الله تعالى الحسنى وقيل الذين كانوا عن يمين آدم عليه السلام يوم الميثاق وقيل الذين يعطون كتبهم بأيمانهم (في جنات) لا يكتنه عنها ولا يدرك وصفها وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله من استثناء أصحاب اليمين كأنه قيل ما بالهم قليل هم في جنات وقيل حال من أصحاب اليمين وقيل من ضميرهم في قوله تعالى (يتساملون) وقيل ظرف للتساول وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضاً على أن يكون كل واحد منهم سائلاً ومسئولاً معاً بل صدور السؤال عنهم مجرداً عن وقوعه عليهم فإن صيغة التفاعل وإن وضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه معاً بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً كما في قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى وبقصد بها الدلالة على الأول فقط فيذكر للفعل حيثند مفعول كما في قولك تراءوا الهلال فعنى يتساملون (عن المجرمين) يسألونهم عن أحوالهم وقد حذف المسئول لكونه عين المسئول عنه وقوله تعالى (ما سألكم في سقر) مقدر بقول هو حال من فاعل يتساملون أى

يسألونهم قاتلين أى شيء أدخلكم فيها فتأمل ودع عنك ما تكلف فيه المتكلفون .

﴿ قالوا ﴾ أى المجرمون مجيبين للسائلين ﴿ لم نك من المصلين ﴾ للصلوات الواجبة ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ على معنى استمرار نفى الإطعام لا على نفى استمرار الإطعام كما مر مرارا وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع فى حق المؤاخذه ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أى بيوم الجزاء أضافوه إلى الجزاء مع أن فيه من الدواهي والأهوال ما لا غاية له لأنه أدهاها وأهولها وأنهم ملابسوه وقد مضت بقية الدواهي وتأخير جنائيتهم هذه مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم الدين وليبان كون تكذيبهم به مقارنا لسائر جنائياتهم المعدودة^(١) مستمرا إلى آخر عمرهم حسبما نطق به قولهم ﴿ حتى أنايا اليقين ﴾ أى الموت ومقدماته ﴿ فأتنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ لو شفّعوا لهم جميعا والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأتلم عن التذكرة معرضين ﴾ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذبين ومعرضين حال من الضمير فى الجار الواقع خبرا لما الاستفهامية وعن متعلقة به أى فإذا كان حال المكذبين به على ما ذكر فأى شيء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه وتأخذ الدواعى إلى الإيمان به وقوله تعالى .

﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ حال من المستكن فى معرضين بطريق التداخل أى مشبهين بحمر نافرة ﴿ فرت من قسورة ﴾ أى من أسد فعولة من القسرو وهو القمر والغلبة وقيل هى جماعة الرماة الذين يتصيدونها شبهوا فى إعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها بما أفرعها وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ بل يريد كل

امرى منهم أن يوثق صحفا منشرة ﴿ عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها بل يريد كل واحد منهم أن يوثق قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن تتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب ^(١) من السماء عنوانه ^(٢) من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك كما قالوا لن نؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتابا نقرأه وقرىء صحفا منشرة بسكون الحاء والنون ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن تلك الجراءة ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ فلذلك يعرضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ﴿ كلا ﴾ ردع عن إعراضهم ﴿ إنه ﴾ أى القرآن ﴿ تذكرة ﴾ وأى تذكرة ﴿ فمن شاء ﴾ أن يذكره ﴿ ذكره ﴾ وحاز بسببه سعادة الدارين ﴿ وما يذكرون ﴾ بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى فمن شاء ذكره إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أو من أعم الأحوال أى وما يذكرون بعلّة من العلل أو في حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله أو حال أن يشاء الله ذلك وهو تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عز وجل وقرىء تذكرون على الخطاب التفاتا وقرىء بهما مشددا ﴿ هو أهل التقوى ﴾ أى حقيق بأن يتقى عقابه ويؤمن به ويطاع ﴿ وأهل المغفرة ﴾ حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذب به بمكة .

﴿سورة القيامة﴾

مكية ، وآياتها تسع وثلاثون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ لإدخال لا النافية على فعل القسم شائع وفائدتها تأكيد القسم قالوا إنها صلة مثلها في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب وقيل هي للنفي لكن لا لنفي نفس الإقسام بل لنفي ما ينفي هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك وأكثر وأما ما قيل من أن المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر فقد عرفت ما فيه في قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقيل إن لا نفي ورد لكلام معهود قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا أى ليس الأمر كذلك ثم قيل أقسم بيوم القيامة كقولك لا والله إن البعث حق وأيا ما كان ففى الإقسام على تحقق البعث بيوم القيامة من الجزالة ما لا مزيد عليه وقد مر تفصيله في سورة يس وسورة الزخرف ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ أى بالنفس المنتقية التى تلوم النفوس يومئذ على تقصيرهن في التقوى ففيه طرف من البراعة التى في القسم السابق أو بالنفس التى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعات أو بالنفس المظمنة اللائمة للنفس الأمانة وقيل بالجنس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة إن عملت خيرا قالت كيف لم أزد وإن عملت شرا قالت ليتنى كنت قصرت ولا يخفى ضعفه فإن هذا القدر من اللوم لا يكون مدارا للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المسيئة فكيف من الكافرة المندرجة تحت الجنس وقيل بنفس آدم عليه السلام فإنها لا تزال تتلوم^(١) على فعلها الذى خرجت به من الجنة وجواب القسم ما دل عليه قوله تعالى .

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعُ عَظَامَهُ﴾ وهو ليبعث والمراد بالإنسان
 الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وأن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن
 الذي هو اسمها محذوف أى يحسب أن الشأن لن نجتمع عظامه فإن ذلك حسبان
 باطل فإننا نجتمعها بعد تشتتها ورجوعها رميا ورفاتا مختلطا بالترباب وبعد ماسفتها
 الرياح وطيرتها فى أقطار الأرض وألقها فى البحار وقيل إن عدى بن أبى ربيعة
 ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيهما
 اللهم اكفى جارى سوء قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد حدثنى عن
 يوم القيامة متى يكون وكيف أمره فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
 لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك أو يجمع الله هذه العظام ﴿بلى﴾ أى نجتمعها
 حال كوننا ﴿قادرين على أى نسوى بنائه﴾ أى نجتمع سلامياته ونضم بعضها
 إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام أو على أن نسوى
 أصابعه التى هى أطرافه وآخر ما يتم به خلقه وقرىء قادرون ﴿بل يريد
 الإنسان ليفجر أمامه﴾ عطف على يحسب إما على أنه استفهام مثله أضرب
 عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا أو على أنه إيجاب انتقل إليه عن الاستفهام
 أى بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وما يستقبله من الزمان
 لا يرعوى عنه ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ أى متى يكون استبعادا أو استهزاء
 ﴿فإذا يرق البصر﴾ أى تحير فزعاً من برق الرجل إذا نظر إلى البرق
 فدهش بصره وقرىء بفتح الراء وهى لغة أو من البريق بمعنى لمع من شدة
 شخوصه وقرىء باق أى انفتح وانفرج ﴿وخسف القمر﴾ أى ذهب ضوءه
 وقرىء على البناء للمفعول ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ بأن يطلعهما الله تعالى
 من المغرب وقيل جمعا فى ذهاب الضوء وقيل يجمعان أسودين مكورين كأنهما
 ثوران عقيران فى النار وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف ﴿يقول الإنسان
 يومئذ﴾ أى يوم إذ تقع هذه الأمور ﴿أين المفر﴾ أى الفرار يأساً منه وقرىء
 بالكسر أى موضع الفرار وقد جوز أن يكون هو أيضاً مصدراً كالرجوع
 ﴿كلا﴾ ردع من طلب المفر وتمنيه ﴿لا وزر﴾ لا ملجأ مستعار من

الجبل وقيل كل ما التجأت إليه وتخلصت به فهو وزرك ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أى إليه وحده استقرار العباد أو إلى حكمه استقرار أمرهم أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ ﴾ أى يخبر كل امرئ برا كان أو فاجرا عند وزن الأعمال ﴿ بما قدم ﴾ أى عمل من عمل خيرا كان أو شرا فيثاب بالأول ويعاقب بالثانى ﴿ وآخر ﴾ أى لم يعمل خيرا كان أو شرا فيعاقب بالأول ويثاب بالثانى أو بما قدم من حسنة أو سيئة وبما آخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده أو بما قدم من مال تصدق به فى حياته وبما آخر تخلفه أو وقفه أو وصى به أو بأول عمله وآخره ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ أى حجة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال السيئة كما يعرب عنه كلمة على وما سياتى من الجملة الحالية وصفت بالبصارة مجازا كما وصفت الآيات بالأبصار فى قوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أو عين بصيرة أو التاء للمبالغة ومعنى بل الترقى أى ينبأ الإنسان بأعماله بل هو يومئذ عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه لأن جوارحه تنطق بذلك وقوله تعالى ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أى ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه حال من المستكن فى بصيرة أو من مرفوع ينبأ أى هو بصيرة على نفسه تشهد عليه جوارحه وتقبل شهادتها ولو اعتذر بكل معذرة أو ينبأ بأعماله ولو اعتذر الخ والمعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير اسم جمع للنكر وقيل هو جمع معذار وهو الستر أى ولو أرخى ستوره . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن ينفلت منه فأمر عليه الصلاة والسلام بال استئصت^(١) له ملقيا إليه قلبه وسمعه حتى يقضى إليه الوحي ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه^(٢) ﴿ لا تحرك به ﴾ أى بالقرآن ﴿ لسانك ﴾ عندلقاء الوحي ﴿ لتعجل به ﴾ أى اتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك .

(١) فى ١١ أن ينصت .

(٢) انظر الدراسة للملحق بكتاب إعجاز البيان للفنوى ط القاهرة .

﴿إن علينا جمعه﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه
﴿وقرآنه﴾ أى لإثبات قراءته في لسانك ﴿فإذا قرأناه﴾ أى أتممنا قراءته
عليك بلسان جبريل عليه السلام وإسناد القراءة إلى نون العظمة للبالغ في
الإحباب التامنى ﴿فاتبع قرآنه﴾ فكان مقفيا له ولا ترأسله ﴿ثم إن علينا بيانه﴾
أى بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه ﴿كلا﴾ ردع له عليه الصلاة
والسلام عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة وأكد ذلك بقوله تعالى ﴿بل
تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ على تعميم الخطاب للكل أى بل أنتم يا بنى
آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تعجلون فى كل شيء ولذلك تحبون العاجلة
وتذرون الآخرة وقيل كلا ردع للإنسان عن الاغترار بالعاجل فيكون جمع
الضمير فى الفعلين باعتبار معنى الجنس ويؤيده قراءة الفعلين على صيغة الغيبة
﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أى وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين المخلصين يوم
إذ تقوم القيامة بهية مهللة يشاهد عليها نصرته النعيم على أن وجوه مبتدأ وناضرة
خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة فى قوله تعالى ﴿إلى ربها ناظرة﴾ خبر
ثان للمبتدأ أو نعت لناضرة وإلى ربها متعلق بناظرة وصحة وقوع النكرة مبتدأ
لأن المقام مقام تفصيل لا على أن ناضرة صفة لوجوه والخبر ناظرة كما قيل
لما هو المشهور من أن حق الصفة أن تكون معلومة الإلتساب إلى الموصوف
عند السامع وحيث لم يكن ثبوت النضرة للوجوه كذلك لحقه أن يخبر به ومعنى
كونها ناظرة إلى ربها أنها تراه تعالى مستغرقة فى مطالعة جماله بحيث تغفل عما
سواه وتشاهده تعالى بلا كيف ولا على جهة وليس هذا فى جميع الأحوال حتى
ينافيه نظرها إلى غيره وقيل منتظرة لإنعامه ورد بأن الإلتظار لا يسند إلى
الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر وأن المستعمل بمعناه لا يعدى بالى
﴿ووجوه يومئذ بأسرة﴾ شديدة العبوس وهى وجوه الكفرة ﴿تظن﴾
يتوقع أربابها ﴿أن يفعل بها فاقة﴾ داهية عظيمة تقصم فقار الظهر .

﴿كلا﴾ ردع عن إشار العاجلة على الآخرة أى ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا
لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة

﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ أى بلغت النفس أعلى الصدر وهى العظام المكتنفة
 لغرة النحر عن يمين وشمال ﴿ وقيل من راق ﴾ أى قال من حضر صاحبها من
 يرقه وينجيه عما هو فيه من الرقية وقيل هو من كلام ملائكة الموت أيكم يرق
 بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرقى ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ وأيقن
 المحتضر أن ما نزل به للفراق من الدنيا ونعيمها ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾
 والتفت ساقه بساقه والتوت عليها عند حلول الموت وقيل هما شدة فراق الدنيا
 وشدة إقبال الآخرة وقيل هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه ﴿ إلى ربك يومئذ
 المساق ﴾ أى إلى الله وإلى حكمه يساق لا إلى غيره ﴿ فلا صدق ﴾ ما يجب
 تصديقه من الرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الذى نزل عليه أو فلا صدق
 ماله ولا زكاه ﴿ ولا صلى ﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور
 فى قوله تعالى (أychسب الإنسان) وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع
 فى حق المؤاخذة ^(٢) كما مر ﴿ ولكن كذب ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن
 ﴿ وتولى ﴾ عن الطاعة ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ يتبختر افتخارا بذلك
 من المط فإن المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط أو من المط وهو الظهر فإنه
 يلود به ﴿ أولى لك فأولى ﴾ أى ويل لك وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام
 مزيدة كما فى (ردف لكم) أو أولى لك الهلاك وقيل هو أفعل من الويل بعد القلب
 كإدنى من دون أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾
 أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى .

﴿ أychسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أى يخلى مهملا فلا يكلف ولا يجزى
 وقيل أن يترك فى قبره ولا يبعث وقوله تعالى ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ﴾ الخ
 استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فإن مداره لما كان استبعادهم لإعادة
 استدلال على تحققها ببدء الخلق ﴿ ثم كان علقة ﴾ أى بقدره الله تعالى لقوله تعالى
 ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ خلق ﴿ أى فقدر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴾ فسوى

(١) انظر تفصيل هذه الأحكام فى باب الجهاد من التفسير لابن قدامة .

فعدل وكل نشأته ﴿ فجعل منه ﴾ من الانسان ﴿ الزوجين ﴾ أى الصنفين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ بدل الزوجين ﴿ أليس ذلك ﴾ العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ وهو أهون من البدء فى قياس العقل . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً بيوم القيامة .

سورة الإنسان

مكية ، وآياتها إحدى وثلاثون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ هل أتى ﴾ استفهام تقرير وتقريب فإن هل بمعنى قد والأصل أهل أتى ﴿ على الإنسان ﴾ قبل زمان قريب ﴿ حين من الدهر ﴾ أى طائفة محدودة . كائنة من الزمن الممتد ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ بل كان شيئاً مفسياً غير مذكور بالإنسانية أصلاً كالعنصر والنطفة وغير ذلك والجملة المنفية حال من الانسان أى غير مذكور أو صفة أخرى لحين على حذف العائد إلى الموصوف أى لم يكن فيه شيئاً مذكوراً والمراد بالإنسان الجنس فالإظهار فى قوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ لزيادة التقرير أو آدم عليه السلام وهو المروى عن ابن عباس وقتادة والثورى وعكرمة والشعبى قال ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مسكة والطائف وفى رواية الضحاك عنه أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون فأقام أربعين سنة ثم من صلصال فأقام أربعين سنة فتم خلقه بعد (٢٨ - أبو السعود - خامس)

مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح ، وحكى الماوردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحين المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره فيكون الأول إشارة إلى خلقه عليه الصلاة والسلام وهذا بياننا لخلق بنيه (أمشاج) أخلاط جمع مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته وصف النطفة به لما أن المراد بها مجموع الماهين ولكل منهما أوصاف مختلفة من اللون والرقه والغلظ وخواص متباينة فإن ماء الرجل أبيض غليظ فيه قوة العقد وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد بخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة قال القرطبي وقد روى هذا مرفوعا وقيل مفرد كأعشار وأكياش وقيل أمشاج ألوان وأطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة وقوله تعالى (نتليه) حال من فاعل خلقتنا أى يريدن ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتى أو ناقلين له من حال إلى حال على طريقة الاستعارة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما نصرته فى بطن أمه نطفة ثم علقة إلى آخره (فجعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية فهو كالسبب عن الابتلاء فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى .

(إنا هديناه السبيل) يأنزال الآيات ونصب الدلائل (إما شاكرًا وإما كفورًا) حالان من معقول هديناه أى مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصول إلى البغية فى حالتيه جميعا وإما للتفصيل أو التقسيم أى هديناه إلى ما يوصل إليها فى حاله جميعا أو مقسوما لإيهما بعضهم شاكر بالاهتداء والآخر فيه وبعضهم كفور بالأعراض عنه وقيل من السبيل أى عرفناه السبيل إما سيلا شاكرًا أو كفورًا على وصف السبيل بوصف سالكه مجازا وقرئ أما بالفتح على حذف الجواب أى أما شاكرًا فبتوفيقنا وأما كفورًا فبسوء اختياره لا بمجرد إجبارنا من غير اختيار من قبله وإيراد الكفور للمراعاة الفواصل والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط (إنا أعتدنا للكافرين) من أفراد الإنسان الذى هديناه

السبيل (سلاسل) بها يقادون (وأغلالا) بها يقيدون (وسميرا) بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخيرهم للاجتماع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) الآية ولأن الانذار أهم وأنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن على أن في وصفهم تفصيلا ربما يخل بتقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء سلاسل للتناسب (إن الأبرار) شروع في بيان حسن حال الشاكرين لآثر بيان سوء حال الكافرين وإيرادهم بعنوان البر للإشمار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية والأبرار جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد قيل هو من يبر خالفه أى يطيعه وقيل من يمثل بأمره تعالى وقيل من يؤدي حق الله تعالى ويوفى بالنذر وعن الحسن البر من لا يؤذى الذر (شربون من كأس) هى الزجاجاة إذا كانت فيها حجر وتطلق على نفس الخمر أيضا فمن على الأول ابتدائية وعلى الثانى تبعيضية أو بيانية (كان مزاجها) أى ما تمزج به (كافورا) أى ماء كافور وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبردة والجملة صفة كأس وقوله تعالى (عينا) بدل من كافورا وعن قتادة تمزج لهم بالكافور وتختتم لهم بالمسك وقيل تخلق فيها رائحة الكافور ويباضه ويزده فكأنها مزجت بالكافور فميتا على هذين القولين بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أى يشربون خمرأ خمر عين أو نصب على الاختصاص وقوله تعالى (يشرب بها عباد الله) صفة عينا أى يشربون بها الخمر لكونها مزوجة بها وقيل ضمن يشرب معنى يلند وقيل الباء بمعنى من وقيل زائدة ويعضده قرأه ابن أبى عتبة يشربها عباد الله وقال الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس (يفجرونها تفجييرا) أى يحرقونها حينما شاءوا من منازلهم لإجراء سهلا لا يمتنع عليهم بل يجرى جريا بقوة واندفاع والجملة صفة أخرى لعينا وقوله تعالى :

(يوفون بالنذر) استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من التذميم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار لإجمالا كأنه قيل ماذا

يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية فقبل يوفون بما أوجبوه على أنفسهم فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم (ويخافون يوما كان شره) عذابه (مستطيرا) فاشيا منتشرا في الأقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار بمنزلة استنفر من نفر (ويطعمون الطعام على حبه) أي كاتنين على حب الطعام والحاجة إليه كما في قوله تعالى لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون أو على حب الاطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس أو كاتنين على حب الله تعالى أو إطعاما كاتنا على حبه تعالى وهو الأنسب لما سيأتي من قوله تعالى لوجه الله (مسكينا ویتيما وأسيرا) أي أسير فإنه كان عليه الصلاة والسلام يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه أو أسيرا مؤمنا فيدخل فيه المملوك والمسجون وقد سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الغريم أسيرا فقال : «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» (إنما نطعمكم لوجه الله) على إرادة قول هو في موقع الحال من فاعل يطعمون أي قائلين ذلك بلسان الحال (١) أو بلسان المقال لإزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن الصديقة رضى الله تعالى عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا ذكر دعاءهم دعت لهم بمنله ليقب ثواب الصدقة لها خالصا عند الله تعالى (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وهو تقرير وتأكيده لما قبله .

(لنا نخاف من ربنا يوما) أي عذاب يوم (عبوسا) يعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس في الشدة والضاوة (قطيرا) شديد العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاء أن يقينا ربنا بذلك شره وقيل هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور أي لنا نخاف عقاب الله تعالى إن أردناهما (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) بسبب خوفهم وتحفظهم عنه (ولقاهم نضرة وسرورا) أي أعطاهم

(١) في ١١ : بلسان حالهم .

ببدل عبوس الفجار وحزنهم نهضة في الوجوه وسرورا في القلوب ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وإيثار الأموال ﴿ الجنة ﴾ يستأننا يأكلون منه ما شاؤا ﴿ وحريرا ﴾ يلبسونه ويتزينون به وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما مرضا فعادهما النبي صلى الله عليه وسلم في ناس معه فقالوا لعللى رضى الله عنه لو نذرت على [شفاء] ^(١) ولدك فنذر على وفاطمة رضى الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما إن برئنا منهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيما وما معهم شيء فاستقرض على رضى الله عنه من شمعون الحيبى ثلاث أصوع من شمعير فطاحت فاطمة رضى الله تعالى عنها صاعا واختبرت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقهم عليهم سائل فقال السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما فلما أمسوا وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يديم فأثروه ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين رضى الله عنهم فأقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفرأخ من شدة الجوع قال عليه الصلاة والسلام ما أشد ما يسوؤنى ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال خذها يا محمد هناك الله تعالى في أهل بيتك فأقرأه السورة ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ حال من هم في جزاهم والعامل فيها جزى وقيل حصة لجنة من غير إبراز الضمير والأرائك هى السرر في الحجال وقوله تعالى :

﴿ لا يرون فيها شمساً ولا ظهرياً ﴾ إما حال ثانية من الضمير أو المستكن في متكئين والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ وقيل

(١) سقطت من الأصل .

الزمهرير القمر في لغة طيء والمعنى أن هواها مضى بذاته لا يحتاج إلى شمس ولا قر ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ عطف على ما قبلها حال مثلها أو صفة لمحذوف معطوف على جنة أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين كما في قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقرئ دانية بالرفع على أنه خبر لظلالها والجملة في حيز الحال والمعنى لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً والحال أن ظلالها دانية قالوا معناه أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم زيادة في نعيمهم على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت أشجارها مظلة عليهم مع أنه لا شمس ثمة ولا قر ﴿وذلت قطوفها تذليلاً﴾ أى سخرت ثمارها لمتناولها وسهل أخذها من الذل وهو ضد الصعوبة والجملة حال من دانية أى تدنو ظلالها عليهم مذلة لهم قطوفها أو معطوفة على دانية أى دانية عليهم ظلالها ومذلة قطوفها وعلى تقدير رفع دانية فهي جملة فعلية معطوفة على جملة أسمية ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب﴾ الكوب الكوز العظيم الذى لا أذن له ولا عروة ﴿كانت قواريرا قوارير من فضة﴾ أى تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها^(١) وابن الفضة وبياضها والجملة صفة الأكواب وقرئ بتنوين قوارير الثانى أيضاً وقرئنا بغير تنوين وقرئ الثانى بالرفع على هى قوارير ﴿قدروها تقديراً﴾ صفة لقوارير ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها فى أنفسهم وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة موافقة لشهواتهم لجاهات حسبما قدروها أو قدروها بأعمالهم الصالحة لجاهات على حسبها وقيل الضمير لاطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى (ويطاف عليهم) فالمعنى قدروها شراها على قدر اشتهاهم وقرئ قدروها على البناء للمفعول أى جعلوا قادرين لها كما شأوا من قدر منقولاً من قدرت الشيء .

﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ أى ما يقبه الزنجيل فى الطعم وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيعه العرب والأما تستلذ به (عيناً)

بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق الله تعالى طعمه فيها فحينئذ بدل من كأسا كأنه قيل ويسقون فيها كأسا عين أو نصب على الاختصاص ﴿ فيها تسمى سلسبيلا ﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها يقال شراب سلسل وسلسال وسلسيل ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد بيان أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة بل نقيض اللذع هو السلاسة ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أى دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم أولوا منثورا ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاقهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم إلى ^(١) بعض ﴿ وإذا رأيت ثم ﴾ ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوى بل معناه أن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رأيت نعيما وملكاً كبيراً ﴾ أى هنيئاً واسعاً وفي الحديث أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه وقيل لا زوال له وقيل إذا أرادوا شيئاً كان وقيل يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم ﴿ عليهم ثياب سندس خضر ﴾ قيل عليهم خارف على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة صفة أخرى لولدان كأنه قيل يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب الخ وقيل حال من ضمير عليهم أو حسبتهم أى يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب الخ أو حسبتهم أولوا منثورا عالياً لهم ثياب الخ وقرىء عليهم بالرفع على أنه مبتدأ خبره ثياب أى ما يعلوه من ألبامهم ثياب سندس وقرىء خضر بالجر حملاً على سندس بالمعنى لكونه اسم جنس ﴿ واستبرق ﴾ بالرفع عطفاً على ثياب وقرىء برفع الأول وجر الثانى وقرىء بالعكس وقرىء بجرهما وقرىء واستبرق بوصل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البريق جعل علماً لهذا النوع من الثياب .

﴿ وحلو أساور من فضة ﴾ عطف على يطوف عليهم ولا ينافيه قوله تعالى أساور من ذهب لإمكان الجمع والمعاينة والتبويض فإن حلى أهل الجنة يختلف

حسب اختلاف أعمالهم فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلما وأنوارا تتفاوت تفاوت الذهب والفضة أو حال من ضمير عالمهم بإضمار قد وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذلك^(١) للمخدومين .

(وسقام ربهم شرابا طهورا) هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن دنس الميل إلى الملاذ الحسية والركون إلى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ملتذا ببقائه باقيا بقاءه وهى الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الأبرار (إن هذا) على إضمار القول أى يقال لهم إن هذا الذى ذكر من فنون الكرامات (كان لكم جزاء) بمقابلة أعمالكم الحسنة (وكان سعيكم مشكورا) مرضيا مقبولا مقابلا بالثواب (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) أى مفرقا منجما لحكم بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يرب عنه تكرير الضمير مع إن (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على الكفار فإن له عاقبة حميدة (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أى كل واحد من مرتكب الإثم الداعى لك إليه ومن الغالى فى الكفر الداعى إليه وأو للدلالة على أنهما سيان فى استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار ما يدعونه إليه فإن ترتب النهى على الوصفين مشعر بعليتهما له فلا بد أن يكون النهى عن الإطاعة فى الإثم والكفر فيما ليس بأثم ولا كفر وقيل الآثم عتبه فانه كان ركابا للمآثم متعاطيا لأنواع الفسوق والكفور الوليد فانه كان غالبا فى الكفر شديد الشكيمة فى العتو (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وداوم على ذكره فى جميع الأوقات أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل ينتظمهما (ومن الليل فاسجد له) وبعض الليل فصل له ولعله صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما فى صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص (وسبحه ليلا طويلا) وتجد له قطعا من الليل طويلا .

﴿إن هؤلاء﴾ الكفرة ﴿يحبون العاجلة﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية
 ﴿ويزرون وراءهم﴾ أى أمامهم لا يستعدون أو يبدون وراء ظهورهم ﴿يوما
 ثقيل﴾ لا يعباون به ووصفه بالثقل لتبشيه شدته وهوله بثقل شيء فادح
 باهظ لحامله بطريق الاستعارة وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه ﴿نحن
 خلقناهم﴾ لا غيرنا ﴿وشددنا أسرهم﴾ أى أحكمتنا ربط مفاصلهم بالأعصاب
 ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم﴾ بعد إهلاكهم ﴿تبديلا﴾ بديعا لا ريب فيه هو
 البعث كما ينبى عنه كلمة إذا أو بدلنا غيرهم ممن يطيع كقوله تعالى (يستبدل
 قوما غيركم) وإذا للدلالة على تحقق القدرة وقوة الداعية ﴿إن هذه تذكرة﴾
 إشارة إلى السورة أو الآيات القرية ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ أى فمن
 شاء أن يتخذ إليه تعالى سبيلا أى وسيلة توصله إلى ثوابه اتخذها أى تقرب إليه
 بالعمل بما فى تضاعيفها وقوله تعالى ﴿وما تشاءون إلا أن شاء الله﴾ تحقيق
 للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية فى اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر
 الشرطية أى وما تشاؤون اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله فى وقت من
 الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا فى
 الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقرىء يشاؤون بالياء وقرىء
 إلا ما يشاء الله وقوله تعالى ﴿إن الله كان عليما حكيما﴾ بيان لكون مشيئته تعالى
 مبنية على أساس العلم والحكمة والمعنى أنه تعالى مبالغ فى العلم والحكمة فيعلم
 ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه عليه وتقضيه حكمته وقوله
 تعالى ﴿يدخل من يشاء فى رحمته﴾ بيان لأحكام مشيئته المترتبة على علمه
 وحكمته أى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها وهو الذى يصرف مشيئته
 نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى حيث يوفقه لما يؤدى إلى دخول الجنة من الإيمان
 والطاعة ﴿والظالمين﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر (أعد لهم
 عذابا أليما) أى متناهيا فى الإيلام قال الزجاج نصب الظالمين لأن ما قبله
 منصوب أى يدخل من يشاء فى رحمته ويعذب الظالمين ويكون أعد لهم تفسيرا

لهذا المضمهر وقرئ بالرفع على الابتداء . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله تعالى الجنة وحريرا .

...

﴿سورة والمرسلات﴾

مكية ، وآيها خمسون

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا ﴾ إقسام من الله عز وجل بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن عصف الرياح مسارعة في الإمثال بالامر وبتوائف أخرى نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحى أو نشرن الشرائع في الأقطار أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكرا إلى الأنبياء ﴿عذرا﴾ للمحقين ﴿أو نذرا﴾ للباطلين ولعل تقديم نشر الشرائع ونشر النفوس والفرق على الالتقاء والانشقاق يكونها غاية للالتقاء حقيقة بالاعتناء بها أو للاشعار بأن كلا من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهن ولو جيء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الالتقاء والانشقاق والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق أو إقسام برياح عذاب أرسلهن فعصفن وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله تعالى ويجعله كسفا أو بسحاب نشرن الموات ففرقن كل صنف منها عن سائر الأصناف بالشكل واللون وسائر الخواص أو فرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر به فألقين ذكرا أما عذرا للمعتذرين إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لأتار رحمته تعالى في الغيث ويشكرونها ولما إنذار للذين يكفرونها وينسبونها

إلى الأنواء وإسناد إلقاء الذكر إليهم ليكون سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت أو أقسام آيات القرآن المرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصفن سائر الكتب بالنسخ ونشرن آثار الهدى من مشارق الأرض ومغاربها وفرن بين الحق والباطل فالهين ذكر الحق في أكناف العالمين والعرف إما نقيض النكر وانتصابه على العلة^(١) أى أرسلنا للإحسان والمعروف فإن إرسال ملائكة العذاب معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين أو بمعنى المتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحالية والعذر والنذر مصدران من عذر إذا مح الإساءة ومن أنذر إذا خوف وانتصابهما على البدلية من ذكر أو على العلية وقرئاً بالثقل .

(إن ماتوعدون لواقع) جواب للقسم أى إن الذى توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة (فاذا النجوم طمست) محيت ومحقت أو ذهب بنورها (وإذا السماء فرجت) صدعت وفتحت فكانت أبواباً (وإذا الجبال نسفت) جعلت كالجب الذى ينسف بالمنسف ونحوه (وبست الجبال) بسا وقيل أخذت من مقارها بسرعة من انتسفت الشيء إذا اختطفته وقرئ طمست وفرجت ونسفت مشددة (وإذا الرسل أقتت) أى عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أمهم وذلك عند مجيئه وحضوره إذ لا يتعين لهم قبله أو بلغوا الميقات الذى كانوا ينتظرونه وقرئ وقتت على الأصل وبالتخفيف فيهما (لأى يوم أجلت) مقدر بقول هو جواب لإذا فى قوله تعالى (وإذا الرسل أقتت) أو حال من مرفوع أقتت أى يقال لأى يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسول والمراد تعظيم ذلك اليوم والتعجيب من هوله وقوله تعالى (ليوم الفصل) بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق (وما أدراك ما يوم الفصل) ما مبتدأ أدراك خبره أى أى شيء جعلك دارياً ما هو فوضع موضع الضمير يوم الفصل لزيادة تفضيع وتهويل على أن

ما خبر ويوم الفصل مبتدأ لا بالعكس كما اختاره سيدييه لأن محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً هائلاً لا يقادر^(١) قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيد خبرية ما لا بيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيد عكسه ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أى فى ذلك اليوم الهائل وويل فى الأصل مصدر منصوب ساد مسد فعله لكن عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ويومئذ ظرفه أو صفته .

﴿ألم نهلك الأولين﴾ كقوم نوح وعاد وثمود لتكذيبهم به وقرىء نهلك بفتح النون من هلكه بمعنى أهلكه ﴿ثم تتبعهم الآخري﴾ بالرفع على ثم نحن تتبعهم الآخري من نظرائهم السالكين لمسلكهم فى الكفر والتكذيب وهو وعيد لكفار مكة وقرىء ثم سنتبعمهم وقرىء تتبعهم بالجرم عطفاً على نهلك فيكون المراد بالآخريين المتأخريين هلاكاً من المذكورين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل الفطيع ﴿نفع بالمجرمين﴾ أى سنتنا جارية على ذلك ﴿ويل يومئذ﴾ أى يوم إذ أهلكناهم ﴿للمكذبين﴾ بآيات الله تعالى وأنبياؤه وليس فيه تكرير لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا ﴿ألم نخلقكم﴾ أى ألم نقدركم ﴿من ماء مهين﴾ أى من نقطة قدرة مهيئة ﴿فجعلناه فى قرار مكين﴾ هو الرحم ﴿إلى قدر معلوم﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر ﴿فقدرنا﴾ أى فقدرناه وقد قرىء مشدداً أو فقدرنا على ذلك على أن المراد بالقدرة ما يقارن وجود المقدور بالفعل ﴿فنعم القادرون﴾ أى نحن ﴿ويل يوم للمكذبين﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة ﴿ألم نجعل الأرض كفافاً﴾ الكفات اسم ما يكفت أى يضم ويجمع من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع لما يضم ويجمع أى ألم نجعلها كفافاً تكفت ﴿أحياء﴾ كثيرة على ظواهرها ﴿وأمواتاً﴾ غير محصورة فى بطنها وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة

وقيل جمع كانت كهائم وصيام أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار بقائها وقيل تنكير أحياء وأمواتا لأن أحياء الإنس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات وقيل اتصاهما على الحالية من محذوف أى كفاتا تنكفكم أحياء وأمواتا (وجعلنا فيها رواسى) أى ثوابت (شامخات) طولا شواهاق ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مطرد كداجن ودواجن وأشهر معلومات وتنكيرها للتفخيم أو للإشعار بأن فيها ما لم يعرف (وأسقيناهم ماء فراتا) بأن خلقنا فيها أنهارا ومنايع .

(ويل يومئذ للمكذبين) بأمثال هذه النعم العظيمة (انطلقوا) أى يقال لهم يومئذ للتوبيخ وللتقريع انطلقوا (إلى ما كنتم به تكذبون) فى الدنيا من العذاب (انطلقوا) خصوصاً (إلى ظل) أى ظل دخان جهنم كقوله تعالى وظل من يحموم وقرىء انطلقوا على لفظ الماضى اخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه لاضطرارهم إليه طوعاً أو كرها (ذى ثلاث شعب) يتشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب وقيل يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون فى ظل العرش قيل خصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم أو لأن المؤدى إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة فى الدماغ والقوة الغضبية السبعية التى عن يمين القلب والقوة الشهوية البهيمية التى عن يساره ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره (لا ظليل) تهكم بهم أو رد لما أوهمه لفظ الظل .

(ولا ينفى من اللهب) أى غير مغن لهم من حر اللهب شيئاً (إنها ترى بشر كالقصر) أى كل شررة كالقصر من القصور فى عظمها وقيل هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو حجر وجرة وقرىء كالقصر بفتحتين وهى أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر وقرىء كالقصر بمعنى القصور كرهن ودرهن وقرىء كالقصر جمع قصرة (كأنه جمالة) قيل هو جمع جمل والتاء

التأنيث الجمع يقال جمل وجمال وجمالة وقيل اسم جمع كالحجارة ﴿ صفر ﴾ فإن الشرار لما فيه من النارية يكون أصفر وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثير والتتابع والاختلاط والحركة وقرىء جمالات جمع جمال أو جمالة وقرىء جمالات جمع جمالة وقد قرىء بها وهي الحبل العظيم من حبال السفن وقلوس الجسور والتشبيه في امتداده والتفافه .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار أى هذا يوم لا ينطقون فيه بشيء لما أن السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك ويوم القيامة طويل له موطن ومواقيت ينطقون في وقت دون وقت فعبر عن وقت بيوم أو لا ينطقون بشيء ينفعهم فإن ذلك كلا نطق وقرىء بنصب اليوم أى هذا الذى فصل واقع يوم لا ينطقون ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ عطف على يؤذن منتظم في سلك النفي أى لا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن كما لو نصب ﴿ ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل ﴾ بين الحق والباطل والحق والمبطل ﴿ جمعناكم ﴾ خطاب لأمة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ والأولين ﴾ من الأمم وهذا تقرير وبيان للفصل ﴿ فإن كان لكم كيد فكيّدون ﴾ فإن جميع من كنتم تقلدونهم وتقتدون بهم حاضرون وهذا تقرّيع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم في الخلاص من العذاب ﴿ إن المتقين ﴾ من الكفر والتكذيب ﴿ في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون ﴾ أى مستقرون في فنون النزهة وأنواع التمتع ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ مقدر بقول هو حال من ضمير المتقين في الخبر أى مقولاً ^(١) لهم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة ﴿ إنا كذلك ﴾ الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أى في عقابهم وأعمالهم لا جزاء أدنى منه ﴿ ويل يومئذ

للمكذبين ﴿ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل وهم بقوا في العذاب المخلد الويل ﴾ ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ مقدر بقول هو حال من المكذبين أى الويل ثابت لهم مقولاً لهم ذلك تذكرياً لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إضرار المتاع الغاني عن قريب على النعيم الخالد وعلل ذلك بإجرامهم دلالة على أن كل مجرم مآله هذا وقيل هو كلام مستأنف خوطب به المكذبون في الدنيا بعد بيان مآل حالهم وقرر ذلك بقوله تعالى :

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لزيادة التوبيخ والتقريع ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ أى أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقبول وحيه واتباع دينه وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة ﴿ لا يركعون ﴾ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار وقيل إذا أمروا بالصلاة أو الركوع لا يفعلون إذ روى أنه نزل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفاً بالصلاة فقالوا لا ننجي فإنها مسببة علينا فقال عليه الصلاة والسلام لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود وقيل هو يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذه ﴿ فبأى حديث بعده ﴾ أى بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة ﴿ يؤمنون ﴾ إذا لم يؤمنوا به وقرىء تؤمنون على الخطاب . عن رسول الله صلى الله عليه من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين .

سورة النبأ

مكية ، وآياتها أربعون أو إحدى وأربعون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ عم ﴾ أصله عما لحذف منه الألف إما فرقا بين ما الاستفهامية وغيرها أو قصدا للخفة لكثرة استعمالها وقد قرئ على الأصل وما فيها من الإيهام بالإيدان بفخامة شأن المسئول عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعبودة أى عن أى شيء عظيم الشأن ﴿ يتساءلون ﴾ أى أهل مكة وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارا واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومساء بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ووصف من أوصافه فإن ما وإن وضعت لطلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها كما فى قولك ما الملك وما الروح لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال عالم أو طيب وقيل كانوا يسألون عنه الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين استهزاء كقولهم يتداعونهم أو يدعونهم وتحقيقه أن صيغة التفاعل فى الأفعال المتعدية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنه يرفع باسناد الفعل اليه ترجيحاً لجانب فاعليته ويحال بمفعوليته على دلالة العقل كما فى قولك تراءى القوم أى رأى كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عارياً عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول متعدد كما فى المثال المذكور أو واحد كما فى قولك تراءوا الهلال وقد يحذف لظهوره كما فيما نحن فيه فالمعنى عن أى شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد أيضاً فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما فى قوله تعالى (فبأى آلاء ربك تتبارى) وقوله تعالى ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ بيان لشأن المسئول عنه لإثر تفخيمه بإيهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين

فإن إيرادَه عن طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لا نقطاع قرينه وانعدام نظيره خارج عن دائرة علوم الخلق خَلِيق بأن يعتنى بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أى شيء يتساءلون هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج قوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمحل حقه أن يقدر بعدها مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السؤال هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيلية^(١) وقد قيل هى متعلقة بالمذكور وعم متعلق بمضمحل مفسر به وأيد ذلك بأنه قرئء معه والأظهر أنه مبنى على إجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الأولى للتعليل كأنه قيل لم يتساءلون عن النبأ العظيم وقيل قبل عن الثانية استفهام مضمحل كأنه قيل عم يتساءلون عن النبأ العظيم والنبأ الخبر الذى له شأن وخطر وقد وصف بقوله تعالى ((الذى هم فيه مختلفون)) بعد وصفه بالعظيم تأكيداً لخطره إثر تأكيد إشعاراً بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماماً به ورعاية للفواصل وجمل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات أى هم راسخون فى الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين وشاك يقول ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وقيل منهم من ينكر المعادين معاً كهؤلاء ومنهم من ينكر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار فمنهم من ينكره لإنكاره الصانع المختار ومنهم من ينكره بناء على استحالة المدوم بعينه وحمله على الاختلاف بالنقي والإثبات بناء على تعميم التساؤل لفريق المسلمين والكافرين على أن سؤال الأولين ليزدادوا خشية واستعداداً وسؤال الآخرين ليزدادوا كفراً وعناداً يرده قوله تعالى :

((كلا سيعلمون)) الخ فإنه صريح فى أن المراد اختلاف الجاهلين به المنكرين له إذ عليه يدور الردع والوعيد لا على خلاف المؤمنين لهم

(١) فى ١١ بحزالة التنزيل .

وتخصيصهما بالكفرة بناء على تخصيص ضمير سيعلمون بهم مع عموم الضميرين السابقين للكل مما ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله هذا ما أدى إليه جليل النظر والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحمل اختلافهم على مخالفتهم للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يعتبر في الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما ذكر في التساؤل فإن الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك يجري في كل منها ما يجري في الأخرى لأعلى مخالفة بعضهم لبعض من الجانبين لأن الكل وإن استحق الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر إذ لاحقية في شيء منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذه بل لمخالفته له عليه الصلاة والسلام فكلا ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين وسيعلمون وعيد لهم بطريق الاستثناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام من وقوع ما يتساملون عنه ووقوع ما يختلفون فيه كما في قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) إلى قوله تعالى (ليبين لهم الذين يختلفون فيه) الآية فإن ذلك عار عن صريح الوعيد بل هو عبارة عما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات والتعابير عن لقاءها بالعالم لوقوعه في معرض التساؤل والاختلاف والمعنى لا تدعوا عما هم عليه فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال وقوله تعالى :

(ثم كلا سيعلمون) تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد وحث للدلالة على أن الوعيد الثاني أبلغ وأشد وقيل الأول عند النزاع والثاني في القيامة وقيل الأول للبعث والثاني للجزاء وقرئ (ستعلمون) بالتاء على نهج الالتفات إلى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديد للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كما توهم فإن فيه من الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وقوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) الخ استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتسامل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيقته إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد ومن ههنا اتضح أن المتسامل عنه هو البعث

لا القرآن أو نبوة النبي عليه الصلاة والسلام كما قيل والهمزة للتقرير والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للبالغة في الإلزام والتبكيك والمهاد البساط والفراش وقرىء مهذا على تشبيهها بمهد الصبي وهو ما يمهّد له فينوم عليه تسمية للبهود بالمصدر وجعل الجبال أو تادها لإرساؤها بها كما يرسى البيت بالأوتاد (وخلقناكم) عطف على المضارع المنفي لم داخل في حكمه فإنه في قوة أما جعلنا الخ أو على ما يقتضيه الإنكار التقريرى فإنه في قوة أن يقال قد جعلنا الخ (أزواجاً) أصنافاً ذكرنا أو أنثى ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر وينتظم أمر المعاشرة والمعايش ويتسنى التناسل . .

(وجعلنا نومكم سباتاً) أى موتاً لأنه أحد التوفيقين لما بينهما من المشاركة التامة في انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها) وقيل قطعاً عن الإحساس والحركة لإراحة القوى الحيوانية وإراحة كلالها والأول هو اللائق بالمقام كما ستعرفه (وجعلنا الليل) الذى فيه يفع النوم غالباً (لباساً) يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد به ما يستقر به عند النوم من اللحاف ونحوه فإن شبه الليل به أكمل واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل فهو جعل الليل محلاً للنوم الذى جعل موتاً كما جعل النهار محلاً لليقظة المعبر عنها بالحياة فى قوله تعالى (وجعلنا النهار معاشاً) أى وقت حياة تبعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت كما فى قوله تعالى (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) وجعل كون الليل لباساً عبارة عن ستره عن العيون لمن أراد هرباً من عدو أو بياتاً له أو نحو ذلك مما لا مناسبة له بالمقام وكذا جعل النهار وقت القلب فى تحصيل المعاش والحوايج (وبيننا فوقكم سبعاً شداداً) أى سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط بل للتشويق إليه فإن ما حقه التقديم إذا أخرج تبقى النفس مترقبة له فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل

تمكن (وجعلنا سراجا وهاجا) هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالحلق خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما في الآية الكريمة وللشريعى أيضا كما في قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة) الخ وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وأيا ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر بأن يكون فيه أوله أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شئ من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة في الكلام بل قيدا فيه كما في قوله تعالى (وجعل بينهما برزخا) وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) وقوله تعالى (واجعل لنا من لدنك وليا) الآية فإن كل واحد من هذه الظروف إما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأيا ما كان فهو قيد في الكلام حتى إذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا إلى اثنين هو ثانيهما كما في قوله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم) وربما يشبه الأمر فيظن أنه عمدة فيه وهو في الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) والواحد الوقاد المتلألئ من وهجت النار إذا أضاءت أو البالغ في الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير^(١) عن خلق السموات بالبناء .

(وأزلنا من المعصرات) هي السحاب إذا أعصرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كما في أحصد الزرع إذا حان له أن يحصد ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض أو الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب وقرى بالمعصرات ووجه ذلك أن الإنزال حيث كان من المعصرات سواء أريد بها السحاب أو الرياح فقد كان بها كما يقال أعطاه من يده وبيده وقد فسر المعصرات بالرياح ذوات الأعاصير ووجهه أن الرياح هي التي تلتشى السحاب وتدر أخلافه فصلحت أن تجعل مبتدأ للإنزال (ماء نجا) أى منصبا بكثرة

(١) في ١١ : من مترادف التعبير .

يقال ثج الماء أى سال بكثرة وثجه أى أساله ومنه قوله عليه الصلاة والسلام
أفصل الحج العج والشج أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى وقرىء
ثجاً واحداً بالحاء بعد الجيم قالوا مثاجح الماء مصابه ﴿ لنخرج به ﴾ بذلك الماء
﴿ حبا ﴾ يقتات كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿ ونباتنا ﴾ يعتلف كالتبن والحشيش
وتقديم الحب مع تأخره عن النبات فى الإخراج لأصالته وشرفه لأن غالبه
غذاء الإنسان ﴿ وجنت ﴾ الجنة فى الأصل هى المرة من مصدر جنت إذا ستره
تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير بن
أبى سلمى :

كان عىنى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سخفا

وعلى الأرض ذات الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه
الكرم والأول هو المراد وقوله تعالى ﴿ ألفافا ﴾ أى ملتفة تداخل بعضها فى
بعض قالوا لا واحد له كالأوزاع والأخفاف وقيل الواحد لف ككن
وأكنان أو ليف كشرىف وأشراف وقيل هو جمع لف جمع لفاء كخضر
وخضراء وقيل جمع ملتفة بحذف الزوائد واعلم أن فيما ذكر من أن أفعاله عز
وجل دلالة على صحة البعث وحقيقته من وجوه ثلاثة الأول باعتبار قدرته تعالى
فان من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه
كان على الإعادة أقدر وأقوى ، الثانى باعتبار علمه وحكمته فان من أبدع هذه
المصنوعات على نمط رائع مستتبغ لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق
يستحب أن يفنىها بالكلية ولا يجعل لها عاقبة باقية ، والثالث باعتبار نفس الفعل
فان اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كل يوم وكذا
إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة يعاينونه كل حين كأنه قيل ألم نفعل
هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقيقة البعث الموجبة
للإيمان به فلا لكم تخوضون فيه إنكاراً وتساءلون عنه استهزاء وقوله تعالى
﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ شروع فى بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه
ويستعجلون به قائلين متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ونوع تفصيل لكيفية

وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً
أى إن يوم فصل الله عز وجل بين الخلائق كان في علمه وتقديره ميقاتاً وميعاداً
لبعث الأولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً لا يكاد
يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حدا توقفت به الدنيا وتنتهى عنده أو حدا للخلائق
ينتهون إليه ولا ريب في أنهما بمعزل من التقريب الذى أشير إليه على أن الدنيا
تنتهى عند النفخة الأولى وقوله تعالى :

(يوم ينفخ في الصور) أى نفخة ثانية بدل من يوم الفصل أو عطفه
بيان له مقيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير في تأخر الفصل عن النفخ فإنه
زمان ممتد يقع في مبدئه النفخة وفى بقيته الفصل ومباده وآثاره والصور هو
القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات
والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بهره
إلى العرش متى يؤمر بالنفخ فيه فيؤمر به فينفخ فيه نفخة لا يبقى عندها فى الحياة
غير من شاء الله وذلك قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات
ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها
ميت إلا بعث وقام^(١) وذلك قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)
والفاء فى قوله تعالى (فتأتون) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة
الحال عليها وإيداناً بغاية سرعة الإتيان كما فى قوله تعالى (فقلنا اضرب بعصاك
البحر فانفلق) أى فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث
أصلاً (أفواجا) أى ما كل أمة مع إمامها كما فى قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس
بإمامهم) أو زمراً وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع حسب اختلاف
أعمالهم وتباينها . عن معاذ رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر طرق هذا الحديث ورواياته فى باب النفخ فى الصور من البدور السافرة

للسيرطى من ورقة ١١ - ٢٧ مخطوط دار الكتب المصرية .

وسلم فقال عليه الصلاة والسلام يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه وقال تحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها وبعضهم عرى وبعضهم صم وبكم وبعضهم يعضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذروهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد تننا من الجيف وبعضهم يلبسون جبابا سابعة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمى فالذين يحجرون في الحكم وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين يعضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم وأما المصلبون على جذوع من نار فإسعاة بالناس إلى السلطان وأما الذين هم أشد تننا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى في أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء ﴿وفتحت السماء﴾ عطف على ينفخ وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وقرئ فتح بالشديد وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿فكانت أبوابا﴾ أى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة نزولا غير معتاد حتى صارت كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة كقوله تعالى (وخرنا الأرض عيونا) كأن كلها عيون متفجرة وهو المراد بقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وهو الغمام والذي ذكر في قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى أمره وبأسه في ظل من الغمام والملائكة وقيل الأبواب الطرق والمسالك أى تكشف فيفتح مكانها وتصور طرقا لا يسدها شيء ﴿وسيرت الجبال﴾ أى في الجو على هيأتها بعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) أى تراها رأى العين ساكنة في أماكنها والحال أنها تمر مر السحاب الذي يسيره الرياح سيرا حثيثا وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحوا من الانحاء لا تكاد يتبين

حركتها وإن كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد وعليه قول من قال :
 بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهلج
 وقد أدمج في هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل
 الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)
 يبذل الله تعالى الأرض ويغير هيأتها ويسير الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند
 حشر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها ثم يفرقها في الهواء وذلك قوله
 تعالى (فكانت سرايا) أى فصارت بعد تسييرها مثل السراب كقوله تعالى
 (وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) أى غبارا منتشرا وهى وإن اندكت
 وانصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد
 النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى
 نسفا فيزورها قاطا صافصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى)
 وقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد
 القهار) فإن اتباع الداعى الذى هو لإسرافيل عليه السلام وبروزا لخلق الله
 تعالى لا يكون إلا بعد النفخة الثانية .

(إن جهنم كانت مرصدا) شروع في تفصيل أحكام الفصل الذى أضيف
 إليه اليوم لإثر بيان هوله ووجه تقديم بيان حال الكفار غنى عن البيان
 والمرصاد اسم للمكان الذى يرصد فيه كالمضمار الذى هو اسم للمكان الذى
 يضم فيه الخيل والمنهاج اسم للمكان الذى ينهج فيه أى أنها كانت في حكم الله
 تعالى وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها
 (للطاغين) متعلق بمضمرة هو إما نعت لمرصدا أى كأننا للطاغين وقوله تعالى
 (مآب) بدل منه أى مرجعا يرجعون إليه لا محالة وإما حال من مآبأ قدمت
 عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له وقد جوز^(٥) أن يتعلق بنفس
 مآبأ على أنها مرصاد للفريقين مآب للكافرين خاصة ولا يخفى بعده فإن المتبادر

من كونها مرصادا لطائفة كونهم معذبين بها وقد قيل إنها مرصاد لأهل الجنة يرصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها وهى مأب للطاغين وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد والمعنى أنها مجدة فى رصد الكفار لئلا يشذ منهم أحد وقرئ أن بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنها مرصاد للطاغين ﴿ لاثنين فيها ﴾ حال مقدرة من المستكن فى للطاغين وقرئ لثنين وقوله تعالى ﴿ أحقابا ﴾ ظرف للبهم أى دهورا متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر إلى غير نهاية فإن الحقب لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها فليس فيه ما يدل على تناهى تلك الأحقاب ولو أريد بالحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة وقوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا ﴾ جملة مبتدأة أخبر عنهم بأنهم لا يذوقون فيها شيئا ما من برد وروح ينفس عنهم حر النار ولا من شراب يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما وغساقا وقيل البرد النوم وقرئ غساقا بالتخفيف وكلاهما ما يسيل من صديدهم ﴿ جزاء ﴾ أى جوزوا بذلك جزاء ﴿ وفاقا ﴾ ذا وفاق لأعمالهم أو نفس الوفاق مبالغة أو وافقها وفاقا وقرئ وفاقا على أنه فعال من وفقه كذا أى لاقه ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور أى كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ كذابا ﴾ أى تكذيبا مفرطا ولذلك كانوا مصرين على الكفر وفنون المعاصى وفعال من باب فعل شائع فيما بين الفصحاء وقرئ بالتخفيف وهو مصدر كذب قال :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

وانتصابه إما بفعله المدلول عليه بكذبوا أى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا وأما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذبوا فإن كل من يكذب بالحق فهو كاذب وقرئ كذابا وهو جمع كاذب فاتصابه على الحالية أى كذبوا بآياتنا كاذبين وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب فيجعل صفة لمصدر كذبوا

أى تكذيباً كذاباً مفراطاً كذبه (وكل شيء) من الأشياء التى من جملتها أعمالهم واتصافه بمضمير يفسره (أحصيناه) أى حفظناه وضبطناه وقرئ بالرفع على الابتداء (كتاباً) مصدر مؤكد لأحصيناه لما أن الإحصاء والكتابة من واد واحد أو لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً فى اللوح أو فى صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وفى الالتفات المنبه عن التشديد فى التهديد وإيراد لن المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب ما لا يخفى وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أن هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار (إن للمتقين مفازاً) شروع فى بيان محاسن أحوال المؤمنين لإثبات سوء أحوال الكفرة أى إن للذين يتقون الكفر وسائر قبائح أعمال الكفرة فوزاً وظفراً بمباغيهم أو موضع فوز وقيل نجاة بما فيه أولئك أو موضع نجاة وقوله تعالى (حدائق وأعنايا) أى بساكن فيها أنواع الأشجار المثمرة وكروما بدل من مفازاً .

(وكواعب) أى نساء فلسكت ثديهن وهن النواهد (أتراباً) أى لداث (وكأسا دهاقاً) أى مترعة يقال أدهق الخوض أى ملأه (لا يسمعون فيها) أى فى الجنة وقيل فى الكئاس (لغوا ولا كذاباً) أى لا ينطقون بلفو ولا يكذب بعضهم بعضاً وقرئ كذاباً بالتخفيف أى لا يكذبه أو لا يكاذبه (جزاء من ربك) مصدر مؤكد منصوب بمعنى أن للمتقين مفازاً فإنه فى قوة أن يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائن من ربك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مزيد تشریف له صلى الله عليه وسلم (عطاء) أى تفضلاً وإحساناً منه تعالى إذ لا يجب عليه شيء وهو بدل من جزاء (حساباً) صفة لعطاء بمعنى كافياً على أنه مصدر أقيم مقام (١) الوصف أو بولغ فيه من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى

حتى قال حسبى وقيل على حسب أعمالهم وقرىء حساباً بالتشديد على أنه بمعنى المحسب كالدارك بمعنى المدرك .

(رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك وقوله تعالى (الرحمن) صفة له وقيل صفة للأول وأياً كان ففي ذكر ربوبيته تعالى للكل ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور وقوله تعالى (لا يملكون منه خطاباً) استئناف مقرر لما أفاده الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد قدرة عليه وقرىء برفعهما ف قيل على أنهما خبران لمبتدأ مضمرة وقيل الثاني نعت للأول وقيل الأول مبتدأ والثاني خبره ولا يملكون خبر آخر أو هو الخبر والرحمن صفة للأول وقيل لا يملكون حال لازمة وقيل الأول مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر للأول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه على رأى من يقول به والأوجه أن يكون كلاهما مرفوعاً على المدح أو يكون الثاني نعتاً للأول ولا يملكون استئنافاً على حاله ففيه ما ذكر من الإشعار بمدار الجزاء والعطاء كما في البدلية لما أن المرفوع أو المنصوب مدحاً تابع لما قبله معنى وإن كان منقطعاً عنه إعراباً كما فصل في قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) من سورة البقرة وقرىء بجر الأول على البدلية ورفع الثاني على الابتداء والخبر ما بعده أو على أنه خبر لمبتدأ مضمرة وما بعده استئناف أو خبر ثان أو حال وضمير لا يملكون لأهل السموات والأرض أى لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم كما ينبىء عنه لفظ الملك خطاباً ما في شيء ما والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه على أبلغ وجه وآكده وقيل ليس في أيديهم مما يخاطب الله به ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قيل الروح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ما خلق الله عز وجل بعد العرش خلقاً أعظم منه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه إذا كان

يوم القيامة قام هو وحده صفا والملائكة كلهم صفا وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل يأكلون الطعام ثم قرأ يوم يقوم الروح الآية وهذا قول أبي صالح ومجاهد قالوا ما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم نقله البغوي وقيل هم أشراف الملائكة وقيل هم حفظة على الملائكة وقيل جبريل عليه السلام وصفا حال أى مصطفين قيل هما صفان الروح صف واحد أو متعدد والملائكة صف وقيل صفوف وهو الأوفق لقوله تعالى (والملك صفا صفا) وقيل يقوم الكل صفا واحدا ويوم ظرف لقوله تعالى ﴿ لا يتكلمون ﴾ وقوله تعالى :

﴿ إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ بدل من ضمير لا يتكلمون العائد إلى أهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه وكبرياء ربه وبينه وتحويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لا يملكون الخ ومؤكده على معنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدرُوا يومئذ على أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله تعالى له منهم فى التكلم وقال ذلك المأذون له قولاً صواباً أى حقاً فكيف يملكون خطاب رب العزة مع كونه أخص من مطلق الكلام وأعز منه مراماً إلا على معنى أن الروح والملائكة مع كونهم أفضل الخلاق وأقربهم من الله تعالى إذا لم يقدرُوا أن يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى إلا بأذنه فكيف يملك غيرهم كما قيل فإنه مؤسس على قاعدة الاعتزال فمن سلكه مع تجويزه أن يكون يوم ظرفاً للإيلاكون^(١) فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون وقيل إلا من أذن الخ منصوب على أصل الاستثناء والمعنى لا يتكلمون إلا فى حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صواباً أى حقاً هو

(١) ١١ : فى قوله لا يملكون .

التوحيد وإظهار الرحمن في موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة لا أن أحدا يستحقه عليه سبحانه وتعالى :

﴿ ذلك ﴾ إشارة الى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته في الهول والفضامة ومحل الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفىين غير قادرين هم وغيرهم على التكلم من الهيبة والجلال ﴿ اليوم الحق ﴾ أى الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والفاء فى قوله تعالى ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾ فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وإنتفاء الغرابة فى تعلقه بها حسب القاعدة المستمرة وإلى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماما به ورعاية للفواصل كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعا إلى ثواب ربه الذى ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة وقال قتادة مآبا أى سبيلا وتعلق الجار به لما فيه من معنى الإفضاء والإيصال كما مر فى قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا) .

﴿ إنا أنذرناكم ﴾ أى بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده من الدواهي أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن ﴿ عذابا قريبا ﴾ هو عذاب الآخرة وقربه لتحقيق إتيانه حتما ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالى وإن رأوه بعيدا وسيرونه قريبا لقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وعن قتادة هو عقوبة الدنيا لأنه أقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قریش يوم بدر وبآباءه قوله تعالى ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ فإنه إما بدل من عذابا أو ظرف لمضمر هو صفة له أى عذابا كأننا يوم ينظر المرء أى يشاهد ما قدمه من خير أو شر على أن ما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف أو ينظر أى شئ قدمت يداه على أنها استفهامية منصوبة بقدمت وقيل المرء عبارة عن الكافر وما فى قوله تعالى ﴿ ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾

ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم قيل معنى تمنيه ليتنى كنت ترابا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ليتنى كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث وقيل يحشر الله تعالى الحيوان فيقتصص للجاء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله وقيل الكافر إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال خلقتني من نار وخلقته من طين.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عم يتساءلون سقاها الله تعالى برد الشراب يوم القيامة والحمد لله وحده .

سورة والنازعات

مكية ، وآياتها خمس أو ست وأربعون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا) أقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الإطلاق كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد أو أرواح الكفرة كما قاله على رضى الله عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق وينشطونها أى يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البشر إذا أخرجها ويسبحون فى إخراجها سبح الفواص الذى يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون بأرواح الكفرة إلى النار وأرواح المؤمنين إلى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهتوها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات والمغلف مع اتخاذ الكل بتزليل التغاير العنواى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتاب فى المزدحم

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمت الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطا لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الآخر إليه والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة كما في قوله :

يا لهف زبابة للحرث الصائح فالغائم فالآنب

وغرقا مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا في النزاع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد قال ابن مسعود رضى الله عنه تنزع روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافر وأصول القدمين ثم تغرقها في جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردّها في جسده فهذا عملها بالكفار وقيل يرى الكافر نفسه في وقت النزاع كأنها تغرق وانصباب نشطاً وسبحاً وسبقاً أيضاً على المصدريّة وأما أمراً ففعل للبدبرات وتنكيره للتحويل والتفخيم ويجوز أن يراد بالسباحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون في مضيهم أى يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية والمقسم عليه محذوف تعويلا على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه وهو لتبعث فإن الإقسام بمن يتولى نزع الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوح بكون المقسم عليه من قبيل تلك الأمور لا محالة وفيه من الجزالة ما لا يخفى وقد جوز أن يكون إقساماً بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب غرقا في النزاع بأن تقطع الفلك حتى تنحط في أقصى الغرب وتنشط من برج إلى برج أى تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد وتسبح في الفلك فيسبق بعضها بعضا فتدبر أمرا نيظ بها كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وتبين مواقيت العبادات وحيث كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة عبر عن الأولى بالنزع وعن الثانية بالنشط أو بأنفس الغزاة أو أيديهم التى تنزع القسى يا غراق السهام وينشطون بالسهم للرمى ويسبحون في البر والبحر فيسبغون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو ينجّلهم التى تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب وتخرج من

دار الإسلام إلى دار الحرب وتسبح في جريها لتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الظفر والغلبة وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه هذا والذي يليق بشأن التنزيل هو الأول وقوله تعالى :

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ منصوب بالجواب المضمّر والمراد بالراجفة الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة أي تتحرك حركة شديدة وتزلزل وزلزلة عظيمة كالأرض والجبال وهي النفخة الأولى وقيل الراجفة الأرض والجبال لقوله تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال) وقوله تعالى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية حال من الراجفة مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث أي لتبعث يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها لا قبل ذلك فإنه عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان وبينهما أربعون سنة واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعا لدهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حتى لإلامات ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث وقام ووجه إضافته إلى الأولى ظاهر وقيل يوم ترجف منصوب بأذكر فتكون الجملة استثناء مفرّجاً لمضمون الجواب المضمّر كأنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب قيل قلوب مبتدأ ويومئذ متعلق بواجفة وهي صفة لقلوب مسوغة لوقوعه مبتدأ وقوله تعالى ﴿ أبصارها ﴾ أي أبصارها أصحابها ﴿ خاشعة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً للقلوب وقد مر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوت الخشوع لأبصار أصحابها سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنواناً للموضوع مسلم الثبوت مفروغاً عنه^(١) وجعل

الثانى مخبرا به مقصود الإفادة تحكما بحثا على أن الوجيف الذى هو عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشد هما فضلة عما لا عهد له فى الكلام وأيضا فتنخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للنخطب فى موقع التهويل فالوجه أن يقال تنكبر قلوب يقوم مقام الوصف المختص سواء حمل على التنويع كما قيل وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنى منسحب عليه أو على التكثير كما فى شر أهر ذا ناب فإن التفخيم كما يكون بالكيفية يكون بالكمية أيضا كأنه قيل قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان واجفة أى شديدة الاضطراب قال ابن عباس رضى الله عنهما خائفة وجللة وقال السدى زائلة عن أماكنها كما فى قوله تعالى (إذ القلوب لدى الحناجر) وقوله تعالى :

((يقولون أننا لمردودون فى الحافرة)) حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به لئلا يبان وقوعه بطريق التوكيد القسمى^(١) وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار أى يقولون إذا قيل لهم إنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أننا لمردودون بعد موتنا فى الحافرة أى فى الحالة الأولى يعنون الحياة من قولهم رجع فلان فى حافرة أى فى طريقته التى جاء فيها فحفروها أى أثر فيها بمشيه وتسميتها حافرة مع أنها محفورة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم نهاره صائم على تشبيه القابل بالفاعل وقرىء فى الحفرة وهى بمعنى المحفورة وقوله تعالى ((أنذا كنا عظاما نخرة)) تأكيد لإنكار الرد ونفيه بنسبته إلى حالة منافية له والعامل فى إذا مضمرة يدل عليه مردودون أى أنذا كنا عظاما بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شئ من الحياة وقرىء إذا كنا على الخبر أو إسقاط حرف الإنكار وناخرة

(١) فى ١١ : بمعنى القسم .

من نحر العظيم فهو نحر وناخر وهو البالي الأجوف الذي يمر به الريح فيسمع له نخير ﴿ قالوا ﴾ حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسط قالوا بينهما للإيدان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الإطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع أى قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الردة في الحافرة مشعرين بغاية بعدها من الوقوع ﴿ تلك إذا كرة خاسرة ﴾ أى ذات خسران أو خاسرة أصحابها أى إن صحت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها وقوله تعالى ﴿ فانما هى زجرة واحدة ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخرة التى عبروا عنها بالكرة فان مداره لما كان استصعابهم إياها رد عليهم ذلك فقيل لا تستصعبوها فانما هى صيحة واحدة أى حاصلة بصيحة واحدة وهى النفخة الثانية عبر عنها بها تليها على كمال اتصالها بها كأنها عينها وقيل هى راجع إلى الرادفة فقوله تعالى :

﴿ فاذا هم بالساهرة ﴾ حيثئذ بيان لترتب الكرة على الزجرة مكافأة أى فاذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى جوفها وعلى الأول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التى عبر عنها بالزجرة والساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفى صحتها نائمة وقيل لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة وقيل اسم للجهنم وقال الراغب هى وجه الأرض وقيل هى أرض القيامة وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط خلقها حيثئذ وقيل هى أرض يحددها الله عز وجل يوم القيامة وقيل هى اسم الأرض السابعة يأتى بها الله تعالى فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض وقال الثورى : الساهرة أرض الشام وقال وهب بن منبه جبل بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم ^(١)

(١) انظر باب تبديل الأرض من البدور للسيوطى من ورقة ٧٠ - ٩٥ مخطوط.

وقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ كلام مستأنف وارد لتسليّة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه بأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم ومعنى هل أتاك إن اعتبر هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له عليه الصلاة والسلام في استماع حديثه كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به وإن اعتبر إتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الإيجاز في الاختصاص حمله عليه الصلاة والسلام على أن يقر بأمر يعرفه قبل ذلك كأنه قيل أليس قد أتاك حديثه وقوله تعالى ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما ﴿طوى﴾ بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وبالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى مصدر لنادى أو المقدس أى ناداه نادئين أو المقدس مرة بعد أخرى .

﴿إذهب إلى فرعون﴾ على إرادة القول وقيل هو تفسير للنداء أى ناداه إذهب وقيل هو على حذف أن المفسرة ويدل عليه قراءة عبد الله أن اذهب لأن في النداء معنى القول ﴿إنه طغى﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ﴿فقل﴾ بعد ما أتته ﴿هل لك﴾ رغبة وتوجه ﴿إلى أن تزكى﴾ بحذف إحدى التاءين من تزكى أى تنظّر من دنس الكفر والطغيان وقرىء تزكى بالتشديد ﴿وأهديك إلى ربك﴾ وأرشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿فتخشى﴾ إذ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته تعالى قال عز وجل ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وجعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر من خشى الله تعالى أى منه كل خير ومن أمن أجترأ على كل شر أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذى معناه المرض ليستدعيه بالتلطف فى القول ويستنزله بالمداواة من عتوه وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى ﴿فقل لا له﴾ قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) والفاء فى قوله تعالى ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعريلاً على تفصيلها فى السور الأخرى فإنه عليه الصلاة والسلام ما أراه إياها عقيب هذا الأمر بل بعد ما جرى بينه وبين

الله تعالى ما جرى من الاستدعاء والإجابة وغيرهما من المراجعات وبعد ما جرى بينه وبين فرعون ما جرى من المحاورات إلى أن قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين والإرامة إما بمعنى التبصير أو التعريف فإن اللعين حين أبصرها عرفها وادعاء سحريتها إنما كان إرادة منه وإظهارا للتجلد ونسبتها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا) بالنظر إلى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى قلب العصا حية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فإنها كانت المقدمة والأصل والآخرى كالتبع لها أو هما جميعاً وهو قول مجاهد فإنهما كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع حيث قال (اذهب أنت وأخوك بآياتي) باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون كما مر تفصيله في سورة طه ولا مساغ لحملها على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب (على)^(١) السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما مر في سورة الأعراف ولا ريب في أن هذا مطلع الفصة وأمر السحرة مترقب بعد ﴿ فكذب ﴾ بموسى عليه السلام وسمى معجزته سحراً ﴿ وعصى ﴾ الله عز وجل بالتردد بعد ما علم صفة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجتراً على إنكار وجود رب العالمين رأساً وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظيمة التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فتته الباغية لا بإرسال بنى إسرائيل من الأسر والفسر فقط .

﴿ ثم أدبر ﴾ أى تولى عن الطاعة أو انصرف عن المجلس ﴿ يسعى ﴾ أى يجتهد في معارضة الآية أو أريد ثم أقبل أى أنشأ يسعى فوضع موضعه أدبر تحاشياً عن وصفه بالإقبال وقيل أدبر هارباً من الثعبان فإنه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحبيه ثمانون

ذراعاً وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فترجه نحو
فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فأت منهم خمسة وعشرون ألفاً
من قومه وقيل لأنها حين انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت
مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون
أأشدك بالذي أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا^(١) ويأباه أن ذلك كان قبل
الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدى للمعارضة كما يعرب عنه قوله تعالى
(فحشر) أى فجمع السحرة لقوله فأرسل فرعون في المدائن حاشرين
وقوله تعالى (فتولى فرعون فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل
جنوده ويجوز أن يراد جميع الناس (فنادى) فى الجمع بنفسه أو بواسطة
المنادى (فقال أنا ربكم الأعلى) قيل قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة .

(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال بمعنى التنكيل كالسلام
بمعنى التسليم وهو التعذيب الذى ينكل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطى
ما يفضى إليه ومحله النصب على أنه مصدر مؤكّد كوعده الله وصيغة الله كأنه
قيل نكل الله به نكال الآخرة والأولى وهو الإحراق فى الآخرة والإغراق
فى الدنيا وقيل مصدر لاخذ أى أخذه الله أخذ نكال الآخرة الخ وقيل مفعول له
أى أخذه لأجل نكال الخ وقيل نصب على نزع الخافض أى أخذه بنكال
الآخرة والأولى وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذ فيهما
لا باعتبار أن ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فان ذلك لا يتصور فى الآخرة
بل فى الدنيا فان العقوبة الآخروية تنكل من سمعها وتمنع من تعاطى ما يؤدى
إليها لا محالة وقيل المراد بالآخرة والأولى قوله أنا ربكم الأعلى وقوله ما علمت
لحكم من إله غيرى قبل كان بين السكّنتين أربعون سنة فالإضافة إضافة المسبب
إلى السبب (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به
(لعبرة) عظيمة (لمن يخشى) أى لمن من شأنه أن يخشى وهو من من شأنه
المعرفة وقوله تعالى (أنتم أشد خلقاً) خطاب لأهل مكة المنكرين للبعث

بناء على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبسكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله تعالى (فانما هي زجرة واحدة) أى أخلقكم بعد موتكم أشد أى أشق وأصعب في تقديركم (أم السماء) أى أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها كقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (بناها) الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله أم السماء وفي عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الأفعال من التنبية على تعيينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى وقوله تعالى (رفع سمكها) بيان للبناء أى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام (فسواها) فعد لها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور أو فتممها بما علم أنها تم به من الكواكب والتداوير وغيرها مما لا يعلمه إلا الخلاق العليم من قولهم سوى أمر فلان إذا أصلحه (وأغطش ليلها) أى جعله مظلمة يقال غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه وقد مر هذا في قوله تعالى (وإذا أظلم عليهم قاموا) ويقال أيضاً أغطش الليل كما يقال أظلم . (وأخرج ضحاها) أى أبرز نهارها عبر عنه بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان وهو السر في تأخير ذكر الليل وفي التعبير عن إحداثه بالاعراج فإن إفاضة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام وأكمل في الإحسان وإضافة الليل والضحى إلى السماء لدوران حدودهما على حركتهما ويجوز أن تكون إضافة الضحى إليها بواسطة الشمس أى أبرز ضوء شمسها والتعبير عنه بالضحى لأنه وقت قيام سلطانها وكال إشراقها .

(والأرض بعد ذلك دحاها) أى بسطها ومهدا لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها وانتصاب الأرض بمضمر يفسره دحاها (أخرج منها ماءها) بأن جفر منها عيوننا وأجرى أنهاراً (ومرعاها) أى رعيها وهو في الأصل موضع الرعى وقيل هو مصدر ميمي بمعنى المفعول وتجريد الجملة عن العاطف إما لأنها

بيان وتفسير لدحاها وتكلمة له فإن السكفي لا تتأني بمجرد البسط والتمهيد بل لا بد من تسوية أمر المعاش من الماء كل والمشرّب حتماً وأما لأنها حال من فاعله بإضمار قد عند الجمهور أو بدونه عند الكوفيين والأخفش كما في قوله تعالى (أو جاؤكم حصرت صدورهم) (والجبال) منصوب بمضمر يفسره ﴿أرساها﴾ أى أثبتنا وأثبت بها الأرض أن تميد بأهلها وهذا تحقيق للحق وتنبيه على أن الرسو المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي ليس من مقتضيات ذواتها بل هو بإرسائه عز وجل ولولاه لما ثبتت في أنفسها فضلاء عن إثباتها للأرض وقرى والأرض والجبال بالرفع على الابتداء ولعل تقديم إخراج الماء والمرعى ذكرهما مع تقديم الإرساء عليه وجوداً وشدة تعلقه بالدحو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المأكّل والمشرّب مع ما فيه من دفع توهّم رجوع ضميرى الماء والمرعى إلى الجبال وهذا كما ترى يدل بظاهره على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء وما فيها كما يروى عن الحسن من أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهية الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى (كانتا رتقا ففتقناهما) الآية وقد مر في سورة حم السجدة أن قوله تعالى (قل أنؤمن لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين) إلى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الآية إن حمل ما فيه من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها فهو وما في سورة البقرة من قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) يدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء

ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة فالأقرب كما قيل تأويل هذه الآية بأن يجعل ذلك إشارة إلى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها ويحمل بعديّة الدحو عنها على البعديّة في الذكر كما هو المعبود في السنة العرب والعجم لا في الوجود لما عرفت من أن انتصاب الأرض بمضمر مقدم قد حذف على شريطة التفسير لا بما ذكر بعده ليفيد القصر وتعين البعديّة في الوجود وفائدة تأخيرها في الذكر إما التنبيه على أنه قاصر في الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء وإما الإشعار بأنه أدخل في الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما في الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيل أحواله أكل وليس ماروى عن الحسن نصاً في تأخير دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو التي هي بمنزلة من الدلالة على الترتيب هذا على تقدير حمل ما ذكر في آيات سورة السجدة من الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة وأما إذا حملت على تقديرها فلا دلالة فيها إلا على تقدم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء كما لا دلالة على الترتيب أصلاً إذا حملت كلمة ثم فيها وفيما في سورة البقرة على التراخي في الرتبة وقد سلف تفصيل الكلام في السورة المذكورة وقوله تعالى :

(متاعكم ولا نعمكم) إما مفعول له أى فعل ذلك تمنيعاً لكم ولا نعمكم لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصله إليهم وإلى أنعامهم فإن المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الإنسان وغيره بناء على استعارة الرعى لتناول الماء كقول على الإطلاق كاستعارة المرسن للأتف وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر أى متعمكم بذلك متاعاً أو مصدر من غير لفظه فإن قوله تعالى (أخرج منها ماءها ومرعاها) في معنى متع بذلك وقوله تعالى (فاذا جاءت الطامة الكبرى) أى الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات أى تغلوها

وتغلبها وهى القيامة أو النفخة الثانية وقيل هى الساعة التى يساق فيها الخلائق إلى محشرهم وقيل التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار شروع فى بيان أحوال معادهم لإثر بيان أحوال معاشهم^(١) بقوله تعالى (متاعا لكم الخ) والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها عما قليل كما ينبىء منه لفظ المتاع ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ قيل هو بدل من إذا جاءت والأظهر أنه منسوب بأعنى كما قيل تفسيرا للطامة الكبرى فإن الإبدال منها بالظرف المحض مما يوهن تعلقها بالجواب ويجوز أن يكون بدلا من الطامة الكبرى مفتوحا لإضافته إلى الفعل على رأى الكوفيين أى يتذكر فيه كل أحد ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله وقد كان نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد كقوله تعالى (أحصاء الله ونسوه) ويجوز أن تكون ما مصدرية .

﴿وبرزت الجحيم﴾ عطف على جاءت أى أظهرت لإظهارنا بينا لا يخفى على أحد ﴿لمن يرى﴾ كائنا من كان يروى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر وقرىء وبرزت بالتخفيف ولمن رأى ولمن ترى على أن فيه ضمير الجحيم كما فى قوله تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد) وعلى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لمن تراه من الكفار وقوله تعالى ﴿فأما من طغى﴾ الخ جواب فإذا جاءت على طريقة قوله تعالى ﴿فأما يأتينكم منى هدى﴾ الآية وقيل هو تفصيل للجواب المحذوف تقديره انقسم الراؤون قسمين فأما من الخ والذي تستدعيه غفامة التنزيل ويقتضيه مقام التحويل أن الجواب المحذوف كان من عظام الشئون ما لم تشاهده العيون كما مر فى قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل) أى فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد فى العصيان ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ الغانية التى هى على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيها ولم يستعد للحياة الآخروية الأبدية بالإيمان والطاعة ﴿فإن الجحيم﴾ التى ذكر شأنها ﴿هى

المأوى) أى هى مأواه واللام سادة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى كما فى قولك غض الطرف ودخول اللام فى المأوى والطرف للتعريف لأنهما معروفان وهى إما ضمير فصل أو مبتدأ قيل نزلت الآية فى النضر وأبيه الحرت المشهورين بالغلو فى الكفر والطغيان ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أى مقامه بين يدى مالك أمره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ عن الميل إليه بحكم الجبلة البشرية ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علما منه بوحامة عاقبتها .

﴿فإن الجنة هى المأوى﴾ له لا غيرها وقيل نزلت الآيتان فى أبى عزيز ابن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد رضى الله عنه هذا وقد قيل جواب إذا ما يدل عليه قوله تعالى (يوم يتذكر) الخ أى فإذا جاءت الطامة الكبرى يتذكر الإنسان ما سعى على طريقة قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) وقوله تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) فيكون قوله تعالى وبرزت الجحيم عطفا عليه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حالا من الإنسان بإحضار قد أو بدونه على اختلاف الرايين ولمن يرى مغن عن العائد وقوله تعالى (فأما من طغى) الخ تفصيلا لحالى الإنسان الذى يتذكر ما سعى وتقسيما له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين ﴿يسألونك عن الساعة أيا ن مرساها﴾ متى إرساؤها أى إقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكونها وقيل أيا ن منهاها ومستقرها كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى إليه وتستقر فيه وقوله تعالى ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أى فى أى شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها كقوله تعالى (يسألونك كأنك حفى عنها) أى ما أنت من ذكراها لهم وتبين وقتها فى شيء لأن ذلك فرع علمك به وأنى لك ذلك وهو مما استأثر بعلمه علام الغيوب ومن قال بصدد التعليل فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غيا فقد نأى عن الحق وقيل فيم إنكار لسؤالهم وما بعده من الاستئناف تعليل للإنكار وبيان لبطلان السؤال أى فيم هذا السؤال ثم

ابتدىء فقيل أنت من ذكرها أى لإرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث فى نسيم الساعة علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم فعنى قوله تعالى ﴿إلى ربك منتهاها﴾ على هذا الوجه إليه تعالى يرجع منتهى عليها أى عليها بكنهها وتفصيل أمرها وقت وقوعها لا إلى أحد غيره وإنما وظيفتهم أن يعلموا بأقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فامعنى سؤالهم عنها بعد ذلك وأما على الوجه الأول فعناه إليه تعالى انتهاء عليها ليس لأحد منه شيء ما كنا من كان فلاى شيء يسألونك عنها .

وقوله تعالى ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ على الوجه الأول تقرير لما قبله من قوله تعالى (فيم أنت من ذكرها) وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فإن إنكار كونه عليه الصلاة والسلام فى شيء من ذكرها عما يوم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه فإزج ذلك ببيان أن المنقضى عنه عليه الصلاة والسلام ذكرها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام عنها فالمعنى إنما أنت منذر من يخشاها وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها وتفصيل ما فيها من فنون الأحوال كما تحيط به خيرا لا تعين وقتها الذى لم يفوض إليك فاسألونك عما ليس من وظائفك بيانه وعلى الوجه الثانى هو تقرير لقوله تعالى (أنت من ذكرها) ببيان أن إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذر بمجيء الساعة كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقنى وقرىء منذر بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف صالح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضى تعينت الإضافة وتخصيص الإنذار بمن يخشى مع عموم الدعوة لأنه المنتفع به وقوله تعالى ﴿كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ إما تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار من سرعة مجيئ المنذر به لا سيما على الوجه الثانى أى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاها فلما ترك اليوم أضيف ضحاها إلى عشية وإما رد لما أدجوه فى سؤالهم فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء

مستعجلين بها وأن كان على نهج الاستهزاء بها (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) فالمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار أو بعد الوعيد بها إلا عشية أو ضحاها واعتبار كون اللبث في الدنيا أو القبور لا يقتضيه المقام وإنما الذي يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار ورداً لاستبطائهم والجملة على الأول حال من الموصول فإنه على تقديرى الإضافة وعدمها مفعول لمنذر كما أن قوله تعالى (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) حال من ضمير المفعول في يحشرهم أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث في الدنيا إلا ساعة خلا أن الشبه هناك في الأحوال الظاهرة من الزى والهيئة وفيما نحن فيه في الاعتقاد كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة وعلى الثانى مستأنفة لا محل لها من الإعراب . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والنازعات كان بمن حجبته الله عز وجل في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة ، والله أعلم .

سورة عبس

مكية ، وآيها إحدى وأربعون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(عبس وتولى أن جاءه الأعمى) روى أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري وأم مكتوم اسم أم أبيه أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأميمة بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوه إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال له يا رسول الله أقر نفي وعلمني بما عليك الله تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله عليه الصلاة والسلام بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي ويقول له هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين وقرىء عبس بالتحديد للبالغة وأن جاءه علة لتولى أو عبس على اختلاف الرأيين أى لأن جاءه الأعمى والتعرض لعنوان عماء إما لتهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه عليه الصلاة والسلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرفق والرفقة وأما لزيادة الإنكار كأنه قيل تولى لكونه أعمى كما أن الالتفات في قوله تعالى (وما يدريك) لذلك فإن المشافهة أدخل في تشديد العتاب أى وأى شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى (لعله يزكى) استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فإنه مع إشعاره بأن له شأنا منافيا للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير وادرائه مؤذن بأنه تعالى يدرى ذلك أى لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوصار الأوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكى واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى التزكى بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أن الأعراض عنه عند كونه مرجو التزكى لما لا يجوز فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكى كما في قواك لعلك ستندم على ما فعلت وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكى

والتذكر أصلا وقوله تعالى ﴿ أو يذكر ﴾ عطف على يزكى داخل معه في حكم الترجي وقوله تعالى ﴿ فتنتفعه الذكر ﴾ بالنصب على جواب لعل وقرىء بالرفع عطفا على يذكر أى أو يتذكر فتنتفعه موعظتك أن لم يبلغ درجة التزكى التمام وقيل الضمير فى لعله للكافر فالمعنى أنك طمعت فى أن يتزكى أو يذكر فتقربه التذكرى إلى قبول الحق ولذلك توليت عن الاعمى وما يدريك أن ذلك مرجو الوقوع ﴿ أما من استغنى ﴾ أى عن الإيمان وعماء عندك من العلوم والمعارف التى ينطوى عليها القرآن ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى تتصدى وتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بارشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له عليه الصلاة والسلام عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر ليس من شيم الكبار وقرىء تصدى بادغام التاء فى الصاد وقرىء تصدى بضم التاء أى تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدى له داع من الحرص والتمالك على إسلامه ﴿ وما عليك أن لا يزكى ﴾ وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره وتعرض عمن أسلم والجملة حال كونه وقيل ما استفهامية للإنكار أى أى شىء عليك فى ألا لا يتزكى وما له الغنى أيضا .

﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أى حال كونه مسرعا طالبا لما عندك من أحكام الإرشاد وخصال الخير ﴿ وهو يخشى ﴾ أى الله تعالى وقيل يخشى أذية الكفار فى إيمانك وقيل يخشى الكبوة إذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أنه حال من فاعل جاءك ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ تتشاغل يقال لى عنه والتى وتلهى وقرىء تلهى وتلهى أى يلهيك شأن الصناديد وفى تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تلييه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام أى مثلك خصوصا لا ينبغي أن يتصدى للمستغنى ويتلمى الفقير الطالب للخير وتقديم له وعنه للتعريض باهتمامه عليه الصلاة والسلام بمضمونهما . روى أنه عليه الصلاة والسلام ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ولا تصدى لغنى ﴿ كلا ﴾ ردع له عليه الصلاة والسلام عما عوتب عليه من التصدى لمن استغنى عما دناؤه إليه من الإيمان والطاعة وما يوجههما من القرآن الكريم مبالغا فى الاهتمام بأمره

على إسلامه معرضا بسبب ذلك عن إرشاد من يسترشه وقوله تعالى ﴿لإنها تذكرة﴾ أى موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها لتعليل الردع عما ذكر بيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة والسلام له وتحقيق أن شأنه يكون موعظة حقيقة بالاعتاظ بها فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى ﴿فمن شاء ذكره﴾ أى حفظه وانعظ به ومن رغب عنها كما فعل المستغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره فالضميران للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة والتذكير لأنها فى معنى الذكر والوعظ وليس بذلك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتى من الصفات الشريفة لكنها ليست بما أتى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وأما من جوز رجوعهما إلى العتاب المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب وخطب خطأ يقضى منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله تعالى ﴿فى صحف﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض جىء به للترغيب فيها والحث على حفظها أى كائنه فى صحف منتسخة من اللوح أو خبر ثان لأن ﴿مكرمة﴾ عند الله عز وجل ﴿مرفوعة﴾ أى فى السماء السابعة أو مرفوعة المقدار والذكر ﴿مطهرة﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين .

﴿بأيدي سفرة﴾ أى كتبة من الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح على أنه جمع سافر من السفر وهو الكتب وقيل بأيدي رسل من الملائكة يسفرون بالوحي بينه تعالى وبين الأنبياء على أنه جمع سفير من السفارة وحملهم على الأنبياء عليهم السلام بعيد فإن وظيفتهم التلقى من الوحي لا الكتب منه وإرشاد الأمة بالأمر والنهي وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم وكذا حملهم على القراءة لقراءتهم الأسفار أو على أصحابه عليه الصلاة والسلام وقد قالوا هذه اللفظة مخنصة بالملائكة لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة والباء متعلقة بمطهرة قال الفصالح لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها وقال القرطبي إن المراد بما فى قوله تعالى

لا يمسسه إلا المطهرون هؤلاء السفرة الكرام البررة (كرام) عند الله عز وجل
أو متعطفين على المؤمنين يكملونهم ويستغفرون لهم (بررة) أتقياء وقيل
مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أى يطيعه وقيل صادقين من بر فى يمينه
(قتل الإنسان) دعاء عليه بأشنع الدعوات وقوله تعالى (ما أكفره) ثم مجب
من إفراطه فى الكفران وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه والمراد به إما من استغنى
عن القرآن الكريم الذى ذكرت نعمته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به
ولما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراد لا باعتبار جميع أفراد وفيه
مع قصر متنه وتقارب قطريه من الأنباء عن سنخ عظيم ومزمة بالغة مالا غاية
وراءه وقوله تعالى (من أى شيء خلقه) شروع فى بيان إفراطه فى الكفران
بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون التعميم الموجبة
لقضاء حقها بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك وفى الاستفهام عن مبدأ خلقه
ثم بيانه بقوله تعالى (من نطفة خلقه) تحقير له أى من أى شيء حقير مهين
خلقته من نطفة مذرة خلقه (فقدرة) فهياه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء
والأشكال أو فقدرة أطوارا إلى أن تم خلقه وقوله تعالى :

(ثم السبيل يسره) منصوب بمضمر يفسره الظاهر أى ثم سهل مخرجه
من البطن بأن فتح فم الرحم وألهمه أن يتركس أو يسر له سبيل. الأخير والشر
ومكنه من السلوك فيهما وتعريف السبيل باللام دون الإضافة للاشعار بعمومه
(ثم أماته فأقبره) أى جعله ذا قبر يوارى فيه تكرامة له ولم يدعه مطروحا
على وجه الأرض جزرا للسباع والطير كسائر الحيوان يقال قبر الميت إذا
دفنه وأتبره إذا أمر بدفنه أو مكن منه وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة فى
الجملة إلى الحياة الأبدية والنعم المقيم (ثم إذا شاء أنشره) أى إذا شاء إنشاره
أنشره على القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة وفى تعليق الإفساح بمشيئته
تعالى إيدان بأن وقته غير متعين بل هو تابع لها وقرىء أنشره (كلا) ردع
للإنسان عما هو عليه وقوله تعالى (لما يقض ما أمره) بيان لسبب الردع
أى لم يقض بعد من لعن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده

ما أمره الله تعالى بأمره إذ لا يخلو أحد من تقصير ما كذا قالوا وهكذا نقل عن مجاهد وقتادة ولا ريب في أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه أحد من أفراده كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام شيبتي سورة هود لما فيها من قوله تعالى فاستقم كما أمرت^(١) فالوجه أن يحمل عدم القضاء على عموم النفي لا على نفي العموم إما على أن المحكوم عليه هو المستغنى أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما في قوله تعالى (إن الإنسان لظالم كفار) للإشباع في اللوم بحكم المجانسة على طريقة قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وإما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب السلبى دون السلب السلبى فالمعنى لما يقض جميع أفراد ما أمره بل أدخل به بعضها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلاً هذا وقد قيل كلا بمعنى حقاً فيتعلق بما بعده أى حقاً لم يعمل بما أمره به .

(فلينظر الإنسان إلى طعامه) شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه أى فلينظر إلى طعامه الذى عليه يدور أمر معاشه كيف دبرناه وقوله تعالى (أنا صبينا الماء صبا) أى الفيت بدل اشتغال من طعامه لأن الماء سبب لحدوث الطعام فهو مشتمل عليه وقرئ أنا على الاستئناف وقرئ أنى بالإمالة أى كيف صبينا إلى آخره أى صبيناه صبا عجيباً (ثم شققنا الأرض) أى بالنبات (شقا) بديعاً لا نقاً بما يشققها من النبات صفراً وكبراً وشكلاً وهيئة وحمل شققها على ما بالسكراب يجعل إسناده إلى نون العظمة من قبيل إسناد الفعل إلى سببه ياباه كلمة ثم والفاء في قوله تعالى (فأنبتنا فيها حبا) فإن الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الأمطار أصلاً

(١) أخرجه أحمد في الزهد من طرق .

ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة وإنما الترتيب بين الأمطار وبين الشق
 بالنبات على التراخي المعهود وبين الشق المذكور وبين إنبات الحب بلا مهلة
 فإن المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن
 انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق
 النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنباته تعالى على وجه بديع خارج عن
 العادات المعهودة كما ينبغي عنه تأكيذ الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه
 في حصول تلك النعم منخل بالمرام وقوله تعالى ﴿وعنبا﴾ عطف على حبا وليس
 من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير
 في خلو إنبات العنب عن شق الأرض ﴿وتضبا﴾ أى رطوبة سميت بمصدر قضبه
 أى قطعه مبالغة كأنها لشكر قطعا وتكثره نفس القطع ﴿وزيتونا ونخلا﴾
 الكلام فيهما وفي أمثالهما كما في العنب ﴿وحدائق غلبا﴾ أى عظاما وصف به
 الحدائق لشكافها وكثرة أشجارها أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من
 وصف الرقاب ﴿وفاكهة وأبا﴾ أى مرعى من أبه إذا أمه أى قصده لأنه يؤم
 ويفتجع أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيء للرعى أو فاكهة يابسة تؤب
 للشقاء وعن الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال أى سماء تظلى وأى
 أرض تقلى إذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لى به وعن عمر رضى الله عنه أنه
 قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما الأب ثم رفع عصا كانت بيده وقال
 هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب ثم قال
 اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾
 إما مفعول له أى فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواسيكم فإن بعض النعم المعدودة طعام
 لهم وبعضها علف لدوابهم والالتفات لتكميل الامتتان ولما مصدر مؤكد لفعله
 المضمر بخذف الزوائد أى تمتعكم بذلك متاعا أو لفعل مترتب عليه أى تمتعكم
 بذلك فتمتعتم متاعا أى تمتعوا كما مر غير مرة أو مصدر من غير لفظه فإن ما ذكر
 من الأفعال الثلاثة فى معنى التمتع.

﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ شروع فى بيان أحوال معادهم لإثريان مبدأ خلقهم

ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم عن قريب كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها وقرب اضمحلالها والصاخة هي الداهية العظيمة التي يصح لها الخلاق أي يصيخون لها من صرخ حديثه إذا أصاخ له واستمع وصفت بها النفخة الثانية لأن الناس يصيخون لها وقيل هي الصيحة التي تصيح الأذان لئلا تصمها لشدة وقعها وقيل هي مأخوذة من صرخه بالحجر أي صمكه وقوله تعالى ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ إما منصوب بأعنى تفسيراً للصاخة أو بدل منها مبنى على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأى الكوفيين وقيل بدل من إذا جاءت كما مر في قوله تعالى يوم يذكركم الخ أي يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه وأما تعليل ذلك بعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئاً أو بالخذل من مطالبتهم بالتبعات فإياه قوله تعالى ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار أي لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به وأما الفرار خذرا من مطالبتهم أو بغضا لهم كما يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبي عليه الصلاة والسلام من أمه ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه ونوح عليه السلام من ابنه ولوط عليه السلام من امرأته فليس من قبيل هذا الفرار وكذا ما يروى أن الرجل يفر من أصحابه وأقربائه لئلا يروه على ما هو عليه من سوء الحال وقرئ يعنيه بالياء المفتوحة والعين المهملة أي يهيمه من عناء الأمر إذا أهمله أي أوقعه في الهم ومنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه لا من عناء إذا قصده كما قيل وقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء فوجوه مبتدأ وإن كانت نكرة لكونها في حين التنويع ومسفرة خبره ويومئذ مهلق به أي مضيئة متهلة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ذلك من قيام الليل وفي الحديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وعن الضحاك من آثار الوضوء وقيل من طول ما اغتبرت

فى سبيل الله (ضاحكة مستبشرة) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة (ووجوه يومئذ عليها غبرة) أى غبار وكدورة (ترهقها) أى تعلوها وتفشاها (قتره) أى سواد وظلمة. (أولئك) إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للايدان ببعء درجاتهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره (هم الكفرة الفجرة) الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر

سورة التكويد

مكية ، وآيها تسع وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا الشمس كورت) أى لفت من كورت العمامة إذا لففتها على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها من مقرها فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف لفا ويطوى ونحوه قوله تعالى (يوم نطوى السماء) وأما لف ضوئها المنبسط فى الآفاق المنتشر فى الأقطار على أنه عبارة عن إزالتها والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم أو ألقيت عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار من طعنه فكوره إذا ألقاه على الأرض وعن أبى صالح كورت نكست وعن ابن عباس رضى الله عنهما تكويرها إدخالها فى العرش ومدار التركيب على الإدارة والجمع وارتفاع الشمس على أنه فاعل لفعل مضمر يفسره المذكور وعند البعض على الابتداء (وإذا النجوم انكدرت) أى انقضت وقيل تناثرت وتساقطت. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط فى الأرض وعنه رضى الله عنه أن منجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من

نور بأيدي ملائكة من نور فإذا مات من في السموات ومن في الأرض تساقطت من أيديهم وقيل انكسارها انطلاس نورها ويروى أن الشمس والنجوم تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) (وإذا الجبال سيرت) أي عن أما كتبها بالرجفة الحاصلة لافي الجو فإن ذلك بعد النفخة الثانية (وإذا العشار) جمع عشار وهي الناقة التي أنى على حملها عشرة أشهر وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وهي أنفس ما يكون عند أهلها وأعزها عليهم (عطلت) تركت مهملة لاشتغال أهلها بأنفسهم وقيل العشار السحائب^(١) فإن العرب تشبهها بالحامل ومنه قوله تعالى (فالحاملات وقرأ) وتعظيها عدم إظهارها وقرىء عطلت بالتخفيف (وإذا الوحوش حشرت) أي جمعت من كل جانب وقيل بعثت للفصاص قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للفصاص فإذا قضى بينها ردت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطارس ونحوه وقرىء حشرت بالتشديد (وإذا البحار سجرت) أي أحيت أو ملئت ينفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً من سجر التنور إذا ملأه بالخطب ليعلميه وقيل ملئت نيراناً تضطرم بها^(٢) لتعذيب أهل النار وعن الحسن يذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة وقرىء سجرت بالتخفيف .

(وإذا النفوس زوجت) أي قرنت بأجسادها أو قرنت كل نفس بشكلها أو بكتابها أو بعملها أو نفوس المؤمنين بالخور ونفوس الكافرين بالشياطين (وإذا المائدة) أي المدفونة حية وكانت العرب تمتد البنات مخافة الإملاق أو لحوق العار بهن من أجلهن قيل كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت ألبسها جبة من صوف أو شعر حتى إذا بلغت ست سنين ذهب بها إلى الصحراء وقد حفر لها حفرة فيلقيا فيها ويهيل عليها التراب وقيل كانت الحامل إذا أقربت

حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها وإن ولدت
إبنا حبسته ﴿ سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ توجيه السؤال إليها لتسليتها وإظهار
كمال الغيظ والسخط لو اتدها وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته
كما في قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى الهين) وقرىء سألت أى خاصمت
أو سألت الله تعالى أو قاتلها وإنما قيل قتلت لما أن الكلام إخبار عنها لا حكاية
لما خوطبت به حين سئلت ليقال قتلت على الخطاب ولا حكاية لكلامها حين
سألت ليقال قتلت على الحكاية عن نفسها وقد قرىء كذلك وبالتشديد أيضا
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن أطفال المشركين فقال لا يعذبون
واحتج بهذه الآية :

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أى صحف الأعمال فانها تطوى عند الموت
وتنشر عند الحساب عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال يحشر الناس عراة
حفاة فقال أم سلمة فكيف بالنساء فقال شغل الناس يا أم سلمة قالت وما شغلهم
قال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل وقيل نشرت أى فرقت بين
أصحابها وعن مرثد بن وداعة إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت
العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية وتقع صحيفة الكافر في يده
في سموم وحميم أى مكتوب فيها ذلك وهى صحف غير صحف الأعمال ﴿ وإذا
السماء كشطت ﴾ قطعت وأزيلت كما يكشف الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن
الشيء المستور به وقرىء كشطت واعتقاب الكاف والقاف غير عزيز كالقافور
والقافور ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أوقدت لإيقادا شديدا قيل سعتها غضب
الله عز وجل وخطايا بني آدم وقرىء سعرت بالتخفيف ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾
أى قربت من المتقين كقوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) قيل هذه
اثنتا عشرة خصلة ست منها فى الدنيا أى فيما بين النفخين وهن من أول السورة
إلى قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) على أن المراد بحشر الوحوش جمعها من
كل ناحية لا بعضها للقصاص وست فى الآخرة أى بعد النفخة الثانية وقوله تعالى
(علمت نفس ما أحضرت) جواب إذا على أن المراد بها زمان واحد

يمتد يسع ما في سباقها وسباق ما عطف عليها من الحصال مبدؤه النفخة الأولى
ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كل جزء من
أجزاء ذلك الوقت المديد أو عند وقوع داهية من تلك الدواهي بل عند نشر
الصحف إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مبادئه وبعضها من روافده
نسب عليها بذلك إلى زمان ووقوع^(١) كلها تهويلا للخطب وتفضيلا للحال والمراد
بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضورها إما حضور صحائفها كما يعرب
عنه نشرها وإما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه
النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن
والقبح على كيفيات مخصوصة وهيآت معينة حتى أن الذنوب والمعاصي تتجسم
هنالك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة
بالكافرين) وقوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون
في بطونهم نارا) وكذا قوله عليه الصلاة والسلام في حق من يشرب من آنية
الذهب والفضة إنما يجر جر في بطنه نار جهنم^(٢) ولا بعد في ذلك ألا يرى أن
العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللب كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال
الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يؤتى بالأعمال
الصالحة على صور حسنة وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع في الميزان
وأيا ما كان فإسناد إحضارها إلى النفس مع أنها تحضر بأمر الله تعالى كما ينطق
به قوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) الآية لأنها لما عملتها
في الدنيا فكأنها أحضرتها في الموقف ومعنى عليها بها حينئذ أنها تشاهدها على
ما هي عليه في الحقيقة فإن كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت
تشاهدها عليه في الدنيا لأن الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة وإن كانت
سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا لأنها كانت مزينة لها

(١) في ١١ وقوعها كلها .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد عن البراء بن عازب .

موافقة لها وتكبير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أو لبعض منها للايذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعاً يعرفه كل أحد ولو جرىء بعبارة تدل على خلافه وللمرء إلى أن تلك النفوس العاملة بما ذكر مع توفر أفرادها وتكثر أعدادها مما يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذي أشير إلى بعض بدائع شئونه المنبئة عن عظم سلطانه وأما ما قيل من أن هذا من قبيل عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه وتمثيله بقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وبقول من قال :

« قد أترك القرن مصفراً أنامله »

وبقول من قال حين سئل عن عدد فرسانه رب فارس عندي. وعنده المقاب قاصداً بذلك التماضى في تكثير فرسانه وإظهار برامته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً أن يتزيد فمن لوازم النظر الجليل إلا أن الكلام المعكوس عنه فيما ذكر من الأمثلة مما يقبل الإفراط والتماضى فيه فإنه في الأول كثير ما يود وفي الثاني كثيراً ما أترك وفي الثالث كثير من الفرسان وكل واحد من ذلك قابل للإفراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتب الكثرة وقد قصد بعكسه ما ذكر من التماضى في التكثير حسبما فصل أما فيما نحن فيه فالكلام الذي عكس عنه علمت كل نفس ما أحضرت كما صرح به القائل وليس فيه إمكان التكثير حتى يقصد بعكسه المبالغة والتماضى فيه وإنما الذي يمكن فيه من المبالغة ما ذكرناه فتأمل ويجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حيثئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس لإصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصح له لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الإنسان على ما فعل فانك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو الوجود لا متيقن به أو نادر الوقوع بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يحتنب أمراً يرجى فيه الندم أو قلما يقع فيه فكيف به إذا كان قطعي الوجود كثير الوقوع .

((فلا أقسم بالخنس)) أى الكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر وهى ما عدا النيرين من الدرارى الخسة وهى بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري وصفت بقوله تعالى ((الجوار الكنس)) لأنها تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس فنفسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها من كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو البيت الذى يتخذ من أغصان الشجر وقبل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها ((والليل إذا عسعس)) أى أدبر ظلامه أو أقبل فانه من الأضداد وكذلك سمسع قال الفراء أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر وعليه قول العجاج :

حق إذا الصبح لها تنفسا وانجباب عنها ليها وعسعسا

وقيل هى لغة قريش خاصة وقيل معنى إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى ((والصبح إذا تنفس)) لأنه أول النهار وقيل إداره أقرب من تنفس الصبح ومعناه أن الصبح إذا أقبل يقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له مجازا فقل تنفس الصبح ((إنه)) أى القرآن الكريم الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة ((لقول رسول كريم)) هو جبريل عليه السلام قاله من جهة الله عز وجل ((ذى قوة)) شديدة كقوله تعالى شديد القوى وقيل المراد القوة فى أداء طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف ((عند ذى العرش مكين)) ذى مكانة رفيعة عند الله تعالى عنديّة إكرام وتشريف لاعنديّة مكان ((مطاع)) فيما بين ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ((ثم أمين)) على الوحى وثم ظرف لما قبله وقيل لما بعده وقرىء ثم تعظيما لوصف الأمانة وتفضيلا لها على سائر الأوصاف ((وما صاحبكم)) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ((بمجنون)) كما تهته الكفرة والتعرض لغفوان المصاحبة للتلويح بأحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام خبرا وعلمهم بنزاهته عليه السلام عما نسبوه إليه بالسكينة وقد استدل به على فضل جبريل عليه عليهما السلام للتأين البين بين وصفيهما وهو ضعيف إذ المقصود

رد قول الكفرة في حقه عليه الصلاة والسلام (إنما يعلمه بشر أفترى على الله كذبا أم به جنة) لا تعداد فضائهما والموازاة بينهما (ولقد رآه) أى وبالله لقد رأى رسول الله جبريل عليهما الصلاة والسلام . (بالآفق المبين) بمطلع الشمس الأعلى (وما هو) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم (على الغيب) على ما يخبره من الوحي إليه وغيره من الغيوب (بضنين) أى يبيخيل لا يبيخل بالوحي ولا يقصر في التبليغ والتعليم وقرىء بضنين أى بمتهم من الظنة وهى التهمة (وما هو بقول شيطان رجيم) أى قول بعض المستترقة للسمع وهو نفي لقولهم إنه كهانة وسحر (فأين تذهبون) استضلال لهم فيما يسلكونه فى أمر القرآن والفناء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور أنه وحى مبين وليس مما يقولون فى شئ كما تقول لمن ترك الجادة بعد ظهورها هذا الطريق الواضح فأين تذهب (إن هو) ما هو (إلا ذكر للعالمين) موعظة وتذكير لهم وقوله تعالى (لمن شاء منكم) بدل من العالمين باعادة الجار .

وقوله تعالى (أن يستقيم) مفعول شاء أى لمن شاء منكم الاستقامة بتحرى الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير (وما تشاؤون) أى الاستقامة مشيئة مستتبعة لها فى وقت من الأوقات (إلا أن يشاء الله) أى إلا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة أى المستتبعة للاستقامة فإن مشيئتهم لا تستتبعها بدون مشيئة الله تعالى لها (رب العالمين) مالك الخلق ومربيهم أجمعين . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكوير أعاده الله أن يفضحه حين تلتشر صحيفته .

سورة انفطرت

مكية ، وآياتها تسع عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا السماء انفطرت) أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً) والكلام في ارتفاع السماء كما مر في ارتفاع الشمس (وإذا الكواكب انتثرت) أي تساقطت متفرقة (وإذا البحار فجرت) فتح بعضها إلى بعض فأخلط العذب بالأجاج وزال ما بينهما من البرزخ الحجاز وصارت البحار بحرأً واحداً وروى أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسيجير عند الحسن رضى الله عنه وقيل إن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة فإذا فجرت تفرقت وذهبت وقرىء فجرت بالتخفيف مبنيًا للمفعول ومبنيًا للفاعل أيضاً بمعنى بغت من الفجور نظراً إلى قوله تعالى لا يغيان (وإذا القبور بعثرت) أي قلب ترابها وأخرج موتاهم ونظيره بحر لفظاً ومعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء ضمت إليهما وقوله تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) جواب إذا لكن لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت من أن المراد بها زمان واحد مبدؤة النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلق لا أزمنة متعددة حسب تعدد كلفة إذا وإنما كررت لتحويل ما في حيوها من الدواهي والكلام فيها كالذي مر تفصيله في نظيرهما^(١) ومعنى ما قدم وأخر ما أسلف من عمل خير أو شر وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود وعن ابن عباس أيضاً ما قدم من معصية وأخر من طاعة وهو قول قتادة وقيل ما قدم من أموره لنفسه وما أخر لورثته وقيل ما قدم من فرض وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره ومعنى علمها بهما عليها التفصيل حسبما ذكر فيما مر مراراً (يا أيها الإنسان ما غرك

(١) في الأصل : فيها . . . نظيره .

بربك الكريم ﴿ أى شىء خدعك وجراك على عصيانك وقد علمت ما بين يديك من الدواهي التامة والعراقل الطامة وما سيكون حينئذ من مشاهدة أعمالك كلها والتعرض لعنوان كرمه تعالى للايذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبها يغويه الشيطان ويقول له أفعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة فإنه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه وقوله تعالى ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك بدءا قدر عليه إعادة والتسوية جعل الأعضاء سايمة سوية معدة لمنافعها وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت أو صرفها عن خلقه غير ملائمة لها وقرىء فعدلك بالتشديد أى صيرك معتدلا متناسبا الخلق من غير تفاوت فيه ﴿ فى أى صورة شاء ركبك ﴾ أى ركبك فى أى صورة شاءها من الصور المختلفة وما من زيادة وشاء صفة لصورة أى ركبك فى أى صورة شاءها واختارها لك من الصور العجيبة الحسنة كقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك .

﴿ كلا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجملة ذريعة إلى الكفر والمعاصى مع كونه موجبا للشكر والطاعة وقوله تعالى ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ لضرب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأتم لا تردعون عن ذلك بل تجترئون على أعظم من ذلك حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأسا أو بدين الإسلام الذى هما من جملة أحكامه فلا تصدقون سؤالا ولا جوابا ولا ثوابا ولا عقابا وقيل كأنه قيل إنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى^(١) عليكم وارشادى لكم بل تكذبون الخ وقال القفال ليس

الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور ثم قيل أنتم لا تقينون بهذا البيان بل تكذبون بيوم الدين وقوله تعالى ﴿ ولئن عليكم لحافظين ﴾ حال من فاعل تكذبون مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقق ما يكذبون به أى تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم ﴿ كراما ﴾ لدينا ﴿ كاتبين ﴾ لها ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ من الأفعال قليلا وكثيرا ويضبطونه فقيرا وقطميرا لتجاوزوا بذلك وفي تعظيم السكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله عز وجل من جلائل الأمور حيث يستعمل فيه هؤلاء الكرام وقوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ استئناف مسوق لبيان نذيجة الحفظ والكتاب من الثواب والعقاب وفي تنكير النعيم والجحيم من التفخيم والتهويل ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿ يصلونها ﴾ إما صفة للجحيم أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من تهويلها كأنه قيل ما حالهم فيها فقيل يقاسون حرها ﴿ يوم الدين ﴾ يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ طريقة عين فإن المراد دوام نفى الغيبة لانهى دوام الغيبة لما مر مرارا من أن الجملة الاسمية المنفية قد يراد بها استمرار النفى لانهى الاستمرار باعتبار ما تفيد من الدوام والثبات بعد النفى لا قبله وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلمة بل كانوا يحدون سمومها فى قبورهم حسبيها قال النبى عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران وقوله تعالى :

﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ تفخيم لشأن يوم الدين الذى يكذبون به لآثر تفخيم وتهويل لآمره بعد تهويل ببيان أنه خارج عن دائرة دراية الخلق على أى صورة تصوره فهو فوقها وكيفما تخيلوه فهو أطم من ذلك وأعظم أى وأى شيء جعلك داريا^(١) ما يوم الدين على أن ما الاستفهامية خبر ليوم الدين لا بالعكس كما هو رأى سيويه لما مر من أن مدار الافادة هو

الخبر لا المبتدأ ولا ريب في أن مناط إفادة الهول والفتخامة هنا هو ما لا يوم الدين أى أى شيء عجيب هو في الهول والفضاعة لما مر غير مرة أن كلمة ما قد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعة لطلب الحقيقة وشرح الاسم يقال ما زيد فيقال في الجواب كاتب أو طبيب وفي إظهار يوم الدين في موقع الاضمار تأكيد لهوله ونظامته وقوله تعالى ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ بيان لإجمالى لشأن يوم الدين إثر إبهامه وبيان خروجه عن علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد فإن نفى إدراهم مشعر بالوعد السكريم بالإدراء قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما في القرآن من قوله تعالى ما أدراك فقد أدراه وكل ما فيه من قوله وما يدرك فقد طوى عنه ويوم مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى غير متمكن كأنه قيل هو يوم لا يملك فيه نفس من النفوس شيئاً من الأشياء إلخ أو منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفته اذكر يوم لا تملك نفس إلخ فإنه يدريك ما هو وقيل بإضمار يدانون وليس بذاك فإنه عار عن إفادة ما يفيد ما قبله كما أن إبداله من يوم الدين على قراءة الرفع كذلك بل الحق حيثئذ الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفطار كتب الله تعالى له بعدد كل قطرة من السماء وبعدد كل قبر حسنة والله تعالى أعلم .

سورة المطففين

مختلف فيها ، وآياتها ست وثلاثون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ويل للمطففين) قيل الويل شدة الشر وقيل العذاب الأليم وقيل هو واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره وقيل وقيل وأياماً كان فهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء والتطفيف البنس في السكبل والوزن لأن ما يبنس شيء طفيف حقير وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكان أهلها من أخبث الناس كيلاً فزلت فأحسنوا الكيل وقيل قدمها عليه الصلاة والسلام وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر وقيل كان أهل المدينة تجاراً يطوفون وكانت بياعاتهم المزابذة والملاسة والمخاطرة فزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال خمس بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا السكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر وقوله تعالى (الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون) إلخ صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذى استحقوا به الذم والدعاء بالويل أى إذا اکتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وأفيا وأفرا وتبديل كلمة على من لتضمنين الاکتال معنى الاستيلاء أو للإشارة إلى أنه اکتال مضر بهم لكن لا على اعتبار الضرر في حين الشرط الذى يتضمنه كلمة إذا لإخلاله بالمعنى بل في نفس الأمر بموجب الجواب فإن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وأفيا من غير نقص بل مجرد الأخذ الوافى الوافر حسبما أرادوا بأى وجه تيسر من وجوه الجبل وكانوا يفعلونه بكبس السكيل وتحريك المسكيات والاحتيال في ملته

وأما ما قيل من أن ذلك للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس فمع
اقتضائه لعدم شمول الحكم لا كتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء بطريق
الشراء ونحوه مع أنه الشائع فيما بينهم يقتضى أن يكون معنى الاستيفاء أخذ
ما لهم عليهم وأما من غير نقص إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرض الحق
فلا يكون مدار لذمهم والدعاء عليهم وحمل ما لهم عليهم على معنى ما سيكون لهم
عليهم مع كونه بعيدا جدا عما لا يجدى نفعا فإن اعتبار كون المكيل لهم حالا
كان أو ما لا يستدعى كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتما وهكذا حال ما نقل
عن الفراء من أن من وعلى تعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه فإذا قال
اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اكتلت منك فكقوله
استوفيت منك فتأمل وقد جوز أن تكون على متعلقة يستوفون ويكون تقديمها
على الفعل لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون
لها وأنت خير بأن القصر بتقديم الجار والمجرور وإنما يكون قيما يمكن تعلق الفعل
بغير المجرور أيضا حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره عليه بطريق القلب
أو الأفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب في أن الاستيفاء الذى هو
عبارة عن الأخذ الوافى بما لا يتصور أن يكون على أنفسهم حتى يقصد بتقديم
الجار والمجرور قصره على الناس على أن الحديث واقع في الفعل لا فيما وقع
عليه فتدبر والضمير البارز في قوله تعالى ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ للناس أى
إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿ يخسرون ﴾ أى ينقصون يقال
خسر الميزان وأخسره خذف الجار وأوصل الفعل كما في قوله :

• ولقد جنيتك أكمؤا وعسا قلا .

أى جنيت لك وجعل البارز تأكيداً للمستكن بما لا يليق بحالة التنزيل
ولعل ذكر الكيل والوزن في صورة الإخسار والاقصار على الاكتيال في
صورة الاستيفاء لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان
تمسكهم منه عند الكيل والوزن وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين

لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء^(١) لا في خصوصية المأخوذ والمعطى وقوله تعالى ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾ استئناف وارد لتحويل ما ارتكبه من التطفيف والتعجيب من اجترائهم عليه وأولئك إشارة إلى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للإشعار بمناط الحكم الذي هو وصفهم فإن الإشارة إلى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه وأما الضمير فلا يتعرض لوصفه والإيذان بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز فازلون منزلة المشار إليها إشارة حسية وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجاتهم في الشرارة والفساد أى ألا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ﴿ليوم عظيم﴾ لا يقادر قدر عظمه وعظم ما فيه ومحاسبون فيه على مقدار الذرة والحرذلة فإن من يظن ذلك وإن كان ظنا ضعيفا متاخما للشك والوهم لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح فكيف بمن تيقنه وقوله تعالى :

﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ أى لحكمه وقضائه منصوب بإضمار أعنى وقيل بمبعوثون أو مرفوع المحل خبراً لمبتدأ مضمراً أو مجرور بدلاً من يوم عظيم مبنى على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأى الكوفيين ويؤيد الأخيرين القراءة بالرفع وبالجر وفى هذا الإنكار والتعجيب وإيراد الظن ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه كافة لله تعالى خاضعين ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وأمثاله ما لا يخفى ﴿كلا﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب وقوله تعالى ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ لإلح تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق وسجين علم لكتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين منقول من وصف كعائهم وأصله فعيل من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق

(١) في ١١ : والمعطاء

في جهنم أو لأنه مطروح كما قيل تحت الأرض السابعة في مكان مظلم موحش وهو مسكن إبليس وذريته فالمعنى أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لنى ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمال المذكورين وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ تهويل لأمره أى هو بحيث لا يبلغه دراية أحد وقوله تعالى ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أى مسطور بين الكتابة أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقيل هو اسم المسكان والتقدير ما كتاب السجين أو محل كتاب مرقوم وقوله تعالى ﴿ ويل يومئذ للسكدين ﴾ متصل بقوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) وما بينهما اعتراض وقوله تعالى ﴿ الذين يكذبون يوم الدين ﴾ إما مجرور على أنه صفة دامة للسكدين أو بدل منه أو مرفوع أو منصوب على النعم .

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد ﴾ أى متجاوز عن حدود النظر والاعتبار غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدن ﴿ أنيم ﴾ أى منهمك في الشهوات المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على إنكارها ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ قال ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذى لا يحيد عنه ﴿ أساطير الأولين ﴾ أى هى حكايات الأولين قال السكبي المراد بالمعتدى الآثيم هو الوليد ابن المغيرة وقيل النضر بن الحرث وقيل عام لسكل من اتصف بالآوصاف المذكورة وقرئ إذا يتلى بتذكير الفعل وقرئ إذا تتلى على الاستفهام الإنكارى ﴿ كلا ﴾ ردع للمعتدى الآثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله تعالى :

﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان لما أدى بهم إلى الثفوه بتلك العظيمة أى ليس فى آياتنا ما يصح أن يقال فى شأنها مثل هذه المقالات الباطلة بل ركب على قلوبهم وغلب عليها ما كانوا يكسبوننا من الكفر والمعاصى حتى صارت كالصدأ فى المرأة فحال ذاك بينهم وبين معرفة الحق كما قال صلى الله عليه وسلم إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود

قلبه ولذلك قالوا ما قالوا والذين الصدا يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا ويقال ران فيه النوم أى رسخ فيه وقرىء يادغام اللام فى الراء (كلا) ردع وزجر عن الكسب الرائن (لأنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فلا يكادون يرونه بخلاف المؤمنين وقيل هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك وعن ابن عباس وقتادة وابن أبى مليكة محجوبون عن رحمته وعن ابن كيسان عن كرامته (ثم لأنهم لصالوا الجحيم) أى داخلوا النار وثم لتراخى الرتبة فإن صلى الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة (ثم يقال) لهم توبيخا وتقريعا من جهة الزبانية (هذا الذى كنتم به تكذبون) فذوقوا عذابه .

(كلا) ردع عما كانوا عليه بعد ردع وزجر لآثر زجر وقوله تعالى (إن كتاب الأبرار لفى عليين) استئناف مسوق لبيان محل كتاب الأبرار بعده بيان سوء حال الفجار متصلا ببيان سوء حال كتابهم وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع وكتابهم ما كتب من أعمالهم وعليون علم لديوان الخير الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو سمي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات فى الجنة وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تسكريماله وتعظيمه والكلام فى قوله تعالى (وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم) كما مر فى نظيره وقوله تعالى :

(يشهده المقربون) صفة أخرى لكتاب أى يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة (إن الأبرار لفى نعيم) شروع فى بيان محاسن أحوالهم لآثر بيان حال كتابهم على طريقة ما مر فى شأن الفجار (على الأرائك) أى على الأمرة فى الحجال ولا يكاد تطلق الأريكة على السرير عندهم إلا عند كونه فى الرحلة (ينظرون) أى إلى ما شاؤا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة وإلى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة وإلى أعدائهم يعذبون فى النار وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك .

(تعرف في وجوههم نضرة النعيم) أى بهجة التمتع وماءه ورونقه والخطاب لكل أحد من له حظ من الخطاب للإيذان بأن ما لهم من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختص برؤية راء دون راء (يسقون من رحيق) شراب خالص لا غش فيه (مختوم ختامه مسك) أى مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين ولعله تمثيل لكمال نفاسته وقيل ختامه مسك أى مقطعه رائحة مسك وقرىء خاتمه بفتح التاء وكسرها أى ما يختم به ويقطع (وفى ذلك) إشارة إلى الرحيق وهو الأنسب لما بعده أو إلى ما ذكر من أحوالهم وما فيه من معنى البعد إما للإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته أو لكونه فى الجنة أى فى ذلك خاصة دون غيره (فليتنافس المتنافسون) أى فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله وقيل فليعمل العاملون كقوله تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) وقيل فليستبق المستبقون وأصل التنافس التغالب فى الشيء النفيس وأصله من النفس لعزتها قال الواحدي نفست الشيء أنفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به وقال البغوى وأصله من الشيء النفيس الذى يحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أى يهضن به (ومزاجه من تسنيم) عطف على ختامه صفة أخرى لرحيق مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته أى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم على أن من بيانية أو تبعية أو من نفسه على أنها ابتدائية والتسنيم علم لعين بعينها سميت به إما لأنها أرفع شراب فى الجنة وإما لأنها تأتيهم من فوق . روى أنها تجرى فى الهواء متسمة فتصب فى أوانهم (عيناً) نصب على الاختصاص وجواز أن يكون حالاً من تسنيم مع كونه جامداً لاتصافه بقوله تعالى (يشرب بها المقربون) فإنهم يشربونها صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة فالباء مزيدة أو بمعنى من وقوله تعالى :

(إن الذين أجمعوا) الخ حكاية لبعض قبائح مشركى قريش جىء بها تمهيداً لذكر بعض أحوال الأبرار فى الجنة (كانوا) فى الدنيا (من الذين آمنوا يضحكون) أى يستهزون بفقراتهم كهمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم

من فقراء المؤمنين وتقديم الجار والمجرور إما للقصير إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا
 أى كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على مناج
 قوله تعالى (أفى الله شك) أو لمهاة الفواصل ((ولذا مروا)) أى فقراء المؤمنين
 ((بهم)) أى بالمشركين وهم فى أنديتهم وهو الأظهر وإن جاز العكس أيضاً
 ((يتغامزون)) أى يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم ((ولذا انقلبوا)) من
 مجالسهم ((إلى أهلهم انقلبوا فكهم)) ملتذين بذكرهم بالسوء والسخرية منهم
 وفيه إشارة إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمراى من الممارين بهم ويكتفون
 حينئذ بالتغامز وقرىء فا كهن قيل هما بمعنى وقيل فكهم أشرين وقيل فرحين
 وفا كهن متفكهم وقيل ناعمين وقيل مازحين ((ولذا رأوهم)) أينما كانوا ((قالوا
 إن هؤلاء لضالون)) أى نسبوا المسلمين من رأوهم ومن غيرهم إلى الضلال
 بطريق التأكيد ((وما أرسلوا عليهم)) على المسلمين ((حافظين)) حال من واو
 قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم يحفظون
 عليهم أحوالهم ويميمنون على أعمالهم ويشهدون برشدكم وضلالهم وهذا تكلم
 بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته
 تعالى وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين كأنهم قالوا إن هؤلاء
 لضالون وما أرسلوا علينا حافظين إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام
 وإنما قيل عليهم نقلاله بالمعنى كما فى قولك حلف ليفعلن لا بالمعارة كما فى قولك
 حلف لأفعلن ((فالיום الذين آمنوا)) أى الممهودون من الفقراء ((من الكفار))
 أى من الممهودين وهو الأظهر وإن أمكن التعميم من الجانبين ((يضحكون))
 حين يرونهم أذلاء مغلولين قد غشبههم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر
 ورهقهم ألوان العذاب بعد التمتع والترفة وتقديم الجار والمجرور للقصير تحقيقاً
 للمقابلة أى فالיום هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون
 فى الدنيا وقوله تعالى :

((على الأرائك ينظرون)) حال من فاعل يضحكون أى يضحكون منهم
 ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال وقيل يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال

لهم اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل بهم ذلك مراراً ويضحك المؤمنون منهم ويأباه قوله تعالى ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ فإنه صريح في أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا فلا بد من المجانسة والمشاكلة حتماً والتشويب والإثابة المجازاة وقرىء بإدغام اللام في التاء .
وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم .

سورة الانشقاق

مكية ، وآيها خمس وعشرون

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أى بالغمام كما فى قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وعن على رضى الله تعالى عنه تشقق من المجرة ﴿ وأذنت لربها ﴾ أى واستمعت أى انقادت وأذعنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلقت لإرادته بانشقاقها انقياد الأمور المطواع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلّة الحكم وهذه الجملة ونظيرتها الآتية بمنزلة قوله تعالى أتينا طائعين فى الإنباء عن كون ما نسب إلى السماء والأرض من الانشقاق والمد وغيرهما جارياً على مقتضى الحكمة كما أشير إليه فيما سلف ﴿ وحققت ﴾ أى جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد لكن لا بعد أن لم تكن كذلك بل فى نفسها وحد ذاتها من قولهم هو محقوق بكذا وحقيق به والمعنى انقادت لربها وهى حقيقة بذلك لكن لا على أن المراد خصوصية ذاتها من بين سائر المقدورات بل خصوصية المقدرّة القاهرة الربانية التى يتأتى لها كل مقدور ولا يتخلف عنها أمر من الأمور لحق الجملة أن تكون اعتراضاً مقدوراً لما قبلها لا

معطوفة عليه ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أى بسطت بإزالة جبالها وآكامها من مقارها وتسويتها بحيث صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا أو زيدت سعة ويسطة من مده بمعنى أمده أى زاده ﴿ وألقت مافها ﴾ أى رمت مافى جوفها من الموتى والكنوز كقوله تعالى ﴿ وأخرجت الأرض أنثاقها ﴾ ﴿ وتخلت ﴾ وخلت عما فيها غاية الخلو حتى لم يبق فيها شيء منه كأنها تسكفت فى ذلك أقصى جهدها ﴿ وأذنت لربها ﴾ فى الإلقاء والتخلى ﴿ وحقت ﴾ أى وهى حقيقة بذلك أى شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانية وتكرير كلمة إذا مع اتحاد الأفعال المنسوبة إلى السماء والأرض وقوعا فى الوقت الممتد الذى هو مدلولها قد مر سره فيما مر .

﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ أى جاهد ومجد إلى الموت وما بعده من الأحوال التى مثلت باللقاء مبالغ فى ذلك فإن الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه بحيث يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه ﴿ فلاقه ﴾ أى فلاق له عقيب ذلك لا محالة من غير صارف يلويك عنه وقوله تعالى ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ الخ قيل جواب إذا كما فى قوله تعالى ﴿ فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وقوله تعالى ﴿ يا أيها الانسان ﴾ الخ اعتراض وقيل هو مخدوف للتهويل والإيماء إلى قصور العبارة عن بيانه أو للتعويل على دلالة ما مر فى سورة التكوير والانفطار عليه وقيل هو ما دل عليه قوله تعالى يا أيها الانسان الخ تقديره لاقى الإنسان كدحه وقيل هو قوله تعالى فملاقه وما قبله اعتراض وقيل هو يا أيها الإنسان الخ باضمار القول ومعنى يسيرا سهلا لا مناقشة فيه ولا اعتراض وعن الصديقة^(١) رضى الله عنها هو أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه ﴿ وينقلب إلى أهله مسرورا ﴾ أى عشيرته المؤمنين أو فريق المؤمنين مبتهجا بحاله قائلا هاؤم

(١) يعنى عائشة رضى الله عنها .

اقرأ كتابيه وقيل إلى أهله في الجنة من الحور والغلمان ﴿ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ﴾ أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره قيل تغل بمناء إلى عنقه ويجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره ﴿ فسوف يدعوا ثبورا ﴾ أى يتمنى الثبور وهو الهلاك ويدعوه ياثبورا تعال فإنه أو أنك وأن له ذلك ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ أى يدخلها وقرى يصلى كقوله تعالى (وتصلية جحيم) وقرى ويصلى كما في قوله تعالى (ونصليه جهنم) .

﴿ إنه كان في أهله ﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا ﴿ مسرورا ﴾ مترفا بطرا مستبشرا كدريد الفجار^(١) الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة ولا يتفكرون في العواقب ولم يكن حزيننا متفكرا في حاله ومآله كسفة الصلحاء والمنقذين والجملة استئناف لبيان علة ما قبلها وقوله تعالى ﴿ ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ تعليل لسروره في الدنيا أى ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبا للمعاد وأن مخنفة من أن سادة مع ما في حيزها مسد مفعولى الظن أو أحدهما على الخلاف المعروف ﴿ بلى ﴾ لإيجاب لما بعد لن وقوله تعالى ﴿ إن ربه كان به بصيرا ﴾ تحقيق وتعليل له أى بلى ليجورن البتة إن ربه الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيرا بحيث لا يخفى منها خافية فلا بد من رجمه وحسابه وجزائه عليها حتما وقيل نزلت الآيات في أبى سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ هى الحرة التى تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب أو البياض الذى يليها سمي به لرقته ومنه الشفقة التى هى عبارة عن رقة القلب ﴿ والليل وما وسق ﴾ وما جمع وضم يقال وسقه فأتسق واستوسق أى جمعه فاجتمع وما عبارة عما يجتمع بالليل ويأوى إلى مكانه من الدواب وغيرها ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى اجتمع وتم بدرا ليلة أربع عشرة .

﴿ لتركبن طبقا ﴾ أى لتلافن حالا بعد جال كل واحدة منها

مطابقة لأختها في الشدة والفضاعة وقيل العطب جمع طبقة وهي المرتبة وهو الأوفق للركوب المنبئ عن الاعتلاء والمعنى لتركن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها وقرىء لتركن بالإنفراد على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لأفراده كالقراءة الأولى وقرىء بكسر الباء على خطاب النفس وليركن بالياء أى ليركن الإنسان ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبق أى طبقاً مجاوزاً لطبق أو حال من الضمير فى لتركن أى لتركن طبقاً مجاوزين أو مجاوزاً أو مجاورة على حسب القراءة والفاء فى قوله تعالى :

((فما لهم لا يؤمنون)) لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها الموجبة للإيمان والسجود أى إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر فأى شيء لهم حال كونهم غير مؤمنين أى أى شيء يمنهم من الإيمان مع تعاضد موجباته وقوله تعالى :

((وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون)) جملة شرطية محلها النصب على الحالية نسقاً على ما قبلها أى فأى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستسكانهم عند قراءة القرآن وقيل قرأ النبى عليه الصلاة والسلام ذات يوم وأبجد واقترب فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فزلات وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى على وجوب السجدة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى المفصل سجدة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سجد فيها وقال والله ما يسجدت إلا بعد أن رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها وعن أنس رضى الله عنه صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فسجدوا وعن الحسن هى غير واجبة^(١) ((بل الذين كفروا يكذبون))

بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأحوالها مع تحقق موجبات تصديقه
ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ بما يضمنون في
قلوبهم ويجمعون في صدورهم من الكفر والحسد والبغى والبغضاء أو بما يجمعون
في صنفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب علما فعليا
﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ لأن عليه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم
حتما ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثناء منقطع إن جعل الموصول
عبارة عن المؤمنين كافة ومتصل أن أريد به من آمن منهم بعد ذلك وقوله تعالى
﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ أى غير مقطوع أو ممنون به عليهم استثناء مقرر لما
أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب العظيم .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة انشقت أعاده الله تعالى أن
يعطيه كتابه وراء ظهره .

سورة البروج

مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والسما ذات البروج) هي البروج الإثنا عشر شهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات ويكون فيها الثوابت أو منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصل التركيب للظهور (واليوم الموعود) أى يوم القيامة (وشاهد ومشهود) أى ومن يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق وما يحضر فيه من العجائب وتنسكبرهما للابهام فى الوصف أى وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما أو للبالغه فى الكثرة وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة وقيل عيسى عليه السلام وأمه لقوله تعالى (وكنتم عليهم شهيذاً) الخ وقيل أمة محمد وسائر الأمم وقيل يوم التروية ويوم عرفة وقيل يوم عرفة ويوم الجمعة وقيل الحجر الأسود والحجيج وقيل الأيام والليالى وبنو آدم وعن الحسن ما من يوم إلا وينادى لى يوم جديد ولى على ما يعمل فى شهيد فاعتنقى فلو غابت شمسى لم تدركنى لى يوم القيامة وقيل الحفظة وبنو آدم وقيل الأنبياء ومحمد عليهم الصلاة والسلام (قتل أصحاب الأخدود) قيل هو جواب القسم على حذف اللام منه للطول والأصل لقتل كما فى قول من قال :

حلفت لها باقه حلفه فاجر لناوما فما إن من حديث ولا صال

وقيل تقديره لقد قتل وأيا ما كان فالجمله خبرية والأظهر أنها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أنهم أى كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لشيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من

التعذيب على الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يأتسوا بهم ويصبروا على ما كانوا
يلقون من قومهم ويعلموا أن هؤلاء عند الله عز وجل بمنزلة أولئك المعذبين
ملعونون مثلهم أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم وقرىء قتل بالتشديد
والأخذود الخد في الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق .
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه
غلاما ليعلمه السحر وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى في طريقه
ذات يوم دابة قد حبست الناس قيل كانت الدابة أسدا فأخذ حجرا فقال اللهم
إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فكان الغلام بعد ذلك يرى
الأكمة والأبرص ويشفي من الأدواء وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك
فسأله من رد عليك بصرك فقال ربى فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل
على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه فقد بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى
جبل لي طرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقر
فألقوا به ليغرقه فدعا فأنكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك لست
بقاتلى حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتي
وتقول باسم الله رب الغلام ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه
ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فليلك نزل بك ما كنت تحذر فأمر
بأخايد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فن لم يرجع منهم طرحة فيها
حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي يا أماه اصبرى فإنك على الحق
فاقتحمت وقيل قال لها قفى ولا تناقضى ما هى إلا غميضة فصبرت قيل أخرج
الغلام من قبره في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأصبغه على صدغه كما
وضعه حين قتل وعن علي رضى الله عنه أن بعض ملوك المجوس وقع على
أخته وهو سكران فلما صبحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج أن تخطب
بالناس فنقول إن الله قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك أن الله
قد حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له أبسط فيهم السوط ففعل فلم يقبلوا
فقال أبسط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا فأمر بالأخايد وإيقاد النار وطرح

من أبى فيهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله (قتل أصحاب الأخدود) وقيل وقع إلى نجران رجل من كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودى بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفا في الأخاديد وقيل سبعين ألفا وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا وعرضه اثني عشر ذراعا^(١) ﴿النار﴾ بدل اشتغال من الأخدود ﴿ذات الوقود﴾ وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجه من الخطب وأبدان الناس وقرىء الوقود بالضم وقوله تعالى ﴿لأذم عابها قعود﴾ ظرف لقتل أى لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود كما في قوله :

• وبات على النار القدى والمحلق •

﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدا لم يقهر فيما أمر به أو أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وقيل على بمعنى مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وتنطق به الروايات المشهورة وقد روى أن الجبابة لما ألقوا المؤمنون في النار وهم قعود حولها علقبت بهم النار فأحرقتهم ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدى وعلى ذلك حملا قوله تعالى ولهم عذاب الحريق ﴿وما نقموا منهم﴾ أى ما أنكروا منهم وما عابوا ﴿إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ استثناء مفسح عن برائتهم عما يعاب وينكر بالكلية على مناج قوله :

ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم تلام بنسائين الاحبة والوطن ووصفه تعالى بكونه عزيزا غالبا يخشى عقابه وحميذا منعا يرجى ثوابه وتأكيد

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ، والتعليق ١٣٧ ، وقصص الأنبياء للسكسائي

ذلك بقوله تعالى ﴿الذى له ملك السموات والأرض﴾ للإشعار بمناط إيمانهم وقوله تعالى ﴿واقفه على كل شيء شهيد﴾ وعد لهم ووعد شديد لمعذبتهم فإن عليه تعالى بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين يستدعى توفير جزاء كل منهما حتما ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أى محنهم فى دينهم ليرجعوا عنه والمراد بهم إما أصحاب الأخدود خاصة وبالمفتونين المطر حون فى الأخدود وإما الذين بلوهم فى ذلك بالأذى والتعذيب على الإصلاق وهم داخلون فى جملتهم دخولا أوليا .

﴿ثم لم يتوبوا﴾ أى عن كفرهم وفتنتهم فإن ما ذكر من الفتنة فى الدين لا يتصور من غير الكافر قطعاً وقوله تعالى ﴿فلهم عذاب جهنم﴾ جملة وقعت خبراً لأن أو الخبر لهم وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الأحسن والقواء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ولا ضير فى نسخه بأن وإن خالف الأخفش والمعنى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ وهى نار أخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿لهم﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ إن أريد بالجنات الأشجار بخريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وقد مر بيانه مراراً ﴿ذلك﴾ إشارة إما إلى الجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذى يتنافس فيه المتنافسون فإن اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فاذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتماً وإما إلى ما يفيد قوله تعالى لهم جنات الخ من حيازتهم لها فإن حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعاً وأياً ما كان فافيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ومحل الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى ذلك المذكور العظيم الشأن ﴿الفوز الكبير﴾

الذى يصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير فعلى الأول هو مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى مصدر على حاله .

﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم لإبذانا بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الأخذ بعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه بالجأرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظلمة إن أخذه أليم شديد) ﴿إنه هو يبدى ويعيد﴾ أى هو يبدى الخلق وهو يعيده من غير دخل لأحد فى شيء منهما فبیه مزيد تقرير لشدة بطشه أو هو يبدى البطش بالكفرة فى الدنيا ويعيده فى الآخرة ﴿وهو الغفور﴾ لمن تاب وآمن ﴿الودود﴾ المحب لمن أطاع .

﴿ ذو العرش ﴾ خالقه وقيل المراد بالعرش الملك أى ذو السلطنة القاهرة وقرىء ذى العرش على أنه صفة ربك ﴿المجيد﴾ العظيم فى ذاته وصفاته فإنه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة وقرىء بالجر على أنه صفة لربك أو للعرش ومجده علوه وعظمته ﴿فعال لما يريد﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد من أفعاله تعالى وأفعال غيره وهو خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿هل أناك حديث الجنود﴾ استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وكونه فعالاً لما يريد متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود ﴿فرعون وثمود﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون هو وقومه والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال والمعنى قد أتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بشتون الله تعالى وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم وقوله تعالى ﴿بل الذين كفروا فى تكذيب﴾ لإضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لسكونهم أشد منهم فى الكفر والظلمة كأنه قيل ليسوا مثلهم فى ذلك

بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الكريم أو قيل ليست جنائهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ مما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك لكن لا أنهم يكذبون بوقوع الحادثة بل يكون ما نطق به قرآنا من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط وقوله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ رد لكفرهم وإبطال لتكذيبهم وتحقيق للحق أى ليس الأمر كما قالوا بل هو كتاب شريف على الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى وقرىء قرآن مجيد بالإضافة أى قرآن رب مجيد ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ أى من التحريف ووصول الشياطين إليه وقرىء محفوظ بالرفع على أنه صفة قرآن وقرىء فى لوح وهو الهواء أى ما فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل جمعة وعرفة تكون فى الدنيا عشر حسنات .

سورة الطارق

مكيه ، وآيها سبع عشرة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والسما والطارق) الطارق في الأصل اسم فاعل من طرق طرقا وطرقا إذا جاء ليلا قال المساوردي وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وإنما سمي قاصد الليل طارقا لاحتياجه إلى طرق الباب غالبا ثم اتسع في كل ما ظهر بالليل كأنما كان ثم أشيع في التوسع حتى أطلق على الصور الخيالية البادية بالليل قال: طرق الخيال ولا كيلة مدلج سدا بأرجلنا ولم يتبرج والمراد ههنا الكوكب البادي بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود وقيل الطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح وقوله تعالى ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ تنويه بشأنه لئلا تفخيمه بالإقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فما الأولى مبتدأ وأدراك خبر والثانية خبر والطارق مبتدأ حسبا بين في نظائره أى وأى شيء أعلمك ما الطارق وقوله تعالى ﴿النجم الثاقب﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جوابا عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل النجم المضيء في الغاية كأنه يتقب الظلام أو الأفلاك بضوئه وينفذ فيها والمراد به إما الجنس فإن لكل كوكب ضوءا ثاقبا لا محالة وإما كوكب معهود قيل هو زحل وقيل هو الثريا وقيل هو الجدى وقيل النجم الثاقب نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فساكن معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة وهو زحل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد وفي إيراد عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لا تبلغه أفكار الخلق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله بما لا يخفى .

وقوله تعالى ﴿إن كل نفس لىا عليها حافظ﴾ جواب للقسم وما بينهما اعتراض جىء به لىا ذكر من تأكيد غفامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها وإن نافية ولما بمعنى إلا أى ما كل نفس إلا عليها حافظ مهيم رقيب وهو الله عز وجل كما فى قوله تعالى (وكان الله على كل شىء رقيباً) وقيل هو من يحفظ عملها ويحصى عليها ما تسكب من خير وشر كما فى قوله تعالى (وإن عليكم لحافظين كراماً) الآية وقوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) وقوله تعالى (لهم معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه) وقرىء لما مخففة على أن إن مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة وما مزودة أى أن الشأن كل نفس لىا عليها حافظ والفاء فى قوله تعالى ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ للتنبيه على أن ما بين من أن كل نفس لىا عليها حافظ يحصى عليها كل ما يصدر عنها من قول وفعل مستوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبدأ فطرته حق التفكير حتى يتضح له أن من قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو قادر على إعادته بل أقدر على قياس العقل فىعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويجديه ولا يمل على حافظه ما يرديه وقوله تعالى ﴿خلق من ماء دافق﴾ استئناف وقع جواباً عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق فقل خلق من ماء دى دفق وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة والمراد به الممتزج من المائىن فى الرحم كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أى صلب الرجل وترائب المرأة وهى عظام صدرها قالوا إن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها ببعض عند البيضتين فالدماغ أعظم الأعضاء معونة فى توليدها ولذلك تشببه ويورث الإفراط فى الجماع الضعف فيه وله خليفه هو ^(١) النخاع وهو فى الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الزرائب وهما أقرب إلى أوعية المنى فلذلك خصا بالذكر وقرىء الصلب بفتحتين والصلب بضمين وفيه لغة رابعة هى صالب .

(لأنه) الضمير للخالق تعالى فإن قوله خلق يدل عليه أى أن ذلك الذى خلقه لم يتدأ بما ذكر (على رجمه) أى على إعادته بعد موته (لقادر) لبين القدرة (يوم تبلى السرائر) أى يتعرف ويتصفح ما أسر فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما أخفى من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبت وهو ظرف لرجعه (فما له) أى للإنسان (من قوة) فى نفسه يمتنع بها (ولا فاصر) ينتصر به (والسماء ذات الرجوع) أى المطر سمي رجماً لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع ولذلك سموه أوباً أو لأن الله تعالى يرجعه حيناً فحيناً .

(والأرض ذات الصدع) هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات أو مصدر من المبني للفعول وهو تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل فإن وصف السماء والأرض عند الأقسام بهما على حقيقة القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من أنوصفين للإيماء إلى أنهما فى أنفسهما من شواهد وهو السر فى التعبير بالصدع عنه وعن المطر بالرجوع وذلك فى تشقق الأرض بالنبات المحاكى للنشور حسبما ذكر فى مواقع من التذليل لا فى تشققها بالعيون (لأنه) أى القرآن الذى من جملته ما تلى من الآيات الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعادته (لقول فصل) أى فاحصل بين الحق والباطل مبالغ فى ذلك كأنه نفس الفصل (وما هو بالهزل) ليس فى شيء منه شائبة هزل بل كله جد محض لا هوادة فيه فمن حقه أن يهتدى به الغواة وتخضع له رقاب العتاة (لأنهم) أى أهل مكة (يكيدون) فى إبطال أمره وإطفاء نوره (كيدا) حسبما نفي به قدرتهم (وأكيد كيدا) أى أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث أستدرجهم من حيث لا يعلمون (فهمل الكافرين) أى لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك أو لا تستعجل به والقضاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن الإخبار بتولية تعالى لكيدهم بالذات مما يوجب إهمالهم وترك التصدى لمكائدتهم قطعاً وقوله تعالى (أمهلهم) يدل من مهل وقوله تعالى (رويدا) إما مصدر مؤيد لمعنى العامل

أو نعت لمصدره المحذوف أى أمهلهم إمهالا رويدا أى قريبا كما قاله ابن عباس.
 رضى الله عنهما أو قليلا كما قاله قتادة قال أبو عبيدة هو فى الأصل تصغير
 رود بالضم وأنشده كأنها ثمل تمشى على روده أى على مهل وقيل تصغير أرواد
 مصدر أرود بالترخيم وله فى الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو
 رويد زيدا وكونه حالاً نحو سار القوم رويدا أى متمهلين وفى إيراد البدل
 بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييده برويدا على أحد الوجهين المذكورين منه
 تسليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه مالا يخفى . وعنه صلى الله
 عليه وسلم من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر
 حسنات ، والله أعلم .

...

سورة الأعلى

(مكية وآياتها تسع عشرة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسمه عز وجل عن الإلحاد فيه بالتأويلات
 الزائفة وعن إطلاقة على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لا على
 وجه الإعظام والإجلال والأعلى إما صفة للرب وهو الأظهر أوللاسم وقرىء
 سبعان ربى الأعلى وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة
 والسلام أجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال أجعلوها فى
 سجودكم وكانوا يقولون فى الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم لك
 سجدت (الذى خلق فسوى) صفة أخرى للرب على الوجه الأول ومنه صوب
 على المدح على الثانى لئلا يلزم الفضل بين الموصوف والصفة بصفة غيره أى

خلق كل شيء فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأني كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى ﴿والذي قدر﴾ إما صفة أخرى للرب كالموصول الأول أو معطوف عليه وكذا حال ما بعده قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿فهدى﴾ أى فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له طبعاً أو اختياراً ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات ولو تتبععت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول يروى أن الأفعى إذا بلغت ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينها بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها في بركة بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطويها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينها بورقها وترجع باصرة ياذن الله عز وجل ويروى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فيه حيث قيض الله له طائراً قدر غذاؤه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فيه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه هذا وأما فتون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لاسيما من حيث الإنسانية فمما لا يحيط به فلك العبارة والتحرير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أى أنبت ما يرعاه الدواب غنصاً طرياً يرف ﴿فجعله﴾ بعد ذلك ﴿غناء أحوى﴾ أى درينا أسود وقيل أحوى حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرعى فجعله غناء بعد ذلك وقوله تعالى :

﴿سنقرنك فلا تنسى﴾ بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يبان هدايته تعالى العامة لسكافة مخلوقاته وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحي وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين وتوفيقه عليه الصلاة والسلام لهداية الناس أجمعين والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد اقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحى إليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحي فى

ضمن الموعد بالإقراء أى سنقرئك ما نوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والإتقان مع أنك أمدى لا تدري ما الكتاب وما القراءة ليـكون ذلك آية أخرى لك مع ما فى تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الإعجاز ومن حيث الإخبار بالمفاتيح وقيل فلا تنسى نهى والألف لمراعاة الفاصلة كما فى قوله تعالى (فأضلونا السبيل) وقوله تعالى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرع من أعم المفاعيل أى لا تنسى عما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً بأن نسخ تلاوته والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والإيدان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتعبة لسائر الصفات وقيل المراد به النسيان فى الجملة على القلة والندرة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آية فى قرأته فى الصلاة حسب^(١) أبى أنها نسخت فسأله فقال عليه الصلاة والسلام نسيها وقيل نسي النسيان رأساً فإن القلة قد تستعمل فى النفي فالمراد بالنسيان حيث نسي النسيان بالسكينة إذ هو المنفى رأساً لا ما قد ينسى ثم يذكر ﴿ لأنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ تعليل لما قبله أى يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها ما أوحى إليك فيفسى ما يشاء إن شاء ويبقى محفوظاً ما يشاء إبقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم .

﴿ ويسرك للسرى ﴾ عطف على نقرئك كما ينهى عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وأرد لما ذكر من التعليل وتعليل التيسير به عليه الصلاة والسلام مع أن الشائع تعليقه بالأمور المستخرة للفاعل كما فى قوله تعالى (ويسرلى أمرى) للإيدان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسر والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكه راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها كما فى قوله عليه الصلاة والسلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له أى نوفقك

توفيقاً مستمرا للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علما وتعلما
واهتماما وهداية فيندرج فيه تيسير طريق تلقى الوحي والإحاطة بما فيه من
أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه عليه الصلاة
والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى ﴿ فذكر إن نفعت
الذكرى ﴾ أى فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى إليك واهدهم إلى
ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله لا بعد ما استتب لك الأمر
كما قيل وتقييد التذكير ينفع الذكرى لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز في الجد كل حد معهود
حرصا على إيمانهم وما كان يزيد ذلك بعضهم إلا كفرا وعنادا فأمر عليه
الصلاة والسلام بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة بأن يكون من يذكره
كلأ أو بعضا من يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يورثه
التذكير إلا عتوا ونفورا من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى (فذكر
بالقرآن من يخاف وعيد) وقوله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) وقيل هو
ذم للمذكرين وأخبار عن حالهم واستبعاد لتأثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم
بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظم المسكين إن سمعوا منك قصدا إلى
أنه بما لا يكون والأول أنسب لقوله تعالى ﴿ سيدكر من يخشى ﴾ أى سيدتذكر
بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى في
الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر في أمر ما تذكر به فيقف على حقيقته
فيؤمن به وقيل إن بمعنى إذ كما في قوله تعالى (وأتم الأعلان إن كنتم مؤمنين)
أى إذ كنتم وقيل هى بمعنى ما أى فذكر ما نفعت الذكرى فإنها لا تخلو عن
نفع بكل حال وقيل هناك محذوف والتقدير إن نفعت الذكرى وإن لم
تنفع كقوله تعالى (سرايل تقيكم الحر) قاله الفراء والنحاس والجرجاني
والزهرأوى .

﴿ ويتجنبها ﴾ أى الذكرى ﴿ الأشقى ﴾ من الكفرة لتوغله في عداوة

النبي صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن أبي ربيعة ﴿الذى يصلى النار الكبرى﴾ أى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام : ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ^(١) ﴿ثم لا يموت فيها﴾ حتى يستريح ﴿ولا يحيى﴾ حياة تنفعه وثم للتراخي في مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفضح من الصلّى .

﴿قد أفلح﴾ أى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿من تزكى﴾ أى تطهر من الكفر والمعاصى بتذكره واتعاظه بالذكرى أو تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو الفناء وقيل تزكى تفعل من الزكاة وكلمة قد لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الآخرة يتوقع السامع الأخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره ﴿وذكر اسم ربه﴾ بقلبه ولسانه ﴿فصلّى﴾ أقام الصلوات كقوله تعالى (أقم الصلاة لذكرى) أو كبر تكبيرة الافتتاح فصلّى وقيل تزكى أى تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه أى كبره يوم العيد فصلّى أى صلاته .

﴿بل تؤنرون الحياة الدنيا﴾ لضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل لئلا يبين ما يؤدى إلى الفلاح لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الغانية فتسمون لتحصيلها والخطاب إما للكفرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلمية كما فى قوله تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) الآية أو للكل فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الإنسان غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة فى السعى وترتيب المبادئ والالتفات

(١) أخرجه السيوطى فى البدور من طرق مختلفة

على الأول لتشديد والتوبيخ على الثاني كذلك في حق الكفرة وتشديد العتاب في حق المسلمين وقرىء يؤثرون بالياء وقوله تعالى ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تذكر نعيم الدنيا بالمنقصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره .

﴿إن هذا﴾ إشارة إلى ما ذكر من قوله تعالى ﴿قد أفلح من تزكى﴾ وقيل إلى ما في السورة جميعاً ﴿لنى الصحف الأولى﴾ أى ثابت فيها معناه (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى وفي إيهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى . روى أن جميع ما أنزل الله عز وجل من كتاب مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عليه السلام عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف عليهم السلام والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام .

سورة الغاشية

مكية وآياتها ست وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هل أتاك حديث الغاشية) قيل هل بمعنى قد كما في قوله تعالى (هل أتى على الإنسان) الآية قال قطرب أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية وليس بذلك بل هو استفهام أريد به التعجب مما في خبره والتشويق إلى استماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التى حقها أن يتناولها الرواة ويتنافس فى تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد والغاشية الداهية الشديدة التى تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهى القيامة من قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب) إلخ وقيل هى النار من قوله تعالى (وتغشى وجوههم النار) وقوله تعالى (ومن فوقهم غواش) والأول هو الحق فإن ما سىروى من حديثها ليس مختصا بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضا وقوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة) إلى قوله تعالى مبثوثة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويق كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام ما أثنى حديثها فما هو فقيل وجوه يومئذ أى يوم إذ غشيت ذليلة قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن أثناه عليه الصلاة والسلام حديثها فأخبره عليه الصلاة والسلام عنها فقال وجوه إلخ فوجوه مبتدأ ولا بأس بتذكيرها لأنها فى موقع التنويع وخاشعة خبره وقوله تعالى (عاملة ناصبة) خبران آخران لوجوه إذ المراد بها أصحابها أى تعمل أعمالا شاقة تعب فيها وهى جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار خوض الإبل فى الوحل والصعود والهبوط فى تلال النار ووهادها وقيل عملت فى الدنيا أعمال السوء والتذت بها فهى يومئذ فى نصب منها وقيل عملت ونصبت فى أعمال لا تجدى عليها فى الآخرة وقوله تعالى (تصلى) أى تدخل (نارا حامية) أى متناهية فى الحر خبر آخر لوجوه وقيل هو الخبر وما قبله صفات لوجوه

وقد مر غير مرة أن الصفة حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعلها صفة له ولا ريب في أن صلى النار وما قبله من الخشوع والعمل والنصب أمور متساوية في الانتساب إلى الوجوه معرفة وجهالة الجمل بعضها عنوانا للموضوع قيدا مفروغا عنه^(١) غير مقصود الإفادة وبعضها منابها للإفادة تحكم بحت ويجوز أن يكون هذا وما بعده من الجملتين استئنافا مينا لتفاصيل أحوالها .

﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى متناهية في الحركا في قوله تعالى (وبين حميم آن) ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ بيان لطعامهم إثر بيان شراهم والضريع يابس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطبا وإذا ييس تحامته وهو سم قاتل وقيل هى شجرة فارسية تشبه الضريع وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويدلون ويتضرعون إلى الله تعالى طلبا للخلاص منه فسمى بذلك وهذا طعام لبعض أهل النار والزقوم والغسلين الآخرين ﴿ لا يسمن ولا ينفى من جوع ﴾ أى ليس من شأنه الاسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله من غير أن يكون له دفع لضرورتهم لكن لا على أن لهم استعدادا للشبع والسمن إلا أنه لا يفيدهم شيئا منهما بل على أنه لا استعداد من جهنم ولا إفادة من جهة طعامهم وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما فى هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن مشوقة له إلى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بها عند الأكل والشرب ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما فى المعدة ويستفيد منهما قوة وسمنا عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرابهم عند اضطراب النار فى أحشائهم إلى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللب وأما أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما أو التذاذبه عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوه فهيات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرابهم

(١) فى ١١ : مفروغا منه .

عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاد بشره أو استفادة قوة به في الجملة وهو المعنى بما روى أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطروهم إلى أكل الضريع فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطروهم إلى هرب الخيم فيشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم وتنكسر الجوع للتحقير أى لا يغنى من جوع ما وتأخير نفى الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلى التصريح بنفى كلا الأمرين إذ لو قدم لما احتجج إلى ذكر نفى الأسمان ضرورة استلزام نفى الإغناء عن الجوع لإياه بخلاف العكس ولذلك كرر لالتأكيد النفي وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ شروع في رواية حديث أهل الجنة وتقديم حكاية حال أهل النار لأنه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكى حسنا وبهجة والكلام في إعراب الجملة كالذى مر في نظيرتها وإنما لم تعطف عليها لئلا يافك بالبيان مضمونيهما ومعنى ناعمة ذات بهجة وحسن كقوله تعالى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) أو متنعمة (لسميها راضية) أى لعملها الذى عملته في الدنيا حيث شاهدت ثمرته ﴿ في جنة عالية ﴾ مرتفعة المحل أو عليا المقدار .

﴿ لا تسمع ﴾ أى أنت أو الوجوه ﴿ فيها لاغية ﴾ لغوا أو كلمة ذات لغو أو نفسا تلغو فإن كلام أهل الجنة كله أذكاء وحكم وقرىء لا تسمع على البناء للمفعول بالياء والتاء ورفع لاغية ﴿ فيها عين جارية ﴾ أى عيون كثيرة تجري مياهها كقوله تعالى علمت نفس ﴿ فيها سرور مرفوعة ﴾ رقيقة السمك أو المقدار ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو إناء لا عروة له ﴿ موضوعة ﴾ أى بين أيديهم ﴿ ونمارق ﴾ وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم ﴿ مصفوفة ﴾ بعضها إلى بعض ﴿ وزرابى ﴾ أى بسط فأخذه جمع زريبة ﴿ مبثوثة ﴾ أى مبسوطة ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره والهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء

للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة كيف منصوبة بما بعدها كما في قوله تعالى
 (كيف تكفرون بالله) معلقة لفعل النظر والجملة في حيز الجر على أنها بدل اشتغال
 من الإبل أى أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من
 قدرة الله عز وجل فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم يستعملونها كل
 حين إلى أنها كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلقة سائر أنواع
 الحيوانات فى عظم جنتها وشدة قوتها وعجيب هيأتها اللانفة بتأنى ما يصدر عنها
 من الأفاعيل الشاقة كالنوء باوقار الثقلية وجرا الأثقال الفادحة إلى الأقطار
 التازحة وفى صبرها على الجوع والعطش حتى أن أظماءها لتبلغ العشر فصاعدا
 واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد
 يرعاه سائر البهائم وفى انقيادها مع ذلك للإنسان فى الحركة والسكون والبروك
 والنهوض حيث يستعملها فى ذلك كيفما يشاء ويقنادها بقطارها كل صغير وكبير .
 ﴿ وإلى السماء ﴾ التى يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿ كيف رفعت ﴾
 رفعا سحيق المدى بلا عماد ولا مساك بحيث لا يتأله الفهم والإدراك ﴿ وإلى
 الجبال ﴾ التى ينزلون فى أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿ كيف نصبت ﴾
 نصبا رصينا فهى راسخة لا تميل ولا تميد ﴿ وإلى الأرض ﴾ التى يضربون فيها
 ويتقلبون عليها ﴿ كيف سطحت ﴾ سطحا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد
 حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق وقرىء سطحت مشددا وقرئت
 الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب والمعنى
 أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقيقة
 البعث والنشور ايرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك
 ويستعدوا للقائه بالإيمان والطاعة والفاء فى قوله تعالى ﴿ فذكر ﴾ لترتيب
 الأمر بالتذكير على ما ينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر أى فاقصر على
 التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى
 ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ تعليل للأمر وقوله تعالى ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ تقرير
 له وتحقيق لمعنى الإنذار أى لست بمسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى

(وما أنت عليهم بجبار) وقرىء بالسين على الأصل وبالإشمام وقرىء بفتح الطاء
 قيل هي لغة بنى تميم فإن سيطر عندهم متعد ومنه قولهم تسيطر وقوله تعالى ﴿إلا
 من تولى وكفر﴾ استثناء منقطع أى لكن من تولى منهم فإن الله تعالى الولاية
 والقهر ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ الذى هو عذاب جهنم وقيل استثناء
 متصل من قوله تعالى فذكر أى فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى
 قاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض ويعضد الأول أنه قرىء ألا على
 التنبيه وقوله تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ تعليل لتهذيبه تعالى بالعذاب الأكبر أى
 إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً
 وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما أن أفراداً فيما سبق باعتبار
 لفظها وقرىء إياهم على أنه فيمال مصدر فيمل من الإياب أو فعال من أوب
 كفسار من فسر ثم قيل إيوابا كديوان فى دوان ثم قلبت الواو ياء فأدغمت
 الياء الأولى فى الثانية ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فى المحشر لا على غيرنا وثم
 للتراخى فى الرتبة لا فى الزمان فإن الترتب الزمانى بين إياهم وحسابهم لا بين
 كون إياهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى فإنهما أمران مستمران وفى تصدير
 الجملتين بأن وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم المفيدة لبعده
 منزلة الحساب فى الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب
 ما لا يخفى . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الغاشية يحاسبه الله
 تعالى حساباً يسيراً .

سورة الفجر

مكية ، وآياتها تسع وعشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والفجر) أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال والصبح إذا تنفس وقيل المراد به صلاته (وليل عشر) هن عشر ذى الحجة ولذلك فسر الفجر بفجر عرفة أو النحر أو العشر الاواخر من رمضان وتنكيرها للتفخيم وقرئ و ليل عشر بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام (والشفع والوتر) أى الأشياء كلها شفعا ووترها أو شفع هذه الليالي ووترها وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام فسرهما بيوم النحر ويوم عرفة ولقد كثرت فيهما الأقوال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقرئ بكسر الواو وهما لغتان كالخبر والخبر وقيل الوتر بالفتح فى العدد وبالكسر فى الذحل وقرئ والوتر وقرئ والوتر بفتح الواو وكسر التاء .

(والليل إذا يسر) أى يمضى كقوله تعالى (والليل إذا دبر) (والليل إذا عسعس) والتعقيد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة أو أو يسرى فيه من قولهم صلى المقام أى صلى فيه وحذف الياء اكتفاء بالكسر وقرئ بإثباتها على الإطلاق وبحذفها فى الوقف خاصة وقرئ بسر بالتنوين كما قرئ والفجر والوتر وهو التنوين الذى يقع بدلا من حرف الإطلاق (هل فى ذلك قسم) ملح تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها أمورا جليلة حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به خلق بأن يؤكد به الأخبار على طريقة قوله تعالى (ولأنه لقسم لو تعلمون عظيم) وذلك إشارة إما إلى الأمور المقسم بها والتذكير بتأويل ما ذكر كما مر تحقيقه أو إلى الإقسام بها وأياما كان فما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو رتبة المشار

إليه وبعد منزلته في الشرف والفضل أى هل فيما ذكر من الأشياء قسم أى مقسم به ﴿لذى حجر﴾ يراه حقيقة بأن يقسم به لإجلالا وتعظيما والمراد تحقيق أن السكل كذلك وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق وإيذاناً بظهور الأمر أو هل فى أقسامى بتلك الأشياء أقسام لذى حجر مقبول عنده يعتمد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه والحجر العقل لأنه يجبر صاحبه أى يمنعه من التفات فيما لا ينبغى كما سمي عقلا ونهية لأنه يعقل وينهى وحصة أيضاً من الإحصاء وهو الضبط قال الفراء يقال إنه ل ذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذب كما ينبى عنه قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ الخ فإنه استشهاد بعلمه عليه الصلاة والسلام بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرأ بهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام فى الطغيان والفساد على على طريقة قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) الآية وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) كأنه قيل ألم تعلم علما يقينيا كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم فيعذب هؤلاء أيضاً لا شترا بهم فيما يوجهه من الكفر والمعاصى والمراد بعاد أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم هاشماً وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى ولأواخرهم عاد الآخرة قال عماد الدين بن كثير كل ما ورد فى القرآن خبر عاد الأولى إلا ما فى سورة الأحقاف وقوله تعالى :

﴿إرم﴾ عطف بيان لعاد للإيذان بأنهم عاد الأولى بتقدير مضاف أى سبط إرم أو أهل إرم على ما قيل من أن إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التى كانوا فيها ويؤيده القراءة بالإضافة وأيا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث وقرىء إرم بإسكان الراء تخفيفاً كما قرء بورقكم ﴿ذات العماد﴾ صفة لإرم أى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ومنه قولهم رجل عمد وعمدان إذا كان طويلاً أو ذات الخيام والأعمدة حيث كانوا بدوين أهل عمد أو ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين على أن إرم اسم بلدتهم وقرىء إرم ذات العماد بإضافة إرم إلى ذات العماد .

والإرم العلم أى بعاد أهل أعلام ذات العماد على أنها اسم بلدتهم وقرىء إرم

ذات العباد أى جعلها الله تعالى رميا بدل من فعل ربك وقيل هى جملة دعائية اعترضت بين الموصوف والصفة وروى أنه كان لعاد ابنان شديد وشداد فلما قهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبنى مثلها فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلاثمائة سنة وهى مدينة عظيمة قهورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثمة وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هى إرم ذات العباد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحرر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب إبل له ثم التفت إلى ابن قلابة فقال هذا ذلك الرجل (١) (الذى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة أخرى لإرم أى لم يخلق مثلهم فى عظم الأجرام والقوة حيث كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحى فيهلكهم أو لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا وقرىء لم يخلق على إسناده إلى الله تعالى .

((وثمود)) عطف على عاد وهى قبيلة مشهورة سميت باسم جدّهم ثمود أخى جديس وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الأصنام كهاد ((الذين جابوا الصخر بالواد)) أى قطعوا صخر الجبال فانخذلوا فيها بيوتا تحتوها من الصخر كقوله تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتا) قيل هم أول من نحت الجبال والصخور والرغام وقد بنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ((وفرعون ذى الأوتاد)) وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التى يضرّبونها فى منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد ((الذين طغوا فى البلاد)) لما مجرور على أنه صفة المذكورين

(١) انظر الخبر فى ترجمة ابن قلابة من أسد الغابة ٨٧/٧

أو منصوب أمر فوع على الذم أى طغى كل طائفة منهم فى بلادهم وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴾ أى بالكفر وسائر المعاصى ﴿ فَهَبْ عَلَيْهِمْ رَبِّكَ ﴾ أى أنزل إنزالاً شديداً على كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلته من الطغيان والفساد ﴿ سَوِّطَ عَذَابَ ﴾ أى عذاب شديد لا يدرك غايته وهو عبارة عما حل بكل منهم من فنون العذاب التى شرحت فى سائر السور الكريمة وتسميته سوطاً للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعد لهم فى الآخرة بمنزلة السوط عند السيف والتعبير عن إنزاله بالهصب للإيذان بكثرة واستمراره وتتابعه فإنه عبارة عن إراقة شئ مائع أو جار مجراه فى السيلان كالرمل والحبوب وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته إلى السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه فى نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشئ المصبوب وقيل السوط خلط الشئ بعضه ببعض فالمعنى ما خلط لهم من أنواع العذاب وقد فسر بالتصبيب وبالشدّة أيضاً لأن السوط يطلق على كل منهما لغة فلا حاجة حينئذ فى تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرار تعلّقه بالمعذب كما فى المعنى الأول فإن كل واحد من هذه المعانى مما يقبل الاستمرار فى نفسه وقوله تعالى :

﴿ إِنْ رَبُّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ﴾ لتعليل المراقبة وإيذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما يذنبى عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وقيل هو جواب القسم وما بينهما اعتراض والمرصاد المكان الذى يترقب فيه الرصد مفعال من رصده كالمليقات من وقته وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفوتونه وقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ﴾ الخ متصل بما قبله كأنه قيل لأنه تعالى بهدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً وشرّاً فأما الإنسان فلا يهمه ذلك وإنما مطمح أنظاره ومرصد أفكاره الدنيا ولذائدها ﴿ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار والفناء فى قوله تعالى ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ تفسيرية فإن الإكرام والتمعيم من الابتلاء ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنى ﴾ أى فضلى بما أعطانى من المال والجاه حسبما كنت استحققه ولا يخطر بباله أنه فضل تفضل

به عليه ليلوه أيشكر أم يكفر وهو خبر للمبتدئ الذي هو الإنسان والفاء لما في
أما من معنى الشرط والظرف المتوسط. على نية التأخير كأنه قيل فإما الإنسان
فيقول ربى أكر من وقت ابتلائه بالإعلاء وإنما تقديمه للايدان من أول الأمر
بأن الأكرام والتعظيم بطريق الابتلاء ليتضح اختلال قوله المحكى ﴿ وأما إذا
ما ابتلاه ﴾ أى وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ﴿ فقد رزقه ﴾ حسبما تقتضيه
مشيئته المبنية على الحكم البالغة ﴿ فيقول ربى أهان ﴾ ولا يخطر بباله أن ذلك
ليلوه أيصبر أم يجزع مع أنه ليس من الإهانة فى شيء بل التقدير قد يودى إلى
كرامة الدارين والتوسعة قد تنفضى إلى خسرتها وقرىء فقدر بالتشديد وقرىء
أكرمى وأهانى بإثبات الباء وأكر من وأهان بسكون النون فى الوقف ﴿ كلا ﴾
ردع للإنسان عن مقارنته المحكية وتكذيب له فيها فى كذا الحالين قال ابن عباس
رضى الله عنهما المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته على ولم أبتله بالفقر لهوأته على
بل ذلك لمحض القضاء والقدر وحمل الردع والتكذيب إلى قوله الآخر بعيد
وقوله تعالى ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ انتقال من بيان مسوء أقواله إلى بيان
سوء أفعاله والانتفات إلى الخطاب للايدان باقتضاء ملاحظة إجنياته السابقة
لمشافهته بالتوبيخ تشديداً للتقريع وتأكيداً للتشنيع والجمع باعتبار معنى الإنسان
لإذ المراد هو الجنس أى بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر وأدل على نهالككم
على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من
أكرام اليتيم بالمبرة به وقرىء لا يكرمون .

﴿ ولا تحاضون ﴾ بحذف إحدى التامين من تتحاضون أى لا يحض بعضهم
بعضاً ﴿ على طعام المسكين ﴾ أى على إطعامه وقرىء تحاضون من المحاضنة
وقرىء يحضون بالياء والتاء ﴿ وتاكلون التراث ﴾ أى الميراث وأصله وراث
﴿ أكلنا ﴾ أى ذالم أى نجتمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون
النساء والعصيان ويأكلون أنصباءهم أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام
عالمين بذلك ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾ كثيراً مع حرص وشره وقرىء
ويحبون بالياء ﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى :

(إذا دكت الأرض دكا دكا) الخ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع أى إذا دكت الأرض دكا متتابعاً حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبهاً وقيل الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية فالمعنى إذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء وأياً ما كان فهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية (وجاء ربك) أى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من أحكام هيئته وسياسته وقيل جاء أمره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتحويل .

(والملك صفا صفا) أى مصطفىين أو ذوى صفوف فإنه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس .

(وجيء يومئذ بجهنم) كقوله تعالى (وبرزت الجحيم) قال ابن مسعود ومقاتل تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام معه سبعون ألف ملك يحرقونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيط وزفير وقد رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً . (يومئذ) بدل من إذا دكت والعامل فيهما قوله تعالى : (يتذكر الإنسان) أى يتذكر ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه على أن الأعمال تنجسم في النشأة الآخرة فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة والقيحة أو يتعظ وقوله تعالى (وأنى له الذكرى) اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس يتذكر حقيقة لمرائه عن الجدوى بعدم وقوعه في أوانه وأنى خبر مقدم والذكرى مبتدأ وله متعلق بما يتعلق به الخبر أى ومن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها وقيل هناك مضاف محذوف أى وأنى له منفعة الذكرى والاستدلال به على عدم وجوب قبول التوبة في دار التكليف مما لا وجه له على أن تذكره ليس من التوبة في شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى :

(يقول يا ليتني قدمت حياتي) وهو بدل اشتغال من يتذكر أو استئناف

وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة أتنتفع بها اليوم وليس في هذا التمني شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وإنما الذي يدل عليه ذلك اعتقاد كونه متمكناً من تقديم الأعمال الصالحة وإما أن ذلك بمحض قدرته أو بخلق الله تعالى عند صرف قدرته الكاسية إليه فكلاً وأما ما قيل من أن المحجور قد يتمنى أن كان ممكناً منه فربما يوهم أن من صرف قدرته إلى أحد طرفي الفعل يعتقد أنه محجور من الطرف الآخر وليس كذلك بل كل أحد جازم بأنه لو صرف قدرته إلى أي طرف كان من أفعاله الاختيارية لحصل وعلى هذا يدور فلك التكليف والإزام الحجة (فيومئذ) أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال .

((لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد)) الهاء لله تعالى أي لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له أو للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبه وقرىء الفعلان على البناء للمفعول والضمير للإنسان أيضاً وقيل المراد به أي بن خلف أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في الكفر والعناد وقيل لا يحمل عذاب الإنسان كقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله تعالى ((يا أيها النفس المطمئنة)) حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله عز وجل وطاعته إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا وصفت بالاطمئنان لأنها تترقى في معارج الأسباب والمسببات إلى المبدأ المؤثر بالذات فتستقر دون معرفته وتستغنى به في وجودها وسائر شئونها عن غيره بالسكينة وقيل هي النفس المؤمنة المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالجه شك ما وقيل هي الأمانة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ويؤيده أنه قرىء يا أيها النفس الأمانة المطمئنة أي يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان الملك عند تمام حساب الناس وهو الأظهر وقيل عند البعث وقيل عند الموت ((ارجعي إلى ربك)) أي إلى مواعده أو إلى أمره ((راضية)) بما أوتيت من النعيم المقيم

(مرضية) عند الله عز وجل (فادخلي في عبادي) في زمرة عبادي الصالحين المختصين بي (وادخلي جنتي) معهم أو انتظمي في سلك المقربين واستضيئي بأنوارهم فإن الجواهر القدسية كالمزاييا المتقابلة وقيل المراد بالنفس الروح والمعنى فادخلي أجساد عبادي التي افترقت (١) عنها وادخلي دار ثوابي وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث وقرئ فادخلي في عبادي وقرئ في جسد عبادي وقيل نزلت في حمزة بن عبدالمطلب وقيل في حبيب بن عدي رضى الله عنهما والظاهر العموم. عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورا يوم القيامة .

سورة البلد

مكية ، وآيها عشرون

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(لا أقسم بهذا البلد) أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما عطف عليه على أن الإنسان خلق ممنوا بمقاساة الشدائد ومعاونة المشاق واعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى (وأنت حل بهذا البلد) إما لتشريفه عليه الصلاة والسلام بعمل حلولة به مناطا لإعظامه بالإقسام به أو التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب بذكر بعض مواد المكابدة على نهج براعة الاستهلال وبيان أنه عليه الصلاة والسلام مع جلالة قدره وعظم حرمة قد استحلوه في هذا البلد الحرام وتمرضوا له بما لا خير فيه وهموا بما لم ينالوا عن شرحبيل يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويمضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك أو لتسليته عليه الصلاة والسلام بالوعد بفتححه على معنى وأنت حل به في المستقبل كما في قوله

(١) في الأصل : فارقت .

تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) تصنع فيه ما تريد من القتل والأمر وقد كان كذلك حيث أحل له عليه الصلاة والسلام مكة وفتحها عليه وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل عليه الصلاة والسلام فيها ما شاء وحرم ما شاء قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن ضبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان ثم قال إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدى ولم تحل لى إلا ساعة من نهار فلا يعصده شجرها ولا يختل خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطنها إلا لمنشد فقال العباس يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا ويؤتنا فقال عليه الصلاة والسلام إلا الإذخر .

(ووالد) عطف على هذا البلد والمراد به إبراهيم بقوله تعالى (وما ولد) إسماعيل والنبي صلوات الله عليهم أجمعين حسبا ينبى عنه المعطوف عليه فإنه حرم إبراهيم ومنشأ إسماعيل ومسقط رأس رسول الله عليهم الصلاة والسلام والتعبير عنهما بما دون من التفضيح والتعظيم كتذكير والد وإيرادهم بعنوان الولاد ترشيح لمضمون الجواب وإيماء إلى أنه متحقق في حالى الوالدية والولدية وقيل آدم عليه السلام ونسله وهو أنسب لمضمون الجواب من حيث شموله لكل إلا أن التفضيح المستفاد من كلمة ما لا يد فيه من اعتبار التغليب وقيل وكل والد وولده (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى تعب ومشقة فإنه لا يزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها وما وراءه يقال كبد الرجل كذا إذا وجعت كبده وأصله كبده إذا أصاب كبده ثم اتسع فيه حتى استعمل فى كل نصب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كبته بمعنى أهلكه وهو تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان يكابده من كفار قريش والضمير فى قوله تعالى (أبحسب) لبعضهم الذى كان عليه الصلاة والسلام يكابد منهم ما يكابد كالوليد بن المغيرة وأضرابه وقيل هو أبو الأشد بن كعدة الجمحى وكان شديد القوة مغترا بقوته وكان يبسط له الأديم العكاظى فيقوم عليه ويقول من أزالنى عنه فله كذا فيجذبه عشرة فينقطع قطعا ولا تزل قدماء أى أيظن هذا القوى المارد

المتضعف للمؤمنين ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أن مخففة من أن واسمها الذي هو ضمير الشأن مخدوف أى يحسب أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد ﴿ يقول أهلك ما لا لبدا ﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر ﴿ يحسب أن لم يره أحد ﴾ حين كان ينفق وأنه تعالى لا يسأله عنه ولا يجازيه عليه ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما ﴿ ولسانا ﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿ وشفقتين ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها ﴿ وهديناها للنجدين ﴾ أى طريق الخير والشر أو التدين وأصل النجد المكان المرتفع ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أى فلم يشكر تلك النعم الجليلة بالأعمال الصالحة وعبر عنها بالعقبة التى هى الطريق فى الجبل لصعوبة سلوكها وقوله تعالى :

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أى أى شئ أعلمك ما اقتحام العقبة لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة ﴿ فك رقبة ﴾ أى هو لإعتاق رقبة ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ أى مجاعة ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ أى قرابة ﴿ أو مسكينا ذامرتبة ﴾ أى افتقار وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور حسن دخول لا على الماضى فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة إذ المعنى فلا فك رقبة ولا أطعم يتيما أو مسكينا والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب من النسب وترب إذا افتقر وقرىء فك رقبة أو أطعم على الإبدال من اقتحم ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفى بلا وثم للدلالة على تراخى رتبة الإيمان ورفعة محله لاشتراط جميع الأعمال الصالحة به ^(١) ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عطف على آمنوا أى أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله ﴿ وتواصوا بالرحمة ﴾ بالرحمة على عباده أو بموجبات رحمته من الخيرات ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حين صلاته وما فيه من معنى البعد مع

قرب العهد بالمشار إليه للأيذان يبعد درجاتهم في الشرف والفضل أى أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أى اليمين أو اليمين ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ بما نصبتناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أى الشمال أو الشؤم ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ مطبقة من أصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته وقرىء مؤصدة بغير همزة من أوصدته . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله تعالى الأمان من غضبه يوم القيامة (١) .

سورة الشمس
مكية ، وآياتها خمس عشرة
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ والشمس وضحاها ﴾ أى ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ بأن طلع بعد غروبها وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها وقيل إذا تلاها فى الاستدارة وكال النور ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أى جلى الشمس فإنها تتجلى عند انبساط النهار فكأنه جلاها مع أنها التى تبسطه أو جلى الظلمة أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أى الشمس فيغطى ضوءها أو الآفاق أو الأرض وحيث كانت الواوات العاطفة نواب للواو الأولى القسمية القائمة مقام الفعل والباء سادة مسدداً معاً فى قولك أقسم بالله حقق أن يعمل عمل الفعل والجار جميعاً كما تقول ضرب زيد عمراً وبكر خالدًا ﴿ والسماء وما بناها ﴾ أى ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية تفخيماً كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذى بناها وجعلها مصدرية محال بالنظم الكريم وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ والأرض وما طحاها ﴾

(١) أخرجه القرطبى فى التذكار عن أبى هريرة .

أى بسطها من كل جانب كدحاحا ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أى أنشأها وأبدعها مستعدة لسكالاتها والتشكير للتفخيم على أن المراد نفس آدم عليه السلام أو للتكثير وهو الأنسب للجواب ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أى أفهمها لإيهاما وعرفها حالها من الحسن والقبح وما تؤدى إليه كل منهما ومكنها من اختيار أيهما شاءت وتقديم الفجور لمرعاة الفواصل ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أى فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنماها وأعلاها بالتقوى وهو جواب القسم وحذف اللام لطول الكلام وتكرير قد فى قوله تعالى :

﴿ وقد خاب من دساها ﴾ لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيدان بتعلق القسم به أيضا أصالة أى خسر من نقصها وأخفاها بالفجور وأصل دسى دسس كتقضى وتقضض وقيل هو كلام تابع لقوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ بطريق الاستطراد وإنما الجواب ما حذف تعويلا على دلالة قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ عليه كأنه قيل ليدمدن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحا عليه السلام وهو على الأول استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ والطغوى بالفتح الطغيان والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلنى بجرأته على الله تعالى أو صلة للتكذيب أى كذبت بما أوعدت به من العذاب ذى الطغوى كقوله تعالى ﴿ فأهلכוوا بالطاغية ﴾ وقرىء بطغواها بضم الطاء وهو أيضا مصدر كالرجمى ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ منصوب بكذبت أو بالطغوى أى حين قام أشقى ثمود وهو قدار بن سالف أو هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء فإن أفضل التفضيل إذا أضيف يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل فى الرضا به ﴿ فقال لهم ﴾ أى لثمود ﴿ رسول الله ﴾ أى صالح عليه السلام عبر عنه بعنوان الرسالة إيدانا بوجوب طاعته وبيانا لغاية عتوهم وتماديهم فى الطغيان وهو السر فى إضافة الناقة إلى الله تعالى فى قوله تعالى ﴿ ناقة الله ﴾ أى ذروا ناقة الله ﴿ وسقياها ﴾ ولا تذودوها عنها فى توبتها ﴿ فكذبوه ﴾

أى فى وعيده بقوله تعالى (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) وقد جوز أن يكون ضمير لهم للأشقين ولا يلائمه ذكر سقيها .

(فمقروها) أى الآشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله وقال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقال الفراء عقرها اثنان والعرب تقول هذان أفضل الناس (فدمدم عليهم ربهم) فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمدمة إذا ألبسها الشحم (بذنبهم) بسبب ذنبهم المحكى والنصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بماقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب (فسواها) أى المدمدمة بينهم لم يفلت منهم أحد من صغير وكبير أو فسوى ثمود بالأرض أو سواها فى الهلاك (ولا يخاف عقباها) أى عاقبتها وتبعها كما يخاف سائر المعاقبين من الملوك فيبقى بعض الإبقاء وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلاً إلا بحق وكل من فعل فإنه بحق لا يخاف عاقبة فعله وإن كان من شأنه الخوف والواو للحال أو للاستئناف وقرئ فلا يخاف وقرئ ولم يخف. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر .

سورة والليل

مكية ، وآياتها إحدى وعشرون .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والليل إذا يغشى) أى حين يغشى الشمس كقوله تعالى (والليل إذا يغشاها) أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه (والنهار إذا تجلى ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين وتكشف بطولوع الشمس) (وما خلق الذكر والأنثى) أى والقادر العظيم القدرة الذى خلق صنفي الذكر والأنثى من كل ماله توالد وقيل هما آدم

وحواء وقرىء والذكر والآتى وقرىء والذى خلق الذكر والآتى وقيل ما مصدرية ﴿إن سعيكم لشتى﴾ جواب القسم وشتى جمع شتبت أى أن مساعيك لأشتات مختلفة وقوله تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ الخ تفصيل لتلك المساعى المشتتة وتبيين لأحكامها أى فأما من أعطى حقوق ماله واتقى محارم الله تعالى التى نهى عنها وصدق بالخصلة الحسنى وهى الإيمان أو بالكلمة الحسنى وهى كلمة التوحيد أو بالملة الحسنى وهى ملة الإسلام أو بالثبوتة الحسنى وهى الجنة ﴿فسنيسره لليسرى﴾ فسنيهيته للخصلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة ومبادئه من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها ﴿وأما من بخل﴾ أى بماله فلم يبذله فى سبيل الخير ﴿واستغنى﴾ أى زهد فيما عنده تعالى كأنه مستغن عنه فلم يتقه أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ﴿وكذب بالحسنى﴾ أى ما ذكر من المعانى المتلازمة ﴿فسنيسره لليسرى﴾ أى للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ومقدماته لاختياره لها ولعل تصدير القسمين بالإعطاء والبخل مع أن كلا منهما أدنى رتبة مما بعدهما فى استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسر والتقوى والتكذيب والاستغناء وتفسير الأول بإعطاء لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء وتفسير الأول بإعطاء الطاعة والثانى بالبخل بما أمر به مع كونه خلاف الظاهر يأباه قوله تعالى :

﴿وما يغنى عنه﴾ أى ولا يغنى أو أى شئ يغنى عنه ﴿ماله﴾ الذى يبخل به ﴿إذا ردى﴾ أى هلك تفعل من الردى الذى هو الهلاك أو تردى فى الحفرة إذا قبر أو تردى فى قعر جهنم ﴿إن علينا للهدى﴾ استئناف مقرر لما قبله أى إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدى إليه من طريق الضلال وما يؤدى إليه وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ترغيبا وترهيبا ومن هنا تبين أن الهداية هى الدلالة على ما يوصل إلى البغية لا الدلالة الموصلة إليها قطعا ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أى النصرف الكلى فيهما كيفما نشاء فنفعل فيهما ما نشاء من الأفعال التى من جملتها ما وعدنا من

التيسير للبسرى والتيسير للعسرى وقيل إن لنا كل ما في الدنيا والآخرة فلا
يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ بحذف إحدى التامين.
من تلظى أى تطلب وقرىء على الأصل ﴿لا يصلها﴾ صليا لازما ﴿إلا
الاشقى﴾ إلا الكافر فإن الفاسق لا يصلها صليا لازما وقد صرح به قوله
تعالى ﴿الذى كذب وتولى﴾ أى كذب بالحق وأعرض عن الطاعة ﴿وسيجزيها﴾
أى سيبعد عنها ﴿الأتقى﴾ المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها
فضلا عن دخولها أو صليها الأبدى وأما من دونه من يتقى الكفر دون المعاصي
فلا يبعد عنها هذا التباعد وذلك لا يستلزم صليها بالمعنى المذكور فلا يقدح في
الحصر السابق ﴿الذى يؤتى ماله﴾ يعطيه ويصرفه في وجوه البر والحسنات
وقوله تعالى ﴿ينزكى﴾ إما بدل من يؤتى داخل في حكم الصلة لا محل له أو في
حين النصب على أنه حال من ضمير يؤتى أى يطلب أن يكون عند الله تعالى.
زاكيا ناميا لا يريد به رياء ولا سمعة.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ استئناف مقرر لكون إيتائه
للتزكى خالصا لوجه الله تعالى أى ليس لأحد عنده نعمة من شأنها أن تجزى وتكافأ
فيقصد بإيتاء ما يؤتى مجازاتها وقوله تعالى ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾
استثناء منقطع من نعمة وقرىء بالرفع على البدل من محل نعمة فإنه الرفع إما
على الفاعلية أو على الابتداء ومن مزبدة ويجوز أن يكون مفعولا له لأن المعنى
لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمه والآيات نزلت في حق أبى
بكر الصديق رضى الله عنه حين اشترى بلالا في جماعة كان يؤذيهم المشركون
فأعتقهم ولذلك قالوا المراد بالاشقى أبو جهل أو أمية بن خلف وقد روى
عطاء والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عذب المشركون بلالا وبلال
يقول أحد أحد فر به النبي عليه الصلاة والسلام فقال أحد يعنى الله تعالى
يتجيك ثم قال لأبى بكر رضى الله عنه إن بلالا يعذب في الله فعرف مراده.
عليه الصلاة والسلام فأنصرف إلى منزله فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى
أمية بن خلف فقال له أتبيعني بلالا قال نعم فاشتراه فأعتقه فقال المشركون

ما اعتقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده فنزلت وقوله تعالى ((ولسوف يرضى))
جواب قسم مضمرة أى وبالله لسوف يرضى وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه
على أكمل الوجوه وأجملها إذ به يتحقق الرضا وقرئ يرضى مبنيًا للمفعول
من الإرضاء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والليل
أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر .

...

سورة والضحي

مكية ، وآياتها إحدى عشرة

((بسم الله الرحمن الرحيم))

((والضحي)) هو وقت ارتفاع الشمس وصدر النهار قالوا تخصيصه
بالإقسام به لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجداً
لقوله تعالى (وأن يحشر الناس ضحى) وقيل أريد به النهار كما في قوله تعالى (أن يأتيهم
بأسنا ضحى) في مقابلة بيأتنا ((والليل)) أى جنس الليل ((إذا سجدى)) أى سكن
أهله أو ركذ ظلامه من سجد البحر سجدوا إذا سكنت أمواجه ونقل عن قتادة
ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد بالضحي هو الضحى الذي كلم الله تعالى فيه
موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى ((ما ودعك ربك)) جواب
القسم أى ما قطعك قطع المودع وقرئ بالتخفيف أى ما تركك ((وما قلى))
أى وما أبغضك وحذف المفعول إما للاستغناء عنه بذكره من قبل أو للقصد
إلى نفي صدور الفعل عنه تعالى بالسكينة مع أن فيه مراعاة للفواصل . روى
أن الوحى تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً لتركه الاستثناء كما مر
في سورة الكهف أو لجزءه سائلاً ملحاً فقال المشركون إن محمداً ودعه ربه وقلاه
فنزلت رداً عليهم وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالكرامة الحاصلة والمتروكة
كما يشعر به إيراد اسم الرب المنبئ عن التزوية والتبليغ إلى السكال مع الإضافة

إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقليل
أنه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بشره عليه الصلاة والسلام بأن
ما سيؤتيه في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقليل ﴿ وللآخرة خير لك من
الاولى ﴾ لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة
بالمضار وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله (١)
شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في الدنيا من بعض العوارض الفادحة في
تمشية الأحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبق
والتقدم على كافة الأنبياء والرسول يوم الجمع (يوم يقوم الناس لرب العالمين)
وكون أمته شهداء على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم
بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارة بميزة بعض
المبادئ بالنسبة إلى المطالب وقيل المراد بالآخرة عاقبة أمره عليه الصلاة
والسلام أى لنهاية أمره خير من بدايته لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة
وقوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أعدة كريمة شاملة لما أعطاه
الله تعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر
وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام وفي أيام خلفائه
الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية وفتحوا الدعوة والإسلام في مشارق
الأرض ومغاربها ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى وقد
أنبا ابن عباس رضى الله عنهما عن شمة منها حيث قال له عليه الصلاة والسلام
في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك واللام للابتداء دخلت الخبر
لأننا لا نذكر مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ لا للقسمة
لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة
على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تراخى الحكمة وقيل هي للقسمة وقاعدة
التلازم بينها وبين نون التأكيذ قد استثنى النجاة منها صورتين إحداها أن يفصل

بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كذه الآية وكقوله والله لسأعطيك والثانية أن يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى (إلى الله تحشرون) وقال أبو علي الفارسي ليست هذه اللام هي التي في قولك إن زيدا لقائهم بل هي التي في قولك لأقومن ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد فكأنه قيل وليعطينك وكذلك اللام في قوله تعالى وللآخرة الخ وقوله تعالى :

((ألم يجدك يتيما فآوى)) تعديد لما أفاض عليه عليه الصلاة والسلام من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه وينشرح صدره والهمزة لأنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ والوجود بمعنى العلم ویتيا مفعوله الثاني وقيل بمعنى المصادقة ویتيا حال من مفعوله . روى أن أباه مات وهو جنين قد أنت عليه ستة أشهر وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك لإيواؤه وقرىء فآوى وهو إما من آواه بمعنى آواه أو من أوى له إذا رحمه وقوله تعالى ((ووجدك ضالاً)) عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفى بلم داخل في حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدى إليها العقول كما في قوله تعالى ما كنت تدري ما الكتاب وقيل ضل في صباه في بعض شباب مكة فرده أبو جهل إلى عبد المطلب وقيل ضل مرة أخرى وطالبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا مناديا ينادى من السماء يا معشر الناس لا تضجعوا فان لمحمد ربا لا يخذله ولا يضعه وإن محمداً بوادى تهامة عند شجر السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فإذا النبي عليه الصلاة والسلام قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق وقيل أضلته مرضعته حليلة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب (١)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في أعلام النبوة من طرق .

يروى أن إبليس أخذ بزمام ناقته في ليلة ظلماء فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ورده إلى القافلة (فهدى) فهداك إلى مناهج الشرائع المنظوية في تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم أو أزال ضلالك عن جدك أو عمك (ووجدك عائلاً) أى فقيراً وقرىء عيلاً وقرىء عديماً (فأغنى) فأغناك بمال خديجة أو بمال حصل لك من ربح التجارة أو بما أفاء عليك من الغنائم قال عليه الصلاة والسلام جعل رزقي تحت ظل رمحي وقيل فنعك وأغنى قلبك . (فأما اليتيم فلا تقهر) فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لا تحتقر وقرىء فلا تكهر أى فلا تعبس في وجهه (وأما السائل فلا تنهر) فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده رداً جميلاً قال إبراهيم بن أدهم نعم القوم السؤل يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النخعي السائل يريد الآخرة يحىء إلى باب أحكم فيقول أتبعون إلى أهليكم بشيء وقيل المراد بالسائل ههنا الذى يسأل عن الدين .

(وأما بنعمة ربك فحدث) بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها أريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التي من جملة النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة والمعنى أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فأواك الله تعالى وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء فلا تنس حقوق نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك فتمتطف على اليتيم فأواه وترحم على السائل وتفقهه بمعرفتك ولا تزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها نعمة التوبة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عز وجل وعليه من الكتاب والحكمة . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الضحى جعله الله تعالى فيمن رضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يثيم وسائل ، (١) .

(١) أخرجه الطبري في التذكار عن ابن عمر وأبي هريرة .

(٣٥ — أبو السعود — خامس)

﴿سورة ألم نشرح﴾

مكية ، وآياتها ثمان

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ لما كان الصدر محلاً لأحوال النفس ومخزناً لسرايرها من العلوم والإدراكات والملكات والإرادات وغيرها عبر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها بتأييدها بالقوة القدسية وتحليلتها بالكمالات الانسية أى ألم نفسه حتى حوى عالمي الغيب والشهادة وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة فما صدك الملابس بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق وقيل أريد به ما روى أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صباه أو يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً ولعله تمثيل لما ذكر أو أنموذج جسماني مما سيظهر له عليه الصلاة والسلام من الكمال الروحاني والتعبير عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكارى عن انتفائه للإيدان بأن ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى وزيادة الجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيدان من أول الأمر بأن الشرح من منافع عليه الصلاة والسلام ومصالحه مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه عليه الصلاة والسلام وتشويقاً له إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن وقوله تعالى ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ عطف على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة كأنه قد شرحنا صدرك ووضعنا إلخ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر آنفاً من القصد إلى تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ولما أن في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم أى حططنا عنك عبك الثقيل .

﴿الذى أنقض ظهرك﴾ أى حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض

والانفسك كما يسمع من الرجل المتداعى إلى الانتقاض من ثقل الحمل مثل به
 حاله عليه الصلاة والسلام عما كان يثقل عليه ويغمه من قرطانه قبل النبوة أو من
 عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع أو من تهالكه على إسلام المعاندين
 من قومه وتلفه ووضع عنه مغفرته وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد أن بلغ
 وبالغ وقرىء وحططنا وحللنا مكان وضعنا وقرىء (وحللنا عنك وقرئك)
 ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ بعنوان النبوة وأحكامها أى رفع حيث قرن اسمه
 باسم الله تعالى فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة وجعل طاعته طاعته تعالى
 وصلى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وسمى رسول الله ونبي
 الله والكلام فى العطف وزيادة لك كالذى سلف وقوله تعالى ﴿فإن مع العسر
 يسرا﴾ تقرير لما قبله ووعد كريم بتيسير كل عسير له عليه الصلاة والسلام
 وللمؤمنين كأنه قيل خولناك ما خولناك من جلائل النعم فكن على ثقة بفضل
 الله تعالى ولطفه فإن مع العسر يسرا كثيرا وفى كلمته مع إشعار بغاية سرعة
 مجيئ اليسر كأنه مقارن للعسر ﴿إن مع العسر يسرا﴾ تكرير للتأكيد أوعدة
 مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك إن للصائم
 فرحة إن للصائم فرحة أى فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب وعليه قوله
 عليه الصلاة والسلام لمن يغلب عسر يسرين فإن المعروف إذا أعيد يكون الثانى عين
 الأول سواء كان معهودا أو جنسا وأما المنسکر فيحتمل أن يراد بالثانى فرد
 مغاير لما أريد بالاول ﴿فإذا فرغت﴾ أى من التبليغ وقيل من الغزو ﴿فانصب﴾
 فاجتهد فى العبادة واتعب شكرا لما أوليناك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء
 الآتية وقيل فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء وقيل إذا فرغت من
 دنياك فانصب فى صلاتك ﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ بالسؤال ولا
 تسأل غيره فإنه القادر على إسعافك لا غيره وقرىء فرغب أى فرغب الناس
 إلى طلب ما عنده . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ألم نشرح
 فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عني^(١) .

(١) أخرجه الأجهورى فى الإرشاد عن أبى هريرة وأبى طلحة من طرق

﴿سورة التين﴾

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ثمان

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ والتين والزيتون ﴾ هما هذا التين وهذا الزيتون خصهما الله سبحانه من بين الثمار بالإقسام بهما لاختصاصهما بخواص جليلة فإن التين فاكهة طيبة لأفضل له وغذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم ويظهر الكلتيين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح سدد الكبد والطحال وروى أبو ذر رضى الله عنه أنه أهدى للنبي عليه الصلاة والسلام سل من تين فأكل منه وقال لأصحابه : دكلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذا لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس .

وعن علي بن موسى الرضا التين يزيل نكحة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج وأما الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء ولو لم يكن له سوى اختصاصه بدهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنية فيها لكنني به فضلا وشجرته هي الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل ومر معاذ بن جبل رضى الله عنه بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وسميته يقول هو سواكي وسواك الأنبياء قبلى وقيل هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زينا لأنهما منبتا التين والزيتون وقيل التين جبال ما بين حلوان وهمدان والزيتون جبال الشام لأنهما منابتهما كأنه قيل ومنابت التين والزيتون وقال قتادة التين الجبل الذى عليه دمشق والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس وقال عكرمة وابن زيد التين دمشق

والزيتون بيت المقدس وهو اختيار الطبري وقال محمد بن كعب التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا وعن ابن عباس رضى الله عنهما التين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس وقال الضحاك التين المسجد الحرام والزيتون المسجد الأقصى والصحيح هو الأول قال ابن عباس رضى الله عنهما هو تينكم الذى تأكلون وزيتونكم الذى تعصرون منه الزيت وبه قال مجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء وجابر وزيد ومقاتل والكلبي (وطور سينين) هو الجبل الذى ناجى عليه موسى ربه وسينين وسيناء علمان للموضع الذى هو فيه ولذلك أضيف إليهما وسينون كبيرون فى جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بالحركات الإعرابية (وهذا البلد الأمين) أى الأمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو مكة شرفها الله تعالى وأمانتها أنها تحفظ من دخلها كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ويجوز أن يكون فعילה بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل كما وصف بالأمن فى قوله تعالى (حرما آمنا) بمعنى ذى أمن ووجه الأقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدين غنى عن الشرح والتبيين .

(لقد خلقنا الإنسان) أى جنس الإنسان (فى أحسن تقويم) فى أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنى حيث برأه الله تعالى مستوى القامة متناسب الأعضاء متصفا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والتكلم والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات التى هى من أنموذجات من الصفات السبحانية وآثارها وقد عبر بعض العلماء عن ذلك بقوله خلق آدم على صورته وفى رواية على صورة الرحمن وبني عليه تحقيق معنى قوله من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال إن النفس الإنسانية مجردة ليست حالة فى البدن ولا خارجة عنه متعلقة به تعلق التدبير والتصرف تستعمله كيفما شاءت فإذا أرادت فعلا من الأفاعيل الجسمية تلقىه إلى ما فى القلب من الروح

الحيوانى الذى هو أعدل الأرواح وأصفها وأقربها منها وأقواها مناسبة إلى عالم المجردات إلقاء روحانيا وهو يلقيه بواسطة ما فى الشرايين من الأرواح إلى الدماغ الذى هو منبت الأعصاب التى فيها القوى المحركة للإنسان فعند ذلك يحرك من الأعضاء ما يليق بذلك الفعل من مبادئ البعيدة والقريبة فيصدر عنه ذلك بهذه الطريقة فن عرف نفسه على هذه الكيفية من صفاتها وأفعالها تسفى له أن يترقى إلى معارج معرفة رب العزة عز سلطانه ويطلع على أنه سبحانه منزّه عن كونه داخلا فى العالم أو خارجا عنه يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد بواسطة مراتبه فيه من الملائكة الذين يستدل على شئونهم بما ذكر من الأرواح والقوى المرتبة فى العالم الإنسانى الذى هو نسخة للعالم الأكبر وأنموذج منه^(١) وقوله تعالى :

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أى جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات التى لو عمل بمقتضاها لكان فى أعلى عليين وقيل رددناه إلى أرذل العمر وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة كقوله تعالى (ومن نعمه ننسكه فى الخلق) وأيا ما كان فأسفل سافلين إما حال من المفعول أى رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمكان محذوف أى رددناه مكانا أسفل سافلين والاول أظهر وقرئ أسفل السافلين وقوله تعالى :

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ على الأول استثناء متصل من ضمير رددناه فإنه فى معنى الجمع وعلى الثانى منقطع أى لكن الذين كانوا صالحين من الهرم ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة

(١) انظر تفسير من عرف نفسه عرف ربه فى تفضيل المشأتين للراغب ص ٧ وخلق آدم على الصورة فى مشكل الحديث لابن فوركوفى المواهب للقاضى عياض ورقة ١٦٥ خط.

على تخاذل نوحهم أو غير ممنون به عليهم وهذه الجملة على الأول مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد وميمنة لكيفية حالهم والخطاب في قوله تعالى ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام أى فإى شيء يكذبك دلالة أو نطقاً بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به وقيل ما بمعنى من وقيل الخطاب للإنسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت أى فما يجعلك كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذه الدلائل والمعنى أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتحويله من حال إلى حال كلاً ونقصانا من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فإى شيء يضطرك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيبه أيها الإنسان ؟

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أى أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعا وتديراً حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين تعين الإعادة والجزاء فالجملة تقرير لما قبلها وقيل الحكم بمعنى القضاء فهى وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها يقول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى الخصلتين العافية واليقين ما دام فى دار الدنيا وإذا مات أعطاه الله تعالى من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة .

﴿ سورة العلق ﴾

مكية، وأياما تسع عشرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ اقرأ ﴾ أى ما يوحى إليك فإن الأمر بالقراءة يقتضى المقروء قطعاً وحيث لم يعين وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتما سواء كانت السورة أول ما نزل أولا والأقرب أن هذا إلى قوله تعالى (ما لم يعلم) أول ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام كما ينطق به حديث الزهري المشهور وقوله تعالى ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل أى اقرأ ملتبساً باسمه تعالى أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى السكال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بقبليغته عليه السلام إلى الغاية القاصية من السكالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى ﴿ الذى خلق ﴾ لتذكير أول النعماء الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى والتنبية على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من السكالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر السكالات قادر على تعليم القراءة للعالم المتكلم أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء وقوله تعالى :

﴿ خلق الإنسان ﴾ على الأول تخصيص لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لاستقلاله بيدائع الصنع والتدبير وعلى الثانى أفراد للإنسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الإنسان ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى ﴿ من علق ﴾ أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان فى معنى الجمع مراعاة

الفواصل ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية ولما كان خلق الإنسان أو النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته تعالى بذلك أولاً ليستشهد عليه السلام به على تمكنه تعالى له من القراءة ثم كرر الأمر بقوله تعالى ﴿اقرأ﴾ أى افعل ما أمرت به تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى ﴿وربك الأكرم﴾ الخ فإنه كلام مستأنف وارد لإزاحة ما بينه عاينه السلام من العذر بقوله عليه السلام د ما أنا بقارىء،^(١) يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمى فقيل له وربك الذى أمرك بالقراءة مبدئنا باسمه هو الأكرم ﴿الذى علم بالقلم﴾ أى علم ما علم بواسطة القلم لا غيره فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما وقوله تعالى :

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ بدل اشتمال من علم بالقلم أى علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله وفي حذف المفعول أولاً وإبراده بعنوان عدم المعلوماتية ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم ما^(٢) لا تحيط به العقول ما لا يخفى ﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة في الزجر وقوله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ أى ليجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا إلى آخر السورة نزل في أبى جهل بعد زمان وهو الظاهر وقوله تعالى ﴿أن رآه استغنى﴾ مفعول له أى يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً على أن استغنى مفعول ثانٍ لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون فاعله ومفعوله ضميرى واحد كما فى علمتى

(١) أخرجه مسلم والبخارى فى بدء الوحي .

(٢) فى الأصل : ما لا يحيط .

وإن جوزه بعضهم في الرؤية البصرية أيضا وجعل من ذلك قول عائشة رضي الله عنها لقد رأيته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الأسودان وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبغي عنه قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) للايذان بأن مدار طغيانه عمه الفاسد .

روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فنُدع ديننا ونتبع دينك فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء لبقاء عليهم وقوله تعالى ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ تهديد للطاغى وتحذير له من عاقبة الطغيان والانتفات للتشديد في التهديد والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبرشى وتقديم الجار والمجرور عليه أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً فسترى حيثئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى :

﴿أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى﴾ تقييح وتشنيع لحاله وتعجيب منها ولإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . روى أن أبا جهل قال فى ملاء من طغاة قريش لئن رأيت محمداً يهلى لأطان عنقه فرآه عليه السلام فى الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك قال إن يبنى وبينه لحنذاً من نار وهو لا وأجنحة ففرلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية وأما ما فى قوله تعالى ﴿أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾ وما فى قوله تعالى ﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾ فقلبية معناه أخبرنى فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرمى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صالح للخطاب ونظم الأمر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار

نفس الأفعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل فإن ذلك ليس في حيز
التردد أصلاً بل باعتبار أو صافها التي هي كونها أمراً بالتقوى وتكذيباً وتولياً
كما في قوله تعالى (أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) كما مر والمفعول
الأول لا رأيتم محذوف وهو ضمير يعود إلى الموصول أو اسم إشارة يشار به
إليه ومفعوله الثاني سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فإن المفعول الثاني
لا رأيتم لا يكون إلا جملة استفهامية أو قسمية والمعنى أخبرني ذلك الناهي إن كان
على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو أمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة
الأوثان كما يعتقد أو مكذباً للحق معرضاً عن الصواب كما نقول نحن ﴿ ألم يعلم ﴾ بأن الله يرى ﴿ أي يطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل وإلما ﴾
أفرد التكذيب والتولى بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار
مستأنف ولم ينظما في سلك الشرط الأول بعطفهما على كان للإيدان باستقلالهما
بالوقوع في نفس الأمر واستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب وأما القسم
الأول فأمر مستحيل قد ذكر في حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريد
الشرطية الأولى عن الجواب والإحالة به على جواب الثانية هذا وقد قيل رأيتم
الأول بمعنى أخبرني مفعوله الأول الموصول ومفعوله الثاني الشرطية الأولى
بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وأرأيتم في الموضعين
تكرير للتأكيد ومعناه أخبرني عن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك
الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى أو كان أمراً
بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان
على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح كما نقول نحن ﴿ ألم يعلم ﴾ بأن الله يرى
ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتأمل وقيل
المعنى رأيتم الذي ينهى عبداً يصلي والمنهى عن الهدى أمر بالتقوى والناهي
مكذب متولى فما أعجب من ذا وقيل الخطاب الثاني للكافر فإنه تعالى كالحاكم
الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه قال يا كافر أخبرني
إن كان صلاته هدي ودعاؤه إلا الله تعالى أمراً بالتقوى أتناه وقيل هو أمية

ابن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة ﴿كلا﴾ ردع للنأهى اللعين ونخسوه له واللام في قوله تعالى :

﴿لئن لم ينته﴾ موطئة للقسم أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿لنسفعا بالناسية﴾ لناخذن بناسيته ولنسحقه بها إلى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة وقرىء لنسفعن بالنون المشددة وقرىء لأسفعن وكتبته^(١) في المصحف بالالف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة لظهور أن المراد ناصية المذكور ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ بدل من الناصية وإنما جاز إبدالها من المعرفة وهى نسكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هى ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطأ على الاستناد المجازى وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ما ليس فى قولك ناصية كاذب خاطئة ﴿فليدع ناديه﴾ أى أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذى ينتدى فيه القوم أى يجتمعون. روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنك فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فنزلت ﴿سددع الزبانية﴾ ليحروه إلى النار والزبانية الشرط الواحد زبانية كهفريه من الزين وهو الدفع وقيل زبى وكأنه نسب إلى الزين ثم غير كأمسى وأصلها زبائى فقل زبانية بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب وعن النبي عليه السلام لودعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا ﴿كلا﴾ ردع بعد ردع وزجر إثر زجر ﴿لاتطعه﴾ أى دم على ما أنت عليه من معاصاته ﴿واسجد﴾ وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به ﴿واقرب﴾ وتقرب بذلك إلى ربك وفى الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله^(٢) .

(١) فى ١١ : وبكتابتها

(٢) أخرجه القرطبي فى التذكار عن عبد الله بن عمرو بن العاص

(سورة القدر)

مختلف فيها ، وآيها خمس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إنا أنزلناه في ليلة القدر) تنويه بشأن القرآن الكريم وإجلال لمحلّه بإضماره المؤذن بغاية فباهته المغنية عن التصريح به كأنه حاضر في جميع الأذهان وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به وتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى (وما أدراك ما ليلة القدر) لما فيه من الدلالة على أن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يدرها ولا يدرها إلا علام الغيوب كما يشعر به قوله تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) فإنه بيان لإجمالى لشأنها لإثر تشويقه عليه السلام إلى درايتها فإن ذلك معرب عن الوعد بادرائها وقد مر بيان كيفية إعراب الجملتين وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التفخيم ما لا يخفى والمراد بانزاله فيها إما إنزال كله إلى السماء الدنيا كما روى أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاهُ جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبي عليه السلام نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ولما ابتداء إنزاله فيها كما نقل عن الشعبي وقيل المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وفضلها كما في قول عمر رضى الله عنه خشيت أن ينزل في قرآن وقول عائشة رضى الله عنها لأننا أحقر في نفسى من أن ينزل في قرآن فالأنسب أن يجعل الضمير حينئذ للسورة التى هي جزء من القرآن لاللكل واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها وأكثر الأقوال أنها السابعة منها ولعل السر في إخفائها تعريض من يريد لها للثواب الكثير بإحياء الليالى الكثيرة رجاء لموافقتها وتسميتها بذلك إما لتقدير الأمور وقضائها فيها لقوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) أو لخطورها وشرفها على سائر الليالى وتخصيص الألف بالذكر إما للتكثير أو لما روى أنه عليه السلام ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فمجب المؤمنون منه وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة

هى خير من مدة ذلك الغأزى وقيل إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد وقيل أرى النبى عليه السلام أعمار الأمم كافة فاستقصر أعمار أمته فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم فى طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم وقيل كان ملك سلمان خمسمائة شهر وملك ذى القرنين خمسمائة شهر فجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكهما وقوله تعالى :

((تنزل الملائكة والروح فيها)) استئناف مبين لمناط فضلها على تلك المدة المتطاولة وقد سبق فى سورة النبأ ما قيل فى شأن الروح على التفصيل وقيل هم خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلا تلك الليلة أى تنزل الملائكة والروح فى تلك الليلة من كل سماء إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا ((ياذن ربهم)) متعلق بتنزل أو بمحذوف هو حال من فاعله أى ملتبسين ياذن ربهم أى بأمره ((من كل أمر)) أى من أجل كل أمر قضاءه الله عز وجل لتلك السنة إلى قابل كقوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) وقرئ من كل امرئ أى من أجل كل إنسان قيل لا يلقون فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلوا عليه ((سلام هى)) أى ما هى إلا سلامة أى لا يقدر الله تعالى فيها إلا السلامة والخير وأما فى غيرها فيقضى سلامة وبلاء أو ما هى إلا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين ((حق مطلع الفجر)) أى وقت طلوعه وقرئ بالسكسر على أنه مصدر كالمرجع أو اسم زمان على غير قياس كالشرق وحتى متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أى لمكثهم فى محل تنزلهم أو لنفس تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالابتداء مفتفر فى الجار عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كن صام رمضان وأحيا ليلة القدر .

﴿سورة لم يكن﴾

مختلف فيها ، وآيها ثمان

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ أى اليهود والنصارى وإبراهيم بذلك العنوان للإشعار بعلّة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق فإن مناط ذلك وجدانهم له فى كتابهم وإيراد الصلة فعلا لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم ﴿والمشركين﴾ أى عبدة الأصنام وقرىء والمشركون عطفا على الموصول ﴿منفسين﴾ أى عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان والعزم على إنجازه وهذا الوعد من أهل الكتاب بما لا ريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث فى آخر الزمان ويقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو المذكور فى كتابهم وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته عليه السلام وانفساك الشئ عن الشئ أن يزايله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدم أى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه ﴿حق تأنيهم البيئ﴾ التى كانوا قد جعلوا لإتيانها ميقانا لاجتماع الكلمة والاتفاق على الحق فجعلوه ميقانا للانفصاك والافتراق وإخلاف الوعد والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حال المحكى لا باعتبار حال الحكاية كما فى قوله تعالى (واتبعوا ما تنلو الشياطين) أى تلت وقوله تعالى :

﴿رسول﴾ بدل من البيئ عبر عنه عليه السلام بالبيئ للإيذان بغاية

ظهور أمره وكونه ذلك الموعود في الكتابين وقوله تعالى ﴿ من الله ﴾ متعلق بمضمّر هو صفة لرسول مؤكّد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى رسول وأى رسول كائن منه تعالى وقوله تعالى ﴿ يتلو ﴾ صفة أخرى له أو حال من الضمير في متعلق الجار ﴿ صحفا مطهرة ﴾ أى منزهة عن الباطل لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو من أن يمسّه غير المطهرين ونسبة تلاوتها إليه عليه السلام من حيث أن تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها وقوله تعالى ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ صفة لصحفا أو حال من ضميرها فى مطهرة ويجوز أن يكون الصفة أو الحال الجار والمجرور فقط وكتب مرتفعا به على الفاعلية ومعنى قيمة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب وقوله تعالى :

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ إلخ كلام مسوق لغاية تشنيع أهل الكتاب خاصة وتغليظ جنایاتهم ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه ما فى الأمر بل كان بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الأعذار بالكلية وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمسكهم من مطالعته والإحاطة بما فى تضاعيفه من الأحكام والأخبار التى منى جملتها نعوت النبی عليه الصلاة والسلام بعد ذكرهم فيها سبق بما هو جار مجرى اسم الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأى المذكور فى حكم فريق واحد عبر عما صدر عنهم عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبار الاستقلال كل من فريقى أهل الكتاب وإيداناً بأن انفكاكهم عن الرأى المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأى آخر بل بطريق الاختلاف القديم وقوله تعالى .

﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود فى كتابهم دلالة جلية لا ريب فيها كقوله تعالى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم)

وقوله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله﴾ جملة حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا أى والحال أنهم ما أمروا بما أمروا فى كتابهم إلا لأجل أن يعبدوا الله وقبل اللام بمعنى أن أى إلا بأن يعبدوا الله ويعضده قراءة إلا أن يعبدوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ أى جاعلين دينهم خالصا له تعالى أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى فى الدين ﴿حنفاء﴾ مانئين عن جميع العقائد الزائفة إلى الإسلام ﴿ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة﴾ إن أريد بهما ما فى شريعتهم من الصلاة والزكاة فالامر ظاهر وإن أريد ما فى شريعتنا فعنى أمرهم بهما فى الكتابين أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التى هما من جملتها .

﴿وذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته ﴿دين القيمة﴾ أى دين الملة القيمة وقرىء الدين القيمة على تأويل الدين بالملة هذا وقد قيل قوله تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ إلى قوله كتب قيمة حكاية لما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام من أنهم لا ينفكون عن دينهم إلى مبعثه ويعدون أن ينفكوا عنه حينئذ وينفقوا على الحق وقوله تعالى ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ بيان إلخ لإخلافهم الوعد وتعديسهم الأمر بحملهم ما هو سبب لانفكاكهم عن دينهم الباطل حسبا وعدوه سببا لشبائهم عليه وعدم انفكاكهم عنه ومثل ذلك بأن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لا أنفك عما أنا فيه حتى أستغنى فيستغنى فيزداد فسقا فيقول له واعظه لم تسكن منفكا عن الفسق حتى توثر وما عكفت على الفسق إلا بعد اليسار وأنت خبير بأن هذا إنما يتسنى بعد اللتيا والتى على تقدير أن يراد بالتمفرق تفرقهم عن الحق بأن يقال التفرق عن الحق مستلزم للشيات على الباطل فكأنه قيل وما أجمعوا على دينهم إلا من بعد ما جاءتهم البينة وأما على تقدير أن يراد به تفرقهم فرقا فمنهم من آمن ومنهم من أنكر ومنهم من عرف وعاند كما جوزة القائل فلا فتأمل (٢٦ - أبو السعود - خامس)

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم) بيان حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا وذكر المشركين لثلاثتهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة وإيراد الجملة الاسمية للإيدان بتحقيق مضمونها لا محالة أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملايستهم لما يوجبها منزلة ملايستهم لها وإما على أن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورة عرضية وستخلصها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية كما في قوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) في سورة الأعراف .

(خالدين فيها) حال من المستكن في الخبر واشترك الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهم في السكينة فإن جهنم دركات وعذابها ألوان (أولئك) إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة وما فيه من معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم في الشر أى أولئك البهلاء المذكورون (هم شر البرية) شر الخليقة أى أعمالا وهو الموافق لما سيأتى في حق المؤمنين فيكون في حيز التعليل لخلودهم في النار أو شرهم مقاما ومصيرا فيكون تأكيذا لفضاعة حالهم وقرىء بالهمز على الأصل .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لمحاسن أحوال المؤمنين لإثر بيان سوء حال الكفرة جريا على السنة القرآنية من شفع التهيب بالترغيب (أولئك) المفعوتون بما هو في الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة .

(هم خير البرية) وقرىء خيار البرية وهو جمع خير نحو جيد وجياد (جزاؤهم) بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعة (عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان كما هو الظاهر فجرى الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها فهو

باعتبار الجزء الظاهر وأياً ما كان فالمراد جريانها بغير أخذود ﴿خالدين فيها أبدا﴾ متعممين بفنون النعم الجسمانية والروحانية وفي تقديم مدحهم بخيرية البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منحوه في مقابلة ما وصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيد بها نعماً وتأكيده (١) الخلود بالآبود من الدلالة على غاية حسن حالهم ما لا يخفى ﴿رضى الله عنهم﴾ استئناف مبين لما يتفضل عليهم زيادة على ما ذكر من أجرية أعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ حيث بلغوا من المطالب قاصيتها وملكوا من المآرب ناصيتها وأتيسر لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ذلك﴾ أى ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿لمن خشى ربه﴾ فإن الخشية التى هى من خصائص العلماء يشتمون الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للإشعار بعلّة الخشية والتحذير من الاعتزاز بالتربية . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً .

(١) فى الأصل : وتأيد .

﴿سورة الزلزلة﴾

مختلف فيها ، وآيها تسع

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿إذا زلزلت الأرض﴾ أى حركت تحريكا عفيفاً متكرراً متداركاً
 ﴿زلزأها﴾ أى الزالزال المخصوص بها على مقتضى المشيئة الإلهية المبنية على
 الحسك البالغة وهو الزلزال الشديد الذى لا غاية وراءه أو زلزالها العجيب الذى
 لا يقادر قدره أو زلزالها الداخلى فى حيز الإمكان وقرىء بفتح الزاى وهو اسم
 وليس فى الآية فعلان بالفتح إلا فى المضاعف وقولهم ناقة خزعال نادر وقد
 قيل الزلزال بالفتح أيضاً مصدر كالوسواس والجرجار والقلقار وذلك عند
 النفخة الثانية لقوله عز وجل ﴿وأخرجت الأرض أنقأها﴾ أى ما فى جوفها
 من الأموات والدفائن جمع ثقل وهو متاع البيت وإظهار الأرض فى موقع
 الإضمحار لزيادة التقرير أول الإيماء إلى تبدل الأرض غير الأرض أو لأن إخراج
 الأنقال حال بعض أجزائها ﴿وقال الإنسان﴾ أى كل فرد من أفرادها لما
 يدهمهم من الطامة الثامة ويهرمهم من الداهية العامة ﴿مالها﴾ زلزلت هذه المرتبة
 الشديدة من الزلزال وأخرجت ما فيها من الأنقال استعظاما لما شاهدوه من
 الأمر الهائل وقد سيرت الجبال فى الجو وصيرت هباء وقيل هو قول الكافر
 إذ لم يكن مؤمنا بالبعث والأظهر هو الأول على أن المؤمن يقوله بطريق
 الاستعظام والكافر بطريق التعجب ﴿يومئذ﴾ بدل من إذا وقوله تعالى
 ﴿تحدث أخبارها﴾ عامل فيهما ويجوز أن يكون إذا منتصباً بمضمر أى يوم
 إذ زلزلت الأرض تحدث الخلق أخبارها إما بلسان الحال حيث تدل دلالة
 ظاهرة على ما لأجله زلزالها وإخراج أنقأها وإما بلسان المقال حيث ينطقها
 الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من خير وشر وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنها تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها^(١) وقرىء تنبيه أخبارها وقرىء تنبيه من الإنباء ((بأن ربك أوحى لها)) أى تحدث أخبارها بسبب إحياء ربك لها وأمره إياها بالتحديث على أحد الوجهين ويجوز أن يكون بدلا من أخبارها كأنه قيل تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لأن التحديث يستعمل بالباء وبدونها وأوحى لها بمعنى أوحى إليها .

((يومئذ)) أى يوم إذ يقع ما ذكر ((يصدر الناس)) من قبورهم إلى موقف الحساب ((أشتاتا)) متفرقين بحسب طبقاتهم بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين كما مر في قوله تعالى فتأتون أفواجا وقيل يصدرون عن الموقف أشتاتا ذات اليمين إلى الجنة وذات الشمال إلى النار ((ليروا أعمالهم)) أى أجزية أعمالهم خيرا كان أو شرا وقرىء ليروا بالفتح وقوله تعالى ((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)) تفصيل ليروا وقرىء يره والذرة النملة الصغيرة وقيل ما يرى في شعاع الشمس من الهباء وأيا ما كان فعنى رؤية ما يعادها من خير وشرا إما مشاهدة جزائه فمن الأولى مختصة بالسعداء والثانية بالاشقياء كيف لا وحسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة وما قيل من أن حسنة الكافر تؤثر في نقص العقاب يردده قوله تعالى (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وأما مشاهدة نفسه من غير أن يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صفات المؤمن المجتنب عن الكبائر وإثابته بجميع حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه فالمعنى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله تعالى إياه أما المؤمن فيعفو له سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر فيرد حسناته تحمرا ويعاقبه بسيئاته . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله والله أعلم .

(١) أخرجه السيوطى فى البدور من طرق .

﴿سورة والعاديات﴾

مختلف فيها ، وآياتها إحدى عشرة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿والعاديات﴾ أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وقوله تعالى ﴿صبيحا﴾ مصدر منصوب إما بفعله المحذوف الواقع حالاً منها أى تصبح صبيحا وهو صوت أنفاسها عند عدوها أو بالعاديات فإن العدو مستلزم للصبح كأنه قيل والصباحات أو حال على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى صباحات ﴿فالموريات قدحا﴾ الإيراء إخراج النار والقدح الصك يقال قدح فأورى أى فالتى تورى النار من حوافرها وانتصاب قدحا كأنه انتصاب صبيحا على الوجوه الثلاثة ﴿فالمغيرات﴾ أسند الإغارة التى هى مباغطة العدو للنهب أو للقتل أو للأسر إليها وهى حال أهلها ليدانوا بأنها العمدة فى إغارتهم ﴿صبيحا﴾ أى فى وقت الصبح وهو المعتاد فى الغارات يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون عليهم صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون وقوله تعالى ﴿فأثرن به﴾ عطف على الفعل الذى دله عليه اسم الفاعل إذ المعنى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن به أى فهيجن بذلك الوقت ﴿نقما﴾ أى غباراً وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور أو لا يظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر أن الإيراء الذى لا يظهر فى النهار واقع فى الليل والله در شأن التنزيل وقيل النقع الصباح والجلبة وقرىء فأثرن بالتشديد بمعنى فآظهن به غباراً لأن التأثير فيه معنى الإظهار ﴿فوسطن به﴾ أى توسطن بذلك الوقت أو توسطن ملتبسات بالنقع ﴿جمعاً﴾ من جموع الأهداء والفاءات للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها كما فى قوله :

يا لطف زياية للحارث الصباح فالغانم فالأيب

فإن توسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإغارة المترتبة على الإيراء المترتب على العدو وقوله تعالى ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ أى لكفور من

كفد النعمة كنودا جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفراد . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أناس من بني كنانة سرية واستعمل عليها المنذر ابن عمرو الأنصاري وكان أحد النقباء فأبطأ عليه عليه الصلاة والسلام خبرها شهرا فقال المنافقون إنهم قتلوا فنزلت السورة لإخبارا للنبي عليه الصلاة والسلام بسلامتها وبشارة له بإغارتها على القوم ونعيها على المرجفين في حقهم ما هم فيه من الكنود وفي تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة ما لا مزيد عليه كأنه قيل وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت وقد أرجف هؤلاء في حق أربابها ما أرجفوا أنهم مبالغون في الكفران ﴿ ولأنه على ذلك ﴾ أى وإن الإنسان على كنوده ﴿ لشهد ﴾ يشهد على نفسه بالكنود لظهور أثره عليه ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ أى المال كما في قوله تعالى إن ترك خيرا ﴿ لشديد ﴾ أى قوى مطبق مجد في طلبه وتحصيله متمالك عليه يقال هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطبقا له ضابطا وقيل الشديد البخيل أى إنه لأجل حب المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل بمسك ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حب المال لأنهم بما يظهرون من الإيمان يعصمون أموالهم ويحوزون من الغنائم نصيبا وقوله تعالى :

﴿ أفلا يعلم إذا بعث ما في القبور ﴾ الخ تهديد ووعد والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى يفعل ما يفعل من القبائح أو ألا يلاحظ فلا يعلم حاله إذا بعث من في القبور من الموتى ولم يراد ما لكونهم إذا ذاك بمعزل عن رتبة العقلاء وقرىء بحثر وبحث وبحث وبحث على بناءهما للفعل ﴿ وحصل ﴾ أى جمع محصلا أو ميز خيره من شره وقرىء وحصل مبنيا للفعل وحصل مخففا ﴿ ما في الصدور ﴾ من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون من الكفر والمعاصي فضلا عن الأعمال الجليلة ﴿ إن ربهم ﴾ أى المبعوثين كفى عنهم بعد الإحياء الثانى بضمير العقلاء بعد ما عبر عنهم قبل ذلك بما بناء على تفاوتهم في الحالين كما فعل نظيره بعد الإحياء الأول حيث

التفت إلى الخطاب في قوله تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار) الآية بعد قوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) إني أنا بصلاحيهم للخطاب بعد نفخ الروح وبعدها قبله كما أشير إليه هناك ﴿بهم﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿يومئذ﴾ يوم إذ يكون ما ذكر من بعث ما في القبور وتحصيل ما في الصدور ﴿لخبير﴾ أى عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به كما ينبى عنه تقييده بذلك اليوم وإلا فطلق عليه سبحانه محيط بما كان وما سيكون وقوله تعالى بهم ويومئذ متعلقان بخبير قدما عليه لمراعاة الفواصل واللام غير مانعة من ذلك وقرأ ابن السكيت إن بهم بهم يومئذ خبير .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بمزدلفة وشهد جمعا .

سورة القارعة

مكية ، وآيها عشر

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(القارعة) القرع هو الضرب بشدة واعتماد بحيث يحصل منه صوت شديد وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ومنتهأها فصل القضاء بين الخلائق كما مر في سورة التكوير سميت بها لأنها تفرع القلوب والاسماع بفنون الأفرع والأهوال وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال السماء بالانشقاق والانفطار والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتشار والأرض بالزلزال والتبدل والجبال بالدك والنفس وهى مبتدأ خبره قوله تعالى (ما القارعة) على أن ما الاستفهامية خبر القارعة مبتدأ لا بالعكس لما مر غير مرة أن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ريب في أن مدار إفادة الهول

والفخامة ههنا هو كلمة ما لا القارعة أى شىء عجيب هى فى الفخامة والفضاعة وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً لهولها وفضاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدريك بها وما فى حيز الرفع على الابتداء وأدراك هو الخبر ولا سبيل إلى العكس ههنا وما القارعة جملة كما مر محلها النصب على نزع الخافض لأن أدرى يتعدى إلى المفعول الثانى بالباء كما فى قوله تعالى (ولا أدراكم به) فلما وقعت الجملة الاستفهامية معلقة له كانت فى موقع المفعول الثانى له والجملة الكبيرة معطوفة على ما قبلها من الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ الأول أى وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة ولما كان هذا منبئاً عن الوعد الكريم بإعلامها أنجز ذلك بقوله تعالى :

((يوم يكون الناس كالفرش المبثوث)) على أن يوم مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأى الكوفيين أى هى يوم يكون الناس فيه كالفرش المبثوث فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والاضطراب والتطاير إلى الداعى كتطاير الفراش إلى النار أو منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقهم عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها اذكر يوم يكون الناس الخ فإنه يدريك ما هى هذا وقد قيل إنه ظرف ناصبه مضمرة^(١) يدل عليه القارعة أى تفرع يوم يكون الناس الخ وقيل تقديره سنأتيكم القارعة يوم يكون الخ ((وتكون الجبال كالعين المنفوش)) أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة المندوف فى تفرق أجزائها وتطايرها فى الجو حسبما نطق به قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) وكلا الأمرين من آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق بيد الله عز وجل الأرض غير الأرض وبغير هيئاتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وإن

اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية كما ينطق به قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينفسها ربى نسفا فيذرهما قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى) وقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) فإن اتباع الداعى الذى هو إسرأفيل عليه السلام وبروز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعا وقدم تمام الكلام فى سورة النمل وقوله تعالى (فأما من ثقلت موازينه) الخ بيان لإجمالى لتحزب الناس إلى حزبين وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما إثر بيان الأحوال الشاملة للشكل والموازن إما جمع الموزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله كما قاله الفراء أو جمع ميزان قال ابن عباس رضى الله عنهما إنه ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال قالوا توضع فيه صحائف الأعمال فينظر إليه الخلاق إظهاراً للمعدلة وقطعا للمعذرة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين قالوا إن الميزان لا يتوصل به إلا إلى معرفة مقادير الأجسام فكيف يمكن أن يعرف به مقادير الأعمال التى هى أعراض منقضية وقيل إن الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان أى فمن ترجحت مقادير حسناته (١) (فهو فى عيشة راضية) أى ذات رضا أو مرضية (وأما من خفت موازينه) بأن لم يكن له حسنة يعتد بها أو ترجحت سيئاته على حسناته (فأما) أى فمأواه (هاوية) هى من أسماء النار سميت بها لغاية عمقها وبعد مهوائها .

روى أن أهل النار تهوى فيها سبعين خريفاً وقيل إنها اسم للباب الأسفل منها وعبر عن المأوى باللام لأن أهلها يأوون إليها كما يأوى الولد إلى أمه وعن

(١) انظر باب الميزان من البدور للسيوطى فيه تفصيلات وافية .

قتادة وعكرمة والكلبي أن المعنى فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسا والأول هو الموافق لقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما هي نار حامية ﴾ فإنه تقرير لها بعد إبهامها والإشعار بخروجها عن الحدود المعبودة للتفخيم والتهويل وهي ضمير الهاوية والهاء للسكت وإذا وصل القارئ حذفها وقيل حقه أن لا يدرج لثلاث يسقطها الإدراج لأنها ثابتة في المصحف وقد أجزئ إثباتها مع الوصل .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ القارعة نقل الله تعالى به ميزانه يوم القيامة .

سورة التكاثر

مختلف فيها ، وآيها ثمان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أهاكم التكاثر) أى شغلكم التغالب فى الكثرة والتفاخر بها . روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا وتعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام فقال كل من الفريقين نحن أكثر منكم سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا فكثرتهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم إن البغى أفنانا فى الجاهلية فعادونا بالآحياء والأموات فكثرتهم بنو سهم والمعنى أنكم تكاثرتهم بالآحياء (حتى زرتهم المقابر) أى حتى إذا استوعبتهم عددهم صرتم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات فعبى عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك وقيل المعنى أهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن تمتم وقبرتم مصيحين أعماركم فى طلب الدنيا معرضين عما يهكم من السعى لآخر كما فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت وقرئ أهاكم على الاستفهام التقريرى (كلا) ردع وتنبية على

أن العاقل ينبغي أن لا يكون معظم همه مقصوراً على الدنيا فإن عاقبة ذلك وخيمة
 ﴿سوف تعلمون﴾ سوء مغبة ما أتم عليه إذا عاينتم عاقبته .
 ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ
 من الأول أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور ﴿كلا لو تعلمون
 علم اليقين﴾ أى لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أى كعلمكم ما تستيقنون
 لفعلكم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتحويل وقوله تعالى ﴿لترون
 الجحيم﴾ جواب قسم مضمرة أكد به له الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به
 ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً ﴿ثم لترونها﴾ تكرير للتأكيد أو الأولى إذا
 رأيتم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها أو المراد بالأولى المعرفة والثانية
 المشاهدة والمعينة ﴿عين اليقين﴾ (١) أى الرؤية التى هى نفس اليقين فإن علم
 المشاهدة أقصى مراتب اليقين ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ أى عن النعيم
 الذى ألهاكم الا لتذاذ به عن الدين وتكاليفه فإن الخطاب مخصوص بمن عكف
 همته على استيفاء اللذات ولم يعيش إلا لياً كل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته
 باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل ولا يحمل نفسه مشاقهما فأما من تمتع بنعمة
 الله تعالى وتقوى بها على طاعته وكان فاهضاً بالشكر فهو من ذلك بمنزل بعيد
 وقيل الآية مخصوصة بالكفار . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكاثر
 لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا وأعطى من الاجر كأنما
 قرأ ألف آية .

(١) علم اليقين هو شهود الغيب كأنه محسوس كما فى حديث حذيفة وعين اليقين
 التحقيق بهذا اليقين ذوقاً .

﴿سورة والعصر﴾

مكية ، وآياتها ثلاث

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والعصر) أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر أو بالعشى الذى هو ما بين الزوال والغروب كما أقسم بالضحى أو بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الأعصار أو بالدهر لانطوائه على تعاجيب الأمور القارة والمارة (إن الإنسان لني خسر) أى خسران فى متاجرهم ومسايعهم وصرف أعمارهم فى مباغهم والتعريف للجنس والتشكير للتعظيم (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإنهم فى تجارة لن تبور حيث باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقي النفيس واستبدلوا الباقيات الصالحات بالعاديات الرائحات فبالحق من صفته ما أربحها وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله تعالى (وتواصوا بالحق) الخ بيان لتكميلهم لغيرهم أى وصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره وهو الخير كله من الإيمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله فى كل عقد وعمل (وتواصوا بالصبر) أى عن المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التى يشق عليها أدائها أو على ما يبلى الله عز وجل به عباده وتخصيص هذا التواصى بالذكر مع اندراجه تحت التواصى بالحق لإبراز كمال الاعتناء^(١) به أولان الأول عبارة عن رتبة العبادة التى هى فعل ما يرضى به الله تعالى والثانى عن رتبة العبودية التى هى الرضا بما فعل الله تعالى فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه من فعل وترك بل هو تلقى ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به ظاهرا وباطنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة والعصر غفر الله تعالى له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر .

سورة الهمة

مكية ، وآيها تسع

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ويل) مبتدأ خبره (لكل همزة لمزة) وساغ الابتداء به مع كونه نكرة لأنه دعاء عليهم بالهلكة أو بشدة الشر والهمز الكسر كالهزم واللمز الطعن كاللهز شاعا في الكسر من أهراض الناس والطعن فيهم وبناء فعلة للدلالة على أن ذلك منه عادة مستمرة قد ضرى بها وكذلك اللعنة والضحكة وقرىء لكل همزة لمزة بستكون الميم وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويستهزأ به وقيل نزلت في الأخنس بن شريق فإنه كان ضاريا بالضيعة والوقية وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة واغتابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم غضة من جنابه الرفيع واختصاص السبب لا يستدعى خصوص الوعيد بهم بل كل من اتصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثل ذنوبهم (الذي جمع مالا) بدل من كل أو منصوب أو مرفوع على الذم وقرىء جمع بالتشديد التكثير وتنكير مالا للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى (وعدده) وقيل معنى عدده جعله عدة لنوائب الدهر وقرىء وعدده أى جمع المال وضبط عدده أو جمع ماله وعدده الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الانصار والأعوان وقيل هو فعل ماض بفك الإدغام (يحسب أن ماله أخذه) أى يعمل عمل من يظن أن ماله يبقية حيا والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير وقيل طول المال أمله ومناء الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت وقيل هو تعريض بالعمل الصالح والزهد في الدنيا وأنه هو الذى أخلد صاحبه في الحياة الأبدية والنعيم المقيم فأما المال فليس بخالد لا بمخلد وروى أن الأخنس كان له أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف والجملة مستأنفة أو حال من فاعل

جمع ﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل وقوله تعالى ﴿ لينبذن ﴾ جواب قسم مقدر والجملة استئناف مبين لعل الردع أى والله ليطرحن بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة ﴿ فى الخطمة ﴾ أى فى النار التى شأنها أن تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها كما أن شأنه كسر أعراض الناس وجمع المال .

وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما الخطمة ﴾ لتحويل أمرها ببيان أنها ليست من الأمور التى تنالها عقول الخلق ، وقوله تعالى ﴿ نار الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لشأن المسئول عنها أى هى نار الله ﴿ الموقدة ﴾ بأمر الله عز سلطانه وفى إضافتها إليه سبحانه ووصفها بالإيقاد من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه ﴿ التى تطلع على الأفتدة ﴾ أى تعلو أوساط القلوب وتمسها وتخصيصها بالذكر لما أن الشؤاد ألطف ما فى الجسد وأشدّه تألماً بأذى يحسه أو لأنه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة .

﴿ إنما عليهم مؤصدة ﴾ أى مطبقة من أوصدت الباب وأصدته أى أطبقته ﴿ فى عمد ممددة ﴾ إما حال من الضمير المجرور فى عليهم أى كائنين فى عمد ممددة أى موثقين فيها مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص أو خبر مبتدأ مضمّر أى هم فى عمد أو صفة لمؤصدة قاله أبو البقاء أى كائنة فى عمد ممدودة بأن تؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً فى استيثاق اللهم أجرنا منها يا خير مستجار^(١) وقرئ عمد بضمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه ،^(٢) .

(١) فى ١١ : مجير

(٢) اليابقى فى فضائل القرآن وفيه إسماعيل بن عياش تسكلم فيه كثيراً

سورة الفيل

مكية ، وآياتها خمس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها وكيف معلقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها والرؤية علمية أى ألم تعلم علما رصينا متاخما للمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة ومعينة الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه بأن يقال ألم تر ما فعل ربك أخ تهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكآل عليه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك من الإلهامات لما روى أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام وتفصيلها أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحاب النجاشي بنى بصنعاء كنيسة وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلا فأغضبه ذلك وقيل أجهت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها خلف ليهدم من الكعبة فخرج مع جيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويا عظيما وإثنا عشر فيلا غيره وقيل ثمانية وقيل ألف وقيل كان معه وحده فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه تلك أموال تهامة ليرجع فأبى وعبا جيشه وقدم الفيل فكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول فأرسل الله تعالى طيرا سودا وقيل خضرا وقيل بيضا مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجله أكبر من العدسة وأصغر من الحصاة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل وروى أن أبرهة تساقطت أنامله

وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبويكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه وقيل إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه في شأنها فلما رآه أبرهة عظم في عينه وكان رجلا وسيماً جسيماً وقيل هذا سيد قریش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤس الجبال فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وقيل أجلسه معه على سريره ثم قال لزوجائه قل له ما حاجتك فلما ذكر حاجته قال سقطت من عيني حيث جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر لا تكلمني فيه أهلك عنه ذود أخذت لك فقال عبد المطلب أنا رب الإبل وإن البيت ربا يحميهم ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر من قریش يدعون الله عز وجل فالتفت وهو يدعو فإذ هو بطير من نحو اليمن فقال والله إنها لطير غريبة ما هي نجدية ولا تهامية فأرسل حلقة الباب ثم انطلق مع أصحابه ينتظرون ماذا يفعل أبرهة فأرسل الله تعالى عليهم الطير فكان ما كان وقيل كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وعن عائشة رضي الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطمان^(١) وقرىء ألم تر بسكون الرءاء للجد في إظهار أثر الجازم وقوله تعالى ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ الخ بيان لإجمالي لما فعله الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم في تضليل الكعبة وتخريبها في تضليلهم وإبطال بأن دمرهم أشنع تدمير ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ أى طوائف وجماعات جمع أبالة وهي الخزمة الكبيرة شبت بها الجماعة من الطير في تضامها وقيل أبابيل مثل عبايد وشماطيط لا واحد لها ﴿ ترميهم بحجارة ﴾ صفة لطير أ وقرىء يرميهم بالتذكير لأن الطير اسم

(١) أبو نعيم في الدلائل من طرق . وابن أبي حاتم والبيهقي ، والسيوطي

في الخصائص .

جمع تأنيثه باعتبار المعنى ﴿من سجيل﴾ من طين متحجر معرب سنك كل وقيل كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجيناً علم للديوان الذى يكتب فيه أعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ﴿فجعلهم كمصف ما كول﴾ كورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقى صفراً منه أو كتبت أكلته الدواب ورائته أشير إليه بأول أحواله . عن النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيام حياته من الخسف والمسخ » والله أعلم .

سورة قريش

مكية ، وآياتها أربع

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿لإيلاف قريش﴾ متعلق بقوله تعالى فليعبدوا والفاء لما فى الكلام من معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة فإن لم يعبدوه لساثر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة وقيل بمضمر تقديره فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف الخ وقيل تقديره أعجبوا لإيلاف الخ وقيل بما قبله من قوله تعالى ﴿فجعلهم كمصف ما كول﴾ ويؤيده أنهما فى مصحف أبى سورة واحدة بلا فصل والمعنى أهلك من قصدتم من الحبشة ليتسامع الناس بذلك فيتنبهوا لهم زيادة تهيب ويحترمواهم بفضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتهم فلا يجترأ عليهم أحد وكانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاية بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب

والإيلاف من قولك آلفت المكان إيلافاً إذا ألفتَه وقرىء إيلاف قريش
أى لمؤالفتهم وقيل يقال ألفتَه ألفاً وألأفا وقرىء لألف قريش وقريش
ولد النصر بن كنانة نهموا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر
تعبت بالسفن ولا تطاق إلا بالنار والتصغير للتعظيم وقيل من القرش وهو
الكسب لأنهم كانوا أكسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد وقوله تعالى :

(إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) بدل من الأول ورحلة مفعول
إيلافهم وإفرادها مع أن المراد رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس
وفى إطلاق الإيلاف عن المفعول أولاً وإبدال هذا منه تفخيم لأمره
وتذكير لعظيم النعمة فيه وقرىء ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف
وقرىء رحلة بالضم وهى الجهة التى يرحل إليها (فليعبدوا رب هذا
البيت الذى أطعمهم) بسبب تفنك الرحلتين اللتين تمكنوا فىهما بواسطة
كونهم من جيرانه (من جوع) شديد كانوا فيه قبلهما وقيل أريد به
القحط الذى أكلوا فيه الجيف والعظام (وآمنهم من خوف) عظيم لا
يقادر قدره وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف النخطف فى بلدهم [وفى] (١)
مسايرهم وقيل خوف الجذام فلا يصيبهم فى بلدهم .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة قريش أعطاه الله تعالى
عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها .

* * *

سورة الماعون

مختلف فيها وآيها سبع

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(أرأيت الذي يكذب بالدين) استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجب منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لكل عاقل والرؤية بمعنى المعرفة وقرئ أرأيتك بزيادة حرف الخطاب والقاء في قوله تعالى (فذلك الذي يدع اليتيم) جواب شرط محذوف على أن ذلك مبتدأ والموصول خبره والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزء أو بالإسلام إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذي يدفع اليتيم دفعا عنيفا ويزجره زجرا قبيحا ووضع اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار إليه موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم والتنبيه بما فيه من معنى البعد على بعد منزلته في الشر والفساد قيل هو أبو جهل كان وصيا ليتيم فأتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شديدا وقيل أبو سفيان نحر جزورا فسأله يتيم لما فقرعه بعصاه وقيل هو الوليد ابن المغيرة وقيل هو العاص بن وائل السهمي وقيل هو رجل بخيل من المنافقين وقيل الموصول على صومه وقرئ يدع اليتيم أي يتركه^(١) ويحفظه (ولا يحض) أي أهله وغيرهم من الموسرين (على طعام المسكين) وإذا كان حال من ترك حدث غيره على ما ذكر فظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة عليه والقاء في قوله تعالى (فويل) الخ إما لربط ما بعدها بشرط محذوف كأنه قيل إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين من دلائل التكذيب بالدين وموجبات الذم والتوبيخ فويل (للمصلين الذين هم عن صلواتهم ساهون) غافلون غير مباليين بها (الذين هم يراون) أي يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها

(١) في ١١ : أي بدعه بمعنى يتركه .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أى الزكاة أو ما يتعاور عادة فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان كما ذكر فعدم المبالاة بالصلاة التى هى عماد الدين والرياء للذى هو شعبة من الكفر ومنع الزكاة التى هى قنطرة الإسلام وسوء المعاملة مع الخلق أحق بذلك وإما لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ووضع المصلين موضع ضميرهم ليتوسل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الدين غفر له إن كان للزكاة مؤدياً .



سورة الكوثر

مكية ، وآياتها ثلاث

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ إنا أعطيناك ﴾ وقرئ أنطيناك ﴿ الكوثر ﴾ أى الخير المفرط الكثير من شرف النبوة الجامعة لخيرى الدارين والرياسة العامة المستتمة لمساعدة الدنيا والدين فوعل من الكثرة وقيل هو نهر فى الجنة وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قرأها فقال أتدرون ما الكوثر إنه نهر فى الجنة وعدنيه ردى فيه خير كثير وروى فى صفته أنه أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد حافظه الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء وروى لا يظلمأ من شرب منه أبداً أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الشباب الشعث الرؤس الذين لا يزوجون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد يموت أحدهم وحاجته تملجج فى صدره لو أقسم على الله لأبره ^(١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) أخرجه السيوطى فى البدور ورقة ٢١٥ .

أنه فسر السكوتر بالخير الكثير فقال له سعيد بن جبير فان ناسا يقولون هو
نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير وقيل هو حوض فيها وقيل هو أولاده
وأتباعه أو علماء أمته أو القرآن الحاوى لخير الدنيا والدين والفاء في قوله تعالى
﴿فصل لربك﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان إعطائه تعالى إياه عليه السلام
ما ذكر من العطية التي لم يعطها وإن يعطيها أحدا من العالمين مستوجب للمأمور
به أى استيجاب أى قدم على الصلاة لربك الذى أفاض عليك هذه النعمة الجليلة
التي لا يضاهيها نعمة خالصة لوجهه خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء
الحقوق شكرها فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ﴿وانحر﴾ البدن التي هي
خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاييج خلافا لمن يدعهم ويمنع
عنهم الماعون وعن عطية هي صلاة الفجر يجمع والنحر بمنى وقيل صلاة العيد
والتضحية وقيل هي جنس الصلاة والنحر وضع اليمين على الشمال وقيل هو أن
يرفع يديه في التكبير إلى نحره هو المروى عن النبي عليه الصلاة والسلام
وعن ابن عباس رضي الله عنهما استقبل القبلة بنحرك وهو قول الفراء والكلبي
وأبى الأحوص ﴿إن شئت﴾ أى مبغضك كائنا من كان ﴿هو الأثر﴾
الذى لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر وأما أنت فتمتق ذريتك
وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ولك في الآخرة ما لا يتدرج تحت
البيان وقيل نزلت في العاص بن وائل وأيا ما كان فلا ريب في عموم الحكم . عن
النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السكوتر سقاه الله تعالى من كل نهر في
الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قرب به العباد في يوم النحر (١) .

(١) أخرجه القرطبي في التذكار عن ابن عمر .

سورة الكافرون ﴿١﴾

مكية ، وآيات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ هم كفرة مخصوصون قد علم الله تعالى أنه لا يتأتى منهم الإيمان أبدا . روى أن رهطا من عتاة قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل فاتبع ديننا وتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا فصدقك ونعبد إلهك فنزلت فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أى فيما يستقبل لأن دلاء لا تدخل غالبا إلا على مضارع فى معنى الاستقبال كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال والمعنى لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ﴿ ولا أتم عابدون ما أعبد ﴾ أى ولا أتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أى وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه أى لم يعبد منى عبادة صنم فى الجاهلية فكيف ترجى منى فى الإسلام ﴿ ولا أتم عابدون ما أعبد ﴾ (١) أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته وقيل هاتان الجملتان لنفى العبادة حالا كما أن الأولين لنفيها استقبالا وإنما لم يقل ما عبدت ليوافق ما عبدتم لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوما بعبادة الله تعالى وإيثار ما فى أعبد على من لأن المراد هو الوصف كأنه قيل ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذى لا يقادر قدر عظمته وقيل إن ما مصدرية أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى وقيل الأوليان بمعنى الذى والآخران مصدريتان وقيل قوله تعالى (ولا أنا

(١) انظر متشابه القرآن للقسطلانى خط ورقة ٨٠ .

عابد ما عبدتم) تأكيد لقوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون) وقوله تعالى (ولا أتم عابدون ما أعبد) ثانيا تأكيد لمثله المذكور أولا وقوله تعالى (لكم دينكم) تقرير لقوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون) وقوله تعالى (ولا أنا عابد ما عبدتم) كما أن قوله تعالى (ولى دين) تقرير لقوله تعالى (ولا أتم عابدون ما أعبد) والمعنى أن دينكم الذى هو الإشراف مقصور على الحصول لكم لا يتجاوز به إلى الحصول لى أيضا كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أما نيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات وأن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى لا يتجاوز به إلى الحصول لكم أيضا لأنكم علقتموه بالمحال الذى هو عبادتى لألهنكم أو استلامى إياها ولأن ما وعدتموه عين الإشراف وحيث كان مبنى قولهم تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة على شركة الفريقين فى كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتما ويجوز أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى (ولا أنا عابد ما عبدتم) أى ولى دينى لا دينكم كما هو فى قوله تعالى (ولكم ما كسبتم) وقيل المعنى لى نبى مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى كفافاً ولا تدعونى إلى الشرك فتأمل .

عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وتعافى من الفزع الأكبر .

(سورة النصر)

مدنية ، وآياتها ثلاث

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(إذا جاء نصر الله) أى إعادته تعالى وإظهاره إياك على عدوك (والفتح) أى فتح مكة وقيل جنس نصر الله تعالى ومطلق الفتح فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما أن نفسها أم القرى وإمامها جمل بجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح وعلق به أمره عليه السلام بالتسبيح والحمد والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للايدان بأنهما متوجهان نحوه عليه السلام وأنهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب . روى أنها نزلت قبل الفتح وعليه الأكثر وقيل فى أيام التشريق بمعنى فى حجة الوداع فكلمة إذا حينئذ باعتبار أن بعض ما فى حيزها أعنى رؤية دخول الناس الخ غير منقضى بعد وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع النبي عليه الصلاة والسلام عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب وأقام بها خمس عشرة ليلة وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ثم قال يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنته من رقابهم غنوة وكانوا له فياه ولذلك سمي أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام ثم خرج إلى هوازن (١) (ورأيت الناس) أى أبصرتهم أو علمتهم (يدخلون فى دين الله) أى ملة الإسلام التى لا دين يضاف إليه تعالى غيرها والجملة على الأول حال من الناس وعلى الثانى مفعول ثان لرأيت وقوله تعالى (أفواجا) حال من فاعل يدخلون أى يدخلون فيه جماعات كشيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين ، روى

(١) تفاصيل الخبر فى عيون الأثر لابن سيد الناس ص ٢٤٠

أنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه أحد وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجا من غير قتال وقرىء فتح الله والنصر وقرىء يدخلون على البناء للفعول ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدا له أو فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمة المحترم واحمده على جميل صنعه هذا على الرواية الأولى ظاهر وأما على الثانية فلعله عليه السلام أمر بأن يداوم على ذلك استعظاما لنعمه لا بإحداث التعجب لما ذكر فإنه إنما يناسب حالة الفتح أو فاذا ذكره مسبحا حامدا زيادة في عبادته والشاء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصل له حامدا على نعمه روى أنه لما فتح باب الكعبة صلى الصلاة مضحى ثمان ركعات أو فززه عما يقوله الظلمة حامدا له على أن صدق وعده أو فأنشأ على الله تعالى بصفات الجلال حامدا له على صفات الإكرام ﴿واستغفره﴾ هضم النفسك واستغفارا لعملك واستعظاما لحقوق الله تعالى واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى عن عائشة رضى الله عنها أنه كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك وعنه عليه السلام إنى لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة وروى أنه لما قرأها النبي عليه الصلاة والسلام على أصحابه استبشروا وبكى العباس فقال عليه السلام ما يبكيك يا عم فقال نعت إليك نفسك قال عليه السلام إنها لكما تقول^(١) فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشرا وقيل إن ابن عباس هو الذى قال ذلك فقال عليه السلام لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا ولعل ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين كقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن عبدا خيره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختر لقاء الله تعالى فعلم أبو بكر رضى الله عنه فقال فدينك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا. وعنه عليه السلام أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنتاه إنه نعت

(١) فى سير السلف للأصبهاني أن هذا التفسير لابن عباس.

إلى نفسى فبكت فقال لا تبكى فإنك أول أهلى لحوقانى وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع وقيل هو أمر بالاستغفار^(١) لآمنه (إنه كان تواباً) منذ خلق المكلفين أى مبالغاً فى قبول توبتهم فليكن كل نائب مستغفر متوقفاً للقبول عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النصر أعطى من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة،^(٢).

...

سورة تبت

مكية ، وآياتها خمس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبت) أى هلكت (يدا أبى لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب وإشار التباب على الهلاك وإسناده إلى يديه لما روى أنه لما نزل (وأنذر عشيرتک الاقربين) رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا وجمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب تبأ لك ألهذا دعوتنا وأخذ حجراً ليرميه عليه السلام به (وتب) أى وهلك كله وقيل المراد بالاول هلاك جملته كقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ومعنى تب وكان ذلك وحصل كقول من قال :

جزانى جزاء الله شر جزائه جزاء السكلاب العاويات وقد فعل
ويؤيده قراءة من قرأ وقد تب وقيل الاول إخبار عن هلاك عمله لأن الأعمال تزاوُل غالباً بالأيدي والثانى إخبار عن هلاك نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الاول دعاء والثانى إخبار وذكر كنيته للتعريض بكونه

(١) جميع هذه الأخبار أخرجه الأجهورى فى الإرشاد من طرق .

(٢) فى القرطبي فى التذكار عن أبى هريرة .

جهنميا ولاشتهاره بها ولسكراته ذكر اسمه القبيح وقرىء أبو لُحْب كما قيل على ابن أبو طالب وقرىء أبو لُحْب بسكون الهاء ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أى لم يغن عنه حين حل به الباب على أن ما نافية أو أى شئ أغنى عنه على أنها استفهامية فى معنى الإنكار منصوبة بما بعدها أصل ماله وما كسبه من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والاتباع أو ماله الموروث من أبيه والذى كسبه بنفسه أو عمله الحديث الذى هو كيده فى عداوة النبي عليه الصلاة والسلام أو عمله الذى ظن أنه منه على شئ كقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما كسب ولده وروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخى حقا فأنا أفئدى منه نفسى بمالى وولدى فأستخلص منه وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه فافترس ولده عتبة أسد فى طريق الشام بين العير المكتنفة به وقد كان عليه السلام دعا عليه وقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك وهلك نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقى ثلاثا حتى أتته ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه فكان الأمر كما أخبر به القرآن ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء وقرىء بضمها وفتح اللام بالتخفيف والتشديد والسين لتأكيد الوعيد وتشديده أى سيدخل لا محالة بعد هذا العذاب العاجل فى الآخرة ﴿ ناراً ذات لُحْب ﴾ أى ناراً عظيمة ذات اشتعال وتوقد وهى نار جهنم وليس هذا نصا فى أنه لا يؤمن أبدا حتى يلزم تكليفه الإيمان بالقرآن مكلفا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن أبدا فيسكون مأمورا بالجمع بين النقيضين كما هو المشهور فإن صلى النار غير مختص بالكفار فيجوز أن يفهم أبو لُحْب من هذا أن دخوله النار لنفسه ومعاصيه لا لسكفره فلا اضطرارا إلى الجواب المشهور من أن ما كلفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام إجمالا لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلف الإيمان بعدم إيمانه المستمر ﴿ وامرأته ﴾ عطف على المستكن فى سيصلى لمكان الفصل بالمفعول وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان وكانت تحمل حرمة من الشوك والحسك والسعدان فتنترها

بالليل في طريق النبي عليه الصلاة والسلام وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير
وقيل كانت تمشي بالنعيمه ويقال لمن يمشى بالنعائم ويفسد بين الناس يحمل الخطب
بينهم أى وقد بينهم النار (حمالة الخطب) بالنصب على الشتم والذم وقيل على الحالية
بناء على أن الإضافة غير حقيقية إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من
حطب جهنم كالزقوم والضريع وعن قتادة أنها مع كثرة ما لها كانت تحمل
الخطب على ظهرها لشدة بخلها فغيرت بالبخل فالنصب حينئذ على الشتم حتما
وقرىء بالرفع على أنه خبر وامرأته مبتدأ وقرىء حمالة للخطب بالتثنية نصباً
ورفعاً وقرىء مريته بالتصغير للتحقير (في جيدها جبل من مسد) جملة من
خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة الحالية وقيل الظرف خبر لامرأته وجبل مرتفع
به على الفاعلية وقيل هو حال من امرأته على تقدير عطفها على ضمير سيصل
وجبل فاعل كما ذكر والمسد ما يقتل من الجبال فتلا شديداً من ليف المقل وقيل
من أى ليف كان وقيل من لحاء شجر بالين وقد يكون من جلود الإبل وأوبارها
والمعنى في عنقها جبل مما مسد من الجبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها
في جيدها كما يفعل الخطابون تخسيساً بحالها وتصويراً لها بصورة بعض الخطابات
من المواهن لتمتع من ذلك ويتمعض بعلها وهما في بيت العز والشرف قال
مرة الحمداني كانت أم جميل تأتي كل يوم بأبالة من حسك فتطرحها على طريق
المسلمين فيينا هي ذات لبلة حاملة حزمة أعيت فقعدت على حجر لتستريح فجندها
الملك من خلفها فاختنقت بحبلها . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة .

﴿سورة الإخلاص﴾

مختلف ، فيها وآياها أربع

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير للشأن ومدار وضعه وموضعه مع عدم سبق ذكره الإيدان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد وإليه يشير كل مشير وإليه يعود كل ضمير كما ينبي عنه اسمه الذي أصله المقصد أطلق على المفعول مبالغة ومحله الرفع على الابتداء خبره والجملة بعده ولا حاجة إلى الربط لأنها عين الشأن الذي عبر عنه بالضمير والسر في تضدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على ثمامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير فإن الضمير لا يفهم من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن متربها لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن وهمزة أحد مبدلة من الواو وأصله وحد لا كهزمة ما يلزم النفي ويراد به العموم كما في قوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وما في قوله (منكم من أحد عنه حاجزين) وما في قوله عليه السلام ما أحلت الغنائم لأحد سود الرؤس غيركم فإنها أصلية وقال مكى أصل أحد واحد فأبدلت الواو همزة فاجتمع ألفان لأن الهمزة تشبه الألف فحذفت إحداهما تخفيفا وقال ثعلب إن أحد لا يبنى عليه العدد ابتداء فلا يقال أحد واثنان كما يقال واحد واثنان ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ولذلك اختص به تعالى أو هو لما سئل عنه أى الذى سألتكم عنه هو الله إذا روى أن قریشا قالوا صف لنا ربك الذى تدعوننا إليه وانسبه فنزلت فالضمير مبتدأ والله خبره وأحد بدل منه أو خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء هو الله أحد بغير قل وقرىء الله أحد بغير قل هو وقرىء قل هو الواحد وقوله تعالى ﴿الله الصمد﴾ مبتدأ وخبر والصمد فعل بمعنى مفعول

من يصمد إليه إذا قصده أى هو السيد المصمود إليه فى الحوائج المستغنى بذاته وكل ما عده محتاج إليه فى جميع جهاته وقيل الصمد الدائم الباقي الذى لم يزل ولا يزال وقيل الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وتعريفه لعلهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمنزل من استحقاق الألوهية وتعزية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى بين أولا ألوهيته عز وجل المستتعبة لكافة نعوت الكمال ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه وتوهم المشاركة فى الحقيقة وخواصها ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتى عما سواه وافتقار جميع المخلوقات إليه فى وجودها وبقائها وسائر أحوالها تحقيقا لاحق وإرشادا لهم إلى سلته الواضح ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة فقبل (لم يلد) تنصيحا على إبطال زعم المفترين فى حق الملائكة والمسيح ولذلك ورد النفي على صيغة الماضى أى لم يصدر عنه ولد لأنه لا يجانس شئ ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد كما نطق به قوله تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) ولا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه (ولم يولد) أى لم يصدر عنه شئ لاستحالة نسبة العدم سابقا ولاحقا والتصريح به مع كونهم معرفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقه بالإشارة إلى أنهما متلازمان إذ المعبود أن ما يلد يولد وما لا فلا ومن قضية الاعتراف بأنه لا يلد فهو قريب من عطف لا يستقدمون على لا يستأخرون كما مر تحقيقه (ولم يكن له كفوا أحد) أى لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وله صلة لكفوا قدمت عليه مع أن حقها التأخر عنه للاهتمام بها لأن المقصود نفى المكافأة عن ذاته تعالى وقد جوز أن يكون خبرا لا صلة ويكون كفوا حالا من أحد وليس بذلك وأما تأخير اسم كان فلإعارة الفواصل ووجه الوصل بين هذه الجمل غنى عن البيان وقرئ بضم الكاف والفاء مع تسهيل الهمزة وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء هذا ولا تطأ السورة السكينة مع تقارب قطريها على أشبات المعارف الإلهية والرد على من ألد فيها

ورد في الحديث النبوي أنها تعدل ثلث القرآن فإن مقاصده منحصرة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكلمة اعتبر المقصود بالذات منه. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد أى ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التى نطقت بها هذه السورة . وعنه عليه السلام أنه سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال وجبت ف قيل وما وجبت يا رسول الله قال وجبت له الجنة (١) .

(سورة الفلق)

مختلف ، فيها وآياتها خمس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أعوذ برب الفلق) الفلق الصبح كالفرق لأنه يفلق عنه الليل ويفرق فعل بمعنى مفعول فإن كل واحد من المفلوق والمفلوق عنه مفعول وقيل هو ما انفلق من عموده وقيل هو كل ما يفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الأمطار والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك وفي تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرق عدة كريمة بإعادة العائد مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب له في الجود والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه تعالى وأما الإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل من هذا العالم قدر أن يزيل عن العائد ما يخافه كما قيل فلا إذ لا ريب للعائد في قدرته تعالى على ذلك حتى يحتاج إلى التفتيح عليها .

(١) أخرجه ابن السفي في عمل اليوم والليلة عن أبي هريرة من طريقه .

(من شر ما خلق) أى من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهما كائنا ما كان من ذوات الطباع والاختيار وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور فمن توهم أن الاستعاذة ههنا من المضار البدنية وأنها تعم الإنسان وغيره بما ليس بصدد الاستعاذة ثم جعل عمومها مداراً لإضافة الرب إلى الفلق فقد نأى عن الحق بمراحل وإضافة الشر إليه لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيميائياتها المتضادة المستتعبة للكون والفساد وأما عالم الأمر فهو خير محض منزّه عن شوائب الشر بالمرة وقوله تعالى (ومن شر غاسق) تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجها فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لسكثرة وقوعه ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة وأدعى إلى الإعادة أى ومن شر ليل معتكر ظلامه من قوله تعالى (إلى غسق الليل) وأصل الغسق الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وقيل هو السيلان وغسق الليل انصباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعها وإضافة الشر إلى الليل للملازمة له بحدوثه فيه وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع أفرادها ولأن أجزائه وتقييده بقوله تعالى (إذا وقب) أى دخل ظلامه في كل شيء لأن حدوثه فيه أكثر والتحرز منه أصعب وأعبى ولذلك قيل الليل أخفى للويل وقيل الغاسق هو القمر إذا امتلأ ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده لما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فأشار إلى القمر فقال تعوذى بالله تعالى من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب وقيل التعبير عن القمر بالغاسق لأن جرمه مظلم وإنما يستنير بضوء الشمس ووقوبه المحاق في آخر الشهر والمنجمون يعدونه نحسا ولذلك لا يشتغل السحرة بالسحر المورث للتعمير إلا في ذلك الوقت قيل وهو المناسب لسبب النزول وقيل الغاسق الثريا ووقوبها سقوطها لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواغين وقيل هو كل شر يعترى الإنسان ووقوبه هجومه .

(ومن شر النفاثات في العقد) أى ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها والنفث النفخ مع ريق وقيل بدون (٣٨ - أبو السعود - خامس)

ريق وقرى النافثات كما قرى النفاثات بغير ألف وتعريفها إما للمهد أو للإيدان
بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضن فيه وتخصيصه بالذكر لما روى ابن عباس
وعائشة رضى الله عنهم أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي عليه الصلاة والسلام
وكان عنده أسنان من مشطه عليه السلام فأعطاه اليهود فسحروه عليه السلام
فيها وتولاه لبيد بن الأعصم اليهودى وبناته وهن النافثات فى العقد فدفعها فى
بئر أريس فرض النبي عليه الصلاة والسلام فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين
وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فأرسل عليه الصلاة والسلام
عليها كرم الله وجهه والزبير وعمار رضى الله عنهما فنزحوا ماء البئر فكأنه
نقاعة الحناء ثم رفعوا أراغوة البئر وهى الصخرة التى توضع فى أسفل البئر
فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعهما وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة
بالأبر فجأوا بها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما
قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه السلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند
تمام السورتين فقام عليه السلام كأنما أنشط من عقال فقالوا يا رسول الله
أفلا تقتل الخبيث فقال عليه السلام أما أنا فقد عافانى الله عز وجل وأكره
أن أثير على الناس شرا قالت عائشة رضى الله عنها ما غضب النبي عليه الصلاة
والسلام غضبا ينتقم لنفسه قط إلا أن يكون شيئا هو الله تعالى فيغضب الله
وينتقم وقيل المراد بالنفث فى العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من
تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها (ومن شر حاسد إذا حسد) أى إذا
أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادئ
الآضرار بالمحسود قولا أو فعلا والتقييد بذلك لما أن ضرر الحسد قبله إنما يحيق
بالحاسد لا غير .

عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التى
أنزلها الله تعالى (١) .

(١) انظر تفصيل آخرى فى سير السلف للأصفهاني ورقة ٢٤٠ خط .

سورة الناس

مختلف فيها ، وآيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قل أعوذ) وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام
 (رب الناس) أى مالك أمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم
 وقوله تعالى (ملك الناس) عطف بيان جاء به لبيان أن تربيته تعالى لإياهم
 ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من عايليكهم بل بطريق الملك
 الكامل والتصرف السكلى والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى (إله الناس)
 فإنه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمورهم
 وسياستهم والتولى لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك
 بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف
 السكلى فيهم لإحياء وإماتة وإيجاد وإعدام وتخصيص الإضافة بالناس مع
 انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته للإرشاد إلى
 منهاج الاستعاذة المرضية عنده تعالى الحقيقية بالإعادة فإن توسل العائذ بربه
 وانتسابه إليه تعالى بالمربوبة والملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من
 أفراد من دواعى مزيد الرحمة والرفقة وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد
 الكريم بالإعادة لا محالة ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم
 فى التخصيص على انتظامهم فى سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم
 من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى (إن عبادى ليس
 لك عليهم سلطان) فمن جعل مدار تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من
 المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر فى توفية المقام حقه وأما جعل المستعاذ
 منه فيما سبق المضار البدنية فقد عرفت حاله وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف
 والتقريب والتشريف بالإضافة (من شر الوسواس) هو اسم بمعنى الوسوسة

وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فبالكسر والمراد الشيطان سمي لفعله مبالغته كأنه نفس الوسوسة ﴿الناس﴾ الذي عاداته أن يخنس أى يتأخر إذا ذكر. الإنسان ربه ﴿الذى يوسوس فى صدور الناس﴾ إذا غفلوا عن ذكره تعالى وعمل الموصول أما الجر على الوصف وأما الرفع أو النصب على الذم ﴿من الجنة والناس﴾ يبان للذى يوسوس على أنه ضربان جنى وإنسى كما قال عز وجل (شياطين الإنس والجن) أو متعلق بيوسوس أو يوسوس فى صدورهم من جهة الجن ومن جهة الإنس وقد جوز أن يكون بيانا للناس على أنه يطلق على الجن أيضا حسب إطلاق المنفر والرجال عليهم ولا تعويل عليه وأقرب منه أن يراد بالناس الناسى ويجعل سقوط الياء كسقوطها فى قوله تعالى (يوم يدع الداع) ثم يبين بالجنة والناس فإن كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حتى الله تعالى إلا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى من الغفلة عن ذكره ووفقنا لأداء حقوق شكره ؟

خاتمة المؤلف

قال العبد الذليل متضرعا إلى ربه الجليل : اللهم يا ولى العصمة والإرشاد
وهادى الغواة إلى سنن الرشاد بارى البرية مالك الرقاب عليك توكلى وإليك
متاب أنت المغيث لكل حائر ملهوف والمجير من كل هائل مخوف ألوذ
بحرمك المسأوم من غوائل ريب المنون وألتجئ إلى حرزك الحريز وآوى
إلى ركنك العزيز وأسألك من خزائن برك المخزون فى مكمن سرك المسكنون
خير ما جرى به قلم التكوين من أمور الدنيا والدين وأعوذ بك من فنون
الفتن والشور لا سيما الاطمئنان بدار الغرور والاعتزاز بنعيمها وزهرتها
والافتتان بزغارها وزينتها فأعذنى بحمايتك وأعنى بعنايتك وأفضى على من
شوارق الأنوار الربانية وبوارق الآثار السبحانية ما يخلصنى من العوائق
الظلمانية ويجردنى من العلائق الجسمانية وهذب نفسى الآبية من دنس الطبائع
والآخلاق ونور قلبى القاسى بلوامع الإشراق ليستعد للعبور على سرائر الآنس
ويتهيا للحضور فى حظائر القدس وثبتنى على مناهج الحق والهدى وأرشدنى
إلى مسالك البر والتقوى واجعل أعز مرامى ابتغاء رضاك وأشرف أيامى يوم
لقاك يوم يقوم الناس لرب العالمين فريقا فريقا واحشرنى مع الذين أنعمت
عليهم من المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فهرس موضوعى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣	سورة المؤمن	١٨٣	سورة ق
١٥	مؤمن آل فرعون	١٩٦	سورة الذاريات
٢٦	من دلائل التوحيد	١٩٨	المتقون وجزاؤهم
٣١	سورة السجدة (فصلت)	٢٠٨	سورة الطور
٤٦	العلاقات الاجتماعية	٢٠٩	عاقبة المكذبين
٥٥	سورة الشورى	٢٢٠	عاقبة المتقين
٥٩	وحدة الإسلام	٢١٣	رد أباطيل الكفار
٧٥	سورة الزخرف	٢١٧	سورة والنجم
٧٩	من دلائل الكفر	٢١٧	دفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم
٩٠	أمثلة ضربها الكفار	٢٢١	توبيخ الكفار
٩٩	سورة الدخان	٢٢٩	مسئولية الإنسان
١٠٩	سورة الجاثية	٢٣٢	سورة القمر
١٢٠	سورة الأحقاف	٢٣٤	من أهوال البعث ونظائره فى الدنيا
١٣٨	سورة محمد صلى الله عليه وسلم	٢٤٢	سورة الرحمن
	عجائب الجنة	٢٥٥	سورة الواقعة
١٥٤	سورة الفتح	٢٥٨	نعيم المتقين
١٩١	بيعة الشجرة	٢٦١	عقاب الكافرين
١٦٥	ارهاص يفتح مكة	٢٦٤	حجة الله على الكفار
١٧٠	سورة الحجرات	٢٧٠	سورة الحديد
١٧٧	من أخلاق الإيمان	٢٧٥	نين المؤمنين والكافرين
		٢٧٧	تقويم المؤمنين

الموضوع	ص	الموضوع	ص
سورة الجاثية	٣٨٠	تزهيد فى الدنيا	٢٨٠
سورة المعارج	٣٨٨	سورة المجادلة	٢٨٦
سورة نوح عليه السلام	٣٩٥	حكم الظهار	٢٨٧
سورة الجن	٤٠٣	من آداب الإسلام	٢٩٢
سورة المزمل	٤١١	سورة الحشر	٢٩٨
سورة المدثر	٤١٧	طرد اليهود من المدينة	٢٩٩
تهديد الطغاة	٤١٩	من خلاق النفاق	٣٠٦
سورة القيامة	٤٢٨	سورة الممتحنة	٣١٢
سورة الإنسان	٤٣٣	سورة الصف	٣٢١
سورة والمرسلات	٤٤٢	دعوة إلى الجهاد	٣٢٢
سورة النبأ	٤٤٨	التشهير بمحمد صلى الله عليه وسلم	٣٢٣
سورة النازعات	٤٦٢	سورة الجمعة	٣٢٧
سورة عبس	٤٧٧	دحق مزاعم اليهود	٣٢٩
سورة التكوير	٤٨٤	آداب الجمعة	٣٣٠
سورة انفطرت	٤٩١	سورة المنافقون	٣٢٢
سورة المطففين	٤٩٥	من سمات النفاق	٣٢٢
سورة الأنشفاق	٥٠٢	توجيه للمؤمنين	٣٣٥
سورة البروج	٥٠٧	سورة التغابن	٣٣٧
سورة الطارق	٥١٣	من توجيهات القرآن	٣٤١
سورة الأعلى	٥١٦	سورة الطلاق	٣٤٣
سورة الغاشية	٥٢٢	سورة التحريم	٣٥٠
سورة الفجر	٥٢٧	دعوة إلى التوبة	٣٥٣
سورة البلد	٥٣٤	دعوة إلى الجهاد	٣٥٤
سورة الشمس	٥٣٧	سورة الملك	٣٥٦
سورة الليل	٥٣٩	سورة ن	٣٦٩

الموضوع	ص	الموضوع	ص
سورة الحمزة	٥٧٤	سورة والضحي	٥٤٢
سورة الفيل	٥٧٦	سورة ألم نشرح	٦٤٦
سورة قریش	٥٧٨	سورة التین	٥٤٨
سورة المسعون	٥٨٠	سورة العلق	٥٥٢
سورة الكوثر	٥٨١	سورة القدر	٥٥٧
سورة للكافرون	٥٨٣	سورة لم يكن	٥٥٩
سورة النصر	٥٨٥	سورة الزلزلة	٥٦٤
سورة نبت	٥٨٧	سورة والعاديات	٥٦٦
سورة الإخلاص	٥٩٠	سورة القارعة	٥٦٨
سورة الفلق	٥٩٢	سورة التكاثر	٥٧١
سورة الناس	٥٩٥	سورة والعصر	٥٧٣